سُورية

من الحرب والمجاعة إلى مؤتمر الصلح

الدكتور خليل سعاده

سورية

من الحرب والمجاعة إلى مؤتمر الصلح

المجلد الأول

إعداد وتقديم

سليم مجاعص

بدر الحاج



مؤسسة سعادة للثقافة

الدكتور خليل سعاده

سورية من الحرب والمجاعة إلى مؤتمر الصلح

المجلّد الأول

إعداد وتقديم: سليم مجاعص وبدر الحاج

مؤسسة سعاده للثقافة

بناية رسامني، شارع الحمرا، رأس بيروت، صندوق بريد: 5557-113 بيروت – لبنان.

هاتف: 753363 (1-00961) - فاكس: 753364 (1-00961)

البريد الإلكتروني: saadehcf@idm.net.lb - الموقع الإلكتروني: www.saadehcf.org

فايس بوك: www.facebook.com/saadehcf - تويتر: www.twitter.com/saadehcf

ـ صورة الغلاف: الدكتور خليل سعاده في سان باولو، مطلع الثلاثينات من القرن العشرين.

ـ الصورة في الصفحة المقابلة: الدكتور خليل سعاده في القاهرة، العقد الأخير من القرن التاسع عشر، تصوير م. صابونجي.

ـ خطوط الغلاف: أمين فحص.

الطبعة الأولى، بيروت 2014

ISBN: 978-9953-419-44-2

Dr. Khalil Saadeh

Syria from War and Famine to Peace Conference

Volume I: Edited & Introduced by Salim Mujais & Badr El-Hage

First edition 2014

ISBN: 978-9953-419-44-2



رسم من ضحى بعمر خادما   وطنا تغذيه انفاس الخليل
خدم الاجيال في استقلالها   رب جيل يذكر الجهد الجليل

المحتويات

توضيح **11**

خليل سعاده: سيرة مختصرة **13**

خليل سعاده ومناهضة الانتداب الفرنسي في المهجر **15**

خليل سعاده في الوثائق الديبلوماسية الفرنسية **45**

كتابات في الأرجنتين – فظائع الحرب **61**

– خطب لبنان وسوريا [1] 63

– خطب لبنان وسوريا [2] 72

– خطب لبنان وسوريا [3] 91

– خطب لبنان وسوريا [4] 96

– نكبة لبنان وسوريا 100

من الجامعة السورية إلى الجالية **105**

– تأسيس الجامعة 107

– نداء إلى الجالية [1] 109

– حال الوطن والإعانات المالية، كتاب الرسالة الأميركية إلى صاحب المجلة 112

– نداء إلى الجالية [2] 118

– نداء إلى الجالية [3] 121

– الجامعة السورية 124

– نداء إلى الجالية [4] 128

كلمات وخطب وردود	**129**
– إلى المشتركين الكرام	131
– كلمة في احتفال الجالية لإغاثة منكوبي الوطن	138
– خطاب صاحب المجلة	141
– كلمة في احتفال جمعية «الاتحاد اللبناني»	145
– كتاب مفتوح إلى السوريين واللبنانيين والفلسطينيين	148
– بسط وإيضاح	156
– كلمة في افتتاح المؤتمر الأول للحزب الديمقراطي الوطني	171
– من الحزب الديمقراطي الوطني إلى السوريين واللبنانيين والفلسطينيين في المهاجر والوطن	184
– رد على القنصل الفرنسي في بونس أيرس	187
– كتاب مفتوح إلى المعتمد الفرنساوي في تشيلي	188

«المجلة»: الحرب الكبرى وتطور المسألة السورية	**197**
– فجر السنة الثانية للمجلة	199
– السنة الثالثة للمجلة	205
– السنة الرابعة للمجلة	209
– تحرير سوريا ولبنان	213
– على ضريح الدولة العثمانية (شعر منثور)	216
– تطوّر المسألة السورية	224
– جهادنا في سبيل الاستقلال	227

كتابات في البرازيل سلسلة سورية وفرنسا ومؤتمر الصلح	**231**
1– في أوائل حرب الأمم	233
2– سلة المهملات	236
3– قصاصتنا ورق	240
4– أمام رقعة الشطرنج	243

5- ثلاث سياسات في ثلاث سنين 246
6- بروز فيصل 246
7- في المركب الشراعي 254
8- جرائد المهاجر تدير الرأي العام في سوريا 257
9- من الملوم: أوزارة الخارجية أم الجمعية المركزية؟ 260
10- الساحر في مدينة مسحورة 262
11- اقتراحنا والمناداة باستقلال سورية 267
12- سورية ولبنان في مجلس الأمة الفرنسية 271
13- ميلران يحاول تبرير نفسه 275
14- الساسة العميان 279
15- اكتشاف طرق أخرى لتعمير البلدان غير ذبح السكان 282
16- القوة أساس احترام الإستقلال 289
17- المذابح اللبنانية 294
18- مسؤولية فرنسا في المذابح اللبنانية 298
19- عواقب المذابح اللبنانية 301
20- أتعس مظاهر فرنسا في الشرق 303
21- إجماع السوريين على كره فرنسا 305
22- مؤتمر سان ريمو 308
23- تساقط صناديق الكرتون 310
24- نتيجة مؤتمر سان ريمو 312
25- إكتشاف الشرق 314
26- بين التاج والوصاية 316
27- النمر تتحفز للوثوب 318
28- الدسائس لاغتيال فيصل 320
29- فيصل يشعر بالخطر على حياته 322
30- أسباب الهجوم الفجائي 324
31- السوريون تجاه الإنذار النهائي 326
32- المؤتمر السوري يلغي قرار فيصل 328
33- ثورة دمشق 331
34- خيانة فرنسا 333

35– الزحف على دمشق 335
36– نموذج من تقاليد فرنسا الكريمة 337
37– عقم سياسة فرنسا 339
38– مكره أخاك لا بطل 341
39– أتراك آسيا وأتراك أوروبا 343
40– في ميسلون 345

أمين ارسلان والقضية السورية 347
– [1] 349
– [2] 353
– [3] 357
– [4] 361
– [5] 365

مصادر الكتاب 369

فهرس الأسماء 377

مدخل

هذا الكتاب هو الجزء الأول من كتابات للدكتور خليل سعاده نشرت في المهجر الأميركي الجنوبي. لا يزال القسم الأكبر من هذه الكتابات مجهولاً في الوطن حتى يومنا هذا. لذلك يسرّ مؤسسة سعاده للثقافة أن تضع بين أيدي المواطنين هذه الاعمال التي توثّق لمرحلة هامة في تطور الفكر الوطني السوري في المهجر، وتلقي الأضواء على المواجهة التي قادها الدكتور سعاده في المغترب ضد احتلال سورية وتجزئتها بعد الحرب العالمية الأولى بمباركة عصابة الأمم.

إن قراءة هذه الكتابات اليوم، ورغم ما يقارب القرن على نشرها في المغترب، تؤكد على حقيقة أن المواجهة التي فجرها الدكتور سعاده في المغترب الأميركي الجنوبي ضد من احتل سورية وعملائهم من السوريين، لا تزال هي هي رغم مرور كل هذه السنوات. التبدل فقط في الأسماء.

إن ما يحدث اليوم في بلادنا يكشف على أن المصالح الاستراتيجية للقوى الاستعمارية المهيمنة هي التي تحدد بنسبة كبيرة مسيرة مجتمعنا المفككة والمشرذمة. مثال بسيط حيث تتشابه فيه الأدوار بين الماضي والحاضر للقوى الاستعمارية هو فيما جرى في مطلع العشرينات من القرن الماضي حين أرسل المستعمرون الفرنسيون جيشاً ضخماً لاحتلال دمشق وتثبيت انتدابهم على سورية. كان قوام هذا الجيش من المرتزقة المجندين قسراً من مستعمرات المغرب العربي والسينغال وإضافة إلى المستعمرات الافريقية الفرنسية الاخرى. كانت نتيجة تلك الحملة ارتكاب مجزرة ميسلون ودخل نتيجة لذلك غورو باشا الغازي دمشق. واليوم نرى المشهد عينه يتكرر أحفاد غورو وغيرهم يجندون آلاف المرتزقة ويرسلونهم «لفتح دمشق». من شيراك إلى ساركوزي إلى هولاند النهج الاستعماري واحد بهدف استعادة أحلام غورو والثأر من صلاح الدين مجدداً.

لم تقتصر الأبحاث التي نشرها الدكتور سعاده على المواضيع السياسية فقط، بل شملت أيضاً أبحاثاً في التطور الاجتماعي والتقدم الفكري والآداب والتاريخ، وحلّل تحليلاً معمّقاً قضية التعصب الديني في بلادنا، وناقش مسألة الاستبداد والطغيان، وتابع بدقة انعكاسات

الحرب العالمية الأولى على سوريا، وأبدع في التصدي للانتداب وأدواته حتى الرمق الأخير.

لعل أفضل تلخيص لأعمال الدكتور سعاده ما أشار إليه أنطون سعاده الابن في الحلقة الأولى من سلسلة «جنون الخلود». «كانت مقالات الدكتور سعاده الصاعقية التي حمل بها على الخمول والخيانة والتذبذب في الوطنية والخنوع والاستسلام الاجنبي، وناقش فيها موقف المسيحيين في الاستقلال ومسألة لبنان، منذ عهد «المجلة» إلى «عهد الجريدة» في البرازيل، الصورة الأولى للأخلاق الوطنية الصحيحة المنزهة عن كل مأرب خصوصي التي عرفها المهاجرون، وكان من سوء حظ المقيمين ألا يعرفوها حتى سنوات قلائل مضت، والقوة الفكرية الموجهة للأدباء والشعراء والنور الذي قدسوا منه واستناروا به في أدبهم وشعرهم الوطنيين».

تستند مواد هذا المجلد إلى مختارات من كتابات للدكتور خليل سعاده نشرها في مجلة «المجلة» التي أصدرها في بونس أيرس ما بين 1914–1920، إضافة إلى مختارات مما نشره أيضاً في جريدة «الجريدة» التي أصدرها في سان باولو ما بين 1920–1922.

تنحصر هذه المختارات في عدة مواضيع أبرزها موقفه من الانتداب على سورية واعتماد سياسة تمزيقها إلى دويلات على أسس طائفية، إضافة إلى نشاطاته في الأرجنتين خلال الحرب العالمية الأولى التي انحصرت في تنظيم الجالية السورية استعداداً لموقف سوري موحد يطالب بالاستقلال الكامل بعد انتهاء الحرب.

هنا تتوجب الإشارة إلى أن هناك أعداداً مفقودة من «المجلة» و«الجريدة» لذلك تعذر علينا إبراز صورة كاملة لنضال الدكتور سعاده في المهجر الأميركي الجنوبي، إلا أن هذا النقص لا يحول دون معرفة الخطوط العريضة لتفكيره الوطني الاستقلالي في حقبة شهدت تنافساً شديداً بين عملاء فرنسا المنادين بالحماية والانتداب من جهة، وبين الخط الاستقلالي المطالب بالحرية الكاملة.

ملاحظة أخيرة هي أن بعض أعداد «الجريدة» التي استندنا إليها قد تعرض للتلف الجزئي، لذلك قمنا بوضع علامات استفهام في بعض المقاطع المفقودة أو غير الواضحة، فاقتضى التنويه.

إن مؤسسة سعادة للثقافة تشكر غسان الأشقر لتقديمه مجموعتي «المجلة» و«الجريدة» اللتين هما المصدر الرئيسي لهذا المجلد.

الناشر

خليل سعاده: سيرة مختصرة

ولد خليل سعاده في بلدة الشوير من أعمال جبل لبنان سنة 1857 وتلقى علومه الإبتدائية في مدرسة المبشرين الإسكتلنديين في القرية، ثم انتقل إلى مدرسة عبية الشهيرة التي كان الدكتور فانديك من أبرز ركائزها. وبعد أن أنهى دراسته الثانوية التحق بالكلية السورية الإنجيلية في بيروت (الجامعة الأميركية حاليا) وتخرج بعد ثماني سنوات حائزا شهادة الطب بتفوق. وخلال دراسته في الكلية اشترك في الثورة الطلابية سنة 1882 واطلع مليا على النظرية الداروينية.

بعد تخرجه اشترك مع الشيخ ناصيف اليازجي والدكتور بشارة زلزل بتحرير مجلة «الطبيب» حيث أظهر المحررون جهداً علمياً وأدبياً تقدمياً إنشائياً في التعريف بالعلوم والآداب العصرية وارتقاء التفكير العلمي واللغة العلمية. لكن صعوبات سياسية أجبرت المحررين الإعتزال بعد سنة من بدء عملهم.

مارس الدكتور سعاده الطب عيادياً حتى سنة 1890 عندما التحق بالبعثة الإسكتلندية في طبريا ومن ثم كان الطبيب الرئيسي في مركزها في صفد واستمر في عمله حتى سنة 1895 حين استقال وعاد إلى بلدته الشوير حيث تزوج من السيدة نايفة نصير ورزق منها عدد من البنين من بينهم أنطون سعاده مؤسس الحركة السورية القومية الإجتماعية. وسنة 1895 أنهى الدكتور سعاده باكورة أعماله الأدبية رواية يوليوس قيصر وكليوبترا بالإنكليزية التي طبعت في لندن وأهداها إلى زوجته.

أما في المجال المهني، فقد عاد الدكتور سعاده إلى الجنوب السوري والتحق بالمستشفى الإنكليزي في القدس وعمل فيه لمدة أربع سنوات. خلال إقامته في القدس، إشترك الدكتور سعاده في أعمال محفل البنائين الأحرار وكان أولاً سكريتيراً للمحفل ومن ثم رئيساً له. غادر الدكتور سعاده القدس إلى مصر ومارس الطب هناك واتصل بالمثقفين والنخب الفكرية والسياسية من سوريين ومصريين. وخلال إقامته في مصر ظهرت مواهبه الأدبية (نشر روايتين:

أسرار الثورة الروسية وأسرار الباستيل) واللغوية (نشر قاموساً موسوعياً من الإنكليزية إلى العربية) والسياسية (أسس بالإشتراك مع الدكتور شبلي الشميل حزباً إشتراكياً).

لكن نمو الضغوط على السوريين في مصر ووفاة زوجته دفعته إلى الهجرة إلى الأرجنتين. بعد وصوله إلى الأرجنتين، عمل الدكتور سعاده في أوساط الجالية السورية اجتماعياً وثقافياً فأسس الجامعة السورية للعناية بشؤون السوريين المهاجرين وأنشأ مجلة «المجلة» إبتداء من حزيران 1915 حيث عالج المواضيع الثقافية والإجتماعية والعمرانية المعنية بحال السوريين ومستقبلهم. كما ساهمت «الجامعة السورية» بأعمال إغاثة الوطن خلال المجاعة الكبرى التي حصدت العديد من السوريين خلال الحرب العالمية الأولى.

ومع تطور الأحوال السياسية والحربية في الشرق الأدنى، أسس الدكتور سعاده الحزب الديمقراطي الوطني للعمل لاستقلال سورية بعد الحرب، ثم جهاراً بعد أن انتهت الحرب. وكان من الطبيعي أن يصطدم الدكتور سعاده مع فرنسا وعمالها بسبب إصراره على الإستقلال التام الكامل بدون وصاية أو حماية أو رعاية أو غير ذلك من العبارات التمويهية، واستمر الدكتور سعاده بهذا العمل على صفحات «المجلة» حتى أواخر عام 1919، وعبر تنظيم التعاون بين منظمات الجاليات السورية في أميركا الجنوبية، وعقد مؤتمر وطني في الأرجنتين، ورفع المذكرات والبرقيات إلى مؤتمر الصلح والمراجع المعنية.

وفي أوائل عام 1920، انتقل إلى البرازيل حيث أصدر جريدة «الجريدة». والتحق به إبنه أنطون سعاده في عام 1921 الذي قام تدريجياً بمساعدة والده عملياً والتدرب الفكري السياسي على يده. ومع بداية عام 1923، أوقف الدكتور سعاده جريدة «الجريدة» وأعاد نشر مجلة «المجلة» حتى عام 1925. وخلال مكوثه في البرازيل، ترأس الدكتور سعاده محفل البنائين الأحرار المسمى نجمة سورية لكنه استقال منه بعد أن تبين له أن ذلك المحفل غير مؤهل للإهتمام بالقضية الوطنية. وقام الدكتور سعاده في أواخر حياته برئاسة تحرير منشورة «الرابطة» الصادرة عن الرابطة الوطنية السورية في البرازيل التي كان ولده أنطون قد أسسها ثم تدريجياً انفصل عنها. وتابع الدكتور سعاده على صفحات «الرابطة» جهاده في سبيل القضية السورية وحرية أمته حتى وافته المنية في نيسان سنة 1934.

الدكتور خليل سعاده
ومناهضة الانتداب الفرنسي في المهجر

الغرض من الكتاب الحالي التنوير على جهود الدكتور خليل سعاده في مناهضة الإنتداب الفرنسي في المهجر، وبالتالي التأريخ لحقيقة الموقف السوري من فرنسا في المغترب بما يخالف الرواية الإحتفالية بفرنسا محررة الشعوب، أو الرواية المناقضة المحتفلة بدورها بأقزام الفكر من مثل الشاعر القروي والشاعر فرحات أو المستفيدين السياسيين من مثل أمين إرسلان وشكيب إرسلان. وهذا التنوير يفيدنا في غرض آخر وهو وضع مناهضة أنطون سعاده للإنتداب الفرنسي في سياقها التاريخي وتوضيح مقدماتها الفكرية والسياسية. والغرض الثاني مرتبط بالغرض الأول لأن فهم موقف أنطون سعاده من هذا الإنتداب عينه وأصول إتجاهه القومي الدقيق مرتبطة إرتباطاً وثيقاً بموقف والده وتدبر موقف الأخير معين لنا في الإحاطة بفكر أنطون سعاده. وفي هذا الزمن الذي تكثر فيه الكتابات عن البطولات المزيفة وأبطال الإستقلال القزميين، لا بد من مسار تصحيحي للتزوير التاريخي المتفشي عبر التأريخ للأبطال المنسيين في حلبة الصراع القومي، من هنا كان أيضاً سبب الإهتمام بالدكتور سعاده. وتؤمن لنا متابعة مناهضة الدكتور سعاده للإحتلال الفرنسي لسورية فرصة النظر إلى أحداث تلك الفترة من التاريخ السوري من منظار مغاير للرواية التقليدية، وتقديم تقييم جديد لعدد من «أبطال العبودية»، والبحث في الفرص التاريخية الضائعة.

الدكتور سعاده وفرنسا: بدايات

لوضع مناهضة الدكتور سعاده للإنتداب الفرنسي في موقعها الصحيح، لا بد من بحث بعض المقدمات الفكرية والسياسية والشخصية التي تفيدنا في تعيين أسباب هذه المناهضة. وعلينا

مباشرة التصريح أن مناهضة الدكتور سعاده للإنتداب الفرنسي ليست بسبب عداوة سابقة لفرنسا أو موقف سلبي تجاهها لموقعها التاريخي أو دورها الأوروبي، بل أن عكس ذلك هو الصحيح، أي أن الدكتور سعاده، شأنه شأن غيره من مفكري أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين في سورية من مثل شبلي الشميل وفرح أنطون وغيرهما، كان يرى في الثورة الفرنسية صفحة مضيئة في التاريخ الانساني يستلهمها المصلحون الإجتماعيون والسياسيون في سورية في سبيل إصلاح حال بلادهم.

موقف الدكتور سعاده من الثورة الفرنسية

في عام 1905، ينشر الدكتور سعاده روايته الأولى باللغة العربية: أسرار الثورة الروسية[1]. ويحدثنا في المقدمة عما حداه للغوص في هذا الموضوع الروائي:

«سيكون للثورة الروسية التي لا تزال حتى الساعة نارها في اضطرام وأوارها في استعار من تغيير شؤون الجنس البشري ونهضة الأمم ما كان لشقيقتها الثورة الفرنساوية في أواخر القرن الثامن عشر من الضرب على يد الجور الأثيمة وكسر أغلال الظلم وقيود الاستبداد والخروج ببني الإنسان من دياجير الجهل والأوهام إلى فضاء الحرية ومناهل العمران...»

وقد أتبع الدكتور سعاده كتابه في الثورة الروسية بكتاب عنوانه أسرار الباستيل ضمنه تفاصيل القمع والاستبداد في الحقبة الملكية من تاريخ فرنسا. ويشكل الكتابان موقفاً مبدئياً من الإستبداد في الإنسانية عامة. ولا شك أن الإستبداد الذي كان المفكرون السوريون الأحرار يرونه في سورية كان حافزاً لهم في بحث مسائل الإستبداد العام. والثورة الفرنسية تمثل فعل انتفاض على الإستبداد. ولما لم نتمكن من الحصول على كتاب الدكتور سعاده الخاص بأسرار الباستيل، وجب علينا الإستعاضة عنه بما كتبه صاحبه في فترة لاحقة.

يقول الدكتور سعاده في مقالة «عيد 14 يوليو» الصادرة في العدد 38 من الجريدة بتاريخ 23 تموز 1921: «إحتفلت الأمة الفرنسية في الرابع عشر من الشهر الحالي بعيد حريتها وهو اليوم الذي هدم فيه أبناء فرنسا الحقيقية الباستيل ذلك الحصن الذي بني بالاستبداد وقام

---

1 الدكتور خليل بك سعاده: أسرار الثورة الروسية، رواية تاريخية عصرية، مطبعة التمدن بعابدين، 1905.

على الظلم وقد دونا ما كان يجري فيه من ضروب الجور في كتاب خاص سميناه «أسرار الباستيل»... إن عيد 14 يوليو يعد عيداً عاماً لكل الشعوب لأن فيه قام الشعب الفرنسي بالخطوة الأولى الفعالة لتقرير سيادة الشعوب على نفسها وإثبات مبدأ الديمقراطية بالقوة... من أجل هذه المآثر الشريفة والمبادئ النبيلة ظل العالمٍ يحترم فرنسا ويحبها حتى انعقاد مؤتمر الصلح ومن أجل تلك الثورة الخالدة التي أقرت مبدأً جديداً خالداً هو مبدأ الحرية والإخاء والمساواة تحسب الأمم عيد 14 تموز عيداً عاماً لها كلها. وكان للثورة الفرنسية المشار إليها من الخطورة أن العلماء يحسبونها حداً فاصلاً بين التاريخ المتوسط والتاريخ الحديث...»[2].

وخلافاً لرأي إبنه أنطون في الثورة الفرنسية[3]، لم يبدل الدكتور سعاده من موقفه المبدئي رغم ما شاهد من تعسف فرنسا وطغيانها في سورية. لكنه قارن بين فرنسا كما تصورها أحرار العالم وفرنسا كما ظهرت بعيد الحرب العالمية الأولى: «كان الباستيل رمزاً لقوة الاستبداد لذلك كان سقوطه بدء عصر جديد ونهضة حية في تاريخ فرنسا خصوصاً والعالم عموماً ولكن يظهر ان الحجارة التي تبقت منه في باريس حملها غورو معه إلى سورية وأعاد فيها بناء الباستيل... ولكن كما هدم الباريسيون باستيل لويس السادس عشر كذلك سيهدم السوريون باستيل غورو! إن فلسفة القوة التي استعملها الشعب الفرنسي ضد حكومته سوف تستعملها مستعمرات فرنسا في الشرق ضد حكومة فرنسا وكما رقص الباريسيون على خرائب باستيل الغرب سوف يرقص الشرقيون على خرائب باستيل الجزائر ومراكش وتونس ولبنان وسورية. رأت فرنسا القرن الثامن عشر أن ترفع للأمم منار الحرية وتضرب بسيفها في سبيل الديمقراطية. أما فرنسا القرن العشرين فانها تتخذ ذرائع التمدن الحديث لتكبيل الامم بسلاسل العبودية، تستعمل مدافعها ودباباتها وطياراتها وغازاتها السامة في سبيل القضاء على حرية الامم الشرقية»[4].

2 «عيد 14 يوليو» الجريدة، العدد 38، سان باولو، بتاريخ 23 تموز 1921.

3 أنطون سعاده: الثورة الفرنسية، الأعمال الكاملة، المجلد الأول، مؤسسة سعاده للثقافة، بيروت، 2001. ص 46-56.

4 «عيد 14 يوليو»، مصدر سبق ذكره.

الحادث مع القنصل الفرنسي في بيروت

سنة 1909، عاد الدكتور سعاده إلى لبنان من مركز عمله الطبي في مصر في زيارة قصيرة وباشر التحضير لبناء مستشفى متخصص في رعاية المصابين بمرض السل. وكان قد كتب حول هذا المرض على صفحات مجلة الطبيب ونشر كتاباً حول هذا المرض والأساليب الحديثة لعلاجه[5]، وكان يتوق إلى أن يجلب منافع الابتكارات الجديدة في العلاج لمواطنيه. وكانت مدينة بيروت بحاجة إلى المرافق الطبية بشكل عام، فقد كانت هناك ستة مستشفيات صغيرة في 1895 وعدد الأطباء لا يفوق الخمسين لمدينة يزيد عدد سكانها على مائة ألف[6]. ويتزامن مشروع الدكتور سعاده مع قيام الدكتورة الأميركية ماري إدي (Mary Eddy) بتأسيس مصح في جبل لبنان للغاية نفسها بفضل تبرعات أميركية[7].

لجمع الأموال لمشروع الدكتور سعاده، أقيمت حفلة تمثيل مسرحية يوليوس قيصر لشكسبير وطرحت التذاكر للبيع. وأرسل الدكتور سعاده بطاقات إلى عدد من القناصل الأجانب، من بينهم القنصل الفرنسي، والمثرين المحليين وأرفقها بعنوان إعادة البطاقة إذا كان المستلم لا يريد حضور الحفلة أو المساهمة بمشروع المستشفى. وقد تخلف عدد من المثرين المحليين والقنصل الفرنسي عن الحضور وأعاد بعضهم البطاقات بعد مرور موعد المسرحية. ولم يرد الدكتور سعاده أن يتناول هذا العمل اللاأخلاقي من قبل مواطنيه ترفعاً. لكنه ظن أن القنصل الفرنسي الذي لم يُعِد البطاقة لم يتمكن من الحضور لسبب ما ولم يخطر بباله أن القنصل لا يريد دفع الثمن الزهيد نسبياً. فقام الدكتور سعاده بزيارة للقنصلية الفرنسية بعد مرور ثلاثة أسابيع على موعد المسرحية لشكر القنصل على مساهمته، لكنه لم يحظ برؤية القنصل. عندما اتصل لاحقاً رسول من قبل الدكتور سعاده وسأل القنصل عن ثمن التذاكر، رفض القنصل بغطرسة استعمارية مميزة أن يدفع. عندما علم الدكتور سعاده بوقوع

---

5 الدكتور خليل سعاده: السل الرئوي والوقاية منه، مطبعة المعارف، القاهرة، 1906.

6 Issawi, Charles: The Fertile Crescent 1800-1914: A Documentary History, Oxford University Press, 1988, p 19.

7 وكان والدا الدكتورة إدي من المبشرين الانجيليين وقد أمضت معظم حياتها في سورية تهتم بصحة نساء سورية والمصابين بمرض السل.

الحادث، أرسل بسرعة مقالاً إلى ناشر جريدة لسان الحال خليل سركيس ذاكراً فيه التفاصيل المتعلقة بالقضية ومندداً علناً بالقنصل لغطرسته. وقد نشر الكتاب في الصفحة الثانية من عدد 14 كانون الأول 1909. ذكر الدكتور سعاده القنصل أن العدالة الفرنسية هي ما يعلو في قاعات القنصلية الفرنسية وليس الفردية الاستبدادية. وأشار إلى أن القنصل هو ممثل لأمة محبوبة ومحترمة لأنها ضحت بالكثير لأجل التمسك بمبادئ العدالة وأن تصرفاته تتناقض مع المثل العليا للأمة التي يمثلها. وذكر الدكتور سعاده القنصل أن القيمة النقدية للتذاكر متواضعة (3 جنيه إسترليني) لرجل في مكانته، ولكن الإهانة الأخلاقية هي الأعظم.

في الفقرة الختامية لهذه الرسالة كتب الدكتور سعاده: «متى قرأت هذا، فاذكر في هدوء الليل ورأسك على وسادة السرير والطبيعة ساكنة، حين تناجي تلك القوة الأدبية التي يسميها الناس ضميراً أنك قد أسأت إلى المريض الفقير البائس. وأريد أن تذكر يا مولاي علاوة على هذا أن الجواب الذي بعثته به إلي لا يليق بممثل أمة عظيمة كريمة الأخلاق تعطف على الضعفاء كالأمة الفرنساوية الشريفة. واذكر أيضاً، يا مولاي، أن في السوداء رجالاً، وأن هؤلاء الرجال مساوون لك في الشرف والعزة وأنه لا يليق بك وبهم أن تخاطبهم باللهجة التي تخاطب بها مستخدميك. واذكر، يا مولاي أيضاً، أن الرجل الذي هو حقيقة قوي إنما هو الرجل الأقوى من غيره على نفع أبناء جنسه وتخفيف ويلات البشرية. ولا تنسى أيضاً في الختام أن زمن الإرادات المطلقة قد انقضى منذ عهد طويل...»[8].

ومن المفيد هنا النظر إلى الخلفية النفسية لهذه المواجهة كما لخصها لنا أنطون سعاده في ذكرى وفاة الدكتور سعاده سنة 1942: «رأى الدكتور خليل سعاده أن موقف قنصل فرنسة قد تعدى مسألة حساب مالي بسيط كان يجب أن يصفى في المقابلة الأولى مع أحد أفراد اللجنة إلى مسألة نفوذ أجنبي وامتيازات أجنبية لا تريد أن تراعي كرامة الوطنيين وحقوقهم وشعورهم، فرأى أن صدم النفوذ الأجنبي ورفع شعور الكرامة الوطنية لازمان وضروريان»[9].

كان النفوذ الفرنسي في بلاد الشام في تصاعد منذ بداية القرن العشرين، وكان القنصل

8 لسان الحال، العدد 5917، بيروت، 14 كانون الأول 1909. ص 2.

9 أنطون سعاده: ذكرى الدكتور خليل سعاده، الاعمال الكاملة، الجزء السابع، مؤسسة سعادة للثقافة، بيروت، 2001. ص 33.

الفرنسي على نحو متزايد من القوة ولا يستهان به في شؤون بيروت وجبل لبنان. ولا مبرر للتخفيف من أهمية هذه المواجهة عبر خلو الصحف في تلك الفترة من المتابعات[10] فالقناصل الأجانب كانوا يتقنون السعاية الخفية دون الحاجة إلى لمعان الخطب والمقالات المدبجة. كما أن هنالك أمثلة عديدة من تدخل القناصل لحمل البعض على مغادرة البلاد كما حصل خلال المواجهات سنة 1911 بين الماسونيين واليسوعيين[11]. ولن يكون القنصل الفرنسي في بيروت آخر القناصل الفرنسيين الذين سوف يواجههم الدكتور سعاده بل سيتبعه قناصل فرنسا في الأرجنتين والبرازيل وتشيلي.

الحرب الكبرى ومؤتمر الصلح

خلال الحرب العالمية الأولى، كان الدكتور سعاده يتحدث عن مآسي «الحرب الأوروبية» وعن دور ألمانيا في دفع أوروبا لسنين عديدة في اتجاه السلم المسلح الذي قاد في نهاية المطاف إلى تلك الحرب القصوى. ويكاد المرء يستشف من خلال بعض تلك المقالات أن الدكتور سعاده يميل إلى تأييد «الحلفاء» في وجه الجبروت الألماني. لكن الدكتور سعاده كان حريصاً على أن لا يأخذ موقفاً معيناً من التنازع الأوروبي قد لا يفيد قضية بلاده. بل إننا نراه لا يأخذ موقفاً علنياً عدائياً من السلطنة العثمانية متلافياً «البطولة الصحفية» التي قد تؤدي إلى نتائج وخيمة في الوطن حيث يستطيع «النمر التركي» أن يعيث ظلماً وإجراماً بحق السوريين العزل. لكن جهود فرنسا في استمالة السوريين إلى جانبها وسعيها لدور بارز في الشرق الأدنى في تنافسها مع بريطانيا سوف تصل إلى الجالية السورية في أميركا اللاتينية وتدفع ببعض السوريين إلى الوقوع في شبك الدعاية الفرنسية.

في آب من عام 1917، وصل مبعوثان من باريس إلى البرازيل يمثلان اللجنة المركزية السورية برئاسة شكري غانم. وكانت مهمة المبعوثين تنظيم جهود الجاليات السورية في الخارج تحت

10 إنظر جان داية: الدكتور خليل سعاده: نتاجه الفكري وجهاده السياسي، فجر النهضة، لا مكان نشر، 1998، الصفحة 17.

11 Troisième Congres de la Ligure Française antimaçonnique. Revue Antimaçonnique, Deuxième Année, 1912, pp 165-173.

رعاية فرنسية بما في ذلك تسجيل المتطوعين للقتال ضد القوات العثمانية. وكان من المفهوم طبعاً أنه إذا نجح الحلفاء وهزموا القوات العثمانية، سترعى فرنسا وتضمن استقلال سورية. وكانت الجمعية الوطنية في سان باولو ورئيسها نعمة يافث قد أعلنوا تكراراً تأييدهم التام لخطة عمل شكري غانم واللجنة المركزية السورية في باريس. وكان نعمة يافث قد أقام استقبالاً حافلاً للمبعوثين الباريسيين في أيلول 1917 تحت رعاية السفير الفرنسي كلوديل[12] الذي أكد على ضرورة قيام السوريين بتضحيات توازي تضحيات فرنسا في سبيلهم وأن عليهم تأييد مبعوثي اللجنة المركزية السورية. لكن يبدو أن أحداً لم يسأل السفير الفرنسي ما هي حقاً تضحيات فرنسا تجاههم فإلى ذلك التاريخ لم تكن فرنسا قد قامت بأي عمل في سبيل السوريين سوى معاهدة سايكس بيكو ومنافسة الانكليز سياسياً على حقوقها في سورية دون أي مجهود حربي يذكر على جبهة الشرق الأدنى! ويبدو أن هذا السؤال لم يخطر على بال نعمه يافث حين توجه إلى السفير بقوله: «ها هم الحلفاء الباسلين، أبطال الحق والعدالة، يؤكدون أن هدفهم من الحرب هو إعتاق الشعوب المستضعفة وتسهيل وصولها إلى الحرية والرخاء، بتعيين فرنسا العظمى، فخر الإنسانية ومآل المحرومين، لتحريرنا من الطوق التركي الظالم ومساعدتنا بعد التحرير في تقرير أفضل نظام حكومي يتوافق مع حالتنا السياسية والاجتماعية والأخلاقية». وكان على يافث أن يسأل الجنرال أللنبي عن مآتي جند فرنسا في تحرير الأرض السورية! وتبرع يافث في ذلك الحفل بمبلغ ستين ألف فرنك فرنسي لدعم حركة التطوع[13].

وكان السفير الفرنسي بالطبع يرسي أسس العلاقات بين فرنسا وسورية: إستقلالكم هو حق تمنحكم إياه فرنسا. في المقابل عليكم دعم فرنسا خلال الحملات العسكرية حتى يتم لها النصر الكامل! وكانت جهود المبعوثين محدودة النجاح إذ تتطوع عدد قليل من السوريين من البرازيل وانضموا فعلاً إلى القوات الفرنسية، تم تدريبهم في قبرص، وشاركوا في القتال في فلسطين وجرح عدد قليل منهم.

12 La Correspondance d'Orient. Revue économique, politique et littéraire, 10 Année, No. 174, 25 Sept., 1917, pp 186-187.

13 Ibid, 10 Année, No. 177, 10 Novembre, 1917, pp 284-285.

واصل المبعوثان رحلتهما إلى الأرجنتين، مركز عدد كبير من المهاجرين السوريين. في بوينس ايرس، طلبوا من الأمير أمين إرسلان[14] التوسط مع الدكتور سعاده لتحويل الجامعة السورية إلى جمعية تطلب الحماية الفرنسية على سورية. لكن الدكتور سعاده رفض هذا الطلب[15].

أثار فشل المبعوثين في الأرجنتين حملة مسعورة من اللجنة المركزية السورية في باريس التي أخذت تنعت كل من لا ينطوي تحت لوائها بنعوت الخيانة لفرنسا وللوطن، لكن لفرنسا أولاً! ومنذ ذلك الحين بدأت سياسة التعتيم على الآراء المخالفة التي سنرى مداها الأوسع خلال مؤتمر الصلح. والدليل على سياسة التعتيم هذه لا يأتي فقط من الدكتور سعاده بل نجد ذكراً لهذه السياسة في الصحف الفرنسية أيضاً من مثل ما كتبه رئيس تحرير صحيفة «الشرق العربي» (L'Orient Arabe) عن صدى زيارة المبعوثين للأرجنتين وحملة اللجنة المركزية السورية على معارضيها[16].

وعند تبدل السفير الفرنسي في الأرجنتين، وصلت إلى الدكتور سعاده رسالة من صديق في باريس يعلمه أن وزارة الخارجية الفرنسية زودت السفير الجديد بعدد من أسماء السوريين في الأرجنتين الذين يطلب مخابرتهم في أمور سياسية تهم فرنسا وسورية. فقام الدكتور سعاده بزيارة السفير الفرنسي الجديد للتعارف. وفي الأسبوع التالي، زار الدكتور سعاده السفير مجدداً وفي ذلك الاجتماع أخذ السفير على الدكتور سعاده عدم مهاجمة الأتراك على صفحات المجلة. فتبين للدكتور سعاده ان هناك سعاية سوء وأثر عمل الوشايات السياسية. وأصر السفير على وجوب مهاجمة الأتراك على صفحات المجلة ووجوب قيام السوريين بنصيبهم من مؤازرة الحلفاء. فأوضح له الدكتور سعاده محاذير ذلك وأن مجرد الهجوم على الأتراك على صفحات الجرائد عمل عقيم وأن توهم فرنسا أن على السوريين القيام بثورة ضد الأتراك وهم «جياع عراة عزل» نوع من الانتحار القومي. وأظهر السفير بعض التفهم لموقف

---

14 كرس الدكتور سعاده سلسلة من مقالاته على صفحات جريدة «الجريدة» لأمين إرسلان الذي نعته سعاده بخصمه في السياسة «لأن السنتين الأخيرتين إثناء إقامتنا في بونس أيرس كانتا نزاعا دائما وخصومة سياسية مرة بيننا وبينه... [وهو] الرجل الذي خدم فرنسا في المسألة السورية بجهد جهيد».

15 تفاصيل هذا الأمر ومقابلات الدكتور سعاده مع القنصل الفرنسي مفصلة في سلسلة مقالات للدكتور سعاده في الجريدة تحت عنوان «أمين إرسلان والمسألة السورية» ويمكن مراجعتها في هذا المجلد، الصفحات 353-369.

16 L'Orient Arabe, Deuxieme Annee, No. 17, 15 Aout, 1918.

الدكتور سعاده، لكنه سيجد في أمين إرسلان أداة ظنها صالحة لأغراض بلاده.

أبطال العبودية: أمين إرسلان

ويخبرنا الدكتور سعاده: «كان إرسلان خلال السنين الخمس التي أقمناها في بوينس أيرس منقطعاً عن الجالية السورية كل الانقطاع يتحاشاها كأنها مصابة بالطاعون ويقول فيها كل كلمة شريرة. فلما وصل غوسن بوينس أيرس وأدرك إرسلان أن سيكون للقضية السورية شأن خطير أخذ يبذل جهده ليبرهن للسفير أنه رجل الجالية وصاحب الأمر والنهي فيها تذرعاً لمنافع شخصية. بلغ الغرور من إرسلان أن جاء السفارة ذات يوم وادعى أنه يمثل الجوالي السورية في أميركا الجنوبية... وصرح بأنه يطلب باسم سوريي أميركا الجنوبية حماية فرنسا».

ولا شك أن تكون هذه الادعاءات قد راقت للسفير الفرنسي الذي قام بنشر تصريح إرسلان في إحدى أهم الصحف الأرجنتينية فساء ذلك الجالية والدكتور سعاده بالأخص الذي أظهر استياءه في خطاب في إحدى الحفلات الوطنية. وكان أن سعى عدد من أعيان الجالية بالاشتراك مع الدكتور سعاده بتحضير بيان يدحض ادعاءات إرسلان. ويبدو أن السفير علم بهذا الأمر فدعا الدكتور سعاده إلى مقابلته وطلب منه عدم نشر البلاغ لأن ذلك من شأنه إحراج السفير. فأجابه الدكتور سعاده إلى طلبه مقابل ادعاء السفير أنه لن يركن لتصريحات إرسلان. لكن تسارع الأمور بعد احتلال الحلفاء لسورية سوف يظهر أغراض فرنسا وأهمية مطالبتها الجمعيات السورية مهما كان شأنها اتخاذ مواقف علنية تدعم مطالب فرنسا في وجه المطامع البريطانية في الشرق الأدنى.

أما ما شاع عن أمين إرسلان من أنه ناهض العثمانيين من أجل نصرة السوريين عندما كان قنصلاً للسلطنة العثمانية في الأرجنتين، فكلام باطل يفنده الدكتور سعاده في مقالاته المنشورة في هذا المجلد.

بين عبودية الحماية وحرية الإستقلال

كان اندحار السلطنة العثمانية بمثابة فتح باب المضيق لعمل الدكتور سعاده السياسي العلني

الذي انطلق بحيوية نادرة وعزم باهر. ولا بد هنا من التبصر في أمر قد يثير بعض التساؤلات وهو لماذا لم يقارع الدكتور سعاده السلطنة العثمانية بمثل مقارعته الإمبراطورية الفرنسية. ولعل الجواب هو في الظرف التاريخي، ونوعية الخصم وصلاحية الأداة للمعركة. فمن البديهي أن سلاح الفكر السياسي لا يصلح في خضم حرب عالمية لمقارعة سلطنة جاهلية قامعة لا تتردد عن الانتقام الهمجي الذي يكلف الأرزاق والأرواح. وقد رفض الدكتور سعاده السير في ركاب الذين حاولوا ذلك. وقد كان الفرنسيون أول من عاب على الدكتور سعاده عدم وقوفه سافراً في وجه السلطنة العثمانية وقد مر معنا ذلك في حواره مع القنصل الفرنسي في الأرجنتين وسوف نعود إلى هذه المسألة حين نتناول أدناه المواجهة بين الدكتور سعاده والجمعية الوطنية السورية في البرازيل.

في العدد الأول بعد الهزيمة النهائية للجيوش العثمانية في سورية، كتب الدكتور سعاده في المجلة محدداً أحقية سورية بالاستقلال وأهليتها له مفنّداً الحجج التي كان يقدمها ممثلو الدول «الحامية» ومؤيدوهم حول عدم أهلية السوريين للاستقلال. ففي 15 تشرين الثاني 1918 تصدر مجلة المجلة وفي صدرها كتاب مفتوح إلى الجالية في العالم الجديد بقلم الدكتور سعاده. في هذا الكتاب المفتوح يهيب الدكتور سعاده بالسوريين التنبه إلى حراجة الزمن وعظم المسؤولية: مسؤولية الاستقلال ومداهمة الوقت مع اقتراب مؤتمر الصلح الذي سيبت بأمر المحافظات العثمانية التي انتزعها الحلفاء من قبضة الأتراك. وهو يفند حجج المستعمرين الجدد وحلفاءهم حول أهلية سورية للإستقلال رغم عدم مشاركتها فعلياً في قتال العثمانيين وعدم قدرتها تحت وطأة الحصار والتجويع من الانتفاض عليهم. ومداهمة الوقت عامل خطير: «أعرضوا عن هذه الصغائر وكونوا رجالاً أحراراً واعلموا أن هذه الفرصة السانحة الآن لم تسنح لكم مرة أخرى أبد الدهر فما يحكم به مؤتمر الحلفاء الآتي يحكم به إلى الأبد».

من الواضح بعد مرور ما يقرب من مئة عام أن استشراف الدكتور سعاده لنتائج المؤتمر كان صحيحاً. ويحمل الدكتور سعاده على المتخاصمين المطالبين بحماية هذه الدولة أو تلك أو المطالبين بالانضمام إلى هذه المملكة والمبشرين بعدم صلاحية السوريين للاستقلال التام.

كان الدكتور سعاده معارضاً شرساً لمبدأ الحماية والوصاية وسلاحه في ذلك مبدأ أهلية

السوريين بمواهبهم الخاصة وأهلية مثقفيهم وقادتهم في تسيير شؤون البلاد في عهد إستقلالي[17].
وكان الدكتور سعاده يعي أن الامور السياسية في تسارع عظيم مع قرب انعقاد مؤتمر الصلح وبداية الإتفاقات السياسية بين الدول المستعمرة المنتصرة في الحرب، وأن فرصة السوريين الوحيدة في هذه الحالة الحرجة هي في الاسراع بإعلان الإستقلال. وكان أيضاً مناهضاً لفكرة قيام مملكة سورية تحت الحكم الهاشمي فهو كان يدعو إلى قيام نظام حكم ديمقراطي.
وواجه الدكتور سعاده حجج الاستعماريين القائلة أن سورية لا تستطيع أن تشارك في ثمار النصر بحجة عدم مساهمتها في الجهد الحربي بإيضاح أن هذه الحجج غير منطقية إذ إن دعوة السوريين إلى الثورة وهم تحت الحكم التركي كانت بمثابة دفعهم في طريق الانتحار القومي.
ولأجل تحقيق الاستقلال وجب على السوريين التنظيم والاتحاد. ولأجل هذه الغاية، قدم الدكتور سعاده تصوره لهذا التنظيم وأداته عبر الحزب الديمقراطي الوطني.

ويخلص الدكتور سعاده إلى الدعوة إلى التنظيم: «الاتحاد المنظم أساس كل حركة سياسية خطيرة ترمي إلى غاية وطنية سامية كالغاية التي نسعى إليها الآن ألا وهي إحراز الاستقلال والجزم في نوع الحكومة التي نريدها لأنفسنا. لذلك رأينا أن تكون بوينس أيرس مركز حزب سياسي لأميركا الجنوبية له لجنة سامية منفذة غرضها الإتحاد المنظم، وقد مهدنا السبيل لهذه الخطوة منذ زمن دون ضجيج ولنا جمعيات في أميركا الجنوبية تشد أزرنا وتناصرنا في إحراز هذا المطلب الوطني».

ولا شك أن هذا الإعلان عمل صدامي من الدرجة الأولى في وجه ما أسماه الدكتور سعاده لاحقاً «أبطال العبودية»، أي اللجنة المركزية السورية في باريس ومؤيديها في الدعوة إلى استقلال تحت رعاية فرنسا. ولما لقي نداء الدكتور سعاده استجابة من الجمعيات المختلفة والأفراد في الأرجنتين وبوليفيا وتشيلي والاوروغواي والبرازيل[18]، بدأ أنصار فرنسا

---

17 وقد سار عدد من السوريين في المهجر على نمط الدكتور سعاده فكتب خيرالله طنوس خيرالله مثلا كتابا بالفرنسية يتناول فيه بالتفصيل الحجج التي قدمها الدكتور سعاده بتوسع وأمثلة. أنظر كتابه:

Khairallah, Khairallah Tannous: Le Problème du Levant. Les régions arabes libérées : Syrie, Irak, Liban. Lettre ouverte à la Société des nations. Editions Ernest Leroux, Paris, 1919.

18 المجلة، السنة الرابعة، الجزء التاسع عشر، بونس أيرس، 15 آذار 1919.

بعمل مضاد اضطر الدكتور سعاده إلى مواجهتهم تكراراً على صفحات المجلة.

ويعطي الدكتور سعاده تفصيلاً أوضح حول برنامج الحزب الديمقراطي الوطني في عدد 15 شباط 1919 «علم القراء... الغايتين الأساسيتين اللتين يسعى الحزب الديمقراطي الوطني إلى تحقيقهما وهما استقلال لبنان وسورية وفلسطين بعد إعادة الأول إلى حدوده الجغرافية الطبيعية استقلالاً تاماً مطلقاً تكون معه هذه البلدان مستقلة استقلالاً إدارياً تاماً وتعود في شؤونها إلى حكومة عامة على حد الولايات المتحدة؛ والثانية الجري في نظام حكومته على الخطة الديمقراطية العصرية وإزالة الفوارق بين طبقات الشعب وبسط سلطة الشعب على الحكومة وفصل الدين عن السياسة». فالدكتور سعاده إذاً يعين الأهداف عموماً في تأمين السيادة القومية واعتماد الحداثة في تنظيم الدولة لتأمين العدل الاجتماعي والعدل الحقوقي والعدل الاقتصادي.

ولعل أبرز الانتقادات وأهمها لدعوة الدكتور سعاده جاءت كما هو متوقع من الجمعية الوطنية السورية في البرازيل حليفة اللجنة المركزية السورية في باريس في المطالبة بالاستقلال تحت رعاية فرنسا. وكان المتحدث باسمها رشيد عطية صاحب جريدة فتى لبنان الصادرة في البرازيل. يكتب هذا الأخير:

«كانت جمعية سان باولو تعمل بجرأة وتواصل السعي في سبيل الاستقلال وكان أعضاؤها يحملون على الأتراك وأهلهم في الوطن عرضة للقتل والنفي والمشانق، في حين أن جالية بونس أيرس خلا بعض الأفراد لم تحرك ساكناً خوفاً من نقمة الأتراك بل إن الدكتور نفسه صاحب المجلة والاقتراح كان يتحاشى لمس الأتراك ولو من طرف خفي وهذه مجلته شاهدة عليه. فما باله قام الآن وأصلت سيفه على الترك واقترح جعل بونس أيرس مركزاً للجمعية... لماذا لم يدخل الدكتور ميدان الجهاد الوطني حين كان الجهاد خطراً حتى على أبطال الرجال؟ هل تراه ظل غافلاً سحابة ثلاثة أعوام ثم أفاق الآن بعد نضج الطعام ودخول الحلفاء إلى بلادنا وفوز الجمعية الوطنية ومريديها في جهادهم العظيم؟»

فماذا كان من أمر الدكتور سعاده والسلطة العثمانية؟

لقد بقي نشاط الدكتور سعاده السياسي قبل مغادرته مصر مجهولاً إلا من نتف قليلة ظهرت

في بعض كتاباته وهو موضوع حري بالدرس والإستقصاء. ومن المعلومات القليلة تعاونه مع الدكتور شبلي الشميل في تأسيس الحزب الإشتراكي، وعلاقاته مع بعض الساسة المصريين، ونشاطه في وسط السوريين المقيمين في مصر. فهو يخبرنا مثلاً في مقالة بتاريخ 16 كانون الاول 1920 في الجريدة بمناسبة تعيين حقي العظم حاكماً على سورية: «أعاد هذا النبأ إلى ذاكرتنا الإجتماع الأول الذي عقدناه وفريق من الأصدقاء في القاهرة للمداولة في شأن استقلال سورية وكان في الاجتماع المذكور عبد الحميد الزهراوي ورفيق العظم وحقي العظم وداود بركات ورشيد رضا وإبراهيم نجار. وكان السلطان عبد الحميد لا يزال حينئذ في إبان مجده وعنفوان قوته وقد دانت له البلاد ليستبد بها ما شاءت أهواؤه ويتحكم في أهلها ما شاءت خيلاؤه. فاقترحنا على المجتمعين إننا إذا أردنا القيام بعمل جدي وجب علينا إتخاذ وسائل جدية بواسطة فدائيين فكل حاكم يظلم الشعب وجبت معاقبته أي يجب دفع ظلم الحكام بعدل الأمة ودفع الإرهاب بالقوة. فالتفت حينئذ المرحوم الزهراوي إلى الحضور وقال لهم «اسمعوا ما يقول الدكتور سعاده الرزين الهادئ؟» فأجبته بقول الشاعر:

وللحلم أوقات وللجهل مثلها   ولكن أوقاتي إلى الحلم أقرب

«كان حقي العظم أول مؤيد لنا في هذا الرأي ورأى مثله أيضا بقية المجتمعين لذلك عقدنا النية على تمهيد الطريق للثورة واتفقنا على ترشيح المرحوم شفيق المؤيد حاكما على سورية»[19].

لكن هذه الأعمال بقية سرية. وقد استمر الدكتور سعاده في هذا النسق، أي في التحضير السري لعملية الإستقلال حتى بعد نزوحه إلى الأرجنتين. في خضم الحرب كان الدكتور سعاده قد كتب على صفحات المجلة: «لم يحن الآن وقت الجهاد في سبيل إنقاذ الوطن... فإذا لجمنا قلمنا الآن فإننا نلجمه حباً بوطننا وإذا عقلنا لساننا فإنما نعقله إشفاقاً على أمتنا – يصمت القلم متى نطق المدفع... أما متى صمتت المدافع حلت الألسنة من عقالها... متى نامت حربنا استيقظ قلمنا – استيقظ قلم لم يعرف الجبن يوم جبنت الرجال... ليس هذا الصمت سوى الهدوء الذي يلازم الثقة وليس هذا السكوت سوى سكون الكهربائية في

19 الجريدة، السنة الأولى، العدد 16، سان باولو، في 16 كانون الأول 1920.

بطارية – سيأتي زمن وهو ليس بعيداً نصعق فيه الخيانة والمواربة صعقاً ونسحق فيه الفساد والضلالة سحقاً ونبين الذرائع الأساسية التي يجب اتخاذها لإنهاض الوطن من كبوته وإيقاظه من هجعته وإصارته شعباً حياً له ما لغيره من حقوق الحياة والسيطرة على شؤونه الخصوصية ومرافقه العمرانية».

وها هي الحرب قد انتهت وحل ذلك الزمن الذي تحدث عنه الدكتور سعاده فهب يوقظ الشعب من سباته. فموقف الدكتور سعاده معلن مسبقاً وليس كما يصوره ناقده على أنه استنسابي.

رد الدكتور سعاده على منتقده في عدد 15 كانون الثاني 1919 من المجلة يوضح استخفافه بالبطولات الخطابية غير المسؤولة: «الجواب على ذلك بسيط جداً وهو ان الدكتور لم يدخل ميدان الجهاد الوطني لأنه كان معتمداً على «أبطال» سان باولو وهو يفتخر بمشاطرة الجمعية الوطنية ومريديها الجيش الانكليزي فتح فلسطين وسوريا ولبنان... إننا لا نبخس الجمعية الوطنية حقها بل من يبخسها حقها إنما هو صاحب «الفتى» نفسه إذ لم يطالب قط على صفحات جريدته فرنسا والحلفاء بما للجمعية من حق الفتح في سوريا ولبنان وفلسطين... أما نحن فقد أعرضنا عن إنشاء جمعيات تدعو إلى التطوع لأننا لم نرد أن نقذف بشبابنا الذين هم لحم من لحمنا ودم من دمنا إلى خطوط النار والفولاذ قبل أن نعرف في سبيل أي شيء نجازف بحياة إخواننا ومواطنينا. أفي سبيل الاستقلال أم في سبيل الحماية... أخذ علينا صاحب «الفتى» عدم تعرضنا للأتراك وعدم سبهم ولو من طرف خفي كأنه يحسب سب الأتراك اكتشافاً جديداً أو فتحاً مجيداً وهو سب تساوى فيه الجهلاء والحكماء واستوت عنده الجرائد المحترمة والجرائد الصفراء... وإننا نحمد الله ألف مرة على أنه لم تكن لنا يد ولا إصبع في هذه المأساة التي كان من ورائها إثارة النمر التركي على أهلنا ومواطنينا دون أن تترتب عليها فائدة قط...»[20].

وكانت مجلة مراسلات الشرق، وهي لسان حال اللجنة المركزية السورية الباريسية، تنشر في أعدادها طوال سنة 1919 البرقيات المؤيدة لموقف اللجنة الباريسية التي جميعها تعتمد،

20 المجلة، السنة الرابعة، الجزء 15، بونس أيرس، 15 كانون الثاني، 1919.

على زعم المجلة، نصاً واحداً «سورية موحدة مستقلة وفدرالية تحت حماية فرنسا»[21]. وبعض هذه البرقيات يختلف عما نعرفه من مصادر أخرى عن مواقف من تزعم اللجنة إنهم أرسلوها كما هي الحال مع توفيق بالش من التشيلي. وكان نعمة يافث قد أرسل برقية في 19 كانون الأول 1918: «الجمعية الوطنية السورية اللبنانية باسم أعضائها ومحازبيها تخولكم مطالبة مؤتمر الصلح تكليف فرنسا إعادة سورية موحدة مستقلة وفدرالية. الرئيس: نعمة يافث»[22]. وكانت اللجنة المركزية السورية تحت قيادة شكري غانم (1861–1929) قد أعلنت منذ سنة 1917 ان «هدف اللجنة تحرير سورية واستقلالها تحت رعاية فرنسا ومساعدتها وضمانتها في نظام فدرالي لولايات مستقلة يعطي المناطق طابعها الخاص وحرية تطور تطلعاتها»[23]. لكنها بالطبع لم تنشر نص أية برقية معارضة من مثل ما كان يرسله الدكتور سعاده ومحازبوه[24].

وهناك بالطبع درجة من النفاق السياسي الباهر في مواقف منتقدي الدكتور سعاده فإنه وإن أحجم عن انتقاد السلطنة وحرابها في أعناق أبناء وطنه فإنه لم يتزلف أو يبدل في مواقفه من مثل ما رأينا مع أمين إرسلان أو حتى مع أعضاء اللجنة المركزية السورية في باريس. فيكفي مثلا أن نذكر القارىء بمواقف الدكتور جورج سمنه وهو سكرتير اللجنة المركزية السورية من الخلافة العثمانية قبيل الحرب العالمية الأولى مما لا تجد له أثرا في كتابات الدكتور سعاده[25]. ولم يكن تذبذب رئيس اللجنة المركزية شكري غانم بأقل من تذبذب سكرتيرها وكانت ممالقته للأتراك في سبيل المناصب لا تقل عن ممالقات أمين إرسلان[26].

---

21 La Correspondance d'Orient, 12éme Année, No. 206, 30 Janvier, 1919.

22 Ibid, 12éme Année, No. 205, 15 Janvier, 1919, p 31.

23 Ibid, 10éme Année, No. 178, 25 Novembre, 1917, p 316.

24 المجلة، السنة الرابعة، الجزء 23، بونس أيرس، 15 أيار 1919.

25 في احتفال في باريس خطب الدكتور سمنه قائلاً: «تركيا تشكل اليوم جزءًا من أوروبا ولم تعد تمثل الشرق المجهول والمخيف... الخلافة العثمانية تمثل الوحدة الإسلامية ملتفة حول سلطة قوية تدفع بالشرق نحو الحداثة وفي غيابها يتعرض الإسلام للمشاكل والتشنجات المجهولة الغاية والمصير... الخلافة العثمانية ضرورية للتقدم. سلطان الأتراك هو صلة الوصل بين الحضارة الحديثة والتقاليد الإسلامية...»

L'Orient Arabe, Première Année, No. 15, 5 Septembre, 1917.

26 L'Orient Arabe, Première Année, No. 16, 20 Octobre, 1917.

يؤرخ الدكتور سعاده لمساهمة شكري غانم في دعم الحزب الإستعماري الفرنسي في عدة مقالات على صفحات الجريدة أولاً ثم في مقال جامع على صفحات المجلة حيث يلخص الدكتور سعاده جهاد غانم العبودي[27]. ومع بداية الحرب وتأسيس الجمعية السورية المركزية، بدأ غانم عهد بطولاته العبودية التي خدمت السياسة الإستعمارية الفرنسية بكل وفاء. ولا نحتاج هنا أن نستقي هذا الوصف من كتابات خصوم غانم السياسيين كالدكتور سعاده، بل نجد الوافر من الأدلة في كتابات غانم نفسه على صفحات مجلة مراسلات الشرق التي كانت الناطق الرسمي بإسم الجمعية وبوق الدعاية لفرنسا حتى عام 1945. ويلقب الدكتور سعاده غانم بمحامي الشيطان «كلما رأى ميلاً وانعطافاً من الحلفاء والولايات المتحدة لمنح سورية الإستقلال شرع في تسوئة سمعتها وتشويه حياتها وإظهار سيئاتها، وقال لهم إنّ سورية متوحشة بربرية لا تصلح لحكم نفسها، فنحن لسنا إلا أطفالاً رضّعاً في السياسة وقد عشعش التعصب الديني في أدمغتنا فإذا نلنا الإستقلال قام النصارى والمسلمون بعضهم على بعض وذبحوا بعضهم بعضاً فالإستقلال يضرنا، بل هو في يدنا كالمدية في يد الطفل لا يعرف كيف يستعملها».

من الواضح أن الدكتور سعاده الذي حارب التعصب الديني بين مواطنيه يرى بوضوح الفرق بين القيام بالإصلاح الإجتماعي الداخلي الذي يستتبع النقد، وبين الحصول على السيادة القومية وهو أمر يتعلق بأهلية الأمة لدخول المستقبل ولا يجب أن يعوقه أي وهن من أوهانها الإجتماعية.

ويختتم الدكتور سعاده تقييمه بقوله: «إن الأدوار الغريبة المتقلبة المتذبذبة التي لعبها غانم على مسرح السياسة لا تبقي مجالاً للشبه قط أن غانماً كان يتاجر بوطنه فكان كيفما دارت فرنسا يدور معها دون تفكير قط، وإذا فكر فلكي يعلل تذبذبه ويبرر تقلبه حتى أصبح مضغة في الأفواه ولماظة بين الشفاه». وعندما توفي غانم نعته جريدة الفيغارو بقولها: «كان غانم مذ غادر لبنان في صباه حريصاً على الإقتراب من فرنسا وخدمتها... وعندما وقعت الحرب وجه نشاطه وحماسه لوحدة وطنه الصغير، سورية، مع وطنه الكبير، فرنسا... وكانت أسعد لحظات

---

27 «شكري غانم والقضية الوطنية ومجلس لبنان». المجلة، السنة العاشرة، الجزء الخامس، سان باولو، يونيو، 1924.

حياته عندما رفرف العلم الفرنسي فوق بيروت»[28]. صدق الدكتور سعاده!

ومن المفارقات الكبرى أن الجانب المؤيد لفرنسا لن يرعوي عن مساندته لفرنسا بشخصية اللجنة السورية المركزية حتى بعد وضوح مآرب فرنسا وخططها الإستعماري في سورية. فها هو الدكتور جورج سمنه أمين سر اللجنة يصرح في 1921: «ليس هناك في سورية اليوم أي تعاون بين المحتل الفرنسي والعنصر السوري... إن سورية تستحق ما هو أفضل من النموذج المراكشي. هل الانتداب الفرنسي هو حقاً انتداب تعاون أم لا؟ ألم تقر فرنسا بقبوله دورها في التثقيف السياسي للشعب السوري؟ هذه هي المسألة. يجب أن يرتكز الاحتلال الفرنسي على المبدأين الأساسيين التاليين: إن الشعب السوري ينتظر من فرنسا الديمقراطية والعلمانية وأنّ فرنسا تؤكد التزامها بجعل سورية أمة حرة وموحدة»[29]. وفي كتابات أخرى ينتقد الدكتور سمنه التقسيمات الإدارية السياسية التي اعتمدها الانتداب وخاصة خلق لبنان الكبير![30].

صدى مؤتمر الحزب الديمقراطي الوطني

ولم تقتصر مساهمات الدكتور سعاده على العمل الصحفي في المدى السوري في المغترب، بل اتسع مجال أعماله إلى العمل التنظيمي والإتصال مع الصحافة الأجنبية ومخابرة المراجع الدولية. ويجد القارىء وصفاً لأعماله عبر الحزب الديمقراطي الوطني واهتمامه بالمخابرات الدولية في مقالات الدكتور سعاده في هذا المجلد وفي كتابات أخرى. ما نريد تناوله هنا ليس تأريخ عمله السياسي والتنظيمي، لكن تناول مسألة صدى المؤتمر الذي عقده الحزب الديمقراطي الوطني وصدى ذلك في الصحافة الأجنبية خارج الأرجنتين. فقد ظهرت بعض

---

28 Figaro, Samedi 4 Mai 1929.

29 La Correspondance d’Orient., 14 Année, No. 258, 30 Mars, 1921, p 258-259.

30 وإذا كنا نجد في كتابات الدكتور جورج سمنه بعض النقد للممارسات الفرنسية في سورية، فإن ذلك لن يحول بينه وبين ولائه الدائم للفرنسيين وتزويدهم بالنصح والمعلومات كما كان حاله مع رئيس الجمهورية اللبنانية شارل دباس الذي وثق به ومحضه سره غير دار أن هذا السر اتصل فوراً بالمبعوث السامي الفرنسي. لكن حتى هذا الوعي لم يبدل من تحالف الدكتور جورج سمنه مع فرنسا. أما نعمة يافث فهو بعد زيارته للوطن في أوائل العشرينات سوف يعود إلى البرازيل ويسر للدكتور سعاده خيبته في الاعتماد على الرعاية الفرنسية.

الإنتقادات حول تصريح الدكتور سعاده في إحدى مقالاته عن محادثته مع ممثل شركة إعلامية عالمية ونشرها أنباء المؤتمر[31]. وتعليل هذه الإنتقادات عدم العثور على أي ذكر للمؤتمر أو لتصريح الدكتور سعاده أو مقال له في صحافة أميركا الشمالية. لكننا أثناء تدبرنا لهذا الأمر عثرنا على مثلين[32] من نشر الصحف لتصريح الدكتور سعاده للأسوشياتد برس نوردهما بين صور الوثائق ونقدم ترجمة للأطول في ما يلي:

«السوريون يطالبون بالإستقلال. اللجنة الإرجنتينية تحتج بقوة ضد حماية فرنسا. بوينس أيرس، 20 نيسان – أرسل المؤتمر السوري الذي يمثل مئة وخمسين ألف سوري في الأرجنتين، ببرقية إلى الرئيس ولسن يكرر فيها نداءه من أجل الإستقلال المطلق لدولة «فدرالية من لبنان وسورية وفلسطين» تحت ضمانة الولايات المتحدة وحكومات الحلفاء.

«إننا نحتج بشدة ضد الحماية الأجنبية» قالت البرقية. «السوريون هم أكثر شعوب الشرق الأدنى حضارة وهم مؤهلون للحكم الذاتي».

«وقد صرح الدكتور سعاده، رئيس المؤتمر، للأسوشياتد برس، أن برقيات سابقة مرسلة إلى الرئيس ولسن لم تصل إليه لأن الفرنسيين يريدون السيطرة على سورية وحكمها. وقد أكد أن المؤتمر أرسل برقية إلى اللجنة المركزية اللبنانية في باريس طالباً منها إيصال طلب المؤتمر الذي أخفاه الفرنسيون إلى مؤتمر الصلح وعصبة الأمم.

«نريد الإستقلال التام للدول الثلاث الفدرالية»، قال الدكتور سعاده. «إذا كان مؤتمر الصلح لا يجدنا أهلين للحكم الذاتي فإننا نطلب معونة الولايات المتحدة كما هي الحال مع كوبا. نحن نحتج بشدة ضد أية محاولة لوضعنا تحت الحكم الفرنسي».

«وإذا رفض مؤتمر الصلح تقرير استقلال الدول الفدرالية فإن مؤتمراً يضم ممثلين عن الجاليات السورية في مختلف أنحاء العالم سيعقد في نيويورك لتعيين لجنة دائمة في جنيف لتقديم مطالب السوريين حتى يتم لها التحقيق، حسب قول الدكتور سعاده.

31 جان داية: الدكتور خليل سعاده: نتاجه الفكري وجهاده السياسي، فجر النهضة، لا مكان نشر، 1998، الصفحة 16.

32 The Times-Picayune, Monday, April 21, 1919; The Dallas Morning News, April 21, 1919.

«وقد كان العمل الإستقلالي يحضر له لسنين عديدة من قبل جمعية في نيويورك وأخرى في بوينس أيرس، كليهما تعملان سراً وقاية من الإضطهاد التركي. وقد أرسلت البرقية الجديدة عبر القنوات الدبلوماسية لتأمين وصولها إلى الرئيس ولسن».

ويبدو من هذه القرينة أن حيثيات أقوال الدكتور سعاده عن جهاده صادقة!

الموقف من الملك فيصل

من البديهي أن مفكراً سياسياً يدعوا إلى الديمقراطية وسيادة الشعب على نفسه لن يكون موالياً لفكرة نظام ملكي حتى لو شفع ذلك النظام بجوانب دستورية وتمثيلية. اختصر الدكتور سعاده موقفه من فيصل في مقالة «أمام العالم المتمدن والتاريخ» على صفحات الجريدة في 5 آب 1920:

«نفتخر بأننا كنا أول من نادى باستقلال الوطن وطالب به، وهو موقف لم نتحول عنه ولن نتحول عنه. ولكننا لم نكن من عباد فيصل ولا من الفيصليين، بل لم نكن راضين قط عن إعلان سورية ملكية ولا عن الحركة الحجازية التي لم يكن يراد بها سوى إدغام لبنان وسورية في الحجاز، ولا عن طريقة الوراثة الملكية التي بموجبها يعود السوريون إلى ملك الحجاز فيما لو انقرض نسل الأمير فيصل، لأن كل ذلك لا يلتئم مع روح العصر الذي دحرج تيجان الملوك وحطم صوالجهم فخرجوا من قصورهم يتعثرون بأذيال الفشل وهم لا يصدقون بالنجاة بل يجسون رؤوسهم بأيديهم ليروا ما إذا كانت لا تزال بين أكتافهم.

«ولم نكن راضين قط عن إدعاء الملك حسين والأمير فيصل بأن سورية جزء متمم للبلاد العربية، وأنه بما أن السوريين يتكلمون بالعربية وفيهم دم عربي وأكثريتهم مسلمة يجب إدغام سورية في الحجاز أو بلاد العرب، وأن الوحدة العربية يجب أن تكون قبلة الوطنيين وشعار الإستقلاليين، لأن كل ذلك لم يكن ناشئاً إلا عن نعرة دينية لا مسوغ لها في أمة تريد أن تكون ديمقراطية، وهي مسألة أعرضت أخيراً الأمة السورية عن تأييدها بالمرة»[33].

وبالإضافة إلى هذا الموقف المبدئي، كان للدكتور سعاده موقف نقدي لممارسات فيصل بعد حضوره إلى سورية وإعلانه ملكا عليها.

33 أمام العالم المتمدن والتاريخ، الجريدة، سان باولو، في 5 آب 1920.

«... والراجح أن فيصلا لم يكن في الطور الأخير من طلاب الإستقلال التام المطلق، بل كان راغباً في وصاية فرنسا أو مساعدتها لقاء بقائه ملكاً على سورية. والتفاهم الذي كان بينه وكليمنصو قبل اعتزال هذا رئاسة الحكومة الفرنسية كان تفاهماً حقيقياً مبنياً على نفع متبادل للفريقين. بيد أن فرنسا أخطأت في تقدير فيصل فهي جرياً على ما تعهده في الشرق حسبت أن لا مرد لما يقوله، وأن الشعب السوري كمية مهملة إذا قال أميره أو ملكه كلمة انحنى أمامها صاغراً. فهي جهلت أو تجاهلت الإنقلاب العظيم وحركة الخواطر التي ثارت في نفوس الأمم الضعيفة أثناء انعقاد الهدنة ومؤتمر الصلح، وفي صدر الأمم الشرقية أبناء لبنان وسورية وفلسطين. بل أن حركة الخواطر الحقيقية في سورية لم تبد جلياً إلا في الطور الأخير من انعقاد المؤتمر، فبعد أن كان يقول المؤتمر السوري لفيصل في أوائل عهده «دماؤنا وكل ما لنا لك»، أصبح يحاسبه على ما يقول وما يفعل. فلما جاء بيروت عائداً في المرة الأخيرة وألقى فيها خطاباً ألمع في عرضه إلى وجوب طلب مساعدة فرنسا، رأى بعد وصوله إلى دمشق وجوهاً عابسة وأدمغة مفكرة. وبعد أن قال في أول خطاب ألقاه في دمشق «أنا الحكومة»، اضطر أن يعدل عن ذلك في الخطاب الثاني ويعتذر عن هذا القول الإستبدادي الذي لا يلتئم قط مع حقوق شعب يريد أن يكون ديمقراطياً فقال «عنيت بقولي أنا الحكومة أني خادم الأمة». وإضطره بعد ذلك الحزب الإستقلالي إلى الوقوف إلى جانب الإستقلال التام وقفة راسخة. والراجح أنه لو كان لفيصل خيار في الأمر لطلب وصاية فرنسا وظل متربعاً على عرشه».

معركة ميسلون

لكن جهود الدكتور سعاده وجهود غيره من أحرار سورية لم تتمكن من مجابهة الإستعمار الفرنسي المؤيد بالقوة الحربية الفرنسية فكانت معركة ميسلون وكان الإنتداب. يؤرخ الدكتور سعاده لمعركة ميسلون في 30 أيلول 1920 على صفحات الجريدة:

«هي المعركة التي قضى فيها غورو على استقلال سورية لإنالتها الإستقلال لأنه نشر في البلاغ الذي أذاعه بين السوريين أن الغرض من مهاجمة القوات السورية لم يكن استعمار سورية واستعباد أهلها كما يشيع الذين لا يدركون من السياسة شيئاً، بل لإعطاء سورية استقلالها!»

وقد كتب الدكتور سعاده على مدى ما تبقى من حياته العديد من المقالات والشعر المنثور حول ميسلون كانت أولها خاتمة سلسلة مقالاته عن «سورية وفرنسا ومؤتمر الصلح» التي يجدها القارىء في هذا المجلد وهي أغنية مأسوية ومرثاة عظيمة لأبطال سورية ولعنة رهيبة للإستعمار الفرنسي:

«في ميسلون سمرت فرنسا سورية على خشبة الصليب كما سمر اليهود المسيح على صليبه في الجلجلة. وكما انقلب عار الصليب مجداً خالداً كذلك سوف ينقلب عار الهزيمة نصراً باهراً!

«في ميسلون وضعت سورية حجر استقلالها كسائر الأمم الحية التي تقدمتها: نحتته من عظام الشهداء وإتخذت طينه من خثرات الدماء!

«في ميسلون زرعت بذرة الحرية فإذا زعم الجاهلون أنها ماتت فذلك لأنها طمرت حتى تنمو.

«في ميسلون تعلمت سورية أن تعتمد على نفسها وأن لا تصدق بعد الآن وعود فرنسا الكاذبة، وأن الطريق الحقيقي المؤدي إلى الإستقلال الحقيقي إنما هو طريق الدم والنار الذي سارت عليه كل أمة حية منذ فجر التاريخ حتى الآن!

«في ميسلون خانت فرنسا مبادىء العدل والحق التي سفك شهداء الثورة الفرنسية دمهم في سبيل تأييدها...»

وسوف نجد استمرار هذا التقدير لرمزية ميسلون في أعمال أنطون سعاده ومبادىء حزبه.

مناهضة الإنتداب

كان الدكتور سعاده قد انتقل إلى البرازيل قبيل معركة ميسلون، وأسس هناك مع بعض مؤيدي فكرته جريدة الجريدة. على صفحات الجريدة سار الدكتور سعاده في مناهضته للإنتداب الفرنسي على مسارين متوازيين متكاملين: مسار تحليلي-تأريخي-نقدي، ومسار حيثي مرتبط بالأحداث الراهنة. واتبع الدكتور سعاده المسار الأول في المقالات الإفتتاحية خاصة سلسلة مقالاته النارية تحت عنوان دائم «سورية وفرنسا ومؤتمر الصلح» التي امتدت على مدى أربعين حلقة إبتداء من آب 1920 حتى تموز 1921، وتناول فيها مقدمات مؤتمر الصلح ومواقف الفرقاء وتطورات الأوضاع باسلوب تأريخي نقدي. أما المسار الثاني فانتهجه

الدكتور سعاده تحت باب «الحالة الحاضرة» الذي شكل أحد الأبواب الدائمة في تبويب الجريدة وفي مقالات متفرقة تناول فيها أحداثاً معينة أو شخصيات وتصاريح محددة من مثل تناوله مسألة لبنان الكبير وحاكمه، أو أعمال وتصاريح «غورو الغازي». وبعد أفول الجريدة وإعادة إصدار المجلة تابع الدكتور سعاده مساره النقدي للإنتداب الفرنسي ولم يحن هامه للأمر الواقع أو يسع لإيجاد ترتيب بين موقفه وموقف الغزاة المستعمرين. هذه المقالات سوف تنشر في مجلدات لاحقة.

ومن أعمال غورو (الذي لقبه الدكتور سعاده «غورو باشا الغازي» تشبيهاً بسلاطين العثمانيين) التي تصدى لها الدكتور سعاده مسألة تجزئة سورية إلى دويلات متنافرة. وقد عللت فرنسا هذه الأعمال بأنها متوجبة بعامل التباين الديني المذهبي. فتصدى الدكتور سعاده لهذه الحجة مبيناً أن غرض فرنسا هو تقطيع أوصال سورية لتعميق التباين الديني المذهبي وليس بسببه[34].

ثم يتناول إدعاءً آخر لفرنسا من أنها إنشأت في مناطق الإحتلال حكومات وطنية: «فلا ندري ما تعني بالإدارة الوطنية لأن الأنس والجن تعلم الآن أن المفوض السامي هو ديكتاتور سورية وأن ما يسمى بالإدارة الوطنية ليست إلا زمرة من العبيد تأتمر بأوامر المفوض وتنتهي بنواهيه. ففي سورية لا توجد إدارات وطنية بل إدارات عبودية»[35].

وكان الدكتور سعاده يرى في إعلان الجنرال غورو دولة لبنان الكبير مأساة مضحكة مبكية: «إن إعلان إستقلال لبنان الكبير... ليس إلا فصلاً جديداً من فصول الرواية الهزلية التي مثلتها فرنسا على مسرح وطننا منذ عقد الهدنة حتى الساعة فهو لم يغير شيئا على الإطلاق في موقف لبنان السياسي، ولا في علاقته مع الدولة المحتلة، ولا في شكل سيادته على نفسه. والفرق الوحيد بين لبنان الصغير ولبنان الكبير هو أنه قد أضيف إلى عبيد الأول بقية عبيد الثاني، وبعبارة أخرى أن الحظيرة الفرنسية في لبنان صارت تسع الآن قطعاناً بشرية أكثر من ذي قبل.

---

34 الإدارة الفرنسية في سورية. المجلة، السنة العاشرة، الجزء التاسع، سان باولو، أكتوبر، 1924.

35 فرنسا ودستورنا الوطني. المجلة، السنة العاشرة، الجزء الحادي عشر، سان باولو، ديسمبر، 1924.

«في كل فصل من فصول هذه الرواية الهزلية يعلن الفرنسيس للبنانيين أنهم قد نالوا استقلالهم، ثم يأتون بالعلم الفرنسي ويقولون لهم هذا علمكم ذلك لأنه يوجد في الشقة البيضاء من رقعة الراية أرزة لا ترى عن بعد إلا بالتلسكوب – هكذا فعلوا في بعبدا – هكذا فعلوا في بيروت – هكذا يفعلون في كل فصل آخر من هذه الرواية التي يظهر أنه لا نهاية لها»[36].

ويقارن الدكتور سعاده استقلال لبنان الكبير بالإستقلال الإداري للبنان الصغير مفضلا الثاني على الأول! وبالطبع فإن ترحم الدكتور سعاده على لبنان الصغير في العهد التركي هو من باب التهكم على «أتراك أوروبا» كما لقب الدكتور سعاده الفرنسيين!

قلنا أعلاه إنّ الدكتور سعاده لم يحن هاماً للدولة المستعمرة. لكن ذلك لم يكن مسرى بعض معارفه. وثبات الرجال على مواقفها ليس من ضروريات الحال! فبعد انتصار الفرنسيس في ميسلون قام المتسكعون زرافات زرافات يطلبون نعمة المستعمر. فبعد علاء الدين الدروبي وتعفير هامه أمام غورو في حفل في دمشق ودماء شهداء ميسلون لم تجف، قام حقي العظم بقبول مركز حاكمية دمشق المقتطعة من سورية. وعبودية حقي العظم لم تكن الوحيدة وقد تبعه فيها عدد من السياسيين في جميع أنحاء سورية. ونذكر القارىء أن البطريرك الأرثوذكسي كان الوحيد الذي حضر لتوديع فيصل بعيد ميسلون ودفع ثمن جرأته على يد الفرنسيس، ولهذا البطريرك ذكر كريم تحت قلم الدكتور سعاده.

وسوف يتابع الدكتور سعاده على صفحات المجلة تحري الجهد الفرنسي لترسيخ الإنتداب وتناول الإدارة الفرنسية المحتلة القبض على ناصية جميع المرافق السورية وإجهاض جميع المحاولات الإستقلالية وتفريغ المرافق من أية إمكانية مقاومة للإحتلال.

لقد تحدث الدكتور سعاده كثيراً عن الإستعباد الإداري الذي مارسه الفرنسيون في سورية. لكن هناك ناحية أخرى من الإستعباد الإداري واجهها الدكتور سعاده مباشرة عبر عمل قناصل فرنسا في أميركا الجنوبية. فبحكم انتداب فرنسا على سورية، أصبحت مسألة تمثيل السوريين والإهتمام بأمورهم في المهجر من صلاحية فرنسا وممثليها في دول الهجرة السورية.

---

36 استقلال لبنان الكبير، الجريدة، العدد 5، سان باولو، في 9 أيلول 1920.

وهكذا خضعت الأحوال الشخصية ومسائل السفر والمعاملات القانونية مع الوطن أو أي بلد خارج بلد الإقامة للإدارة الفرنسية. وقد أرخ الدكتور سعاده على صفحات الجريدة للمواجهات مع القناصل الفرنسيين في البرازيل كما أرخ على صفحات المجلة لتدخل حكام الدويلات السورية في الوطن بمسائل الهجرة.

وسوف نجده يناهض ترسيخ الإنتداب عبر الإستعباد التمثيلي فقد قامت الدولة المحتلة بتعيين مجالس «تمثيلية» في الدويلات التي خلقتها وزعمت، بعد تعيين هذه المجالس، أن تأييد المجالس لسياستها الإحتلالية هو دليل تأييد الشعب الرازح تحت الإحتلال لمحتل بلاده. وبالطبع امتد الإستعباد التمثيلي إلى حدود التشريع فاهتمت فرنسا بوضع التشاريع الصورية لتبدو أنها كدولة منتدبة تعمل وفق شرعة عصبة الأمم التي يلقبها الدكتور سعاده بالعصابة الإستعمارية. أما «السلطات الوطنية» المزعومة فهي «فزاعات أقامها الإحتلال في كرم الوطن»[37]. وكلما رأت فرنسا مصلحة لها في تبديل هذه المجالس بدلتها بغيرها[38].

وكانت سلطات الإحتلال تنشر برقيات التأييد من هذه المجالس «التمثيلية» ومرجعيات أخرى كلما قام السوريون في المهجر بأي نشاط يهدف إلى فضح أعمال الدولة المحتلة. أي أن الدولة المحتلة كانت تشكك بصلاحية سوريي المهجر لتمثيل حقوق أمتهم، وكان يجاريها في ذلك أذنابها المعينون ومن نجحت بالتغرير بهم أو إرهابهم من المرجعيات الشعبية الأخرى. ومن الأمثلة على ذلك مثلا الكتاب[39] الذي نشرته الحكومة الفرنسية الذي يحوي على عدد من الرسائل والبرقيات التي أرسلها إلى الحكومة لفرنسية في باريس وإلى عصبة الأمم وإلى المفوض السامي في بيروت عدد من «أبطال العبودية». وادعت الحكومة الفرنسية أن هذه البرقيات والرسائل تعبر عن «صدق محبة اللبنانيين والسوريين لفرنسا». وقد حوى الكتاب بعض الرسائل التي ولا شك اكتسبتها فرنسا بصورة قسرية من أصحابها لتناقضها مع ما نعرفه من مواقفهم المناهضة لفرنسا. ومن الأمثلة التي تناولها الدكتور سعاده قيام الدولة

---

37 فرنسا ودستورنا الوطني. المجلة، السنة العاشرة، الجزء الحادي عشر، سان باولو، ديسمبر، 1924.

38 حل المجلس اللبناني، مكره أخوك لا بطل. المجلة، السنة الحادية عشرة، الجزء الثاني، سان باولو، مارس، 1925.

39 La France en Syrie et au Liban. Le Mandat devant les faits. Emile Larose editeur, Paris, 1922.

الفرنسية تكرارا بالتصدي لأعمال المؤتمر السوري الفلسطيني[40] حاشدة جهود المرجعيات المتحالفة معها خياراً أو قسراً لنزع الصفة التمثيلية عن المؤتمر.

من الأمور البديهية التي يعمد إليها المحتل، لكن ما ليس من شيم «الحامي» أو «الوصي»، منع المعارضة من إيصال صوتها إلى آذان الشعب أو إلى ميدان السياسة العالمية. وقد عمدت فرنسا إلى ذلك عبر وسيلتين: الأولى قمع أو إخضاع الصحافة المحلية لإرادتها، والثانية، التحكم بأقنية الإحتجاج أمام عصبة الأمم، مانحة الإنتداب، أو كما سماها الدكتور سعاده «عصابة الأمم». لقد خشي الفرنسيون ظهور المعارضة لحكمهم على أي منبر وكانت لخشيتهم أولوية سترتها بحجاب فرنسة محررة الشعوب وأم الحريات والديمقراطية!

يتناول الدكتور سعاده مساعي فرنسا عبر الوسيلة الأولى في مقال على صفحات المجلة بعنوان «استعباد فرنسا صحافة سورية»، ذلك إنها «بعد أن ضربت عليهم عبودية الفعل رأت أن تضرب عليهم عبودية الفكر»[41]. فسعت فرنسا إلى تأمين هذا الحل النهائي لتسرب أدلة مساوىء احتلالها لسورية عبر الحلول التي يعمد إليها كل المستبدين في كل عصور التاريخ الجلي، أي سن القوانين الظالمة القمعية.

ولا ينحصر مدى قانون الصحافة في لجم الصحافة المحلية في سورية المحتلة، بل يتسع حتى يشمل صحف المهجر أيضا إذ حلل هذا القانون «للمفوض السامي الحق في إصدار أوامر بمنع «أي جريدة كانت أجنبية أو كراسة أو مجلة دورية أجنبية إلى أراضي سورية ولبنان ومنع دفعها للمبيع أو للعرض وبيعها فيها» دون أن يذكر سببا لذلك». وهذا التدبير الإستبدادي في طبيعته من حيث عدم حاجته لتبرير ذاته يراد به الصحف «التي تتجاسر على انتقاد أعمال الجمهورية المقدسة في سورية ولبنان».

والجريدة والمجلة من عداد هذه الدوريات التي منعتها سلطة الإحتلال قبل وبعد صدور قانون الصحافة المشار إليه لأن الحكومة الفرنسية رمت «إلى كم أفواه الصحافة السورية في المهجر وخنق أصواتها حتى لا تبلغ آذان الشعب السوري وتستفزه إلى المطالبة بحقوقه المهضومة

40 المؤتمر السوري الفلسطيني تجاه عصابة الأمم. المجلة، السنة العاشرة، الجزء العاشر، سان باولو، نوفمبر، 1924.

41 إستعباد فرنسا صحافة سورية. المجلة، السنة العاشرة، الجزء السادس، سان باولو، يوليو، 1924.

وحريته المسلوبة وتطلعه على جهاد الأحرار في سبيل إنقاذه من هذا الإحتلال الجائر». وقد نجحت فرنسا في منع صوت الدكتور سعاده من الوصول إلى أذهان مواطنيه في الوطن.

يتناول الدكتور سعاده مساعي فرنسا عبر الوسيلة الثانية في عدة مقالات على صفحات المجلة منها مقال حرية الصحافة المذكور أعلاه حيث يتحدث عن قيام فرنسا بالتحكم بأقنية الإحتجاج أمام عصبة الأمم، مانحة الإنتداب: «الدولة التي تبلغ من الإستبداد هذا الحد لا يصح أن تكون دولة منتدبة لبلد من بلدان العالم ولا أن تقدم على يدها شكوى الشعب منها إلى عصابة الأمم». وذلك أن قانون عصبة الأمم كان يفرض تمرير الشكوى عبر الدولة المنتدبة لترفع مطالعتها بأمر الشكوى وترفقها بها ولا يراجع أي مكتب مختص في عصبة الأمم أية شكوى دون مطالعة الدولة المنتدبة.

وسوف تكون لنا فرصة قادمة لتناول هذه النواحي من صراع الدكتور سعاده في سبيل حرية واستقلال بلاده.

خاتمة

لقد أردنا في البحث الحالي بسط موقف الدكتور سعاده في مناهضة الإنتداب الفرنسي على سورية كدرس في أصول العمل السياسي القومي الصحيح، ولمضاربته مع المحاولات التأريخية التضليلية لخلق أبطال وهميين هم تارة أبطال إستقلال لبنان وطورا أبطال العروبة كيفما إتفقت الحاجة إلى خلقهم.

وإذا أردنا أن نختصر المواقف السياسية المتماسكة المتكاملة التي اتخذها الدكتور سعاده في مسيرته الصراعية لأجل الإستقلال السوري التام، الكامل، الناجز، أمكننا أن نفعل ذلك في دحضه لخرافات ثلاث وما يستتبع ذلك من مواقف[42]:

أولا، دحض فكرة ضرورة أسبقية الأهلية للإستقلال لقيام الإستقلال. يقول الدكتور سعاده في هذا الصدد: «أن لا شرط ولا قيد لإستقلال الأمم والشعوب، وأن القول أن شعباً ما يجب أن تكون فيه أهلية الإستقلال قبل أن يناله قول لا يفقه صاحبه شيئاً من أوليات

42 المجلة، السنة الحادية عشرة، الجزء الأول، سان باولو، فبراير، 1925.

الحرية ومبادىء الإستقلال، فحرية الشعوب كحرية الأفراد حق ينقل بمجرد الولادة وللأمم الحق كل الحق في أن تكون متوحشة. والحقيقة أن الشعب السوري أرقى من كثير من الشعوب التي نالت استقلالها قديماً وحديثاً. لذلك رفضنا ونرفض الإنتداب بتاتاً سواء كان منطبقاً على المادة الثانية والعشرين من عهد جمعية الأمم أو غير منطبق عليها. ولقد بشرنا ونبشر وسنبشر بهذا الإيمان مكررين ومؤكدين عملاً بقاعدة الفيلسوف غوستاف لوبون أكبر الفلاسفة في نفسية الجماعات وهي أن التكرار والتأكيد أفعل العوامل في إرساخ الفكرة التي يريد المتكلم أو الكاتب نقلها إلى عقول الجماعات».

والخرافة الثانية التي «لا تقل عن الخرافة السابقة [هي] أن لجمعية الأمم حقاً في الوصاية على الشعوب الصغيرة وأن تنتدب من قبلها دولة تنوب عنها في الوصاية وتقدم لها كل سنة حساباً عن أعمالها. وإنه لما كانت فرنسا منتدبة من جمعية الأمم لتتولى شؤوننا، كان موقفها في بلادنا موقفاً شرعياً. ومن البديهي أن من لا يملك هو نفسه حقاً لا يقدر أن يولي غيره. فإذا كانت جمعية الأمم لا تملك حقاً في بلدانها هي فكيف يجوز لها أن تملك حقوقاً في بلدان الآخرين، هذا على فرض أنها جمعية بالغة منتهى العدل والإنصاف، فكيف يجوز لها ذلك وهي ليست إلا آلة في يد الدول الإستعمارية وقد أخرجت لنا صك إنتداب سجله التاريخ بين دفتيه عبرة وذكرى للأجيال الآتية، بيننا وبينها حجاباً فلا تقبل منا اعتراضاً ولا تسمع لنا شكوى».

والخرافة الثالثة التي عمل على دحضها الدكتور سعاده «هي أن تمثيل لبنان وسوريا محصور في مجالسهما التي يسمونها نيابية وأنه لا يجوز [للمؤتمرات] والأحزاب والجمعيات القائمة في المهجر التكلم باسم وطنها. وقد فندنا هذه الخرافة... بانين حقنا وحق رصفائنا في ذلك على أقوال نفر من أعظم فلاسفة الحرية وفي صدرهم روسو الشهير...فحق الإنسان في الحياة والحرية حق طبيعي ومن الحماقة أن يزعم بعضهم أن البشر تتنازل عن حقوقها الطبيعية الجوهرية. وأنت متى رأيت رجلاً آخذا في الغرق لا تنتظر منه وكالة قبل أن تنقذ حياته من الموت – إن ذلك ليس من حقوقك فقط بل من واجباتك أيضاً».

وكان الدكتور سعاده يعتبر أن أهم ما قام به هو «أننا نفحنا في قلوب مواطنينا روح الرجاء بمستقبل زاهر قريب، فحاربنا اليأس والندب اللذين ليسا من صفة الرجولة في شيء. وتجنبنا

التبجح بمجد الأجداد ولم نذكر من ذلك إلا ما كان ضرورياً لإثبات كوننا شعباً عريقاً في المدنية، وحاربنا التعصب الديني الذي هو شر أدواء الشرق. وأقمنا في الوطن هيكلاً عاماً مقدساً يقف فيه عباد الوطنية كلهم بلا فارق بينهم في الأديان والطوائف. وبشرنا بالحرية والإتحاد مؤمنين أن الشعب الذي يعقد القلوب والخناصر على الإستقلال لا يمكن استعباده مهما كان ضعيفاً ومهما كانت الدولة المعتدية قوية. ونادينا بالإعتماد على النفس وجاهرنا بأن العلوم والمعارف ليست ضرورية لنيل الإستقلال وأن من خرق الرأي القعود عن اتخاذ الوسائل الفعالة إلى أن نصير كلنا فلاسفة... لكن يجب... نشر التعليم لأن العلم أفضل من الجهل والنور أفضل من الظلمة».

فالدكتور سعاده يميز بين العلم كضرورة للإستقلال والعلم كضرورة للحياة الأفضل. فالإستقلال حق طبيعي منفصل عن الأهلية، لكن الحياة المتقدمة الظافرة تحتاج العلم والمعرفة.

كان الدكتور سعاده يجاهد في أميركا اللاتينية في مناهضة انتداب فرنسا على بلاده، وكانت فرنسا تجاهد أيضا في أميركا اللاتينية لتأليب المهاجرين ضد مفكريهم الأحرار عبر الترغيب والترهيب. ومر معنا كيف أن شؤون المغتربين كانت في يد فرنسا مما أعطاها وسيلة فعالة في الترغيب والتهديد.

ولا بد أن نسأل في النهاية ماذا كانت نتيجة عمل الدكتور سعاده في مناهضته لفرنسا المحتلة؟ أن يكون الدكتور سعاده قد أقض مضاجع فرنسا وعمالها في المهاجر السورية أمر مقرر. أن يكون الدكتور سعاده قد أبقى حياً تياراً إستقلالياً بين المهاجرين أمر مقرر. لكن أهم ما نتج عن جهاد الدكتور سعاده كان التأسيس الفكري السياسي لما سيصبح على يد إبنه أنطون سعاده الحركة الإستقلالية الإصلاحية القومية بامتياز. ولا يسوء أنطون سعاده أن نقول أن والده بجهده وفكره مهد السبيل الفكري للعقيدة القومية التي صاغها أنطون سعاده. وقد عبر أنطون سعاده نفسه عن هذه الحقيقة، ووصف أنطون سعاده لأثر الدكتور خليل سعاده على الجالية السورية في أمريكا الجنوبية يمكن اعتباره وصفا لتأثير الدكتور سعاده على ابنه:

«إلى أن جاء البرازيل المغفور له العلامة الدكتور خليل سعاده وأنشأ سنة 1920 الجريدة

وأطلق بواسطتها من قلمه تياراً من الشعور الوطني الصحيح كهرب النفوس وأثار فيها الحمية. وكانت مقالات الدكتور سعاده الصاعقية التي حمل بها على الخمول والخيانة والتذبذب في الوطنية والخنوع والاستسلام للأجنبي، وناقش بها موقف المسيحيين من الاستقلال ومسألة لبنان، منذ عهد المجلة في الأرجنتين إلى عهد الجريدة في البرازيل، الصورة الأولى للأخلاق الوطنية الصحيحة المنزهة عن كل مأرب خصوصي التي عرفها المهاجرون، وكان من سوء حظ المقيمين ألا يعرفوها حتى سنوات قلائل مضت، والقوة الفكرية الموجهة للأدباء والشعراء والنور الذي قبسوا منه واستناروا به في أدبهم وشعرهم الوطنيين. لا ينكر إلا كل مكابر أثر الدكتور خليل سعاده في تكوين النفسية الوطنية الجديدة وشق طريق الروحية الوطنية الصحيحة ووضع قواعد العقلية السياسية المتينة»[43].

«لم يتح للدكتور خليل سعاده أن يرى رجاءه يتحقق بنشوء النهضة السورية القومية الاجتماعية التي أنشأت لسورية جيلاً جديداً ووضعت قواعد حياة جديدة. ولكن روحية الدكتور خليل سعاده، ذاك الرجاء العظيم الذي خفق به قلبه، تلك المطامح النبيلة التي جرى بها قلمه، هاتيك الأخلاق الكريمة التي ملأت فضاء حياته، لم يعد ممكناً أن تضيع، وتهلك، لان الأمة السورية قد استفاقت وأخذت تميز بين من أراد لها الحياة الجيدة ووثق بجودة جوهرها ومن أراد لها الموت وأخذ يكرس باليأس منها!»

شيكاغو، أيلول 2013 — سليم مجاعص

43 أنطون سعاده: جنون الخلود، الاعمال الكاملة، الجزء الخامس، ص 4، مؤسسة سعادة للثقافة، بيروت، 2001.

خليل سعاده في الوثائق الديبلوماسية الفرنسية

يضم هذا المجلد كتابات للدكتور خليل سعاده في المهجر الأميركي الجنوبي لم يطلع عليها إلا نفر قليل جداً، وتنشر هنا للمرة الأولى في الوطن. ونظراً إلى الأهمية التاريخية لهذه الكتابات، والتحليل السياسي الثاقب للأحداث في سورية والمهجر خلال الحرب العالمية الأولى وبعدها، رأينا أن نعيد نشرها في الوطن لأنها بحق مصدر تاريخي هام جداً ومجهول يظهر تطور الفكر السياسي السوري في المهجر في مرحلة تاريخية فاصلة حدد فيها الحلفاء مصير سورية لعقود، إضافة إلى تحليله لأحداث جرى تغييبها نهائياً عن كتب التاريخ.

كتابات الدكتور سعاده المعبرة عن خطه الاستقلالي الواضح ومناداته عبر التنظيمات السياسية التي أنشأها بالحرية لبلاده من دون وصاية أو حماية أو انتداب كانت محظورة بأوامر من سلطات الانتداب الفرنسي. وكانت مواقفه ومواقف الوطنيين السوريين الآخرين في المهاجر محط امتعاض الجنرال غورو كما تبين الوثائق الديبلوماسية الفرنسية عن تلك الحقبة، والتي سوف أعود إليها في السياق. لا يذكر اسم الدكتور سعاده في المناهج المدرسية في لبنان إلا مرة واحدة فقط واضطراراً كونه من المؤسسين لمجلة «الطبيب». أما إسهاماته في حقول اللغة (قاموس سعاده) والرواية والتاريخ والفكر السياسي والترجمة، فهناك تجاهل تام لها ولدوره الريادي. كما أن هناك تجاهلاً تاماً من قبل المؤرخين المذهبيين لدوره الوطني ونضاله في سبيل الحرية وحربه على الكيانات والانتماءات الطائفية. ومن المؤكد أن السبب يعود الى كونه والد أنطون سعاده من جهة وكون أفكاره النقيض التام لما أعلنه غورو في صبيحة ذلك اليوم المشؤوم في الأول من أيلول سنة 1920، واستمرار معارضته الحاسمة للاحتلال الفرنسي.

إن النظام السياسي المذهبي الذي أرساه الجنرال غورو والمستمر بأشكال مختلفة لكن بمضمون واحد حتى يومنا هذا قد اهترأ وأكل أبناءه بعد أن مزقهم إرباً. ولا تزال محاولات إنقاذ ما تأسس على الرمال متواصلة لكن من المؤكد أنه لا يمكن إحياء العظام وهي رميم. وهذا ما حذر منه الدكتور سعاده.

قد يسأل القاريء: لماذا نشر هذه المقالات بعد مرور ما يقارب المائة عام على ظهورها في أميركا الجنوبية؟ الجواب البسيط سيتضح للقراء بعد مراجعتهم هذه النصوص. إن كتابات الدكتور سعاده شخّصت وحددت الأمراض القاتلة التي ثبتها وأسس عليها الفرنسيون والبريطانيون في بلادنا. وبما أن الأحداث التاريخية الماضية تتداخل باستمرار مع ما يحدث حاضراً، فإن نظرة موضوعية إلى الأحداث التي شهدتها وتشهدها بلادنا الآن خير دليل على صحة ما كتبه خليل سعاده.

إن موضوع «المسألة السورية» أخذ الحيز الأكبر من كتابات ونشاطات الدكتور سعاده منذ وصوله إلى الأرجنتين وحتى وفاته في سان باولو في نيسان 1934. ويتبين لنا من خلال كتاباته أن الرجل كان متابعاً بشكل يومي للأحداث أثناء الحرب العالمية الأولى سواء عبر اتصالاته ومراسلاته مع أصدقائه العاملين في الحقل السياسي في سورية والمهجر، أو من خلال متابعاته للصحافة الأجنبية واتصالاته بالديبلوماسيين الأجانب. واستناداً إلى ذلك استطاع أن يقرأ جيداً مجريات الحرب العالمية الأولى، وحدد على أساس ذلك مواقفه من التحولات السياسية التي أعقبتها.

إن سمة رئيسية تتضح من خلال قراءتنا ومتابعتنا لكتابات الدكتور سعاده في المهجر الأميركي الجنوبي، وهي انصرافه الكلي إلى الشؤون الوطنية، في حين كانت فترة إقامته في مصر غنية بالإنتاج الأدبي واللغوي.

هكذا تميز الدكتور سعاده عن معظم الأدباء والمفكرين السوريين في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين. بعض هؤلاء كان همهم لغوياً أدبياً أمثال أحمد فارس الشدياق وأديب إسحق وناصيف وابراهيم اليازجي وغيرهم. ومنهم من اهتم بالتاريخ والمعرفة المعاصرة أمثال بطرس البستاني وجرجي زيدان وعيسى اسكندر المعلوف. ومنهم من ركز اهتمامه

على المسائل الفلسفية والعلمية أمثال يعقوب صروف وشبلي الشميل وفرح أنطون. لكن الدكتور سعاده خاض في معظم المواضيع الأنفة الذكر، وكان الحيز الأكبر من كتاباته خلال ما يقارب العقدين من الزمن في المهجر الأميركي الجنوبي يغطي موضوع ما سماه «المسألة السورية».

سنخصص هذا المجلد والمجلدات التي ستليه لموضوع واحد يتمحور حول تطورات المسألة السورية في ضوء كتابات الدكتور سعاده، إضافة إلى نشاطاته الهادفة إلى تحقيق الحرية التامة لبلاده ومتابعته الدؤوبة لفظائع الحرب في سورية. لذلك اخترنا العنوان للتعبير عما تعكسه مواد هذا الكتاب.

سوف أقتصر في هذه المقدمة على قراءة الوثائق الديبلوماسية السرية الفرنسية المتعلقة بالدكتور سعاده والصادرة عن القنصلية الفرنسية في بونس أيرس خلال فترة نشر بعض هذه الكتابات.

وعلى ضوء قراءة هذا المجلد سنكتشف الصورة الحقيقية للدور الهدام لعملاء فرنسا من المهاجرين الذين تحولوا إلى «أبطال للاستقلال» في كتب التاريخ التي وضعها المؤرخون المذهبيون في لبنان.

عندما وصل الدكتور سعاده في مطلع العام 1914 إلى الأرجنتين قادماً من مصر، كانت الجوالي السورية في المغتربات الأميركية والمصرية تحت مجهر أجهزة التجسس الفرنسية. ولم يقتصر نظام التجسس الفرنسي على الجوالي السورية في المهجر بل تزامن مع نشاط مماثل في الوطن. وفي حين تركز النشاط البريطاني المتعلق بالمشرق العربي في قبرص منذ ما قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى، كان النشاط الفرنسي أيضاً يتمركز في جزيرة أرواد التي تحولت إلى قاعدة رئيسية فرنسية لجمع المعلومات تحت إشراف الكابتن جورج ترابو الذي كان يوزع الأموال على عملائه متنقلاً ما بين أرواد وطرابلس، وهو الذي أصبح في ما بعد الحاكم العسكري للبنان ما بين 1920 و1923.

أما في المهجر الأميركي الجنوبي، فتظهر الوثائق الديبلوماسية الفرنسية المحفوظة في مدينة نانت أن النشاط التجسسي الفرنسي كان قد بدأ منذ العام 1910 وذلك عندما كان الحزب الاستعماري

الفرنسي ممثلاً بلجنة آسيا– الفرنسية (Comité de L'Asie Française) يركز اهتمامه على استعمار سورية. وفي العام 1912 شكلت أيضاً لجنة أخرى مماثلة دعيت لجنة الدفاع عن المصالح الفرنسية في الشرق (Comité de Defence des interets Française en Orient).

وكان الأمين العام للجنة آسيا–الفرنسية روبير دو كاي المخطط الاستراتيجي وواضع أسس سياسة تقسيم سورية إلى دويلات. وتولى دو كاي، الذي لعب دوراً رئيسياً في سياسة التمزيق الطائفية التي اعتمدتها فرنسا في مطلع عهد الانتداب، المسؤولية عن شبكات التجسس في سورية والمهجر منذ مطلع العام 1920.

إستوجب مخطط إحكام السيطرة الفرنسية على سورية بعد انتهاء الحرب التحضير للأرضية المناسبة لدفع مشروع السيطرة قدماً وإزالة العقبات من أمامه. ونتيجة لحملة الاستقصاء الشاملة لمعرفة آراء وتوجهات المهاجرين السوريين، عمد الفرنسيون إلى إنشاء وتمويل تكتلات وتنظيمات سياسية تدين بالولاء لهم مثل اللجنة المركزية السورية في باريس برئاسة شكري غانم، و«التحالف اللبناني» في بونس أيرس، وتنظيمات مماثلة في البرازيل والبارغواي وتشيلي والمهاجر الأميركية الأخرى.

على سبيل المثال، كانت جريدة «المستقبل» الناطقة بلسان اللجنة المركزية السورية في باريس أحد المنابر الصحافية الخاضعة للتوجيهات الفرنسية والممولة فرنسياً. ويعلق الدكتور سعاده إثر استلامه أحد أعداد «المستقبل» بالقول: «إن عيبها الوحيد أنها أنشئت لخدمة المصالح الفرنسية وراء ستار المصالح السورية... الحكومة الفرنسية لم تشتر رجالاً وأقلاماً لتأييد نفوذها وما كان لها من الأثر الطيب في قلوب الشرقيين، ولكنها اشترت فعلة ومعامل لتقويض ما بقي من ذلك النفوذ والأثر. فأحرّ بها أن تردد لأولئك الفعلة وحملة المعاول قول الشاعر العربي:

وأصحاب اتخذتهم دروعاً فكانوها ولكن للأعادي

وخلتهم سهاماً صائبات فكانوها ولكن في فؤادي [1]

يذكر Guicciardi القنصل الفرنسي في سان باولو سنة 1921 أن الصحف المهجرية التالية الصادرة في البرازيل تؤيد فرنسا، وهي: «أبو الهول» لصاحبها شكري خوري، و«البرازيل»

لجورج مسرة، و«فتى لبنان» لرشيد عطية، و«الرائد» لنجيب حداد، و«الميزان» لنجيب إسطفان غلبوني. أما الصحف المعادية فهي: «الأفكار» لصاحبها سعيد أبو جمرة، و«الجريدة» لخليل سعاده، و«الاتحاد العربي» لجورج ميخائيل أطلس[2]. بالطبع كانت الصحافة ذات الميول الفرنسية بوقاً للتوجيهات المرسلة من الفرنسيين، وبالتحديد المندوب السامي الفرنسي في سوريا ولبنان الجنرال غورو. وتشير وثيقة من قنصلية فرنسا في بونس أيرس بتاريخ 18 تموز 1920 إلى أوامر الجنرال غورو المرسلة في 13 أيار الماضي والتي تقضي بتسليم توجيهاته إلى صحيفة «الاتحاد اللبناني» التي «تعمل بدون أدنى شك لمصلحتنا»[3].

على صعيد آخر، وبهدف إخراس الأصوات الاستقلالية والحد من تأثيرها، عمد الفرنسيون إلى منع الصحف والمجلات المعادية من دخول الأراضي المشمولة بالانتداب، واتهموا أصحابها بأنهم يهربون صحفهم بواسطة البريد البريطاني إلى اسطنبول ومن هناك توزع في بيروت ودمشق[4].

وحول أساليب إدخال الصحف المعادية إلى سورية، يذكر الدكتور سعاده أن جريدة «الجريدة» نفذت من النطاق الحديدي الذي فرضه عليها غورو بقوله:

«لما زرنا مؤخراً الريو جمعنا بعض الأصدقاء بأديب من مسلمي دمشق قص علينا الطريقة التي جرى عليها في إيصال «الجريدة» إلى دمشق، وهي أنه كان يرسلها أولاً إلى صديق في القاهرة من القطر المصري. وهذا كان يرسلها بدوره إلى صديق له في القدس من فلسطين، ثم يتولى هذا الصديق إيصالها إلى دمشق»[5].

لم تقتصر عملية خنق الأصوات الاستقلالية على منع الصحف من دخول سورية، بل تدخل روبير دو كاي مطالباً الخارجية الفرنسية باتخاذ موقف من حملات المهاجرين السوريين على فرنسا وسياستها، وكلّف جهاز المخابرات بتحضير دراسة للاتجاهات السياسية بين المهاجرين المعادين لفرنسا، وتحديد المصادر التي يعتمدون عليها بهدف مواجهة حملاتهم المضادة[6].

قد يبدو للبعض أن هناك مبالغة وتضخيماً للأثر السلبي الذي تركته الأصوات المهجرية الاستقلالية على السياسة الفرنسية، إلا أن الوثائق الديبلوماسية الفرنسية تدحض مثل هذا الاعتقاد. فقد كان الفرنسيون يخشون في البدء أن تؤثر سلباً الحملات المضادة لهم على

تشريع عصبة الأمم لانتدابهم. لكن بعد حصول فرنسا على مباركة عصبة الأمم لانتدابها على سورية، استمر هاجس الإعلام المضاد وأثره السلبي على الداخل السوري. وقد أعرب الجنرال غورو في برقية بتاريخ 20-8-1920 إلى السفير الفرنسي في الأرجنتين عن امتعاضه من الدعاية المضادة لفرنسا من قبل المهاجرين السوريين القادمين من الأرجنتين[7]. وفي رسالة أخرى من غورو بتاريخ 3 أيار 1921 يلفت نظر المعتمد الفرنسي إدوار غوسن إلى الهجمات العنيفة التي يشنها بعض الصحف العربية الصادرة في الأرجنتين ضد فرنسا، ويطلب نشر المعلومات والأخبار التي تهم فرنسا في الصحف التي للفرنسيين تأثير عليها[8].

بالطبع كانت مجلة «المجلة» وجريدة «الجريدة» في طليعة الصحف المعادية للاحتلال الفرنسي. وفي ملف خاص[9] عن الدكتور خليل سعاده يحتوي على تقارير كتبها عملاء فرنسيون في المهجر الأرجنتيني إضافة إلى تقارير المعتمد الفرنسي في بونس أيرس المرفوعة إلى وزارة الخارجية الفرنسية، وترجمات إلى الفرنسية لخطب ومقالات للدكتور سعاده، يتبين لنا بوضوح مدى تورط القنصلية الفرنسية في حملتها على الدكتور سعاده واتجاهه الاستقلالي.

إن التقارير التي يتضمنها ذلك الملف كانت بالدرجة الأولى من إعداد نائب رئيس جمعية «الاتحاد اللبناني» المؤيدة لفرنسا وترجمان القنصلية وأحد عملائها شكري أبي صعب الذي كان يتقن العربية والفرنسية والإسبانية. وكانت تقارير أبي صعب تتضمن معلومات تفصيلية عن نشاطات تنظيمات «الحزب الوطني الديموقراطي» الذي أسسه الدكتور سعاده في بونس أيرس في 15 شباط سنة 1919. وقدم أبي صعب في تقاريره المتعددة مسحاً تفصيلياً لجميع التنظيمات والجمعيات السياسية والاجتماعية للجالية السورية في الأرجنتين، إضافة إلى تقرير من «مخبر رصين» عن «جبهة تحرير سورية» التي كان مركزها في نيويورك.

انعقد مؤتمر الحزب الوطني الديموقراطي في 17 نيسان 1919 بُعيد انعقاد مؤتمر الصلح في فرساي في كانون الثاني 1919. حضر المؤتمر ممثلو البعثات الديبلوماسية في بونس أيرس، واعتبر الدكتور سعاده في كلمته الافتتاحية أن المؤتمر هو نوع من الثورة الفكرية، وقال: «أجل نرفع صوتنا حتى يسمعنا العالم كله ويطل من نوافذه ليرى أية دولة تسوّل لها نفسها هضم حقوق هذا الشعب الضعيف الذي جوّع في سبيل الحلفاء، واستشهد في سبيل الحلفاء... إننا نرفع الصوت الاستقلالي حتى يسمعنا مؤتمر الصلح وأبطال الأمم القوية الذين أسمعونا من على منابر العالم

أثناء أربع سنين طويلة أناشيد الحرية المطربة وأغاني الاستقلال الشجية»[10].

وبالطبع كان عملاء فرنسا يصفون الأعمال المعادية لموليهم بما يتناسب مع رغبات الممولين. فنجد مثلاً أن شكري أبي صعب يلخص في تقرير سري ما جرى في المؤتمر بقوله إنه «كان هجوماً كاسحاً على فرنسا»، واعتبر أن المؤتمر لا قيمة له ولم يحضره سوى الباعة الفقراء!

وتظهر التقارير والمراسلات الديبلوماسية التي تضمنها ملف القنصلية الفرنسية عن الدكتور سعاده أن علاقة هذا الأخير مع القنصل الفرنسي كانت جيدة في البدء، إذ كان قد وجه إليه رسالة يدعوه فيها إلى حضور مؤتمر الحزب الوطني الديموقراطي[11].

من ناحية أخرى، وعلى الصعيد النظري، لم يكن الدكتور سعاده يحمل سوى الإعجاب بفرنسا والثورة الفرنسية. وعلى الرغم من خلافه مع القنصل الفرنسي في بيروت في كانون الثاني 1909 واضطراره بسبب ذلك إلى الهجرة نحو مصر، إلا أنه واصل دعوته إلى الاقتداء بالثورة الفرنسية معتبراً أن «14 تموز هو الحد الفاصل في التاريخ الحديث بين سيادة الملوك المبنية على ما كان يسمونه حقوقهم الإلهية وسيادة الشعب المبنية على حقوقه الطبيعية»[12]. وأن «14 تموز عيد حرية الجنس البشري وعيد الأمم جمعاء (...). الثورة الفرنسية أعظم مشعل رفعته آلهة الحرية لتضيء به ظلمات الجنس البشري»[13].

كانت قضية الحرية من القضايا الأساسية التي عالجها الدكتور سعاده طيلة سنوات الحرب العالمية الأولى. وكانت أعداد «المجلة» تعالج هذه المسألة الهامة من نواحيها المختلفة في سلسلة من المقالات حملت عناوين مثل «طبائع الاستبداد»، و«الشعوب والحرية»، و«مذهب لوك والحرية»، و«فولتير والحرية»، وغيرها من الأبحاث.

تفجر الخلاف بين الدكتور سعاده والقنصلية الفرنسية لأسباب عديدة منها وضوح النوايا الحقيقية لفرنسا الاستعمارية وتفاقم حالة التحاق المستفيدين من السياسيين السوريين بركابها مثل القنصل التركي السابق في بونس أيرس أمين إرسلان الذي دعا في مقالاته إلى حماية فرنسا بتشجيع من السفير الفرنسي.

كان أمين إرسلان نموذجاً صارخاً للساسة المتزلفين الذين ينتقلون من موقف إلى نقيضه. فهو تارة في خدمة الأتراك بوصفه قنصلاً في بروكسيل وباريس وبوردو وبونس أيرس، ثم مع

وضوح معالم هزيمتهم في الحرب العالمية الأولى إنتقل لخدمة الفرنسيين الذين دعموه مالياً. وبعد الثورة السورية سنة 1925 بدأ بالحملة على الفرنسيين لأسباب طائفية. وفي مرحلة لاحقة انتقل لتأييد دول المحور إلى حين وفاته في الأرجنتين في كانون الأول 1943.

يذكر الدكتور سعاده في سلسلة أبحاث بعنوان: «أمين إرسلان والقضية السورية» أنه بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى طلب منه إرسلان تحويل «الجامعة السورية» التي كان يرأسها الدكتور سعاده إلى جمعية تطالب بحماية فرنسا. رفض سعاده الطلب، لكن إرسلان واصل سياسته الداعية للحماية ونشر بتوجيه من السفير الفرنسي تصريحاً في صحيفة «لاناسيون» ادعى فيه أنه يمثل الجالية السورية التي تطالب بالحماية الفرنسية.

رد الدكتور سعاده على ادعاءات إرسلان في الكلمة التي ألقاها في حفل جمعية «الاتحاد اللبناني» بمناسبة هزيمة الأتراك وجلائهم عن سورية، وقال: «إننا قد لا نحسن أول الأمر القيام بشؤوننا بل قد نخبط فيها خبطاً كثيراً، وإن فينا مواضع ضعف كثيرة (...) ولكننا لسنا بالأطفال الرضع كما يزعم البعض ممن مثلونا أمام الحلفاء تمثيلاً يؤخذ منه أننا غير أهل للاستقلال. فإذا لم يعرف الرجل كيف يمرن رئتيه في الهواء الطلق على الطريقة الهجينية المقررة، فلا يجوز أن نستنتج من ذلك أنه لا يحق له أن يتنفس. فلا منطق أرسطوطاليس ولا فصاحة ديموستين ولا فلسفة سقراط تقدر أن تمنع شعباً من حقوقه الطبيعية»[14].

ويضيف محدداً من يعنيه، وهو الموظف التركي السابق أمين إرسلان، بقوله: «إن الذين يدّعون أن لا أهلية لنا بالاستقلال هم «أنبياء كذبة» يتمتعون بموهبة التملق الحقيقي الذين اتقنوه في مدرسة الأتراك سادتهم ومستخدميهم السابقين»[15].

نتيجة لخطاب الدكتور سعاده، حدثت برودة بين جمعية «الاتحاد اللبناني» والسفارة الفرنسية بسبب عدم تلبية رغبة السفير بدعوة إرسلان للكلام في الحفلة. وهكذا وقع انشقاق مدعوم من السفارة الفرنسية في الجمعية المذكورة، وتأسست جمعية جديدة باسم «التحالف اللبناني» تطالب بحماية فرنسا. وقد أصدرت هذه الجمعية لاحقاً، بدعم من السفارة الفرنسية، صحيفة ناطقة بلسانها تحمل اسم «التحالف اللبناني». وتحولت هذه الجمعية إلى بوق للسياسة الفرنسية، وكلف الفرنسيون أعضاءها الإتصال بوزير خارجية

الأرجنتين قبل سفره إلى مؤتمر الصلح لمطالبته بتأييد انتداب فرنسا على سورية.

وفي أعقاب حملة شديدة اللهجة شنّها الدكتور سعاده على مواقف ونشاطات إرسلان بسبب مقالاته التي نشرها في الصحف والمؤيدة للحماية الفرنسية، وقيامه سراً بالتنسيق مع المعتمد الفرنسي لإرسال كتاب إلى الرئيس الأميركي ولسن محاولاً اقناعه بعدم أهلية السوريين للاستقلال، سارع المعتمد الفرنسي غوسن إلى الدفاع عن إرسلان بنشره بياناً في الصحف العربية رد فيه على حملة الدكتور سعاده. وفي تقرير من غوسن بتاريخ 12 نيسان 1920 يتحدث عن العدد الخاص الذي صدر من «المجلة» وعالج فيه الدكتور سعاده موقف إرسلان، يقول غوسن إنه يعرف إرسلان منذ ما يقارب السنتين، وإن عواطفه كانت جيدة تجاه فرنسا منذ الأيام الأولى للحرب. كما يشتكي غوسن من أن الدكتور سعادة لم يرسل إليه ما كتبه في المجلة قبل النشر[16].

رد الدكتور سعاده على بيان غوسن بعد أيام فقط من صدور ذلك البيان، ونشرت جريدة «السلام» الرد الذي يفنّد ادعاءات القنصل (النص الكامل في سياق هذا المجلد، ص: 197).

وانضم إلى الدفاع عن إرسلان أحد عملاء فرنسا الرئيسيين في باريس شكري غانم الذي أشاد في رسالة بالفرنسية محفوظة في ملفات القنصلية الفرنسية- بونس أيرس بمواقف إرسلان معتبراً أنه «ذو ثقافة فرنسية»، فهو فرنسي في القلب والروح إذا ساعدناه يستطيع أن يساعدنا كثيراً، وهو صاحب جريدة مقروءة من المهاجرين، إضافة إلى أنه يعتبر بين أعضاء الحكومة الأرجنتينية شخصية هامة. واقترح غانم على السفير الفرنسي أن يتظاهر هذا الأخير بالاستماع إلى إرسلان والاهتمام به، وبعد ذلك يمكنه إزاحته وتجاهله أو استعماله لمصلحتنا. واعتبر غانم أن هذا التكتيك في حال اتباعه سوف يضطر إرسلان إلى التعامل معنا والعمل لصالحنا في الوسط السوري في الأرجنتين، لأن شخصاً مثله سيكون مفيداً جداً لنا[17].

شكري غانم هذا أثبت ولاءه لمموليه الفرنسيين حين قدم في 13 شباط 1919 مطالعة أمام مؤتمر الصلح في فرساي مدعياً أنه ينطق باسم الجاليات اللبنانية والسورية في المهاجر مطالباً بفدرالية سورية تحت الحماية الفرنسية.

والطريف أنه بعد أن يأس غوسن من ضم الدكتور سعاده إلى جانب الأصوات المنادية بالحماية

الفرنسية، حاول في اجتماعه الأخير به اغراءه بالمال. ويسرد الدكتور سعاده تفاصيل تلك المحاولة في القسم الثالث من بحثه «أمين إرسلان والقضية السورية»:

«لما قابلنا المسيو غوسن قال: «بعثت إلى حكومتي بأن إرسلان لا يمثل الجالية وأنه يجب أن نعتمد في شؤونها عليك».

فقلنا له: « إننا عازمون على خدمة وطننا بإخلاص، وإننا مستعدون للتفاهم مع فرنسا في كل شيء لا يؤثر في جوهر الاستقلال، ونحن نحب فرنسا ولكننا نحب وطننا فوق فرنسا وفوق كل دولة».

دعانا بعد هذا السفير، وقال لنا: «إن حكومة فرنسا قد عينت لك راتباً سنوياً».

فأجبناه بالحرف الواحد: «لا أريد قط أن أكون تحت جميل الحكومة الفرنسية». كان هذا آخر علاقتنا الودية مع الموسيو غوسن»[18].

لم تنحصر المواضيع الخلافية مع المعتمد الفرنسي في موضوع أمين إرسلان فقط، بل كانت هناك قضايا شتى تتفرع جميعها عن الموضوع الأساسي وهو استقلال سورية من دون أية وصاية أو انتداب. وقد استفاض الدكتور سعاده في شرحها من خلال سلسلة «أمين إرسلان والقضية السورية».

فعلى سبيل المثال، أثار المعتمد الفرنسي خلال اجتماعاته مع الدكتور سعاده عدم شن حملة على الأتراك في «المجلة» وعدم الترويج خلال الحرب لطلب الحماية الفرنسية والدعوة إلى حملة التطوع للقتال في صفوف الحلفاء أسوة بالجمعيات الأخرى التي شجعها الفرنسيون. وقد كرر هذين الاتهامين في ما بعد رشيد عطيه في جريدة «فتى لبنان» الصادرة في سان باولو، وهي الصحيفة المؤيدة للفرنسيين.

رد الدكتور سعاده على هذه الاتهامات بالقول في ما يتعلق بالاتهام الأول: «أتينا سابقاً على فساد حكام الأتراك ومظالمهم وسوء إدارتهم وفوضى سلطتهم قبل الدستور وبعد الدستور، يوم كان غيرنا يقدس في بيروت سلطانهم ويحمل المباخر أمام حكامهم ويحرق البخور أمام ولاتهم ويدير عليهم كؤوس الثناء والمديح سلسبيلاً ويسبح بحمدهم بكرة وأصيلاً»[19].

أما بالنسبة إلى الاتهام الثاني فيقول: «أما نحن فقد أعرضنا عن إنشاء جمعيات تدعو إلى

التطوع لأننا لم نرد أن نقذف بشبابنا الذين هم لحم من لحمنا ودم من دمنا إلى خطوط النار والفولاذ قبل أن نعرف في سبيل أي شيء نجازف بحياة إخواننا ومواطنينا، أفي سبيل الاستقلال أم في سبيل الحماية»[20].

هنا لا بد من الإشارة إلى أن الدكتور سعاده كان حذراً أثناء الحرب في اتخاذ موقف سياسي نهائي بالنسبة إلى القوى المتصارعة، وكان واضحاً له أنه أياً كان المنتصر في الحرب فإن مصير سورية سيتحدد نتيجة لذلك، وأن البشرية ستدخل في حقبة جديدة تختلف عن الحقبة الماضية.

في بداية الحرب، كان الدكتور سعاده يشيد بأخلاق الأمة الفرنسية ويستبعد أن تدخل فرنسا بلادنا غازية خصوصاً بعد إصدار مجلس الأمة الفرنسي قراراً يعلن فيه أن فرنسا مستعدة لمناصرة الأمم في سبيل إحراز حريتها. كما كان يأمل في أن تساعد الولايات المتحدة سورية للحصول على استقلالها خصوصاً بعد خطب الرئيس ولسن الذي رفض العمل بالاتفاقيات السرية بين الحلفاء، في إشارة الى إتفاقية سايكس - بيكو التي كشف عنها البلاشفة. لكن كل تلك التمنيات تبخرت بعد انتهاء الحرب، وأثبتت الأحداث أن كلام الحلفاء عن حريات الشعوب المغلوبة هو مجرد حبر على ورق. ويعترف الدكتور سعاده في مقال بعنوان «السنة العاشرة»، كتبه بمناسبة مرور عشر سنوات على اصداره «المجلة»، بخطأ موقفه من الحلفاء أثناء الحرب فيقول:

«في ذلك الزمان كانت تدور الأماني الوطنية في مخيلتنا كما تدور الصور المتحركة على جدران المسارح. وكنا ننظر إلى الحلفاء نظر الغريق إلى قارب النجاة. كان كل كسر يصيبهم يملأ قلبنا ترحاً، وكل نصر يحرزونه يملأ نفسنا فرحاً.

«أخيراً حصلنا على أمنية قلوبنا ودخل الحلفاء وطننا، وأقمنا لهم الحفلات التذكارية، وألقينا من على المنابر خطباً تاريخية. حينئذ سقطت قشور عن أعيننا وأبصرنا الحقيقة كما هي.

«أبصرنا أننا كنا نعبد بدلاً من آلهة العدل والحق والحرية أصناماً وأوثاناً للظلم والباطل والعبودية»[21].

وجه الدكتور سعاده في تشرين الثاني سنة 1918 كتاباً مفتوحاً الى السوريين واللبنانيين

والفلسطينيين يدعوهم فيه الى الانتظام في جمعيات وتنظيمات لرفع الصوت عالياً وارسال البرقيات لمؤتمر الصلح والمطالبة بالاستقلال والحرية. وذكر أن ما دفعه إلى نشر «الكتاب المفتوح» كان الغموض الذي أخذ بالاحاطة بالمسألة السورية والمواقف البريطانية والفرنسية والأميركية في موضوع استقلال سورية، وانكشاف أمر أتفاقيات سايكس - بيكو، ودخول الأمير فيصل المتحالف مع الإنكليز على خط الصراع على سوريا. ودعا المهاجرين الى التالي: «اطلبوا الاستقلال! اطلبوه بصوت عال يبلغ السماء بلا خجل ولا وجل. اطلبوه عاجلاً، اطلبوه الآن قبل فوات الفرصة لأن الوقت لا ينتظر أحداً. دولاب الدهر يدور بسرعة هائلة لا مثيل لها في تاريخ العالم، وعما قليل يعقد الحلفاء مؤتمر السلم الذي سيكون حكمه فصل الخطاب في مصير الأمم والشعوب. فمتى خرج منادي المؤتمر ينادي: «جاء دور سوريا ولبنان وفلسطين» فما يكون الجواب يا ترى؟!»[22].

تجاوبت جمعيات مهاجرة في جوالي تشيلي وبوليفيا والأوروغواي والبرازيل مع دعوة الدكتور سعاده، وتلقى رسائل إيجابية منها. وعُقد مؤتمر في سانتياغو تشيلي في مطلع شهر أيار سنة 1919 ضم مندوبين عن الجوالي السورية واللبنانية والفلسطينية في كل من تشيلي والبرازيل والأرجنتين وبوليفيا والبيرو. وطالب المؤتمرون بالاستقلال المطلق لسوريا. ونتيجة لذلك سارعت السفارة الفرنسية في سانتياغو إلى مطالبة بعض أنصارها الأعضاء في «الرابطة الوطنية السورية» بالانشقاق عن الرابطة، والدعوة إلى اتحاد سوري تحت رعاية فرنسا. هنا تفجر خلاف جديد، وهذه المرة كان مع المعتمد الفرنسي في تشيلي الذي اتهم «الرابطة الوطنية السورية» في تشيلي بأنها تنسق نشاطاتها مع الدكتور سعاده وتنشر مقالاته المعادية لفرنسا. وكان رد الدكتور سعاده على ذلك بكتاب مفتوح إلى المعتمد الفرنسي نشرته جريدة «الشبيبة» في سانتياغو مع ترجمة إسبانية، وهو محفوظ في ملف قنصلية فرنسا في بونس أيرس. توجه الدكتور سعاده في رده على المعتمد الفرنسي قائلاً: «تهددنا من حين إلى آخر قولكم تعدوننا من أعداء فرنسا. فإذا كان من يحارب الاحتلال الفرنسي لوطنه ومطامع الحزب الاستعماري الفرنسي عدواً لفرنسا، فنحن أعدى أعدائها»[23]. وأضاف: «إذا كنتم تحسبون أننا نخافكم إذا قلتم إننا أعداء فرنسا، فضعوا اسمنا على رأس قائمة أعدائها»[24].

وبالعودة إلى الوثائق الديبلوماسية الفرنسية، يبدو أن السلطات الفرنسية كانت تراقب أيضاً

نشاطات ومراسلات الدكتور سعاده. فمن المعروف، وكما يشير هو في العديد من مقالاته، أنه كان على اتصال دائم مع الناشطين السوريين في الوطن والمهجر. ويبدو أن رسالة من جميل مردم بك إلى الدكتور سعاده مؤرخة في 28 آذار 1919 وقعت في أيدي الأجهزة الفرنسية، وتم ارسالها إلى مترجم السفارة شكري أبي صعب كي يقوم بترجمتها من العربية إلى الفرنسية. يذكر مردم بك في الرسالة: «أريد أن أعلمك عن موقفنا السياسي في الوقت الحاضر وعما تم بشأن مسألتنا السورية، ولا بد من أنك اطلعت في الصحف عن ما جرى في مؤتمر الصلح، لقد وقع اختلاف في المدة الأخيرة بيني وبين غانم وكل من يلتف حوله»[25].

إضافة إلى ذلك اشتكى الدكتور سعاده في مقالاته من مصادرة السلطات الفرنسية للبرقيات التي بعثتها الجمعيات والأحزاب الوطنية إلى كل من الرئيس ولسن ولويد جورج ومؤتمر الصلح مطالبة بالاستقلال التام ورافضة لبرقيات غانم وإرسلان وجماعة فرنسا. لذلك لجأ الوطنيون السوريون إلى إرسال برقيات جديدة إلى وزارة الخارجية البريطانية وسفارة الولايات المتحدة في الأرجنتين للإبلاغ عن الموقف الحقيقي للسوريين المطالب بالاستقلال التام ورفض الحماية الفرنسية[26].

ختاماً، يمكننا أن نلخص كتابات الدكتور سعاده السياسية في المهجر الأميركي الجنوبي بعبارة لأنطون سعاده حين قال عن تلك الكتابات إنها «الصورة الأولى للأخلاق الوطنية الصحيحة المنزهة عن كل مأرب خصوصي التي عرفها المهاجرون...»[27]. كانت مغريات الفرنسيين كثيرة، لذلك انضم إلى القطار الفرنسي زعماء كانوا يسمون أنفسهم استقلاليين طمعاً بالمغانم والمناصب، وتنافسوا في ما بينهم على التملق للفرنسيين. وعلى سبيل المثال لا الحصر، انتقل حقي باشا العظم إلى الخدمة تحت الانتداب الفرنسي بعد أن كان من الداعين إلى الوحدة السورية والتحرر. إن حالة التذبذب في المواقف السياسية والانتقال الزئبقي من موقف سياسي إلى نقيضه سمة لا تزال متأصلة حتى يومنا هذا بين العاملين في السياسة في بلادنا.

الآن يرقد الدكتور سعاده، الذي كان من أمانيه أن تتذكر الأجيال السورية نضاله، في مقبرة الجالية السورية في سان باولو. رحل والانتداب ينتقل من قوة إلى أخرى، والعديد من شوارع بيروت سميت بأسماء المحتلين والغزاة واللصوص والقتلة والخونة من غورو إلى اللنبي، إلى فوش، إلى سبيرس، إلى عملائهم المحليين من شتى الطوائف... الخ. وكأني برثاء خليل

سعاده لصديقه وزميله إبراهيم اليازجي بعنوان «نم بسلام» هو بمثابة رثاء لنفسه أيضاً حين قال: «أتعود إلى الشرق الذي يفترس نوابغه كما تفترس الغيلان أولادها؟ أتعود إلى الشرق الذي لا قيمة فيه للعلم والعلماء والأدب والأدباء والفضل والفضلاء؟ أتعود إلى الشرق الذي يدفن رجاله في زوايا الإهمال كما يدفن الجاهل لآلئه في زوايا النسيان؟ إنك وأيم الحق لأسعد حالاً في قبرك منك في حياتك.

«نم بسلام. فسيعرف الشرق قدرك متى عرف لنفسه قدراً، وسيخلد لك ذكراً متى استعاد لنفسه ذكراً. نم بسلام. فقد جاهدت جهاد الأبطال، وكان نكراننا جميلك وصمة عار تلصقها بنا سائر الأجيال. وقفتَ على العربية حياتك وصرفت في سبيلها شبابك، فما رعينا لك عهداً ولا ذكرنا لك وداً، فعثرت لأنك أنهضتها وشقيت لأنك أسعدتها وسقمت لأنك أبرأتها ومت لأنك أحييتها»[28].

بيروت، آذار 2013 بدر الحاج

مراجع

(1) «المجلة»، الجزء 22، السنة الرابعة، بونس أيرس في 1 أيار 1919، ص 572.

(2) Ministère de Affaires Etrangeres (MAE)/Paris/Serie E- Levant, Carton 132, fols. 26 a & 26 b.

(3) Centre de Archives Diplomatiques de Nantes. Buenos Aires, Amb. Serie 1887-1925, Carton 102.

(4) المصدر السابق وثيقة من وزارة الخارجية الفرنسية مؤرخة في 4 نيسان 1921 وموجهة إلى المعتمد الفرنسي في بونس أيرس.

(5) جريدة «الجريدة» العدد 40، السنة الأولى، سان باولو في 6 آب 1920، مقال «السنة الأولى للجريدة» ص 4.

(6) MAE مصدر سبق ذكره، صندوق رقم 128، رسالة من روبير دو كاي مؤرخة في 1920/12/28.

(7) مركز الأرشيف الديبلوماسي الفرنسي / نانت.

Buenos Aires, Amb. Serie 1887-1925, file 102.

برقية من غورو الى المعتمد الفرنسي في الأرجنتين بتاريخ 20 آب 1920.

(8) المصدر السابق، رسالة من غورو إلى وزير فرنسا المفوض في الأرجنتين بتاريخ 3 أيار 1920.

(9) المصدر السابق، تقرير من ست صفحات مؤرخ في 17 نيسان 1911.

(10) خطاب مخطوط للدكتور سعاده ينشر لأول مرة.

(11) مركز الأرشيف الديبلوماسي الفرنسي / نانت، مصدر سبق ذكره، ملف رقم 103 رسالة من الدكتور سعاده الى القنصل الفرنسي في بونس أيرس بتاريخ 15 شباط 1919.

(12) «المجلة»، العدد الرابع، السنة الأولى، بونس أيرس في 1 آب 1915، مقال «14 تموز» ص 103.

(13) «المجلة»، العدد الخامس، السنة الأولى، بونس أيرس في 15 آب سنة 1915، مقال «معضلة العمران» ص 129.

(14) «المجلة»، السنة الرابعة، الجزء الثامن، بونس أيرس في 1 تشرين الأول 1918، كلمة في حفلة «جمعية الاتحاد اللبناني»، ص 126.

(15) المصدر السابق، ص 127.

(16) مركز الأرشيف الديبلوماسي الفرنسي / نانت، صندوق رقم 102.

(17) المصدر السابق، صندوق رقم 103.

(18) جريدة «الجريدة»، العدد 57، السنة الأولى، سان باولو في 10 كانون الأول سنة 1921، ص 4.

(19) «المجلة»، الجزء الخامس عشر، بونس أيرس في 15 كانون الثاني 1918، مقال «بسط وايضاح» ص 206.

(20) المصدر السابق.

(21) «المجلة» الجزء الأول، السنة العاشرة، سان باولو في شباط سنة 1924، ص 2.

(22) «المجلة»، الجزء الحادي عشر، بونس أيرس في 15 تشرين الثاني 1918، مقال «كتاب مفتوح إلى السوريين واللبنانيين والفلسطينيين»، ص 155.

(23) جريدة «الشبيبة»، السنة الثالثة، العدد 132، سانتياغو، تشيلي، في 22 تشرين الثاني سنة 1919، ص 14.

(24) المرجع السابق ص 15.

(25) مركز الأرشيف الديبلوماسي الفرنسي / نانت، مصدر سبق ذكره.

(26) «الجريدة»، سان باولو، العدد 56 ، السنة الثانية في 26 آب سنة 1920، مقال «سوريا وفرنسا أثناء مؤتمر الصلح- 2».

(27) أنطون سعاده، «جنون الخلود»، مؤسسة سعادة للثقافة، بيروت 2012، ص 18.

(28) «المجلة»، العدد الأول، السنة الأولى، بونس أيرس في 15 حزيران سنة 1915، مقال «نم بسلام»، ص 10.

كتابات في الأرجنتين
فظائع الحرب

خطب لبنان وسوريا
[1]

نسطر بدم القلب الأنباء البرقية والرسائل الخصوصية المنبئة باشتداد الضيق والجوع في لبنان وسورية، اشتداداً لم يسمع بمثله في غابر الدهور، فلقد انقضت علينا هذه الأنباء المتواترة انقضاض الصواعق، فقتلت ما بقي في صدورنا من آمال، وفي نفوسنا من صبر، وفي قلوبنا من حياة.

كانت تردنا أخبار المصائب تترى، وتتوالى علينا أنباء الشؤم، ولكننا كنا نتلقاها برباطة جأش وثبات عزيمة، عالمين أن هذه الحرب الطاحنة كانت ولا تزال شؤماً، على العالم كله، فإذا أصاب وطننا نصيب من الضيق العام فهو، أمر منتظر، ولكن لم يدر في خلدنا قط أن ذلك الوطن العزيز التعس، سيناله من الخطوب والنكبات ما ترتعد له الفرائص.

لم يدر في خلدنا أن المجاعة ستفتك بأهله فتكاً ذريعاً، وتوردهم موارد الهلكة فرادى وأزواجاً، وتحصد صفوفهم بمنجلها الهائل جماعات وأفواجاً.

الموت الأبيض

عرفنا الموت الأسود الذي اجتاح أوروبا في القرون الوسطى وحصد أهلها حصداً، ورأينا الموت الأحمر في ساحات المعارك يخضب الأرض بدماء بنيها، وينشر قتلاهم أشلاء تملأ الهضاب والبطاح، وشاهدنا الموت الأزرق في الخنادق يهب على شكل غازات خانقة تهرئ الرئات وتقتل الجنود قتلاً صاعقياً في مثل غمض الجفن أو تميتهم ميتة شنيعة بالألم يقصر القلم عن وصفها، ولكن هنالك ضرباً من الموت أشد هولاً من سائر هذه الضروب كلها ألا وهو الموت الأبيض.

أجل: جاءنا الموت الأبيض الذي هددتنا به الحرب منذ بدء أمرها ألا وهو الموت جوعاً. موت

لا يأتي مع لعلعة المدافع ووميض النيران وطلقات البنادق ولمعان السيوف وضباب الغازات السامة، بل يدنو منا ساكتاً صامتاً، ولكن في هذا الصمت الهائل من الرهبة والهول ما تقشعر له الأبدان.

برقية مصر

كانت أنباء لبنان وسوريا في هذه الحرب شؤماً، ولكن أشأمها وأشدها قتاماً وظلاماً، الأنباء التي وردتنا منذ نحو أسبوع وكلها تنذر بالويل والحرب والشقاء والخراب والموت جوعاً.

بيد أن أشأمها كلها الرسالة البرقية التي أرسلتها الجمعية السورية في مصر إلى رصيفتنا جريدة «الاتحاد اللبناني» في هذه العاصمة، ومفادها أن ثمانين ألف نسمة من السوريين واللبنانيين هلكت جوعاً وأن معظم هذه الخسارة من اللبنانيين.

لا غرابة في أن هذه الرسالة وقعت على الجالية وقوع الصواعق، فأسالت العبرات من المحاجر، وأصعدت الحسرات من الصدور لأنها كانت بمثابة نعي أمة برمتها يعقد لها أبناؤها مناحات في سائر أنحاء الأقطار، ويصعدون لفاجعتها زفرات أحر من البخار.

قد يكون في الأرقام المشار إليها مبالغة فاحشة، كما يجوز أن تكون دون الحقيقة لأن البلاد التي تجهل عدد أحيائها تجهل عدد أمواتها، وخصوصاً لأنه لا يوجد في الوطن شهادات وفيات كما في البلدان المتمدنة، فالجهل ملازم لنا في الحياة والممات.

الحقيقة المدمية

ولكن الحقيقة المدمية التي نكاد نراها بعيوننا، ونسمعها بآذاننا، ونلمسها بأيدينا، هي أن الضيق والشقاء والجوع والبؤس ضاربة أطنابها في سوريا ولبنان، ومخيمة في ذلك الوطن التعس، وأن ضحاياها تعد بالألوف.

لا نعرف هول المجاعة والوباء والضحايا التي ذهبت في سبيلها إلا بعد أن تضع الحرب أوزارها، ونرى ما كانت تمثله من الفواجع على مسرحها المخوف وراء ستارها المظلم.

نرى حينئذ منظراً تقشعر له الأبدان، وتتضاءل بجانبه مجازر فردون[1].

نرى حينئذٍ كأننا في مسرح الصور المتحركة، هياكل أقربائنا العظمية مرصوفة بعضها بجانب البعض على مسافات شاسعة لا يبلغ النظر مداها، ونتصور بعين الخيال آلامهم الهائلة وهم في حال النزع. نراهم يمدون أذرعهم نحونا من وراء البحار، يستغيثون بنا لإنقاذهم من الموت جوعاً. نسمع صراخهم فوق رعود المدافع وقصف البنادق، ثم نراهم بعد ذلك خائري القوى لا يكادون يقوون على الحركة، ولكن الحب الذي لنا في قلوبهم لم يزل أقوى من الموت، وفي نزعهم الأخير، وأرواحهم تحشرج في صدورهم، يضع أحبابنا أصابعهم اللطيفة على شفاههم ويرسلون إلينا من وراء البحار قبلة الوداع الأخيرة ثم يسلمون الروح.

يا أبناء وطني

يا أبناء وطني إذا كنتم نساء فاندبوا، وإذا كنتم رجالاً فهبوا لإغاثة أحبابكم وأقربائكم ومواطنيكم، هوذا الجوع، ذلك العدو الذي لا مفر منه يفترس نساءكم وأطفالكم وذوي قرباكم. قد ينجو الجندي من قنابل المدافع وكرات البنادق وضرب السيوف وطعن الحراب، ولكن لا طاقة للحي قط أن يقف في وجه هذا العدو القاهر الذي لا يشفق ويرحم. يقع الإفرنسي في قبضة الألماني فيطعمه هذا ويسقيه، أما من يقع من ابنائكم في قبضة الجوع، فإن هذا العدو الجهنمي يطعمه علقماً ويسقيه موتاً.

يا أبناء وطني، لم يبق بينكم خلاف في الأديان والطوائف، وليس الآن موقف الخلاف في السياسة، فإن الموت قد سوى بيننا كلنا، والمجاعة ألقت بين قلوبنا، والشقاء أحيا وطنيتنا بالعبرات وختمها بالزفرات. قفوا الآن أمام مذبح الوطن واعقدوا الخناصر على نصرة أهلكم وذويكم، وجودوا بأموالكم عن سخاء، فهوذا أعين العالم متجهة إليكم لترى ما أنتم فاعلون، ومواطنوكم شاخصون إليكم، وقد بسطوا أيديهم يستغيثون بكم ويستحلفونكم بحق القرابة الدموية والحنان العائلي والمروءة الوطنية أن تجودوا عليهم بما يرد الموت عنهم ويخفف

---

1 اشارة الى معركة فردان التي اندلعت سنة 1916 على الجبهة الغربية بين الألمان والفرنسيين والتي قدر عدد ضحاياها بـ 377,231 فرنسي و714,231 ألماني.

آلام أحشائهم ويبقيهم على قيد الحياة حتى متى عدتم طوقوا أعناقكم بأيديهم اللطيفة، وقبلوا شفاهكم بشفاههم الطاهرة، ونظروا إليكم والشكر يعقد لسانهم، وذرفوا دموع الفرح والابتسامة تبدو خلال عبراتهم كما يبدو النور خلال قطرات الندى.

يا أبناء وطني، إننا الآن بإزاء مأساة كبرى لم يرَ لها التاريخ مثيلاً في غابر الدهور، فيجب علينا النهوض إلى مستوى هذه الفاجعة، ونظهر لأبناء وطننا والجمهورية التي نحن فيها والعالم الأوربي الذي بلغه الآن نبأ هذه الفاجعة، أننا رجال فينا نخوة الرجولية وكرم الشرقيين. فليبذل كل منكم ما تجود به نفسه، وعجلوا بإرسال المال إلى الوطن على أسلاك البرق، فالجوع لا ينتظر بريداً، ولا يكف عن التهام فرائسه. أنقذوا إخوانكم من الموت الأبيض.

برقية رومية

لم نعد ننتهي من مطالعة برقية مصر ونصرف النظر فيها حتى وردتنا في التاسع والعشرين من الشهر الماضي برقية من رومية، مفادها أن الشعب السوري الذي أصابته نكبة الجوع، استصرخ الفاتيكان مستنجداً إياه، ومستغيثاً به ليدرأ عنه فظائع يوجس من وقوعها خيفة، وأنه استصرخ أيضاً الولايات المتحدة، كما استصرخها من قبله البولونيون والأرمن.

وقفنا عند هذه البرقية موقف الذعر والاندهاش، نقلب فيها الطرف ونحن لا نصدق بصرنا والمأخوذ صراحة من هذه البرقية التي أوردناها على علاتها، أن الشعب السوري يوجس خيفة من حدوث مذابح في سورية شبيهة بالمذابح الأرمنية.

إذا كان في الحقيقة ما يدعو إلى التوجس على ما تقول به برقية رومية، فالخبر في منتهى الغرابة.

الأرمن إذا كانوا قد أثاروا سخط الدولة بسبب نزوعهم إلى العداء، فالشعب السوري لم يحرك في أثناء الحرب ساكناً، ولم يوقظ فتنة، ولم يوقد ثورة، بل أخلد إلى السكينة إخلاداً يحسد عليه الدولة العثمانية أهل الأرض طراً، لأن الشعب الذي لا يتذمر والمجاعة تفتك به، والوباء يحصده، والثلوج تكفنه، ليس بالشعب النازع إلى الثورة وشق عصا الطاعة بل هو أودع شعوب الأرض، وله الحق أن ينتظر من الحكومة المستظل بعلمها معاملة خاصة، تعرب بها الدولة عن تقديرها إياه حق قدره.

اللبنانيون والموت الأبيض

أظهر اللبنانيون على نوع خاص، وسط هذه البلايا والرزايا من السكينة، رغماً مما طرأ على نظامهم من التغيير والتبديل، ما قطع ألسنة الوشاة وغربان السوء الذين كانوا يرسلون تقاريرهم من القطر المصري تباعاً ليدخلوا في نفس الحكومة، ريبة بشأن الشعب اللبناني.

والظاهر أن فريقاً من رجال الحكومة أصاخ سمعاً إلى هذه التخرصات، ولكنه لم يلبث أن رأى فسادها، فدخلت الجنود العثمانية جبل لبنان متربية، وأقامت على حفر الخنادق ردحاً من الزمن، فلم ير الضباط أثراً لصحة تلك الوشايات ولذلك لم يبق في الجبل من الجنود سوى عدد قليل، فجبل لبنان لم يثر قبل دخول الجنود العثمانية إليه، ولا بعد دخولها، ولا بعد انسحاب معظمها، بل أخذت الأهالي الشفقة على الجنود أثناء انهيال الأمطار وتساقط الثلوج، كما جرى في الشوير التي اشتهر أهلها بالنخوة والشهامة والنجدة، فذهبوا إلى ظهور الشوير حيث كانت الجنود تموت برداً بالفعل، فدعوهم إلى منازلهم وأوقدوا لهم النيران، وقدموا لهم الطعام وأعطوهم أسرّتهم.

وفضلاً عما تقدم فإن بطريرك الموارنة زار جمال باشا، وصرّح له بما يزيل كل شبهة من جهة اللبنانيين، وقد جاءت الحوادث مؤيدة لتصريحه ومصداقاً لكلامه.

فأي ذنب جناه اللبنانيون ليكونوا هدفاً لسهام المنية؟ وأية جريمة ارتكبوها ليكونوا فريسة الموت الأبيض، وبأي شرع يصح التنكيل بشعب يعيش مطمئناً في دياره مصيخاً السمع إلى وعود حكومته التي صرح بها متصرفها الجديد على رؤوس الأشهاد؟

أية جريمة جناها الشعب اللبناني المنكود الطالع لتكون هضابه الجميلة وأوديته المطمئنة وقننه الشامخة مسرحاً للفظائع البربرية، ومسفكاً للدماء الزكية، وملعباً لمأساة يتقلب فيها بين العار والنار، وطللاً تنعق عليه غربان الخراب وبوم البوار.

كل هذا يحدو بنا إلى الاعتقاد بأن في برقية رومية سراً غامضاً، وأن الفظائع التي جاء ذكرها فيها لا مسوغ لها، تجيزه نتيجة ما من نتائج المقدمات التي أتينا عليها.

لبنان وجرائد المهاجر

يقول بعضهم إن ما حل بلبنان إنما هو نتيجة المقالات التي نشرها بعض جرائد المهاجر طعناً على الدولة، ولكننا لا نرى أقل مسوغ لوقوع تبعة ما تنشره تلك الجرائد على رأس لبنان المنكود الطالع لسبب غاية في البساطة، وهو أن تبعة تلك المقالات يجب أن تعود على أصحابها فقط، فضلاً عن أن تلك الجرائد لا تصل منها نسخة واحدة إلى الوطن.

وهنالك فريق آخر يقول إن الحكومة تريد أن تنكل باللبنانيين، لأنهم يميلون إلى فرنسا أو غيرها من الحلفاء، وهو أغرب من سائر الأسباب التي تقدمت لأن اللبنانيين لم يجاهروا بشيء من هذا القبيل، والأفراد الذين جاهروا بذلك عاقبتهم الحكومة، ولا توجد حكومة على وجه الأرض طراً تعاقب جماعات لمجرد الوهم. فكيف تأخذ الحكومة شعباً برمته بسبب تهمة مفروضة.

لذلك نرجو أن تكون أخبار الفظائع ترهات، لا أثر لها من الصحة، ولا مسوغ من العقل وخصوصاً لأن سورية هي الركن العظيم الذي تعتمد عليه الدولة الآن في أمر تغذية جنودها، والوقوف في وجه أعدائها.

الفرصة الذهبية

إذا كانت الحكومة العثمانية تريد أن تملك قلوب اللبنانيين والسوريين، فلها الآن فرصة ذهبية، وهي إنقاذهم من الموت الأبيض.

لا يكفي دولة ما في العالم أن يكون لها جيش قوي يدفع عنها نوائب الزمان وطوارق الحدثان، وإذا كانت تبني الممالك في الأعصر المظلمة على الأسل فهي تبني في القرن العشرين على قلوب الرعايا، وكل بناء على غير هذا الأساس يتقوض ويتداعى إلى السقوط مهما عظمت شوكة تلك الدولة، وامتدت صولتها، وارتقى تمدنها، وأقرب شاهد على ذلك انتفاض الإيرلنديين على الدولة الإنكليزية، وشقهم عصا الطاعة في زمن حمي فيه وطيس حرب طاحنة يتوقف عليه سقوط ممالك ونهوضها.

نهضة الجالية

لم تكد تبلغ هذه الرسائل البرقية والبريدية الجالية حتى هبت من سباتها، ودبت فيها حركة الحياة القومية والوطنية، وثارت الخواطر ثوراناً شديداً، وتوجهت المساعي حالاً إلى ما يقوم بتخفيف شقاء مواطنينا في الوطن، فالتأمت الجمعية اللبنانية، وعقدت اجتماعاً فوق العادة للنظر فيما يجب عمله لمساعدة اللبنانيين، فأقرت على إرسال وفد لجرائد العاصمة الكبرى كجريدة «لا برنسا» و«لا ناسيون»، كي يبسط حال الشقاء والتعاسة التي أصابت لبنان واتخاذ الوسائل اللازمة لدى سفارة الولايات المتحدة لإرسال المال إلى الوطن، وفتح اكتتاب في الحال. فاكتتب الأعضاء الحاضرون بنحو ثلاثة آلاف ريال مع أن عددهم لم يزد على الخمسة عشر عضواً.

أما نتيجة عمل اللجنة التي تألفت لمخابرة الجرائد، فكانت أن الجريدتين المشار إليهما نشرتا مقالات إضافية بهذا الصدد، وأرسلتا رسائل برقية إلى وكلائهما في مصر والأستانة لتقصي حقيقة الحال والإفادة تلغرافياً ولربما كانت برقية رومية التي أتينا على ذكرها نتيجة هذا التقصي.

ولقد أظهر سفير الولايات المتحدة عطفاً على السوريين واللبنانيين الذين أصابتهم نكبة المجاعة، وأجاب أنه مستعد لإرسال النقود إلى الوطن تلغرافياً أو بواسطة البريد، وأفاد اللجنة بما كان قد طلبه منه صاحب «المجلة» بهذا الصدد وأجابه هو إليه من استئذان حكومته لتولي إرسال الإسعافات اللازمة في مثل هذه الآونة على ما بسطناه مفصلاً في صدر العدد الخامس من «المجلة».

وفضلاً عما تقدم، فقد استصرخت الجمعية قداسة البابا والرئيس ولسن لإغاثة الشعب اللبناني، وإنقاذه من المجاعة التي حلت به، وبعثت إلى الجمعيات اللبنانية في باريس والولايات المتحدة والبرازيل لتؤيد هذا الطلب، وعزمت على تعيين لجان خاصة في العاصمة والولايات لجمع الإعانات بأسرع ما يمكن وكان من القرارات الجميلة التي أجازتها بإجماع الأصوات أن يصرف المال المجموع في سبيل إغاثة اللبنانيين عموماً، بلا فارق في الأديان والطوائف، فيبذل في سبيل اللبنانيين عموماً من مسيحيين ودروز ومسلمين متاولة وغيرهم من أصحاب الأديان الأخرى.

وهبت أيضاً الجالية السورية لجمع الإحسان من أهل الفضل والبر، وأقرت على أن تقوم كل مدينة وبلد بجمع ما يتيسر جمعه من أفراد جاليتها في بونس أيرس والجهات، فاجتمع جمهور من الجالية البيروتية في محل الخواجات ميخائيل وجبرائيل مجدلاني في هذه العاصمة، واكتتب للحال بنحو ثلاثة آلاف ريال على حد ما فعلت الجمعية اللبنانية، وأرسل إلى الولايات رسائل يستنهضون بها همة مواطنيهم في تلك الجهات. وقد أظهر وكلاء «المجلة» في هذه الأزمة من الغيرة والشهامة ما يستحقون عليه كل ثناء. فقد وردتنا منهم كتب تدل على ما فطروا عليه من شرف الأخلاق وارتقاء الصفات وما بذلوا من المساعي المشكورة في سبيل هذه المبرة الوطنية، ونرجو من وكلائنا الذين لم يردنا منهم حتى الآن نبأ بهذا الصدد أن يبادروا إلى تأليف اللجان الخيرية، وجمع الإعانات بأسرع ما يمكن.

واجب الجوالي في العالمين

على الجوالي اللبنانية والسورية في العالمين القديم والجديد أن تهب لنصرة مواطنيها، فالخطب جلل، والمصيبة فادحة، والمجاعة تلتهم آباءنا وأمهاتنا ونساءنا وأطفالنا وأخوتنا وذوي قربانا وأهل وطننا، فهي أشبه بملاك الموت الذي ضرب المصريين، فقد يكون في كل منزل فقيد، وفي كل عائلة مناحة على أعزاء رحلوا عنا، ولا نسمع فيما بعد أصواتهم الموسيقية ولا نرى أوجههم الجميلة وابتساماتهم اللطيفة.

يقول المثل الشهير الوقت ذهب، أما نحن فنقول الوقت حياة، فكل دقيقة تمر تخطف بعضاً من أقربائنا ومواطنينا، فلا يكفينا الاكتتاب، ولا جمع الإحسان، بل لا بد من إرسال ما يتيسر جمعه على أسلاك البرق حتى نتمكن من إغاثة المشرفين على الموت قبل فوات الفرصة.

ولقد وردتنا كتب متعددة من وكلائنا ومشتركينا يسألوننا فيها عن كيفية إرسال النقود إلى الوطن، سواء من الجمعيات واللجان الخيرية التي تألفت لجمع الإعانات وتوزيعها على لبنان وسوريا أو من الأفراد الذين يرغبون في إرسال دراهم إلى عائلاتهم وأقاربهم، فنجيبهم أن صاحب «المجلة» مستعد لإرسال النقود على يد السفارة الأميركانية في بونس أيرس.

ويذكر قراء «المجلة» أننا نشرنا في صدر العدد السادس من «المجلة» بلاغاً إلى الجالية ذكرنا فيه، أن سفير الولايات المتحدة بناء على طلب صاحب «المجلة» استأذن حكومته في إرسال الأموال التي يود أفراد الجالية إرسالها إلى أقربائهم في الوطن فأذنت له بذلك. وقد توجهنا قبل الفراغ من كتابة هذه المقالة إلى السفارة المذكورة مرة أخرى وسألناها ما إذا كانت لا تزال على وعدها لنا، فأجابتنا بالإيجاب وأنها تفعل ما يبلغه جهدها لخدمة اللبنانيين والسوريين من هذه الوجهة، وأن الدراهم التي ترسل تلغرافياً تصل بيروت في نحو اثنتي عشرة ساعة، ولكننا نذكّر المشتركين أن الدراهم ترسل جملة أي كل بضع دفعات ترسل معاً مع بيان اسم المرسل إليه وبلدته والكمية المبعوثة إليه وأنه يجب وضع المال في السفارة نقوداً ذهبية لا أوراقاً مالية، فنستلفت النظر للبلاغ المذكور نظراً لأهميته في الآونة الأخيرة.

خطب لبنان وسورية
[2]

لا تزال تردنا الأخبار تترى عن الضيق الشديد الذي استحكمت حلقاته في وطننا العزيز، فالمجاعة تفتك به فتكاً ذريعاً والوباء منتشر في أصقاعه انتشاراً هائلاً إلى حد اضطرت هذه الحكومة إلى إصدار أمر إلى مشائخ البلدان والقرى بدفن الموتى دون أن تبلغ ذلك الحكومة المحلية وتستأذنها بالدفن.

ضاقت المقابر على رحبها عن وسع جثث الموتى فأذنت الحكومة بدفن تلك الجثث خارج المقابر والرسائل الواردة تقول بوجود علة لا تمهل صاحبها أكثر من بضعة أيام ولا يسلم منها إلا عشرة بالمائة على الأكثر وأن المرضى كثيراً ما تموت فجأة وهي سائرة على الطريق وأن من بقي حياً من طويلي الأعمار دق حتى أصبح شبحاً من الأشباح أو روحاً من الأرواح.

الأوبئة

لا نعرف علة وبائية يموت بها المصاب وهو سائر على الطريق إلا وباء الجوع ولا نقول ذلك على سبيل المجاز، بل هي حقيقة أثبتها الأطباء في الولايات التي كانت مسرحاً للجيوش الروسية والنمساوية وخصوصاً غاليسيا حيث عمت المجاعة وأصابت فريقاً كبيراً من السكان وكان من نتائجها مرض أطلقوا عليه اسم مرض الجوع ومن مميزاته الموت فجأة والعليل متجول من موضع إلى آخر وهو النتيجة الطبيعية لخوار القوى من نفاد التغذية. فالجسم البشري من الوجهة الفسيولوجية أشبه بآلة ميكانيكية وقوتها الطعام، فمتى فرغ الوقود خمدت تلك النار شيئاً فشيئاً حتى تنطفئ تماماً.

ولكننا نعتقد أن هنالك أوبئة أخرى تفتك بالسكان فتكاً شديداً وأخصها الحمى التيفوئية

والتيفودية والدوسنطاريا وهذه العلل تفشو على الغالب أثناء المجاعات والحروب وبعدها فتحصد السكان حصداً حتى أن عدد قتلاها قد يزيد على عدد قتلى الجنود في ساحات المعارك.

ومتى علمت ما هي عليه المدن السورية الكبيرة من القذارة وأن لا مصالح صحية فيها بالمعنى المعروف في البلدان المتمدنة وأن الأطباء قد أرغموا عل الذهاب إلى ساحات القتال حتى أصبحوا في بعض المحال وخصوصاً في لبنان أندر من الكبريت الأحمر أدركت هول الوفيات المرضية متى انتشرت بين سكان لا يفقهون شيئاً من المبادئ الصحية والقوانين الهجينة التي يتلقاها عادة أبناء البلدان الغربية أثناء تلقيهم الدروس.

لذلك نرجح أن فتك الأوبئة بلغ حداً لا يطاق، فالوسط ملائم لنمو المكروبات وليس هنالك غذاء يوافق المرضى كاللبن والبيض وأشباههما، بل قد لا يكون عند بعض المرضى شيء من الغذاء على الإطلاق ولا يوجد أطباء ولا أدوية. فالغرابة بعد كل ذلك ليس أن يموت في المائة تسعون بل أن يخلص من المائة عشرة.

الحقيقة الهائلة

بين أنياب المجاعة وبراثن الوباء يتقلب لبنان وسورية كالفريسة بين مخالب الوحوش الضارية وقد خلع الذعر قلبها حتى لا تجرؤ على الصراخ وإذا صرخت ذهب صراخها ضياعاً في الفضاء.

الحقيقة الهائلة أن مواطنينا على وشك الانقراض، فقد رحل معظمهم إلى ديار الأبدية والبقية الباقية سائرة في أثرهم كل ذلك وفريق من المواطنين يتساءل عن مظان الأخبار وأدهش من كل ذلك أن يسأل بعض أفراد الجالية في بونس أيرس مثل هذه الأسئلة ليعلموا مصادر الحقيقة الهائلة التي تردنا حيناً بعد حين من أنحاء شتى وهم على يقين من أن الرسائل الواردة من لبنان وسورية إلى أصدقائهم وجيرانهم في بونس أيرس نفسها لماً تتفتت له الأكباد فواحدة من هذه الرسائل تقول إنه قد هلك من الجوع في بلدة المشتايه ما يربو على مائة نسمة وفي زويتينه ما يربو على الخمسين ولا يكاد يتجاوز عدد السكان في كل منهما

ثلاثمائة نسمة وهاتان البلدتان من أعمال قضاء الحصن وهما في بلاد زراعية خصبة وقد توفي في مزرعة ثلاثة عشر شخصاً.

وقد وردت رسائل أخرى كثيرة من هذا القبيل تفيد عن عدد السكان الذين هلكوا جوعاً هذا فضلاً عن أن كل الكتب التي ترد من لبنان وسورية تنبئ بفتك المجاعة والأوبئة وفي عدادها كتب ممن كانوا من أهل الثروة واليسار ومن الذين يعدون من وجهاء البلاد وفيها الطلب المعجل بإرسال النقود حتى لا يموتوا جوعاً كما مات غيرهم ويقول فريق منهم أنهم لولا ما عليهم من المسؤولية نحو أهلهم أو أبائهم أو أطفالهم لفضلوا الانخراط في سلك الجندية تخلصاً من آلام الجوع.

كل هذا أمام عيوننا وبين أيدينا وقد وردنا من أهلنا وأوطاننا وفيه أسماء مواطنينا الذين ذهبوا ضحية المجاعة أو الوباء ومع ذلك نتساءل عن مصدر أخبار هذه الإشاعات!

مقراض المراقب

تزداد الحقيقة الهائلة بروزاً ووضوحاً متى علمت أن هذه الكتب مرت أولاً على المراقب، فوصول هذه الأخبار الفاجعة إلينا بسماح المراقبة برهان لا يقبل الريب في أن الخطب جلل والمصاب فادح.

بيد أن معظم هذه الكتب مقصوص بعضه أو أكثره بمقراضي المراقب ولم يبق من كثير منها سوى اسم الشخص المرسلة إليه وتوقيع الكاتب وقد كتب المراقب نفسه في آخر بعض هذه الكتب ما يأتي: «الخلاصة أرسلوا إليهم دراهم».

إن في ذلك الفراغ الذي أحدثه مقراضا المراقب من وصف الشقاء والتعاسة وحشرجة الموت ما تقصر عنه السطور التي تركها مهما تضمنت من الأخبار التي تتفتت لها الأكباد لأن ذلك الفراغ عبارة عن هوة المجاعة والأوبئة التي قذفت إليها هذه الحرب بلبنان وسورية يعانيان في ظلامها الدامس حشرجة النزع.

بيد أن ما أبقاه مقراض الرقيب عمداً وما أغفله سهواً يكفي لتمثيل تلك المأساة الفاجعة التي لا مثيل لها في تاريخ الوطن إلا في أثناء حصار القدس يوم طوقها تيطس الروماني بجحافله

ودفع جنون الجوع إحدى الأمهات إلى قتل طفلها وطبخه ولكن الخوارج الظالمين القساة القلوب الذين فاجأوا تلك المرأة وأرغموها على تقديم طعام لهم دون أن يكونوا على علم بماهيته هبوا مذعورين من عن المائدة لما دروا أن الطعام لحم طفل وفضلوا على ما كانوا عليه من البربرية والطبع الوحشي أن قاسوا آلام الجوع على تناول طعام مصنوع من لحوم الأطفال.

أوراق القنصلية الفرنسية

لما أشهرت الدولة العثمانية الحرب على الحلفاء، أودع قناصلهم في بيروت أوراق قنصلياتهم عند قنصل الولايات المتحدة هناك، ولقد تمكنت الحكومة العثمانية في بيروت بوسائل التهديد والإرهاب من إرغام قنصل الولايات على تسليم الأوراق المودعة عنده فوجدت بين أوراق قنصلية فرنسا عريضة عليها توقيع بعض وجهاء لبنان وبيروت يطلبون فيها إلحاق بيروت بلبنان وجعلها قاعدة له تحت حماية فرنسا.

فلما عثرت الحكومة على العريضة المشار إليها فاجأت الموقعين وقبضت عليهم، فشنقت فريقاً منهم في عداده يوسف الهاني أحد وجهاء بيروت وسليم باز مدعي لبنان العام وغيرهما من أصاحب المكانة والنفوذ سواء في ذلك المسلمون والمسيحيون وزجت فريقاً آخر في السجون وأبعدت أربعمائة عائلة مشهورة من أعين لبنان وسورية.

والمقول بعد هذا أن الحكومة عقدت النية على الانتقام من اللبنانيين والسوريين بصورة إجمالية وأن تأخذهم بجريرة بعض وجهائهم الذين تقدمت الإشارة إليهم بل يقولون ما هو أنكى من ذلك وهو أن الحكومة عزمت على إبادة ذلك الشعب التعس عن بكرة أبيه بالتجويع أو بالمذابح أو بهاتين الطريقتين كليهما وأن حلقات الضيق استحكمت بعد هذا في سورية، فضرب حول لبنان نطاق حربي يمنع وصول المؤونة إليه حتى أصبح ثمن رطل الدقيق فيه خمسة وعشرين غرشاً وهو لا يتجاوز في بيروت خمسة غروش وأن الجند المطوق لبنان يمنع كل لبناني من حمل الغذاء إليه من بيروت، فإذا وجد معه شيئاً من هذا القبيل سلبه إياه وأوسعه شتماً وضرباً ـ هذا مجمل الأنباء التي وردتنا نرويها على علاتها.

أما حديث أوراق قنصلية فرنسا في بيروت، فقد عرفناه منذ بداءة الحرب ولكننا جهلنا

حينئذٍ تفاصيله الحديثة، ومهما يكن من الأمر فإذا كان أمر تلك العريضة صحيحاً، فلا يجوز اتخاذه ذريعة للتنكيل بالشعب كله وخصوصاً لأن العريضة أرسلت إلى قنصلية فرنسا قبل أن شهرت الدولة العثمانية الحرب وحكاية ضم بيروت إلى لبنان ليست بالأمر الحديث العهد، بل هي قديمة وفي عداد مطالب بعض اللبنانيين من الحكومة العثمانية نفسها. بل كانوا يطلبون فوق ضم بيروت إليهم إدماج سهل البقاع وغيره من الأراضي التي كانت في العصور الغابرة أجزء متممة للبنان، فقابلت الحكومة العثمانية هذا الطلب بالإعراض ولكنها لم تتهم أصحابه بالخيانة ولا اعتبرتهم مجرمين.

ولا نظن أن ما قيل من أن العريضة تتضمن طلب حماية فرنسا للبنان بعد ضم بيروت إليه أمراً قريباً من الصواب لأن مسألة لبنان كانت قبل الحرب مسألة دولية اوروبية لا يحق لفرنسا الانفراد بها هذا فضلاً عن أن ما لا يقرب من الصواب أن يوقع وجهاء المسلمين في بيروت عريضة كهذه ولعل الحقيقة أن العريضة طلبت ضم بيروت إلى لبنان وجعله مستقلاً استقلالاً إدارياً وأنها قدمت إلى قنصلية فرنسا بصفة هذه الدولة إحدى الدول الحامية امتياز لبنان.

وفضلاً عما تقدم، فإن لبنان قد أصبح الآن شطراً من ولايات الدولة، فكيف تجعله الدولة كذلك ثم تعامله كأنه إمارة مستقلة وقفت بأزائها موقف العداء؟

ومهما يكن من الأمر فإن إنزال الدولة العقاب بموقعي العريضة أو سواهم ممن تظن أنهم يعملون على الإضرار بها لا يدخل في موضوع بحثنا وإنما ما نناقشه هو مآل الرسائل البرقية التي وردتنا تترى من أنحاء شتى ومفادها أن الدولة عاقدة العزم على إماتة اللبنانيين تجويعاً انتقاماً منهم لأسباب لا دخل فيها لجمهور الشعب ـ أصحيح هذا يا ترى؟

أهذا جزاء الإخلاص؟

لبنان! ـ لبنان الذي كان على استقلاله أشد إخلاداً إلى السكينة من جميع الولايات طراً ـ لبنان الذي تغنى بالدستور وملأ قننه الشامخة وهضابه الجميلة بأناشيد الحرية وموسيقى النصر ـ لبنان الذي فتح صدره وقلبه للضباط العثمانيين يستقبلهم في مدنه وقراه بعد إعلان الدستور كما كان يستقبل الرومان قوادهم الفاتحين تحت أقواس النصر وأكاليل الغار ـ لبنان

الذي طوقت رجاله قصر متصرفه في بيت الدين طارحين امتيازاتهم وراء ظهورهم وطالبين والبنادق على أكتافهم والسيوف على أجنابهم إعلان الدستور ـ لبنان الذي صمّ أذنيه عن نداء إعلان استقلاله التام ـ لبنان الذي نبذ ظهرياً نصائح ممثل أعظم جريدة في العالم يوم جابه محرضاً السكان على إعلان الثورة أو أقله إحداث اضطرابات محلية لتكون عذراً للدول في المداخلة ومنحه الاستقلال دون أن يصيخ إليه سمعاً أحد من السكان ـ لبنان الذي لم يحرك ساكناً يوم دخلته الجنود العثمانية بعد الحرب على السعة والضيافة ـ لبنان الذي وثق بوعود حكومته واطمأن إلى مواثيقها ـ أهذا جزاؤه؟ أصحيح أنه يساق إلى النطع كالشاة ويطوق بنطاق حربي أشبه بغل من حديد ويجوّع كأنه وحش ضار وتطارد رجاله كالقتلة المتشردين وترمل نساؤه وتيتم أطفاله ثم تموت النساء والأطفال جوعاً؟

تقدمي إلى لبنان وقولي له هوذا الحلفاء الذين يقول الناس إنك تميل إليهم بعيدون عنك وإني لقادرة الآن على سحقك ولكني لا أفعل ولن أفعل لأنك ابني ـ أنت لحم من لحمي ودم من دمي والدم أكثف من الماء ـ هأنذا أفتح لك ذراعي وأضمك إلى قلبي كما تضم الأم رضيعها ـ إني لضامدة جراحك وشافية أسقامكم ومؤمنة خوفك ومحولة جوعك إلى رخاء وذعرك إلى صفاء فأنا أمك ـ لا تدع أجنبية تدخل بيننا.

تقدمي إلى سورية وقولي لها مضى زمن الاستبداد وانقضى عهد الظلم ـ وجاء عهد الدستور الحقيقي ـ لا أشك في إخلاصك والآن أرمي من يدي قفازي الحديدي وأعانقك كما تعانق الأم ابنتها.

افعلي ذلك وأنا الضامن أنه لا يبقى سوري واحد في طول بلاد سوريا وعرضها لا ينظر إليك نظر الابن إلى الأم الحنون.

اضربي بيد من حديد الأفراد السياسيين الذين أساءوا إليك أو تظنين أنهم أساءوا إليك سواء كان حكمك صواباً أو خطأ ولكن لا تنتقمي من شعب آمن في حماك مستظل بلوائك مستأمن إلى هلالك مصيخ السمع إلى وعودك ـ ظللي بجناحيك لبنان وسورية كما يظلل النسر فراخه بجناحيه واعلني للعالم طراً أن الجيش الباسل الذي دافع دفاع الأبطال عن معاقل الدرنيل لا يأتي عملاً يصمه به التاريخ بوصمة الجبن والعار إلى الأبد!

خوف المذابح العامة

كانت برقية رومية التي وردتنا في السابع والعشرين من مايو أول نذير بالهلع الذي استولى على السكان والذعر الذي حل بهم من جراء خوف مذابح عامة تخضب روابي لبنان وسهول سورية بالدماء وقد بنيت هذ الرسالة البرقية على استغاثتين الواحدة منهما مرفوعة إلى قداسة البابا والأخرى إلى رئيس جمهورية أميركا فكأن خبر المجاعة الذي انخلعت له القلوب لم يكن كافياً للإجهاز على الشعور والعواطف.

ثم تواترت أخبار خوف المذابح واردة إلينا عن طريق الولايات المتحدة والمأخوذ منها ورود أنباء إلى وزارة خارجية الولايات المشار إليها عن إمكان حدوث مجازر في سورية قد تفوق مذابح أرمينيا.

والذي يلوح لنا أن الوزارة الخارجية بلغت ذلك من مصادر غير رسمية لأن الوزارة المنوه عنها بادرت حال وصول هذا النبأ إلى استفسار سفيرها في الأستانة عن حقيقة هذه الروايات وحتى الساعة لم تردنا ماهية الجواب.

ولقد صرح مورغنثو سفير الولايات المتحدة في الأستانة وهو الآن نزيل بلاده أن المذابح الأرمنية لبثت تفتك بالسكان ردحاً من الزمن دون أن يقف العالم الخارجي على نبأ عنها وأنه كان هنالك عقبات كثيرة في سبيل المخابرات التي دارت بعد ذلك بينه وبين حكومته في أميركا. فالرسائل التي كان يبعث بها بهذا الصدد إلى واشنطن لم تبلغها قط وكذلك الرسائل التي أرسلت إليه من العاصمة المذكورة، ولكن صراخ المذبوحين ورائحة دمائهم بلغت أخيراً العالم المتمدن فتمكنت الولايات المتحدة من إيقافها ولكن بعد ذهاب مئات الألوف ضحايا السيف والجوع.

ولكن الأرمن أثاروا نقمة الدولة بالثورات المتوالية والانتفاض عليها أثناء الهجوم الروسي خلافاً لسورية التي ظلت هادئة أمام هذه العواصف والزوابع وخصوصاً لبنان الذي كان بوسعه أن يمانع في دخول الجنود العثمانية أرضه ويستنجد بالحلفاء ولكنه لم يفعل شيئاً من ذلك بل لبث محافظاً على الهدوء والسكينة لذلك نرجو أن لا يكون لهذه الإشاعات نصيب من الصحة.

هوذا الثورة قد شبت في إيرلندا شبوباً هائلاً حتى كادت تشل إنكلترا وتقوض أساساتها ولكن الحكومة الإنكليزية لم تنتقم من الإيرلنديين ولم تحكم بالموت إلا على الذين وقعوا إعلان جمهورية إيرلندا وبضعة نفر، وعفت عن بقية الثائرين كلهم وأرسلت المؤونة والطعام إلى السكان الذين كانوا يقاسون المجاعة في أثناء أيام الثورة وعطفت على شعبها عطف الأم الحنونة.

نهضة الجوالي اللبنانية والسورية

لا نذكر في تاريخ لبنان وسورية حدوث نهضة اجتماعية عامة عقد أهلها القلوب والخناصر على إغاثة هذين الوطنين كالنهضة الشريفة التي جرت في جواليها مجرى تيار كهربائي أيقظ العواطف القومية وأثار الشعور الوطني.

أتينا في الجزء الأخير من السنة الأولى على ما قامت به الجالية إزاء هذا الخطب العظيم وألمعنا في الجزء الماضي إلى مسعى صاحب المجلة لدى سفارة الولايات المتحدة في بونس أيرس لتطلب من حكومتها إغاثة لبنان وسورية وكان من وراء ذلك أن السفير أرسل إلى حكومته رسالة برقية بهذا الصدد نرجو أن يكون من ورائها خير الموطن.

نهضة جالية البرازيل

أما في البرازيل، فقد نهضت الجالية برمتها مُنجدة وطننا المنكوب وجمعت قدراً من المال لإرساله لهذا الغرض وحولت الأخوية المارونية ما عندها من المال إلى هذا السبيل الذي دعت إليه ضرورة الحال وقد كانت الإعانات فيها على نوعين أولهما إعانات عامة ترسل إلى الوطن وتوزع حسب الحاجة دون تفضيل بلدة على أخرى، والآخر إعانات خاصة يرسلها أهل كل بلدة إلى مسقط رأسهم ولا بأس بأن نلم بما جاء بهذا الصدد في عرض كتاب أرسله إلينا في أواخر الشهر المنصرم وكيلنا في سان باولو جورج أفندي قربان المتوقد غيرة على الوطن وهو كتاب خصوصي لم يرسله إلينا لغرض النشر لذلك نقتطف منه ما يأتي:

«وردني كتابك الأخير الصادر عن روح متألمة بسبب الأنباء الأخيرة عن سوريا التعسة وتطلب فيه الإفادة عما فعلناه لإغاثة الوطن. فالاكتتابات جارية هنا على كيفية يتبرع بها أبناء

كل بلدة لبلدتهم والمال يرسل إلى الوطن بدون انقطاع سواء كان ذلك من الأفراد إلى ذوي قرباهم أو من أهل كل بلدة على حدة ونحن الشويريين كنا أسبق الجميع إلى نجدة الشوير فأرسلنا منذ نحو أربعة أشهر مائة ليرة إنكليزية جاءنا نبأ بوصولها ثم أرسلنا منذ شهر مائة ليرة أخرى.

«ولقد ألفنا منذ بضعة أيام لجنة عامة تتولى الاكتتاب وجمع التبرعات لتوزيعها على فقراء سوريا عموماً، فاعترضت طريقنا عقبات جمة لأن الأكثرية ترغب في أن تكون التبرعات خصوصية فقط، أي أن كل أهل بلدة يرسلون تبرعاتهم إلى بلدتهم في الوطن ولكننا رغماً من كل ذلك شرعنا في الاكتتاب وجمع التبرعات وقد افتتح الاكتتاب مواطننا الأستاذ نعمه يافث وتلاه بعض المواطنين من الشوير وإني عائد الآن من العمل والطواف في الشوارع لغرض الاكتتاب وكان بصحبتي أيضاً باسيلا أفندي يافث وقد قرأت عليه كتابك وإننا بعدما نتمم الواجب نحو الاكتتاب العام الذي بدأناه نرجع إلى إعانة البلدة وسوف نجعلها بصورة دائمة حتى تكون أشبه باشتراك شهري لأن الحاجة في الوطن لا تدفع بإعانة قليلة ولا هي حاجة يوم أو شهر بل ستدوم ما دامت الحرب وستظل بعدها ردحاً من الزمن وسيكون الأستاذ نعمه يافث أعظم نصير لهذه الإعانات.

«إننا ننادي في كل مكان وفي كل لحظة بوجوب إغاثة الوطن وإني أؤكد لك أنه لولا همة متجولي محلنا التجاري واستنهاضهم همم المقيمين في البراري والأحراج من أبناء الشوير لما جاءنا غرش واحد لهذه الغاية مهما كانت شريفة وضرورية لأن في بعض البشر شيئاً من طبيعة الوحوش ولولا ذلك لأثرت فيه المصائب والبلايا الفادحة التي حلت بأخيه ابن أبيه وإني لأعرف فريقاً كبيراً من أبناء الوطن وسواهم ممن هم في سعة من العيش يعرض عن إغاثة أقربائه وهو على ثقة من أنهم يموتون جوعاً».

«إنني مع اعترافي بوجود المجاعة في سورية ولبنان لا يسعني تصديق الأنباء على علاّتها، فقد جاءنا تلغراف من مصر يقول بموت ثمانين ألفاً جوعاً ويطلب إعانات وجاء تلغراف من المصدر نفسه إلى ريو جانيرو وغيرها من أنحاء المهاجر على ما أرجح والغرض من هذه الأنباء البرقية على ما أرى استنهاض همة السوري الخامل ليبادر إلى إغاثة فقراء الوطن ولا أعتقد أن الموت جوعاً حصد هذه النفوس كلها دفعة واحدة بمثل هذه السرعة».

لا يسعنا إلا إسداء الشكر الجميل إلى وكيلنا وصديقنا لتوقده غيرة على الوطن وما بذل المساعي المشكورة في جمع التبرعات العامة وخصوصاً للغرض الشريف الذي يرمي إليه هو أو فريق من مواطنينا إلا وهو إغاثة مسقط رأسنا ورأسهم إغاثة مطردة إلى أن تضع الحرب أوزارها وأن يكون صديقنا ورفقينا القديم في الدرس الأستاذ نعمه يافث في صدر القائمين على النهضة الوطنية وهو أهل لتصدر هذه المأثرة الجليلة التي سوف يحيي تاريخ وطننا ذكر أصحابها لأنه جامع بين ثروة الجيب والدماغ واليراع وإذا كان لأحد من اللبنانيين أو السوريين غنى يجلّه أو خلق يظهر به فضله فهنا محله.

نهضة جالية الولايات المتحدة

نظن أن نهضة الجالية في الولايات المتحدة أرقى النهضات من حيث تأثيرها العام في تخفيف ضيم المواطنين المالي في إغاثة المعوزين. وقد وقع عليها نبأ مصر البرقي وقوع الصواعق، وكأن القائمين بهذه النهضة قد هالهم هذا النبأ الصادع وخصوصاً لأن مآل الرسالة البرقية الواردة إليهم من مصر يفيد أن النكبة عمت الوطن كله، فعقدوا اجتماعاً حضره أصحاب الصحافة العربية في نيويورك كلهم فأجمعوا بعد المداولة على الاستغاثة بالولايات المتحدة استغاثة معجلة. وللحال أرسلوا رسائل برقية إلى الرئيس ولسن ونواب نيويورك في مجلس النواب والشيوخ وطلبوا من الرئيس ولسن ضرب موعد لمقابلة وفد منهم. أما مفاد الرسالة البرقية التي بعثوا بها إليه يستنهضون بها عطف شعبه فهو إنه قد وردت على الجرائد السورية في نيويورك أخبار برقية خصوصية تشير إلى البلاء العظيم الواقع في سوريا وجبل لبنان، وأنهم تناولوا من مصادر ثقة أخباراً مكررة عن أن ثمانين ألفاً ماتوا جوعاً، وأن كل الأدلة تدل على وشك انقراض هذه الأمة، فلا يرد مواد غذائية إلى جبل لبنان من الوجهات الداخلية في حين أن الحصار البحري يقطع عنهم المساعدة الخارجية وقد طلب إليهم السوريون واللبنانيون في الولايات المتحدة البالغ عددهم نصف مليون أن يأتوا عملاً ينقذ البقية الباقية على قيد الحياة من إخوانهم في سورية ولبنان، فلذلك رأوا أن يستنجدوه باسم الإنسانية المقدس لينظر في تلك الأحوال الفاجعة وقد رفعوا إليه هذا الاسترحام باسم كل المواطنين في تلك البلاد العظيمة التي اتخذوها وطناً لهم. «ونحن موقعي هذه العريضة محرري ومنشئي كل الصحف

السورية الأميركية في نيويورك عزمنا بالإجماع على رفع هذا الاسترحام إليك عندما اتصلت بنا أخبار أخرى عن وطننا القديم هلعت لها القلوب».

وبعثت في أثناء الجلسة نفسها رسالة برقية أخرى إلى نائبي نيويورك في مجلسي النواب والشيوخ يستغيثون بهما، ويذكرون فيها أن قد رفعوا عريضة استرحام إلى الرئيس ولسن لحماية شعب سوريا وجبل لبنان لما حل بهما من الضائقة الشديدة وأن الأخبار الواردة عليهم تصور الأحوال في ذينك البلدين بصورة هائلة حتى كادت تصبح بلادنا قاعاً صفصفاً وداراً بلقعاً، «وقد أردنا أن نسألك أن تساعدنا مساعدة تامة على ملاحقة استرحامنا إلى الرئيس حتى يستعمل وسائله الحسنة لإنقاذ البقية الباقية من شعبنا، فالمرجو منك أن تسعى لتعيين موعد لنا نقابل به الرئيس لنبسط له حالتنا، فقد بلغت الحالة أعظم مبلغ من الحرج ونصف مليون من السوريين الأميركيين يهمهم هذا الأمر، وملايين من شعبنا في الوطن القديم في أشد حالات الضيق، فقد مات حتى الآن ثمانون ألفاً جوعاً في جبل لبنان وحده، فالمرجو منك أن تخبرنا على لسان البرق عن موعد المقابلة».

وبعثت اللجنة الأميركية في نيويورك لإغاثة منكوبي الأرمن والسوريين كتاباً إلى الوزارة الخارجية للولايات المتحدة تسألها الإفادة عما تعرفه عن خطر حدوث مذابح في سورية على ما شاع وذاع فأجابتها الوزارة بما يأتي:

«بلغت السفارة الإفرنسية في وشنطن الوزارة الخارجية نبأ مفاده أن خطر المذابح يتهدد اللبنانيين، وخصوصاً الموارنة وقد اهتمت الوزارة بالأمر، فبعثت برسالة برقية إلى سفارتها في الأستانة تطلب منها الإفادة برقياً عن حقيقة أحوال سورية ولبنان ومتى وردت الإفادات المطلوبة تسرع الوزارة بإجراء ما يلزم».

ولقد اهتمت جرائد نيويورك الشهيرة بالأمر، فنشرت مقالات ضافية الذيول وأعلنت أن حكومة الولايات المتحدة بعثت تتقصى خبر خطر المذابح من سفيرها في الأستانة لا اهتماماً بالسوريين فقط، بل بالمرسلين الأميركيين أيضاً.

ثم إن السوريين استنجدوا في أنحاء شتى من الولايات المتحدة بنواب الأمة في مجلس النواب والشيوخ ليحملوا حكومة البلاد على التوسط بطريقة يؤمن معها كل خطر على

السوريين، ويظنون أنها من أفعل الوسائل لإنالة المطلوب لأنها تعزز الرئيس ولسن في إجراءاته وتكون الحكومة أشد وثوقاً بتأييد الأمة.

أما الوسيلة المثلى التي يترتب على اتخاذها إغاثة مالية فعالة في تخفيف وطأة نكبة سورية عموماً ولبنان خصوصاً، فهي بلا مشاحة استنهاض أكف الأمة الأميركية الكريمة الأخلاق وانضمام لجنة لبنانية سورية ذات صبغة عاملة إلى اللجان الأميركية التي تجمع المال لإسعاف السوريين والأرمن.

ولقد صرحت اللجنة المشار إليها على لسان أمين أسرارها بأن الضيق بالغ في سورية حداً فاحشاً، والناس يموتون جوعاً وألوفاً من البقية الباقية يقتاتون العشب، وأن المواصلات منقطعة بتاتاً بين سورية والعالم الخارجي إلا براً عن طريق الأستانة، وأن في وسع اللجنة أن تبعث بواخر لا باخرة واحدة تحمل قوتاً إلى سورية وهي ساعية إلى هذا الغرض، ولكنها لا بد أولاً من توسيط الرئيس ولسن في استئذان الدولة العثمانية في إرسال الأقوات إلى وطننا لأنه بدون ذلك لا يمكن اللجنة الأميركية إغاثة الوطن بالمواد الغذائية.

ومما نسطره بيد الشكر والثناء أن المستر مورغشو سفير الولايات المتحدة الذي أتينا على ذكره سابقاً قد أخذ على عاتقه مناصرة اللجنة المشار إليها وهو الآن يتجول في بلاده من موضع إلى آخر، ويلقي الخطب الرنانة في سبيل إعانة السوريين ومن مطامحه الخطيرة أن تكون الولايات المتحدة نصيرة الشعوب المنكوبة في هذه الحرب وأماً حنوناً للأمم االتي أرهقتها المجاعة وأطار الخوف قلوب أهلها شعاعاً وهو يرمي إلى عمل جليل إذا فاز بتحقيقه سجّله له التاريخ إلى الأبد، وهو أن تتبرع الولايات المتحدة للأمم المنكوبة بخمسمائة مليون ريال ذهب أي على معدل خمس ريالات لكل نفس في الولايات المتحدة.

نهضة جالية مصر

كانت جالية مصر أول منبيء بالخطب الفادح الذي ألمّ بلبنان وسورية، وليس الغرابة في أن تكون كذلك، بل الغرابة في بقائها هذا الزمن الطويل هاجعة هجوعاً يقضي بالحيرة والذهول، لأنها جارّة الوطن العزيز والعلاقات بين القطرين المصري والسوري لم تنقطع في بدء شهر الدولة

العثمانية الحرب انقطاعاً تاماً، بل ظلت ردحاً من الزمن على غير انتظام وكانت روايات كل القادمين من لبنان وسورية تنبئ باشتداد الضيق والجوع اشتداداً لا مثيل له في تاريخ بلادنا.

ولكنها لما استيقظت من رقادها هبّت مذعورة أمام هذه الكارثة الفاجعة وطيّرت الأنباء البرقية إلى الجمهورية الفضية والبرازيل والولايات المتحدة تستصرخ الجوالي إلى ملاقاة الخطب وإنقاذ البقية الباقية من أمتنا التعسة فخدمت بذلك الوطن خدمة جليلة.

كان من وراء ذلك أن أقرت على جمع الإعانات وخابرت معتمد فرنسا بهذا الصدد وسألته مخابرة السير مكماهون نائب الملك في مصر لتسهيل إرسال الإعانة إلى لبنان وسورية، وأسفر اجتماع المؤتمر والنائب عن الاتفاق على مخاطبة حكومتيهما لتخابر الولايات المتحدة لتتولى توزيع الإعانات، وكان مبلغ ما جمعته اللجنة في اجتماعها الأول سبعة آلاف جنيه أودعت في مصارف مالية أمينة لترسل متى سنحت الظروف.

بيد أن الأنباء التي وردت أثناء ذلك من لبنان تفيد أن الوطن أحوج إلى المواد الغذائية منه إلى النقود لأن تلك المواد أصبحت نادرة جداً، ويؤخذ من روايات شتى أن المجاعة تفتك بالسكان فتكاً ذريعاً، وقد روى أحد الكهنة التي أوفدته الحكومة الإفرنسية في أرواد للاطلاع على أحوال لبنان، وألقته مسافة على بعض الشواطئ، ثم عادت فأرجعته منها أن الحال لما ينقطر لها الجماد، فقد أقفرت البلاد من أهلها، ففي بلدة عشقوت لم يبق منها سوى أربع وتسعين نفساً. أما الباقون فقد أهلكتهم المجاعة مع أن البلدة قصبة فيها حكام ومطارنة، وأن كثرة الوفيات اضطرت المتصرف إلى إصدار أمر إلى مشائخ القرى يأذن لهم به بدفن الموتى دون رخصة.

ثم وردت أنباء أخرى، وفي عدادها بلاغ يقال إنه من بطرك الموارنة وهذا نصه: «أغيثونا بالطعام لا الذهب، فلو كان الذهب نافعاً لبعت كل ما في الكنائس والأديرة من الأواني المعدنية لإغاثة الشعب، ولكن ما فائدة الذهب ولا طعام تشتريه به».

فأدركت الجالية حرج الموقف وعقد كبار اللبنانيين جلسات معجلة لتلافي الخطب، وأوفدت اللجنة من قبلها وفداً إلى شيخ الإسلام والحاخام الأكبر للطائفة الإسرائيلية ورؤساء الطوائف المسيحية كلهم ليشدوا أزرها في ما تسعى إليه من تخفيف النكبة. وعقدت اللجنة المنوه

عنها العزم على إرسال وفود إلى قداسة البابا وإسبانيا، والاستغاثة بالولايات المتحدة لتتخذ الوسائل اللازمة لاستئذان الحكومة العثمانية في إرسال الإعانات إلى لبنان وسورية.

مقابلة ولسن للوفد الصحافي

بينما كنا نسطّر هذه المقالة وردتنا صحف الولايات المتحدة وفيها تفصيل مقابلة الوفد الصحافي لرئيس جمهورية الولايات المتحدة، وكان موعد المقابلة الساعة الحادية عشرة صباح يوم الخميس الواقع في أول حزيران فاستقبل الوفد بما فطر عليه من كرم الأخلاق أما خطاب الوفد فهو كما يأتي:

«إنه في أثناء السنتين الماضيتين بما رافقهما من المجازر الهائلة، كانت هذه البلاد العظيمة بزعامة رئيسها المفاضل رافعة لواء الإنسانية والشفقة المسيحية الذي ضم تحت طياته الألوف والملايين من المنكوبين غير المحاربين بقطع النظر عن جنسياتهم وأديانهم، فنال إحسانها المنكوبين في البلجيك وبولندا وشمالي فرنسا والصرب والجبل الأسود. أما شعبنا فقد وقعت عليه الشدائد منذ بداية الحرب، غير أن المساهمة المالية التي أمد بها قومنا المهاجرون أهل الوطن، أوقفت نزول كارثة عظيمة. أما الآن فإن المجاعة بأشد حالاتها نازلة بجبل تحصد من سكانه الألوف. لا نشك في أن سوريا مصابة أيضاً غير أن الإفادات الواردة علينا إلى أن أشد النكبة واقعة على لبنان، حيث قضى حتى الآن ثمانون ألفاً جوعاً بنوع أنه يخشى انقراض ذلك الشعب اللبناني الشديد المتمتع باستقلال نوعي. وقد عرفنا أن إخواناً في مصر استرحموك في استعمال نفوذك في حمل الحكومة العثمانية على السماح بوصول الإعانة لذلك الشعب المنكوب، ونحن هنا نضم صوتنا إلى صوتهم باستعطافك متوسلين إليك أن تنصر الإنسانية المعذبة ومتأملين أن تعرف الأمة الأميركية بواسطتك بوجود ألوف لا تحصى من الخلق جديرة بإسعافهم. نحن عملنا الجهد في إنجاد قومنا وسجلات جمعية المرسلين الأميركيين تشهد بمقدار الإعانات التي أرسلناها، ولكن على الرغم من ذلك فإن البلاد تفتك بها المجاعة فتكاً شديداً. فنتقدم متوسلين إليك أن تستعمل الطرق التي تراها موافقة لحفظ البقية الباقية من قومنا ومنعهم من الانقراض».

فأظهر الرئيس عطفاً شديداً على لبنان وسورية وتأثراً كثيراً لما حل بهما من الضيق والشقاء، وقال إنه كان على علم بشيء من ذلك، وشرع في الاهتمام بأمر مواطنينا وسيتابع عمله بأسرع ما يمكن، ولكن هنالك أشياء لا يحسن التصريح بها وسيبذل جهده على ما عنده من الريب في نجاح مسعاه النجاح التام لتخفيف شقاء وطننا.

وبعد خروج الوفد من البيت الأبيض وهو منزل الرئيس، قابل المستر بولك الناظر العامل في نظارة الخارجية أثناء تغيب مستر لانغ الناظر ثم قابل الوفد بعد ذلك بعض أعضاء مجلس النواب ليقدم شكره إليهم لما أظهروا من العطف على الوطن ومساعدة المواطنين في الولايات المتحدة لتوسيط الرئيس ولسن في الأمر.

سورية والسوريون

لقد أظهرتم يا بني الوطن نفوساً عزيزةً واخلاقاً كبيرة، فلا تهينوا نفوسكم بالانشقاقات ولا تصغروا أخلاقكم بالمشاحنات.

إننا الآن في موقف تتراوح فيه البقية الباقية من مواطنينا بين الموت والحياة، وفي أثناء مجادلاتنا العقيمة تزهق ألوف من أرواح آبائنا وأمهاتنا وأخوتنا وأخواتنا وأطفالنا وذوي قربانا ـ إننا بأزاء نكبة وطنية فلنرفع نفوسنا إلى مستوى هذا الخطب الذي لا مثيل له في تاريخ العالم.

لقد ألقت علينا مجاعة الوطن أمثولة سامية يترتب علينا حفظها والجري عليها، وقد تكون هذه النهضة في الجوالي الخطوة الأولى في دروس الوطنية الحقة.

يسرنا أن نرى المواطنين قد تركوا تحزباتهم القديمة وراء ظهورهم وأعرضوا عن الضعف الذي كان يعتورهم، وهبوا من رقادهم هبوب المذعور لنصرة وطنه، وسينبثق من هذا الظلام الحالك نور متألق ومن هذه المجاعة رخاء كثير.

أجل: إن أشد ساعات الليل ظلاماً ما كان منها قبيل الفجر، فلننصر إخواننا ولنقت أهلنا وليكن شعارنا في هذا العراك الهائل لإنقاذ الوطن من هذه الضائقة الكبرى، شعار نلسن قبل معركة وترلو.

«سورية تنتظر من كل سوري أن يقوم بواجباته!».

لقد ألّفت المصائب بين قلوبنا ووثّقت المجاعة عرى وطنيتنا ومع أن مواضع الضعف في أخلاقنا برزت في أثناء إجراءاتنا لإغاثة وطننا وبروزها في جميع شؤوننا القومية، فقد تغلبنا عليها بأصالة الرأي وإخلاص العمل وتوحيد المساعي، وأدرك اللبنانيون والسوريون أن الانشغال بالعرض عن الجوهر، وبالشكل عن المادة، وبالكيفية عن الكمية، وبالمشاحنات العقيمة عن المصلحة الوطنية، جريمة لا تغترف.

إننا الآن بأزاء المجاعة تختطف أقرباءنا، وبأزاء الأوبئة تحصد صفوفنا، وبأزاء المخاوف تخلع قلوبنا، فلننس تعصباتنا الدينية ولنطرح وراء ظهورنا اختلافاتنا السياسية، ولنضع نصب عيوننا الغرض المقدس الذي نسعى كلنا إلى تحقيقه ألا وهو إنقاذ البقية الباقية في لبنان وسورية من أنياب المجاعة وبراثن المنية.

إن الوطن يستصرخنا من وراء الأوقيانوس لنهب إلى نصرته، فهل من لبناني أو سوري في طول أميركا وعرضها يصمّ أذنيه عن سماع هذا النداء المقدس؟

شاهد عيان

إذا كان لا يزال هنالك ريب من صحة الأخبار التي تدل دلالة صريحة على نكبة لبنان وسورية، فالكتاب الذي أرسله المطران دريان النائب البطريركي الماروني في القاهرة إلى ألأب فرنسيس واكيم راعي الطائفة المارونية في نيويورك يقطع كل شبهة من هذا القبيل. ومما جاء في الكتاب المشار إليه مبني على رواية رجل فر من سوريا في أواسط أيار وهم يلوذون بالمطران دريان وقد فصّل له الأخبار شفاهاً.

ويؤخذ من الكتاب المشار إليه أن حال لبنان وسورية قد تغيرت كثيراً بعد السرب وعود المواصلات بين برلين والأستانة فاضطر بطريرك الموارنة إلى العزلة في الديمان، ولم يبق من حاشيته سوى أسقف واحد، واعتقلت الحكومة بأمر المجلس العرفي جمهوراً من أعيان الموارنة في الجبل، وخصوصاً من له منهم علاقة بالبطريرك والأساقفة وأرسلتهم إلى الداخلية، وضُرب نطاق حول لبنان براً، وانقطعت عنه موارد المواد الغذائية إلا اليسير منها والدقيق الذي يؤذن بدخوله عبارة عن خليط من الشعير والفول والكرسنة وشيء من الرمل. فقد

أحضر الراوي معه من هذا الدقيق وحُلل كيماوياً. ويقال إنه يحدث في من يتناوله تورماً في الرجلين لا يلبث أن ينشأ عنه ارتشاح مواد مصلية، ويفضي بصاحبه أخيراً إلى الموت. ومع ذلك فثمن الرطل منه عشرون قرشاً، ويقال إن عدد ضحايا الجوع في لبنان وحده بلغ مائة ألف نسمة وجاء الجراد ضغثاً على أبالة، فلبث في لبنان سنة كاملة التهم في خلالها الأخضر واليابس ولم يكن هنالك بذار للسنة التالية بسبب المجاعة. وهذه الحال التي يتفتت لها القلب هي منحصرة في لبنان وحده، وإذا رغب أحد في النزول إلى الولاية لطلب الرزق ترتب عليه أن يقدم ضمانة كبيرة في سبيل الحصول على جواز من شيخ القرية يوافق عليه القائمقام وعليه أن يدفع ريالاً ثمن الجواز، ويجدده مرة كل أسبوع ولا يسمح له بحمل شيء من المواد الغذائية عند عودته إلى لبنان.

ولقد قص هذا الراوي أيضاً، أن المجلس العرفي طلب في أوائل أيار بطريرك الموارنة فأتى أولاً إلى بكركي حيث بات ليلتين، ثم توجه في السابع من الشهر المذكور إلى عاليه ملبياً طلب المجلس المذكور، وقد رآه الراوي بعينه ذاهباً إلى الموضع المشار إليه ثم سافر الراوي في العاشر من أيار دون أن يعرف نتيجة ذهاب البطريرك، ولكنه علم أن المجلس نفى فريقاً من الأساقفة وأمر الفريق الآخر بالحضور إليه.

يوم لبنان وسورية

نقلت الصحافة العربية في نيويورك على يد الوفد الذي توجه من قبلها إلى واشنطن نسخة من القرار الذي اقترحه على مجلس الشيوخ المستر شلتن نائب ولاية وست فرجينيا ليطلب من رئيس الجمهورية أن يعين يوماً يتبرع فيه أهل الولايات المتحدة لإغاثة جبل لبنان. وقد رفع القرار المنوه عنه في الثاني من شهر حزيران فأحيل على لجنة العلاقات الخارجية وهو كما يأتي:

«لما كان أهالي الولايات المتحدة قد اهتموا بشؤون كثيرين من السوريين في لبنان حيث هلك منهم آلاف عديدة جوعاً وبرداً».

«ولما كان ألوف من المتجنسين بالجنسية الأميركية مرتبطين بالقرابة الدموية بألوف من السوريين المنكوبين».

«ولما كان شعب الولايات المتحدة قد أظهر عطفاً على المنكوبين من الشعوب الأخرى كأهل البلجيك والصرب وإيرلندا وبولونيا وسواهم وإغاثتهم إغاثة فعلية بصفته شعباً واقفاً على الحياد ومواليا ًللأمم المتحاربة كلها».

«قررنا نظراً لما ألمّ بالشعب السوري من الرزايا أن يقترح على رئيس الولايات المتحدة تعيين يوم يظهر فيه الشعب الأميركي كله عطفه على الشعب السوري بالتبرعات لتصرف في سبيل إغاثة هذا الشعب الذي هو أشد حاجة إلى الإغاثة».

هذا هو القرار الذي نرجو أن يقر مجلس الشيوخ على رفعه إلى رئيس الجمهورية، ولا بد أن تكون الأنباء البرقية التي أرسلتها سفارة الولايات المتحدة إلى حكومتها بشأن المجاعة باعثاً قوياً على كرم الشعب الأميركي، لأنها تقول إنها مجاعة لا مثيل لها في تاريخ العالم.

فنرفع شكرنا إلى الأمة الأميركية الكريمة لما أظهره رئيسها ونواب أمتها من شرف الأخلاق ونبالة المقاصد، وما هو قائم به شعبها الحر الكريم الشمائل من الاهتمام بوطننا التعس وبسط يد الإحسان والجود، ونرجو أن نتمكن بعد زوال هذه النكبة عن مساقط رؤوسنا من أن نقيم لأمة الولايات المتحدة نصباً فخماً في وسط بلادنا يطل على قبور شهدائنا، ويكون أثراً خالداً ناطقاً بما تكنه صدورنا من الشكر ومعرفة الجميل.

بلاغ نظارة الخارجية الأميركية

هو النبأ البرقي الذي وردنا عند الانتهاء من هذه المقالة. وقد أشرنا إليه قبيل هذا ومفاده أن سفارة الولايات المتحدة في الأستانة بعثت إلى وزارة الخارجية في واشنطن تقريراً عن المجاعة الفتاكة عامة في البلاد العثمانية، وقد وصفها السفير بقوله إنها مجاعة لا مثيل لها في تاريخ الدهور.

ويؤخذ من بلاغ النظارة بناء على السفير المشار إليه، أن ما بذره السكان لم يتجاوز 15 بالمائة من كمية البذائر العادية بسبب القحط السابق، وأنهم لم يجنوا من النزر القليل إلا النزر الأقل.

وذكرت في عداد الأسباب الباعثة لهذه المجاعة التي سوف يبقى ذكرها إلى الأبد أن الحكومة

الألمانية اشترت بعد فتح الطريق بين برلين والأستانة ما كان باقياً من الحبوب في سورية بأثمان فاحشة.

فلا غرابة بعد كل ما تقدم من أن تفتك المجاعة بأهلنا هذا الفتك الذريع، بل الغرابة أن يبقى إنسان منهم ويقص علينا حديث هذه المأساة التي هي أعظم مآسي العالم.

هذه حال الشقاء والتعاسة التي بلغها وطننا المنكود، وهي حال ينفطر لها الجماد، فعلى كل جالية من الجوالي اللبنانية والسورية في المهاجر أن تفقه خطر موقفنا الذي لا مثيل له في العالم، وتهب لنصرة الوطن باذلة ما يبلغه أقصى الجهد.

خطب لبنان وسوريا

[3]

إن حال لبنان وسوريا رغماً مما قد يكون في أخبارهما من المبالغة بالغة منتهى الخطارة والخطر، ومهما كان في الأرقام التي وردتنا من الغلو والمبالغة فنكبة الوطن لا مثيل لها في تاريخه.

سكوت المرسلين الأميركيين في لبنان وسوريا عن الإتيان على ذكر شيء من الضيق والشقاء اللذين حلاّ بهما دليل على أمرين خطيرين: أولهما شدة المراقبة على الرسائل الصادرة من سوريا، وثانيهما شدة الضيق الذي لا يمكن أن يفيه حقه وصف قلم يمر على قلم المراقبة.

لا نزال على الاعتقاد الذي أوردناه سابقاً، وهو أنه متى أزيح الستار عن هذه المأساة التاريخية تبدّى لنا منظر تقشعر لهوله الأبدان.

حبوط مساعي الولايات المتحدة

كان الأمل معقوداً بمساعي الولايات المتحدة، فقد اتجهت إليها أنظار السوريين في أنحاء الكرة الأرضية كلها اتجاه إبرة الحك إلى القطب الشمالي، وتواردت عليها منهم الرسائل التلغرافية والاستغاثات تترى من فج سحيق، وقد بذل رصفاؤنا ومواطنونا في الولايات المتحدة جهد الطاقة لحمل الحكومة الأميركية على التوسط، فنجحوا في مهمتهم خير نجاح وأرسل الرئيس ولسن تعليمات مشددة إلى السفارة الأميركية في الأستانة لتكرار الطلب وبذل ما يبلغه الجهد لحمل حكومة الأستانة على الإذعان للتوسط.

ولكن الحكومة العثمانية بعد أن ترددت طويلاً في إرسال الجواب النهائي، أجابت بأنها ترفض

توزيع الإعانات في لبنان وسوريا على يد لجنة محايدة وهو ما كنا نخشى حدوثه بعد أن طالعنا حديث الوفد الصحافي مع الرئيس ولسن، وما كان في جواب الرئيس من العبارات التي كانت باعثاً على القلق مهما بالغ في تلطيفها، فقد صرح حينئذٍ أن أمله ضعيف بالنجاح وأن هنالك شؤوناً خصوصية لا يقدر على التصريح بها.

وإذا كانت الولايات المتحدة وهي ملجأنا الكبير في هذا الخطب الوطني قد أحبطت مساعيها في حمل الدولة العثمانية على قبول لجنة أميركية تتولى توزيع الإعانات، فلا نأمل بإمكانية ذلك بواسطة غيرها إلا إذا هبّ قداسة البابا لنصرة السوريين واستعمال نفوذه الكبير كله في سبيل تخفيف شقائهم.

يوم لبنان وسوريا

ذكرنا سابقاً أن نفراً من المواطنين الغيورين في الولايات المتحدة سعى عن طريق مجلسي الأمة والشيوخ لتعيين يوم تجمع فيه الإعانات من الولايات المتحدة كلها باسم منكوبي لبنان وسوريا، وسرّنا أن مساعيهم المبرورة تكللت بالنجاح، فلقد أجاز المجلسان المشار إليهما طلب تعيين يوم من الرئيس لهذا الغرض، فأجابهما إلى ما طلبوا وعين اليوم الثلاثين من شهر تموز موعداً لذلك وهو يوم أحد، وسيكون أكثر ما يجمع في اليوم المذكور التبرعات التي يقوم بها أهل البر والإحسان في الكنائس.

ولكننا نرجح أن الجالية السورية في أميركا الشمالية تتخذ كل الوسائل الممكنة لاستنداء أكف المحسنين، ونرجو أن يكون المجموع كافياً ليخفف شقاء بلادنا.

موقفنا الحالي

إننا الآن لفي موقف على غاية من الحراجة، وخصوصاً بعد أن رفضت الدولة القبول بلجنة محايدة تتولى توزيع الإعانات العمومية التي جمعها اللبنانيون والسوريون في المهاجر وجاد بها أهل البر والإحسان في أنحاء شتى.

ومما يزيدنا أسى في هذا الموقف أن اللجنة السورية الأرمنية المؤلفة في الولايات المتحدة صرحت بأنها على استعداد أن ترسل إلى سوريا ليس فقط باخرة تحمل مؤونة وأموالاً لمواطنينا بل بواخر وأن ما يقف في طريقها، إنما هو عدم الحصول على إذن من الحكومة العثمانية في هذا الصدد.

فما هو واجبنا نحو وطننا بإزاء هذا الموقف؟ أنكتفي بالمساعي التي بذلناها في الماضي ونقف مكتوفي الأيدي أمام هذا الخطب الكبير؟ لا نظن أن في ذلك شيئاً من الحكمة أو الوطنية بل يجب أن نتوسل بكل وسيلة ممكنة، ونطرق كل باب مقفل ونجدد المساعي أمام الأمم المحايدة وخصوصاً أمام قداسة البابا الذي يمكنه أن يجدد مساعيه المبرورة لتخفيف شقاء السوريين.

نرى الآن شيئاً من الخمول في الجوالي السورية على العموم، وقد عقب تلك النهضة شيء من التقاعد، فوطننا بين أنياب المجاعة والوباء والموت لا ينتظر أحداً، والوسائل المعجّلة التي نرجو منها خيراً للوطن إنما هي الوسائل السياسية.

مشكلة أميركا والدولة العثمانية

ومهما يكن من الأمر، فلا نظن أن مشكلة الولايات المتحدة والدولة قد وقفت عند هذا الحد وخصوصاً، لأن في الأولى تياراً شديداً من الرأي العام قد يضطر الحكومة الأميركية إلى زيادة العطف على السوريين، ولم تأتنا الرسائل البرقية بنبأ موقف الولايات المتحدة بعد وصول جواب الحكومة العثمانية إليها.

وقد أصبح حديث أوراق القنصلية الإفرنسية في بيروت حديث الأندية السياسية والأدبية في أميركا، فنشرت أشهر الجرائد الأميركية فصولاً متعددة بهذا الصدد وعقدت مقالات ضافية تعنف فيها الحكومة على تقاعسها في مسألة الأوراق المشار إليها، حتى أصبح الرأي العام في الولايات المتحدة شاعراً بأن الأمة الأميركية مسؤولة عما ترتب على نتائج اكتشاف الأوراق المشار إليها.

لذلك لا نقطع كل أمل من الولايات المتحدة، وقد تعود إلى مخابرة الدولة العثمانية وتحور طلبها على كيفية يكون بها الطلب الجديد أحسن وقعاً من القديم.

الإعلانات الخصوصية

ولكننا نعود مرة أخرى فنكرر أن حياة الباقين من مواطنينا تتوقف في الوقت الحاضر علينا نحن لا على سوانا، بينما نجد في إنقاذ المنكوبين بواسطة الطرق السياسية والإعانات العمومية. فعلى كل منا أن يرسل إلى أهله وذوي قرباه إعانات خصوصية تدفع الضائقة إلى أن تنفرج الأزمة بانحلال المشكلة السياسية الواقعة بين أميركا والحكومة العثمانية.

بدون هذه الإعانات الخصوصية، لا نرجو بقاء مواطنين لنا إلا متى توفقنا أو توفق العاطفون علينا إلى اكتشاف طريقة يمكننا بواسطتها إرسال الإعانات العامة وتفريج كربة الباقين على قيد الحياة من مواطنينا.

كل إشاعة ترمي إلى حمل الجوالي على التردد في إرسال الإعانات الخصوصية ضارة بالوطن ضرراً كبيراً، فلذلك ننحي باللائمة على الجرائد المصرية لترويجها مثل هذه الإشاعات إلى حد أحجم عندها الأب عن إغاثة ولده والابن عن إغاثة أبيه.

لا ننكر أن بعض الدراهم التي أرسلت إلى الوطن بطرق شتى لعبت به أيدي الضياع أو التلاعب أو الاختلاس، ولكن هذا البعض نادر ولا يصح اتخاذه قاعدة يبنى عليها.

الوقت حياة، وكل دقيقة تمر علينا تختطف فريقاً من مواطنينا، أغيثوا أقرباءكم بالإعانات الخصوصية حتى يبقوا أحياء إلى أن تردهم الإعانات العامة.

مبلغ الإعانات الخصوصية

كان مبلغ الإعانات الخصوصية التي أرسلت على يد الرسالة الأميركية وحدها حتى أوائل نيسان المنصرم نحواً من ثلاثة ملايين ريال أرجنتيني، ويمكننا معرفة المبالغ الأخرى التي أرسلت إلى الوطن على غير هذه الطريق، ولا ما أرسل منها منذ أوائل نيسان حتى الآن ولكننا نرجح أن مبلغ الإعانات التي أرسلت بعد دخول الدولة العثمانية غمار هذه الحرب لا يقل عن خمسة ملايين ريال أرجنتيني، ولا نظن أن الإعانات العامة التي جمعها السوريون في الماضي من مواطنيهم والتي سيتمكنون من جمعها في المستقبل تبلغ عشر هذا المبلغ.

ولا نعلق كبير أمل على إمكانية جمع إعانات عامة تخفف شقاء المنكوبين في وطننا التعيس تخفيفاً يشعر به مجموعهم. ما لم تتقدم إلى مناصرتنا والعطف علينا أمة عظيمة كريمة الأخلاق كالأمة الأميركية.

يجب أن نفقه أن حياة مواطنينا تتوقف في الوقت الحاضر على الإعانات الخصوصية، وأن هذه الإعانات سوف تبقى الركن الكبير لحياتنا حتى بعد إمكان وصول الإعانات العامة التي لا يمكنها أن تكون قواماً لحياة أمة برمتها دهراً طويلاً. فالإعانات العمومية إنما يراد بها تفريج الكربة موقتاً، إلى أن تعود الإعانات الخصوصية إلى ما كانت عليه من الانتظام، ويمكن المنكوب أن ينفرج قليلاً.

لا يجوز للجالية أن تتردد في إرسال النقود إلى الوطن، لأن التردد في هذا الموقف جريمة لا تغتفر.

خطب لبنان وسوريا

[4]

لا تزال الأنباء الواردة إلينا من أنحاء شتى تدل على مبلغ الضيق والشقاء النازلين بوطننا التعس، ومع أن الأخبار التي وردتنا سابقاً فيها غلو ومبالغة، فالحقيقة أن كثيرين من السوريين على نوع عام واللبنانيين على نوع خاص يموتون جوعاً.

أطلعنا منذ بضعة أيام أحد أصدقائنا من مشاهير تجار العاصمة على كتاب ورده حديثاً من أخيه في المتين من قائم مقامية المتن في لبنان جاء في عرضه ما يأتي:

«كل من يقدر على إرسال نقود إلى أهله ينقذهم من الموت جوعاً، فالذي يحدث يومياً في لبنان خاصة، بسبب الجراد الذي أتى سابقاً وقلة الأمطار» وقد قص المراقب بضع كلمات منه.

فمرور هذا الكتاب على يد المراقب، وبقاء هذه الشذرة فيه دليل واضح على مبلغ الشقاء الذي حل بالوطن، وتأييد للأنباء التي وردتنا من أنحاء شتى على ما ألمعنا إليه في حينه.

فالموت الأبيض حل بسوريا دون مشاحة، ولا يزال يفتك بها فتكاً ذريعاً وكل من يرمي إلى تسكين الأفكار الثائرة والخواطر المضطربة ضرب من التسكين الذي لا يجوزه شرع أو عقل، فالعاقل من فتح عينيه للخطر حتى يكون أعرف بوسائل اتقائه لامن من أغمضهما فيكون كالنعامة تضع رأسها في الرمال لا تبصر الصياد الذي يجري لاقتناصها.

ولقد كتبنا مراراً بهذا الموضوع، وفي المرة الأخيرة أن إرسال المال إلى الوطن هو الوسيلة الوحيدة الآن لإنقاذ مواطنينا من الموت جوعاً، فكل من يغرر باللبنانيين والسوريين ويزين لهم أن لا مجاعة في الوطن يرتكب أثماً نحو مواطنيه، وكذلك كل من يقول إن بعدم وصول الإعانات خصوصية كانت عمومية.

نشرنا لقراء المجلة كتاباً وردنا من رسل كارتر أمين خزينة الجمعية الأميركية في نيويورك يرى فيه المطالع بياناً شافياً لما حل بالأموال المرسلة إلى الوطن وأن هذه الأموال لم تصل بدون أدنى شبهة أو معارضة. وليكن السوريون على ثقة من أن الرسالة الأميركية التي وقفت نفسها على عمل البر ورضيت أن تقوم للسوريين بهذه الخدمة الجليلة شفقة ورحمة بنا لا ترضى لحظة واحدة أن تكون وسيلة لابتزاز أموالنا ونهب مواطنينا، فلو رأت إجحافاً بحقوقنا ومجازفة بإعاناتنا لكانت أعلنت الجوالي السورية طراً بعدم قبولها تولي إرسال الأموال سواء ذكرت السبب الذي يحدو بها إلى ذلك أم لم تذكره، كما فعلت لجنتها في الأستانة على ما جاءت تفاصيله في الكتاب المشار إليه، فإن هذه اللجنة التي كانت تتولى توزيع الإعانات على الأرمن أعلنت اضطرارها إلى الانقطاع عن ذلك دون أن تأتي على تفصيل ما بهذا الصدد.

الموقف موقف موت أو حياة والنكبة لا مثيل لها في تاريخنا، وقد بدأت تتسرّب إلينا أنباء الأوبئة التي أنبأنا بحدوثها قبل أن يردنا شيء من أخبارها، فالحمّى التيفوسية والتيفودية والدوسنطاريا التي قلنا حينئذٍ إنها من مصاحبات ونتائج الحروب والمجاعات فتكت ولا تزال تفتك بمواطنينا فتكاً ذريعاً، وكان من تعاسة وطننا أن أضيف إلى هذه الأوبئة وباءان آخران هائلان هما الطاعون والهواء الأصفر.

لا نظن أن بلاداً رُزئت بما رُزئت به سوريا دون أن تنال عطفاً فعالاً من الأمم فأصيبت البلجيك برزايا عظيمة، وحلّت بها نكبة قد تكون أعظم نكبات العالم ولكن خطبها كان أشبه بزوبعة هوجاء هدمت المنازل واقتلعت الأشجار ولكنها لم تلبث أن هجعت وعاد من بقي حياً من أهلها يتنشق نسمات الصباح ويجد قوتاً لحياته وطبيباً لأمراضه ودواء لإنعاشه. حلّت بالصرب نوائب تذيب القلوب وتفتت الأكباد واجتاحتها الحمى التيفوسية، ولكنها وجدت عطفاً عليها من الغير فأرسلت إليها بعثات الصليب الأحمر تباعاً. أما سوريا المنكودة الطالع فإن أهلها يموتون بين براثن الوباء ومخالب المجاعة دون أن يسمع العالم لهم صوت استغاثة. يموتون دون غذاء ولا طبيب ولا دواء.

متى فُتحت الطريق بين سوريا والعالم كان في كل عائلة مناحة وفي كل أسرة حداد، لأن من لم يفقد أباً أو أماً أو أختاً أو ابناً فقد قريباً أو صديقاً، فالحاضر قاتم والمستقبل مظلم.

وبين عاملي الرجاء واليأس يقف فريق كبير من أفراد الجوالي السورية صارفاً وقته الثمين بالأسئلة عن حقائق الأخبار ومصادرها. يمسك الرجاء شماله ويشل القنوط يمينه.

تقف اللجان بين أخذ ورد وتقتل أوقاتها بمناقشات عقيمة ومجادلات سقيمة والموت يحصد في خلال هذه الفترات الذهبية صفوفه حصداً، ومتى اتفقت آراؤهم قد لا يبقى من لزوم لرأي على الإطلاق، لأن الذين من أجلهم أقيمت اللجان واختلفت الآراء يكونون قد رحلوا إلى ديار الأبدية.

يجب أولاً إرسال الأموال دون أدنى إبطاء لأن الموت لا ينتظر أحداً.

من أراد أن ينقذ أهله من الموت جوعاً فليرسل إليهم الآن مالاً.

أتينا في الجزء الماضي على ذكر النبأ البرقي القائل بأن الحكومة العثمانية أذنت للولايات المتحدة بإرسال إعانات إلى سوريا تتولى توزيعها لجنة أميركية، وقلنا حينئذٍ إننا لا نكون على ثقة في شيء من ذلك ما لم يردنا ثبت لهذا النبأ من وزارة الخارجية نفسها. ومع أن النبأ البرقي المشار إليه قد تكرر فلا نزال بين الشك واليقين، ونرجح عدم صحته لأنه لا يقرب العقل أن تكون الحكومة العثمانية قد أذنت للولايات المتحدة دون أن تردنا رسالة برقية بهذا الصدد من لجنة نيويورك أو سواها، ولكننا نظن أن الحكومة الأميركية لا تزال متابعة سعيها من هذا القبيل ولا ندري ما تكون نتيجته.

والمأخوذ من روايات بعض الأميركان الذي كانوا في سوريا أن الحال فيها بالغة منتهى الشقاء، فقد شاهد بعضهم كثيرين من الرجال والنساء يسقطون في الشوارع وبينهم أيضاً فريق من الأولاد، وكلهم يفتشون عن كسرة من الخبز يسدون بها الرمق.

وظاهر من مجمل الروايات أن الحال في لبنان أشد منها حراجة في سائر المواضع، وأن الناس تهلك بسرعة سواء بعامل الجوع أو الوباء وطبيعي أن يكون الضيق في لبنان أكثر منه في بقية أنحاء سورية لأن أراضيه الزراعية قليلة جداً لا تكفي سكانه، والمواصلات بين جهاته متعذرة وهو يعتمد في غذائه على ما كان يرده سابقاً من حوران وسهل البقاع.

وقد قال بعض الأميركيين الذين كانوا في لبنان أنه لا يوجد سوى موضع واحد فيه الحبوب وهو عاليه، وأن الحصول عليها متعذر، فيتقاطر اللبنانيون إلى هناك زرافات ويضطرون إلى

الانتظار ردحاً من الزمن قبل أن يتمكنوا من الحصول على شيء قد لا يكون فيه كفاية له.

ومهما يكن من الأمر، فإن الحال في لبنان لا تزال على ما كانت عليه من الشقاء ولا نرى باباً للفرج إلا إذا سمحت الدولة العثمانية للحكومة الأميركية أن ترسل ما عندها من المواد الغذائية لتوزع على يد الأميركان أنفسهم، لأن الدولة إذا لم تذعن لا يسمح للحلفاء بدخول شيء من المواد إلى سوريا.

نكبة لبنان وسوريا

لا تزال أنباء نكبة الوطن تردنا تترى على ما أصاب سوريا على وجه العموم ولبنان على وجه الخصوص من الشقاء والضيق والموت جوعاً حدث ولا يزال يحدث في أنحاء شتى من لبنان. ولكن المواد الغذائية ليست نادرة كما كانت سابقاً ولا بد من أن تكون الإعانات التي وصلت سوريا قد خففت شيئاً من ضيقها.

إن مراقبة الكتب الواردة من سوريا شديدة سواء من جهة الدولة العثمانية نفسها أو من جانب الحلفاء، لأن ما يرد منها إلى الجمهورية الفضية قليل جداً بالنسبة إلى ما يجب أن يكون ونظن أن الحال كذلك في المهاجر الأخرى، وليس لدينا من أخبار الوطن إلا ما يتسرب إلينا من هذه الكتب المحجوزة أو ما تجود به علينا الرسالة الأميركية وسواها ممن لهم مراسلون في سوريا أو لبنان.

الحكومة العثمانية والولايات المتحدة

أتينا سابقاً على النبأ البرقي الذي ورد في بعض الجرائد الأرجنتينية الكبرى في العاصمة من واشنطن، ومفاده أن الحكومة العثمانية أجازت للولايات المتحدة إرسال الإعانات العامة إلى سوريا وأن تتولى توزيعها لجنة أميركية، وقلنا وقتئذٍ إننا لا نصدق هذا الخبر إلا إذا كان صادراً من وزارة الولايات المتحدة الخارجية، لأنه لم يكن قريباً من المعقول أن تسمح الدولة بذلك بعد التشديد السابق الذي بدا منها في حين أن الرئيس ولسن تهددها بقطع العلاقات بين الدولتين، وأن رفضها يحدث في أميركا ثورة في الخواطر ضدها بناء على ما في صدر الأمة الأميركية كلها من شعور العطف على السوريين في هذه الأزمة التي لا مثيل لها في تاريخهم. وكان في جملة ما حدا بنا إلى عدم الاعتقاد بصحة هذه الرواية أن حكومة الولايات المتحدة

لم تعد الكرة على الطريقة الأولى، وقطع علاقاتها مع الحكومة العثمانية بمثابة قطعها أيضاً مع ألمانيا وهو ما لا تريد فعله إلا إذا كانت مضطرة وخصوصاً في هذه الآونة التي تلعب فيها السياسة في الانتخابات دوراً هاماً.

والذي علمناه بعد ذلك أن لا صحة للنبأ المشار إليه، فإن الحكومة العثمانية لم تتحول عن جوابها الأول، ولكن لا يجوز أن يستنتج مما تقدم أن حكومة الرئيس ولسن غير متابعة سعيها ومخابراتها للوصول إلى الغرض المطلوب بطريقة ودية، وقد يكون من وراء مساعي السفير الأميركي الجديد في الأستانة خير لوطننا.

الإعانات الخاصة

يقوم إنقاذ الوطن في الأزمة الحالية بالإعانات الخاصة والعامة، ونريد بالأولى منها الإعانات التي يبعثها كل شخص إلى ذوي قرباه وأصدقائه وأهل مسقط رأسه لأنها الوسيلة الوحيدة الفعالة في الضائقة الحاضرة لإنقاذ الوطن من الهلاك.

يجب على كل فرد من الجوالي السورية في المهاجر كلها أن يبعث بكل ما يمكنه إرساله من المال لإغاثة أقربائه، ويجب على أهل البلد الواحد أينما كانوا أن يرسلوا إعانات خاصة في أوقات منتظمة لتوزع على المحتاجين من مواطني بلدهم.

هذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكننا بها الآن إنقاذ لبنان وسوريا من الموت جوعاً، وإذا عمل بها السوريون في أنحاء المهاجر كلها أنقذوا الوطن من الهلاك فعلاً وأتوا عملاً مجيداً يسجله لهم التاريخ أبد الدهر.

يسرنا أن نداءنا في المجلة قد وقع على آذان مصغية وقلوب واعية، وأن الجالية السورية في الجمهورية الفضية قد عملت بهذه النصيحة التي ألقيناها إليها غير مرة، وإذا صح أن تؤخذ الأموال التي ترسل إلى الوطن على يد صاحب المجلة مقياساً لكل ما تبعث الجالية فيمكننا القول إن الإعانات الخصوصية قد تضاعفت بعد النداء الذي أرسلناه على صفحات المجلة وخصوصاً بعد أن نشرنا الحوار الذي بعثته إلينا الرسالة الأميركية في نيويورك وأكدنا للسوريين أن الأموال التي يرسلونها تصل إلى أصحابها دون أدنى معارضة أو شبهة.

الإعانات العامة

أما الإعانات العامة، فهي التي نبعث بها إلى الوطن لترسل إلى موضع الحاجة دون تخصيص وهي ضرورية جداً، لأنها تسد الفراغ الذي لا بد من وجوده لو اقتصر الأمر على الإعانات الخصوصية.

إيماننا بنجاح الإعانات العامة، يؤثر في الشعب السوري تأثيراً محسوساً به ضعيف جداً لذلك كان جل اعتمادنا في أنحاء الوطن على الإعانات الخاصة.

الإعانات العامة تتطلب درجة مناسبة من الارتقاء والشعور لم يبلغها إلا أفراد معدودة من السوريين لا يقوون على التأثير في مجموع شعب كبير كالشعب السوري، إلا إذا كانوا من أصحاب الملايين الكثيرة والكرم الحاتمي.

لا يمكنك أن تغير أخلاق شعب في بضعة أشهر، وخصوصاً متى كانت أشهر بؤس وشقاء وضيق، لذلك وجدت الإعانات العامة في انحاء المهاجر كلها لا تفي بجزء من ألف من حاجة سوريا.

الجالية الشويرية في البرازيل

نظن أن الجالية الشويرية في البرازيل أرقى مثال للجوالي اللبنانية والسورية، فقد افتتح أولاً أفرادها اكتتاباً عاماً للبنان وسوريا دون تخصيص أو تفضيل بلد على آخر، إلا ما تقضي به الحاجة وقد بلغ مجموع هذا الاكتتاب ألفاً وستمائة ليرة، وبعد قيامهم بالواجب العام انصرفوا إلى الواجب الخاص فبعثوا دفعات متعددة إلى مساقط رؤوسهم وأخذوا على عهدتهم إرسال إعانات شهرية تضمن إغاثة المحتاجين والقيام بالنفقات اللازمة لهم ما ظلت الحرب ناشبة.

ولقد بعث إلينا صديقنا ووكيلنا العام في البرازيل جورج أفندي قربان بكتاب جاء في عرضه أنه قد ورد مؤخراً إلى اللجنة الشويرية في سان باولو كتابان من الأستاذ جرجس همام أمين أسرار اللجنة المركزية في الشوير يقول فيهما: إن الأموال التي أرسلت إعانات من البرازيل والولايات المتحدة وصلت ووزعت على العائلات المحتاجة، وإن الحكومة تناصر اللجنة المركزية مناصرة أدبية كبيرة.

ويؤخذ من الكتابين المشار إليهما أن المواد الغذائية موجودة، ولكن هنالك حاجة إلى المال وأنه لم يمت في الشوير أحد جوعاً.

لو جرت سائر الجوالي على هذه الخطة الرشيدة الشريفة عوضاً عن قتل الوقت بالاجتماعات العقيمة والمشاحنات التي لا تجدي نفعاً لما كان هنالك جوع كما يقول حضرة وكيلنا.

إذا كان لم يمت أحد في الشوير جوعاً، فالفضل في ذلك عائد إلى الجوالي الشويرية في البرازيل والولايات المتحدة، ولو حذت الجوالي السورية كلها هذا الحذو لأنقذت الوطن كله من الهلاك.

إننا نسدي مواطنينا الشويريين أجمل الشكر، ونثني عليهم أطيب الثناء لما أظهروا للوطن الصغير من شرف الأخلاق وارتقاء الصفات والشعور الوطني الصحيح الذي تجلى للأبصار نوراً باهراً، ونفتخر بهم لأنهم قاموا بأنفع وأشرف وأمجد عمل يمكن وطني ما أن يقوم به ألا وهو إنقاذ وطنهم من الموت جوعاً، وضمان حياته ومعاشه ما ظلت الحرب ناشبة.

سوف يبقى هذا العمل الجليل منقوشاً على ذاكرة المواطنين المختلفين ومتى ذكرت الأوطان الصغيرة بعد حرب الأمم تاريخها أثناء هذه الحرب الهائلة، ذكر وطننا الصغير أبناءه فخوراً بأخلاقهم الشريفة ومفاخراً بمآثرهم النبيلة.

الإعانات المنتظمة والإعانات التشنجية

الخطة التي جرى عيلها أبناء الشوير هي الخطة الرشيدة التي يمكننا بها إنقاذ وطننا من الهلاك والخطة التي نريد أن تعمل بها سائر الجوالي اللبنانية والسورية في أنحاء المهاجر كلها.

نريد إعانات منتظمة لا إعانات تشنجية وإعانات كافية تمنع الموت جوعاً، لا إعانات شحيحة تؤجّل الموت إلى حين. نريد إعانات يدفعها المهاجرون إلى أوطانهم كما يدفع القلب الدم المغذي إلى أجزاء الجسد نبضة فنبضة. نريد وطنية تتحول إلى أرغفة للجياع لا إلى تموجات في الهواء. نريد أن نرى طحناً لا أن نسمع جعجعة وأن ننقذ أرواحاً لا أن نعقد اجتماعات. نريد وطنية فعّالة لا قوّالة. نريد وطنية تقوم بتضحيات سامية في سبيل تحقيق أمنية سامية.

هذا ما فعلته جالية الشوير في البرازيل دون جلبة، فبينما كثير من الجوالي الأخرى تقتل وقتها

بالاجتماعات والمناقشات والانتخابات والاعتراضات، يجمع الشويريون الأموال دون إضاعة يوم واحد لأنهم لا يعرفون فقط قيمة الوقت بل يعرفون أيضاً قيمة الحياة.

نرجو أن تنسج الجوالي الأخرى على هذا المنوال، ويسرنا أن بعضها آخذ في الجري على هذه الخطة أو ما يقاربها، وخصوصاً جوالي زحلة وحاصبيا وحمص وبيروت.

متى قامت الجوالي كلها بواجبها نحو الوطن لم يعد هنالك جوع، ولا يبقى من لزوم للاستغاثة بالأجانب.

الاعتماد على النفس

يترتب علينا أن نعوّل على أنفسنا في إنقاذ وطننا من الهلاك، وأن نستجير بالأجانب لمناصرتنا لا أن نطرح أحمالنا كلها عليهم وحدهم دون أن نقوم نحن بإعانات تستحق الذكر في مثل هذه النكبة العامة.

إن الجوالي اللبنانية والسورية في أنحاء المهاجر كلها لقادرة على النهوض بوطننا المنكوب وإنقاذه من الموت جوعاً إذا شعرت بواجبها الكبير وقامت به خير قيام.

ولا يمكنها القيام به إلا بالتضحية، وهي لا تقوم بالتضحية المطلوبة إلا إذا كانت ذات أخلاق راقية، ومقياس الأخلاق الراقية في هذه النكبة الوطنية ما يرسله المواطنون من الإعانات إلى أوطانهم.

من الجامعة السورية إلى الجالية

الجامعة السورية في عاصمة الجمهورية الفضية

كان في صدر الأماني الاجتماعية التي دارت في خلدنا يوم قدومنا بونس أيرس وإقدامنا على إنشاء المجلة تأسيس جمعية سورية شاملة تعنى بالتأليف بين عناصر الجالية والشؤون الأدبية والاجتماعية للمواطنين والمحاماة عن مصالح الجالية، وتكون نواة السوريين القاطنين الجمهورية الفضية عموماً وبونس أيرس خصوصاً.

لم يكن يوجد في بونس أيرس جمعية قط تنحو هذا النحو، ولا نظن أنه قد تألفت في الماضي جمعية على هذا النمط، ومهما يكن من الأمر، فالحقيقة البادية للعيان أن الحاجة تمس إلى إنشاء مثل هذه الجمعية، وأن خلو عاصمة الجمهورية الفضية من رابطة قومية واجتماعية للجالية تبلغ نحواً من مائة وعشرين ألف نفس لمن الأمور التي تدعو إلى التفكير والتبصّر.

تأسيس الجامعة

رأى جمهور الأفاضل الذين اجتمعوا لهذا الغرض ضرورة إنشاء الجمعية التي أتينا على بيان مراميها، وأقروا على تأسيسها في الحال واعتبار هذا الاجتماع جلسة أولى قانونية لها كما ترى في البيان الذي أصدرته الجامعة إلى الجالية على ما هو منشور في غير هذا الموضع.

بلغ عدد المنخرطين في سلك الجامعة حتى الساعة نحواً من مائة جلّهم من عظام الجالية ونخبة رجالها ومشاهير تجارها وكبار مفكريها وقادة الرأي العام فيها. فالجامعة تفتخر بهم وترجو أن تكون هذه النهضة الرائد إلى الفلاح والوفاق.

بدأت الجامعة مشروعها بالإيمان وأتمته بالإخلاص وجرت إلى غاياته بالرجاء.

بذرت في تربة الجالية بذرة المحبة والتآلف والأخاء، وهي ترجو أن تحيا وتنمو حتى تصير شجرة كبيرة تظلل الجالية وتأتي بثمار صالحة.

لا تدعي الجامعة أنها ستأتي بالمعجزات، ولا تبني قصوراً في الهواء، ولكنها تسير متمشية في أعمالها على النواميس الطبيعية، وتقوم بواجباتها لمواطنيها بكل ما في وسعها، فهي تريد أن تبدأ صفحة جديدة من تاريخ حياتها الاجتماعية، وأن يكون أساس عملها الثقة والإخلاص في العمل والتفاني في خدمة المواطنين.

نداء إلى الجالية

[1]

توجهنا منذ بضعة ايام إلى سفارة الولايات المتحدة في بونس ايرس وأوضحنا لسعادة السفير الضيق والشقاء المخيمين في ربوع لبنان وسورية، وعدم تمكن اللبنانيين والسوريين في هذه الجمهورية من إرسال النقود لاقربائهم وذويهم في الوطن بسبب انقطاع المواصلات، وأن عائلات كان لمس الحرير يدمي بناتها تعاني الآن من الحاجة ما تنفطر له القلوب، وطلبنا من سعادته أن يتخذ الاجراءات اللازمة لايصال ما يرغب اللبنانيون والسوريون إرساله إلى عائلاتهم وذويهم تخفيفاً لشقائهم، فتفضل سعادته وكتب للحال، ونحن لا نزال في السفارة رسالة برقية الى حكومته يستأذنها بها قبول النقود التي يريد اللبنانيون والسوريون في الارجنتين إرسالها إلى ذويهم على يد السفارة هنا وإيصالها إلى أصحابها بواسطة قناصل الولايات المتحدة في سورية.

ونبشر مواطنينا الكرام أنه قد ورد السفير جواب تلغرافي باجابة طلبه ونفضل حال وصول التلغراف المذكور بأن دعانا إلى السفارة حيث بلغنا ان السفارة مستعدة الان لقبول النقود التي يريد اللبنانيون والسوريون إرسالها إلى أوطانهم، وانها تتولى إرسالها إلى لبنان وسورية على يد قناصل الولايات المتحدة هناك وذلك طبقاً للبيان الآتي:

يجب بأن نقدم الطلبات بالجملة أي أن كل بضعة طلبات تقدم في وقت واحد ويكون تقديمها بواسطة صاحب المجلة وذلك بناء على طلب السفارة منا لا على طلبنا نحن منها، لأنها تريد طبعاً أن تخفف عن نفسها عبء الطلبات المفردة التي تكلفها عناء جزيلا لا اضطرار اليه ولكنها قبلت أن تقدم اليها الطلبات المختصة بالكميات الكبيرة فقط رأساً إذا شاء أصحابها ذلك.

يكتب بالالة الكاتبة ثلاث نسخ باللغة الانكليزية تتضمن ما يأتي (1) اسم للمرسل وعنوانه (2) اسم المرسل إليه وعنوانه المدقق كاسم البلدة التي هو مقيم فيها والمتصرفية أو القائمقامية التي تنتمي إليها البلدة المذكورة (3) اسم أقرب مكان يوجد فيه موظف اميركاني من قبل حكومة الولايات المتحدة سواء كان ذلك الموظف سفيراً في الاستانة أو قنصلاً عاماً في الولايات أو وكيل قنصل في المدن الصغيرة وما أشبه ذلك حتى يمكن إرسال النقود المطلوب ارسالها بواسطته إلى أصحابها.

الموظف الأميركاني يسلم النقود لأصحابها في المدينة التي يكون هو مقيماً فيها فاذا كان المرسلة إليه النقود في بلدة مجاورة أو بعيدة يرسل اليه كتاب بالقدوم إلى الموظف الاميركي لاستلام النقود.

تحفظ نسخة من النسخ الثلاث المذكورة اعلاه في سفارة الولايات المتحدة في بونس ايرس وترسل واحدة إلى حكومة الولايات المتحدة ويبعث بالثالثة إلى سفير الولايات المتحدة في الاستانة.

يجب دفع النقود المطلوب إرسالها ذهباً عيناً لا أوراقاً مالية ويمكن استبدال الاوراق المالية ذهباً بواسطة بنك اميركا في بونس أيرس وستتخذ السفارة الاجراءات اللازمة مع البنك المذكور لتسهل الاستبدال المشار إليه.

تقبل السفارة إرسال النقود تلغرافياً وفي مثل هذه الحال يجب على الطالب دفع النفقات التلغرافية مع وضع تأمين قليل لما قد يترتب على التلغراف المذكور من مخابرات تلغرافية أخرى.

طلبت إلينا السفارة أن نقدم لها ترجمة ما ندرجه في المجلة بهذا الصدد وأن نرسل إليها نسخة من عدد المجلة هذا تضمه إلى أوراقها الرسمية، وأن نرسل إليها أيضاً نسخاً أخرى منه لتبقى في السفارة وتوزعها على من قد يحضر من أفراد الجالية إليها رأساً.

فباسم اللبنانيين والسوريين المقيمين في هذه الجمهورية نرفع إلى سعادة سفير الولايات المتحدة في بونس أيرس شكر الجالية على اريحيته وكرامة أخلاقه كما أننا نرفع إلى حكومته في وشنطن وشعب الولايات المتحدة معرفتنا جميل بلاده التي آست أبناء وطننا في لبنان وسورية مؤاساة

جميلة، وعطفت عليهم في أيام بؤسهم وشقائهم، فأرسلت إليهم من الاسعافات ما أنقذت به عائلات برمتها من مخالب الموت. فإلى هذه الامة الراقية المتمدنة الرؤوفة نرفع عبارات أثناء ونصيغ لها عقود المدح.

حال الوطن والإعانات المالية،
كتاب الرسالة الأميركية إلى صاحب المجلة

تضاربت أنباء الوطن تضارباً كبيراً، واختلفت الروايات الواردة إلينا اختلافاً يقف عنده المرء حائراً ذاهلاً، وتشعبت الآراء بخصوص الأموال المرسلة إلى لبنان وسوريا والحال التي هما عليها الآن من الضيق والضنك.

وقد بلغت هذه الأنباء مبلغاً ثبط عزائم الجالية، وأوقفها موقف الارتياب في أمر وصول الإعانات إلى أصحابها، فقد حملت إلينا جرائد مصر فيما حملته من أحاديث الويلات والبلايا أن الحكومة العثمانية تضع يدها على الأموال المرسلة من أفراد الجالية إلى أهلهم وذوي أقربائهم في لبنان وسوريا، فتضعها في المصارف المالية، ولا تأذن بقبض شيء منها إلا بعد سنة من تاريخ وصولها، ولا يتاح لأصحابها حينئذٍ استلامها من تلك المصارف إلا أقساطاً صغيرة.

ثم طالعنا بعد ذلك في جريدة عربية تصدر في بوسطن من الولايات المتحدة، أن اللجنة الأميركية في الأستانة عدلت عن توزيع النقود الواردة على يدها إلى المملكة العثمانية، فجاء هذا النبأ ضغثاً على إبالة.

ولقد تواردت علينا الأسئلة من أنحاء الجمهورية الفضية بهذا الصدد، وأصبح السواد الأعظم من الجالية متردداً في إرسال النقود إلى الوطن، وأمسى الموقف خطراً لأن المورد الوحيد الآن للبنان وسوريا يكاد يكون مقصوراً على جواليهما في أنحاء العالم الجديد، وخصوصاً ما كان منها في العالم الجديد، ونخص بالذكر الولايات المتحدة والبرازيل والأرجنتين، فإذا انقطعت عنهما هذه الموارد تضاعف الشقاء وعمت المجاعة.

لذلك رأينا في تردد الجالية وإحجام الفريق الأكبر منها عن إغاثة أهلهم وذويهم بالإعانات المالية أضراراً كبيرة على الوطن لا تقل عن أضرار الضيق والأوبئة.

ثم إننا استدللنا من بعض الكتب الواردة إلى بعض المواطنين من الوطن، أن الدراهم المرسلة إليهم بتأخر وصولها زمناً طويلاً عن المحدد في الكتب المطبوعة التي تبعثها الرسالة جواباً على استلام النقود المرسلة إليها، فإنها تذكر في الكتب المشار إليها أن الدراهم تسلم لأصحابها في الوطن بعد وصولها إلى نيويورك بنحو ثلاثين أو أربعين يوماً، مع أنه يمر أحياناً ثمانية أشهر أو سنة دون أن يرد خبر من الوطن ينبئ بوصول النقود إلى أصحابها.

فبناء على ما تقدم، رأينا أن واجبنا للوطن يقضي علينا باستجلاء الحقيقة من مصدرها الأصلي، وهو الرسالة الأميركية في نيويورك وخصوصاً لأن أكثر النقود التي يبعث بها إلى الوطن ترسل على يد صاحب المجلة، فبعثنا إليها بكتاب فصّلنا فيه أنباء الضيق كما وردتنا من أنحاء شتى وبسطنا للرسالة الموقف الحرج الذي أصبح فيه الوطن، وإن موقف التردد والإحجام الذي وقفت عنده الجالية بعد ورود الأخبار المتضاربة عن إمكانية وصول الإعانات المالية إلى لبنان وسوريا يزيد في نكبة بلادنا وخطب مواطنينا، فوردنا منها الجواب الآتي بالإنكليزية وهذه ترجمته حرفياً:

نيويورك في 21 تموز سنة 1916

عزيزي الدكتور سعاده

وردنا كتابك المملوء رقة المؤرخ في 14 حزيران الذي تسألوننا فيه عن أحوال سوريا وبيان النظام الذي نجري عليه في إرسال النقود الواردة على يدنا إلى الشعب السوري، وإننا ندرك مبلغ اهتمامك في الأمر ونأسف أن ليس في وسعنا أن نرسل لك إفادات شافية كما كنا نودّ.

إن النبأ الذي أرسلته مأخوذاً عن الجريدة العربية التي تصدر في بوسطن بخصوص توقف لجنة المرسلين الأميركيين في الأستانة عن متابعة خدمتها في توزيع الإعانات التي ترسل على يدها صحيح في مبناه. ولقد ظلت اللجنة المشار إليها ردحاً من الزمن توزع ما يردها من الإعانات على أصحابها في آسيا الصغرى وذلك بواسطة فروعها في الجهات المذكورة، ولكنها رأت نفسها مضطرة إلى الانقطاع عن ذلك. أما الإعانات التي أرسلت على يد اللجنة المذكورة، فقد كانت محصورة على وجه الإجمال في الأرمن ولم تتعد دائرة اختصاصهم أرمينيا إلى سوريا قط ولا إلى غيرها من المراكز التي تتولى التوزيع فيها لجنة الرسالة التي

تخصنا لأن دائرة اختصاص اللجنة الأميركية في الأستانة مقصورة كل القصر على آسيا الصغرى من الأستانة، فشرقاً كأطنه وأزمير ومرسين وهي الولايات الواقعة بين البحر المتوسط والبحر الأسود. أما مراكز الإرسالية التي تخص لجنتنا فواقعة في سورية نفسها من بيروت حتى الجهات الشمالية والشرقية وعلى نوع أخص لبنان. ولكننا نوزع النقود الواصلة على يدنا حتى دمشق والقدس وحلب، لذلك لم يؤثر توقف لجنة الرسالة الأميركية في الأستانة عن توزيع النقود في ما أخذناه على أنفسنا من القيام به، فنحن لبثنا نرسل النقود، ومع أن الأنباء الواردة في الجرائد العربية تبعث على القلق، فكل كلمة من رسائل أمين خزينتنا في بيروت تدل على أن رسائلنا تصله، وأنه يقوم بالدفع ونظن أنه حدث في الماضي تأخير كبير ولا يزال يحدث تأخير حتى الآن، وأن أمين الخزنة المشار إليه يعمل وسط صعوبات جمة.

أما بخصوص سؤالك فيما يختص بكيفية إرسال الدراهم، فنجيب عليه إننا نرسل النقود إلى سوريا مرتين في الأسبوع، وعليه فلا نتأخر أكثر من ثلاثة أو أربعة أيام بعد وصول الدراهم إلينا عن إرسالها ضمن تحرير فيه التعليمات الكافية، وقد نضطر أحياناً إلى تأجيل إرسال النقود لأن الإفادات الواردة إلينا بخصوصها لا تكون واضحة، ولا يمكننا استجلاؤها فنضطر إذ ذاك في استجلائها أن نطلب من أصدقائنا السوريين الذين يترددون على مكتبنا أن يترجموها لنا من العربية، أما التعليمات التي وردتنا بواسطتكم فقد كانت دائماً جلية ولذلك لم يحصل تأخير في إرسالها على الإطلاق.

أما ما يختص بالفقرة المطبوعة في رسائلنا، ومفادها أن المستر دانا يدفع على الأرجح ما أرسلتموه إلى أهلكم في خلال ثلاثين أو أربعين يوماً، فمن الراجح أن ذلك يقتضي وقتاً أطول من هذا ونحن على يقين من أن البريد لا يصل سوريا أحياناً إلا بعد مرور شهرين من سفره.

لم تردنا أنباء من المرسلين الذين هم تحت إدارتنا بخصوص أحوال سوريا، ولا نظن أن الحالة هناك بالغة الشكل الذي تصوره الجرائد السورية، ولكننا لا نشك على الإطلاق في وجود ضيق شديد هناك، وأنه يوجد في سوريا مجاعة إلى حد محدود وبعض أصدقائنا السوريين في نيويورك يرتاب كثيراً في صحة الأرقام الواردة بهذا الصدد، ولا يصدق أن من الممكن موت ذلك العدد الغفير.

المخلص رسل كارتر

وفي ذلك الكتاب شؤون خصوصية أضربنا عن ذكرها لأنها لا تهم الجمهور ولكن طيه بياناً آخر هذه ترجمته:

أيها الصديق،

تذكرون أننا أفدنا حضرتكم لما قبلنا تولّي إرسال الإعانات المالية التي ترد على يدكم أننا لا نقدم وصولات بشأنها عليها توقيع المستر دانا أمين خزينة الرسالة الأميركية في بيروت، وأن المذكور لا يرسل إلينا تقريراً بخصوص الإعانات المشار إليها إلا فيما يختص منها بالإعانات التي لم يمكنه اتباع التعليمات المختصة بشأنها، فلا بد لنا جميعاً من الاستنتاج أن عدم ورود تقرير بهذا الصدد دليل على أن النقود دفعت إلى أصحابها.

ويسرنا إفادتكم أننا تلقينا من المستر دانا رسالة برقية من بيروت بتاريخ 8 تموز يقول فيها ما يأتي:

«دفعنا كل الحوالات حتى 14 نيسان ووصلتنا الحوالات حتى 9 أيار».

فنستنتج من هذه البرقية أن كل الحوالات التي أرسلت من هنا حتى تاريخ 14 نيسان (أي إلى نمرة 8074) قد دفعت تبعاً للتعليمات التي وردتنا من أصحابها، وأن تعليماتنا بخصوص دفع الحوالات التي وردتنا حتى 9 أيار (أي إلى نمرة 8097) قد وصلته وأنه شارع الآن في دفعها، فيمكنكم مما تقدم الحكم فيما إذا كانت النقود التي أرسلت إلينا قد دفعت.

ونرجو أن يكون هذا كافياً لطمأنينة بالكم.

المخلص رسل كارتر

يستنتج مما تقدم الأمور الآتية:

أولاً: إن اللجنة الأميركانية في الأستانة التي رفضت منذ بضعة شهور متابعة تولي توزيع الإعانات في المملكة العثمانية لا علاقة لها باللجنة الأميركية التي تتولى التوزيع في لبنان وسوريا على الإطلاق، وأن انقطاع الأولى عن العمل لم يؤثر مطلقاً في اللجنة الأميركية في بيروت التي لا تزال متابعة عملها المبرور في توزيع الإعانات على سوريا عموماً ولبنان خصوصاً.

ثانياً ـ إن إدارة الرسالة الأميركية في نيويورك تبعث بالإعانات الواردة إليها حالاً وسريعاً ولا تتأخر عن ذلك سوى ثلاثة أو أربعة أيام على الأكثر، وأنها ترسل الإعانات مرتين على الأقل في الأسبوع.

ثالثاً ـ أن الإعانات التي تبعث بها إدارة الرسالة الأميركية في نيويورك تصل بيروت في زمن يتراوح بين شهر على أقل تقدير وشهرين على أكثره، وأن تأخر توزيع الإعانات التي يرسلها المهاجرون إلى ذويهم ناشئ أما عن عدم تمكن المستر دانا أمين خزينة الرسالة الأميركية في بيروت من اتباع التعليمات الواردة إليه كعدم إمكانه معرفة مقر المرسلة إليهم الدراهم مثلاً أو لتشوش وإبهام يقع في الأسماء أو بسبب الصعوبات التي تعترض أعمال مستر دانا من هذا القبيل، ولم تفصل لنا الرسالة نوع هذه الصعوبات ولكننا يمكننا استنتاجها لأنه يعمل في بلاد في حال حربية.

رابعاً ـ أن الإعانات تصل أصحابها، وأن الحكومة العثمانية لا تعارض في ذلك ولا تضع يدها على الأموال المرسلة إلى أصحابها، وإذا حدث شيء من هذا القبيل فهو إنما فعل عامل مختلس من عمال الحكومة فعله جوراً وظلماً لا بأمر حكومته.

خامساً ـ إن الرسالة الأميركية في نيويورك لم يردها نبأ من مرسليها في لبنان وسوريا عن حال الوطن، وتظن أن أنباء المجاعة مبالغ بها وأن الأرقام التي وردتنا بخصوص عدد الذين هلكوا جوعاً في لبنان وسوريا يربو كثيراً على الحقيقة، ولكنها تذهب رغماً من كل هذا إلى أن الضيق بالغ في الوطن مبلغاً فاحشاً، وأن فريقاً من اللبنانيين والسوريين مات جوعاً ولكن عدده محدود.

هذه حقيقة الحال، بسطناها للجالية كما وردتنا من أوثق المصادر، ولا يسعنا بعد هذا البيان إلا أن ننادي اللبنانيين والسوريين بأعلى صوتنا ليهبوا من سباتهم ويطرحوا التردد والإحجام وراء ظهرهم، ويرسلوا الإعانات إلى عائلاتهم وأقربائهم وأبناء وطنهم حالاً وسريعاً دون إضاعة بريد واحد.

إرسال الإعانات المالية إلى الوطن الطريقة الوحيدة التي يمكننا بها الآن إنقاذه من الهلاك وفضلاً عما تقدم فإنه الوسيلة الوحيدة التي يتاح لنا اتخاذها، فالإعانات العمومية التي

جمعت في المهاجر ليست شيئاً مذكوراً بالنسبة إلى الإعانات الخصوصية التي أرسلها الأفراد إلى عائلاتهم وذويهم في الوطن، وفضلاً عما تقدم، فإن الأموال التي جمعت لإغاثة اللبنانيين والسوريين عموماً لا تزال حتى الآن مودعة في المصارف المالية إلى أن تسنح الظروف بإرسالها. أما الإسعافات التي يرسلها الأفراد فهي المورد الأعظم للوطن وتصله دون أن تتطرق إليها أيدي الغير.

لذلك نحض السوريين عموماً واللبنانيين خصوصاً على المبادرة إلى إغاثة مواطنيهم بأسرع ما يمكن وبدون تردد أو إحجام، لأن كل التقارير الواردة من الرسالة الأميركية تدل دلالة صريحة على أن النقود التي أرسلت على يدها حتى الآن قد سلمت إلى أصحابها، ولو كان هنالك مانع من قبل الحكومة العثمانية لما أرسل أمين خزينة المرسلين رسالة برقية يقول فيها إن الدراهم التي أرسلت حتى نحو نصف نيسان قد وزعت، وأن ما أرسل منها بتاريخ 9 أيار جار توزيعه، وإذا فرضنا أن متوسط المدة التي يقضيها سفر البريد من نيويورك إلى بيروت أربعون أو خمسون يوماً نستنتج أن توزيع النقود كان جارياً حتى نحو آخر حزيران.

ولقد بسطنا هذا البيان رحمة بمواطنينا التعساء الذين ينتظرون ورود النقود إليهم بالدقائق، فلتهب الجوالي إلى إرسال الإعانات الخصوصية دون إضاعة دقيقة واحدة لأنها الوسيلة الوحيدة الآن لإنقاذ وطننا من الفناء.

نداء إلى الجالية

[2]

أيها المواطنون

لقد ترامت إليكم أنباء النكبة الهائلة التي نزلت بوطننا العزيز وأحاديث الخطوب الفادحة التي أناخ بها الدهر على مواطنينا، وهي خطوب لم يسطر لها التاريخ مثيلاً في غابر الدهور.

ترامت إليكم أنباء المجاعة التي ترتعد لهولها الفرائص، وتقشعر لسماعها الأبدان، ووقفتم على الرسائل التي تصف الشقاء المخيم على تلك الربوع التعسة.

طالعتم أنباء هذه النكبة الكبرى، وعلمتم أن الأطفال الرضّع يموتون على أثدية أمهاتهم الجافة والفتيان والفتيات يهيمون على وجوههم في البراري يرعون النبات كالحيوانات السائمة والرجال والنساء يموتون على قوارع الطرق.

علمتم أن بعض القرى قد أقفر من سكانه تماماً، وأنه لم يبق في البعض الآخر سوى نفر قليل وأن أهل المدن يسقطون في الشوارع كأوراق الخريف، والأنباء البرقية الأخيرة التي وردتنا تقول إن قتلى الجوع والوباء في سوريا لا يقلون عن خمسمائة ألف نسمة.

تقول أيضاً الأنباء التي وردتنا أن الطبقة الدنيا قد انقرضت عن بكرة أبيها، وأنه لم يبق من الطبقة الوسطى إلا كل طويل العمر، وأن الطبقة العليا على وشك الانقراض إذا لم تردها الإعانات الضرورية في القريب العاجل.

لا نريد أن نبحث في الأرقام، ولا أن نحدد مبلغ الخطوب التي ألمت بوطننا، ولكن الحقيقة البارزة للعيان أننا بأزاء نكبة وطنية لم يرو لها التاريخ مثيلاً، وإننا إذا لم نبادر إلى إغاثة وطننا، فمصير مواطنينا إلى الانقراض المعجل.

أيها المواطنون

ماذا فعلتم لإنقاذ البقية الباقية من سكان سوريا؟ ماذا فعلتم لإنقاذ أهلكم وذوي قرباكم ومواطنيكم؟ ماذا فعلتم لإغاثة الوطن الذي فيه رأيتم نور الحياة، وفي سهوله المنبسطة ووهاده المطمئنة وهضابه الجميلة وجباله الشامخة صرفتم زمن الصبا بين النباتات المتعرشة والأشجار الباسقة والأزهار المتأرجة؟ ماذا فعلتم لإنقاذ البقية الباقية من مواطنينا التعساء؟

إن آمال مواطنينا معقودة بالجوالي السورية في العالم الجديد، فنحن معقد آمالهم وقبلة رجائهم وهم يتطلعون إلينا من وراء البحار باسطين أكف الاستغاثة، ومتوسلين إلينا لنجود عليهم ببلغة من العيش تدفع عنهم ذئاب المجاعة.

كل يوم ينقضي، بل كل ساعة تمر، تحمل فريقاً من أبناء وطننا البائسين إلى عالم الأبدية، فالوقت ثمين والدقائق التي مرت بنا أثناء السنتين الماضيتين والتي تمر الآن أثمن دقائق في تاريخ سوريا، لأنها ليست فقط ذهباً، بل هي حياة أهلنا وأحبائنا وأبناء وطننا، فالمسؤولية الواقعة على أعناقنا هائلة ويترتب علينا أن نؤدّي عنها حساباً أمام الله والناس.

أيها المواطنون

نعود فنسأل مرة أخرى ما فعلتم لإنقاذ البقية الباقية من مواطنيكم؟ إنكم حتى الآن لم تفعلوا شيئاً إذ لا نخالكم تحسبون البضعة عشر ألف ريال التي تبرعتم بها للوطن كل ما تريدون التبرع به، بل إن تلك القيمة لأقل بكثير مما يقدر أن يتبرع به فرد واحد من أغنيائكم دون أن تؤثر شيئاً يستحق الذكر في موقفه المالي.

إذاً ما أنتم فاعلون؟ إن موقف وطننا لموقف هائل، فالمجاعة والوباء يفتكان بمواطنينا فتكاً ذريعاً ولم يبق في الوطن من فارق بين الأغنياء والفقراء، بل كلهم فقير وكلهم في حاجة إلى الغذاء والجالية التي لا تقوم بواجب إغاثة وطنها في مثل هذا اليوم العصيب والخطب الرهيب لجالية نزعت من صدرها عاطفة الشهامة، وخلا قلبها من كل آثار الشفقة، وأضن بجاليتنا أن تكون كذلك، ففيها من أصحاب الأخلاق النبيلة والعواطف الكريمة من لا يقعدون عن القيام بما عليهم من الواجب المقدس.

لقد قامت الجوالي السورية الأخرى بما يجب عليها لوطنها، فهبت جالية الولايات المتحدة ورغماً من العقبات التي وقفت أولاً في سبيل لجنتها، فإن اللجنة المذكورة ذلّلت كل صعب وقامت بعمل وطني مجيد تستحق لأجله كل فخر، وقس عليها جوالي أميركا الوسطى والبرازيل. أما جالية الجمهورية الفضية فقد جمدت أمام هذه النكبة الكبرى جموداً يقضي بالعجب العجاب.

لذلك ترى الجامعة السورية أن من واجبها تنبيه الجالية إلى حال التعاسة والشقاء التي بلغها الوطن، وأن البقية الباقية من مواطنينا على وشك الانقراض، فالخطر محدق بها من كل جانب والتعجيل في إغاثتها شرط ضروري لإنقاذها.

فالجامعة السورية في عاصمة الجمهورية الفضية ترجو فريق الأغنياء والوجهاء من الجالية السورية أن يتولى القيام بهذه المبرة، ويؤلف لجنة مركزية في بونس أيرس ولجاناً فرعية في سائر أنحاء الأرجنتين لجمع التبرعات واستنداء أكف المحسنين من المواطنين والوطنيين، وذلك بأسرع ما يمكن، لأن الوقت ثمين والموت يحصد بمنجله الهائل بقية السوريين، والجامعة السورية مستعدة لمناصرة اللجنة المنوه عنها والقيام بكل ما في وسعها عمله في سبيل إغاثة الوطن وإنقاذ المواطنين.

الجامعة السورية

نداء إلى الجالية

[3]

يا أبناء الوطن،

أرسلنا إليكم نداءنا في بلاغ مرت عليه أيام ونحن على أحرّ من الجمر ننتظر بارقة أمل تضيء ظلمات اليأس والقنوط.

أوضحنا في ذلك البلاغ ما أصاب وطننا التعيس من الضيقات، وما حلّ به من النكبات، وما آلت إليه حال أهلنا وأقربائنا ومواطنينا من الشقاء الذي تكل عن وصفه الأقلام.

علمنا أن بلاغنا الأول قد وقع لدى الجالية موقع الاستحسان، وأنها حبذت مشروعنا كل التحبيذ، لأنه الطريقة الوحيدة التي يمكننا بها إنقاذ البقية الباقية من مواطنينا التعساء.

يا أبناء الوطن

لا وقت للانتظار، فالجوع والموت لا ينتظران أحداً، وقد حلّ فصل الشتاء في وطننا منذ شهرين وهو وقت ضيق في كثير من أنحائه أيام السلم والرخاء، فكيف تكون حاله اليوم أثناء هذه النكبة التي لم يرو لها التاريخ مثيلاً؟

الوقت حياة، وكل يوم ينقضي يحمل إلى ديار الأبدية فريقاً من أقربائنا ومواطنينا، فقد فتكت المجاعة بوطننا فتكاً ذريعاً وانتشرت الأوبئة في مدنه وقراه كأنه ريح سموم، وليس هنالك من أطباء ولا أدوية، أفلا نجود عليه بكسرة من الخبز تدفع عن بقيته الموت جوعاً؟

هوذا الجوالي الأخرى حولنا تهب حيناً بعد حين لمناصرة مواطنيها في أوطانها لتقدم لهم كل ما في وسعها تقديمه، وهم لا يموتون جوعاً كمواطنينا، ولا تفتك بهم الأوبئة كما تفتك بمواطنينا

ولا هم منقطعون عن العالم الخارجي كما قضي على مواطنينا التعساء بالانقطاع عنه، أفلا نهب نحن أيضاً ولو مرة واحدة هبة عامة لإغاثة أهلنا الذين يسقطون جوعاً في منازلهم وعلى قوارع الطرق، ويلفظون أنفاسهم الأخيرة دون أن يسمع لهم العالم صوت استغاثة؟

يا أبناء الوطن

مهما كانت معايب السوريين، فالشح ليس من معايبهم والإحجام عن إغاثة المستغيثين ليس من أخلاقهم، فقد اشتهروا بالنجدة والضيافة والكرم والجود للغرباء عنهم. أفيصمون آذانهم عن نداء أهلهم وأقربائهم ويغمضون عيونهم عن مرأى ذويهم، ويكمشون أكفهم عن البذل في سبيل إنقاذ إخوانهم وأبناء وطنهم؟

مهما كانت معايب السوريين، فالشهامة والنخوة السورية فضيلتان بارزتان في أخلاق كل سوري ورثهما عن آبائه وأجداده، ونرجو أن لا يكون فقد منهما شيئاً في ديار غربته. من منكم يرى رجلاً على قارعة الطريق يقضي جوعاً ولا تتوقد في صدره عاطفة الشهامة فيغيثه بآخر قطعة نقود معه إنقاذاً لحياته من الموت؟ من منكم يرى طفلاً يلفظ أنفاسه الأخيرة جوعاً ولا يرد اللقمة من فمه لينقذ بها حياة ذلك الطفل التعس؟ من منكم يرى رضيعاً يموت جوعاً على ثدي أمه الجاف المائتة ولا يبادر إلى إنقاذ حياته ولو بدم قلبه؟

يا أبناء الوطن

إن السوريين المتخلفين في الوطن إنما هم الآن ضيوفكم ونزلاء دياركم وبيوتكم، وكل سوري يموت جوعاً وأنتم قادرون على إنقاذ حياته إنما يموت جوعاً وهو في ضيافتكم، ونازل في وسط بيتكم، ومستجير بكم، ولائذ بحماكم، فمن منكم يرضى لضيفه وهو أخوه هذه الميتة الشنعاء ولنفسه هذه المعرة الدهماء؟

بلغت استغاثة وطننا بنا عنان السماء، فالجوالي السورية ملجأه الوحيد، ولكل سوري في المهاجر أهل وأقرباء في الوطن بعضهم ذو قرابة دموية والبعض الآخر ذو قرابة بعيدة، ولكن النكبة العامة جعلت السوريين كلهم أشبه بأسرة واحدة ربطتها مصلحة واحدة وجمعتها أغراض واحدة.

واجب كل سوري في المهاجر غنياً كان أو فقيراً كبيراً أو صغيراً وجيهاً أو خاملاً رفيعاً أو وضيعاً، واضح وضوح الشمس في رابعة النهار، ألا وهو المبادرة إلى إنقاذ مواطنيه من مخالب المجاعة، فمن كان غنياً فليبذل عن سعة وسخاء، ومن كان فقيراً فليبذل عن اقتصاد وتقتير وإن فلس الأرملة ليوازي أمام الله والناس دينار الغني.

يا أبناء الوطن

لقد أثارت نكبتنا شفقة الأجانب فاستدرت كرمهم واستندت أكفهم، فهب الأميركان لضمد جراحنا، ونهض الإسبان لإغاثة منكوبينا. أفنقعد نحن عن مواساة أهلنا؟

قامت الجوالي السورية الأخرى بما يفرضه عليها الشرف والواجب نحو وطننا العزيز، فنسيت جمعيات تلك الجوالي اختلافاتها، ونبذت الأحزاب السياسية مشاحناتها، وعقدت القلوب والخناصر على القيام بأقدس واجب ألا وهو إنقاذ مواطنيهم من الفناء.

الطريق مفتوحة لإرسال الإعانات إلى سوريا، فلقد سافرت إليها باخرة من نيويورك تحمل إليها غذاء وثياباً وأدوية، ولقد ودعها على الميناء فريق من كبار حكومة الولايات المتحدة ومشاهير رجالها ورجال جاليتنا فيها، كما أذاعت ذلك الجرائد العربية الأميركية وفصلته تفصيلاً وافياً ولا ريب في وصول الإعانات إلى وطننا سواء كانت أغذية أم أموالاً ولنا فضلاً عن الولايات المتحدة، وإسبانيا والأرجنتين اللتان يمكننا الالتجاء إليهما عند الحاجة.

ولقد سرّنا أن كبار أغنيائنا ووجهائنا من الجالية على استعداد لمناصرة هذا المشروع وتلبية ندائنا، ولذلك نرسل هذا النداء مرة أخرى، وكلنا آمال بأن يكون له صدى في قلوب الجالية كلها، ونرجو أن نتمكن في القريب العاجل من أن نزف إلى مواطنينا بشرى تأليف لجنة تضم بينها رجال الغنى والعقل الفضل من الجالية على اختلاف عناصرها ومذاهبها.

أمام النكبات الوطنية لا أحزاب سياسية، ولا فوارق دينية، ولا اختلافات طائفية، وفضلاً عما تقدم فإن الإعانات تكون للجميع على السواء.

إننا الآن بإزاء الموت الذي لا يجعل بيننا فارقاً، فمن الحمق أن نجعل فوارق بين أنفسنا.

بونس أيرس، في 2 شباط سنة 1917.

الجامعة السورية

لبّى جمهور من مشاهير تجار العاصمة ووجهائها وصحافييها وأهل الأدب والفضل، منها دعوة الجامعة السورية لحضور الاجتماع الذي عينته في ردهة نزل فينكس في شارع سان مرتين وذلك الساعة التاسعة من مساء يوم الجمعة الواقع في السادس عشر من الشهر الحالي.

ولما انتظم عقد الحضور افتتح الاجتماع صاحب المجلة، فبين الغرض الذي لأجله دعت الجامعة الحضور، فقال ان الموقف ليس موقف خطابة بل موقف رثاء وحزن على وطننا العزيز واننا الان في حضرة ألوف من أهلنا واقربائنا واصدقائنا ومواطنينا الذين ذهبوا ضحية المجاعة والاوبئة والشقاء والتعاسة المخيمة في ربوع الوطن.

ثم ذكر أن الغرض من هذا الاجتماع النظر في نكبة الوطن والوسائل التي يترتب علينا اتخاذها لاغاثته. أما نكبة الوطن فليس من أحد الآن يطلب اقامة الدليل عليها فقد اصبح امرها مشهوراً، واجمعت الانباء البرقية وروايات شهود عيان والرسائل الخصوصية على استحكام حلقات الضيق في الوطن وأن السكان في أنحاء منه يموتون في منازلهم جوعاً ويلفظون أنفاسهم على قوارع الطرق، والاولاد يهيمون على وجوههم في البراري، والاطفال الرضع يموتون على أثدية امهاتهم الجافة.

والمع إلى أعمال الجوالي السورية في أنحاء أخرى كجوالي مصر والولايات المتحدة والبرازيل ثم سأل ما فعلت الجالية في الجمهورية الفضية لانقاذ الوطن من المجاعة التي أصابته. لم تتعد اغاثته اياه بضعة آلاف أو بضعة عشر ألف ريال، فإذا كانت الجالية لا تلبي نداء الوطن في مثل هذا اليوم العصيب وصمت نفسها بوصمة عار تلصق بها إلى الأبد.

ثم قال ان مهمته الان قد انقضت لذلك يطلب من الحضور ان يتولوا شؤون هذا الاجتماع فينتخبون أولاً حافظ نظام للجلسة، ثم يبحثون في غرض الاجتماع حتى إذا أقروا على

وجوب جمع الاعانات ينتخبون لجنة تتولى العمل، أو يقرون ما يرونه موافقاً فاقترح وديع افندي شمعون صاحب رصيفتنا السلام، أن يكون صاحب المجلة حافظ نظام فاعتذر صاحب الجلسة، واستدعى أن يكون الخواجه انطون عريضه حافظ نظام فوافق الجمهور على ذلك.

وبعد المداولة في الامر قر رأي الحضور على وجوب اغاثة الوطن، وأن تكون الاعانات المجموعة باسم سوريا ولبنان. فاقترح عندئذ حافظ نظام الجلسة أن تكون الجامعة السورية هي التي تتولى شؤون هذه الاعانات، وانه اذ لزم مساعدة يضاف العدد اللازم فاوضح صاحب المجلة لحضرته وسائر الحضور ان الجامعة السورية قررت في جلسة قانونية ان لا تتولى هي جمع الاعانات بل ان تتألف لهذا الغرض لجنة خاصة ينتخبها المدعوون وان قرار الجامعة بهذا الصدد كان نهائياً لذلك يترتب انتخاب لجنه بأكثرية الاصوات، واقروا ان يكون عدد الاعضاء اثنى عشر، وان تكون دائمة ولها الحق ان تضيف الى اعضائها من تشاء. فوزعت الاوراق وجرى انتخاب اللجنة المشار اليها بالاقتراع السري، ولقد اتفق اعضاء اللجنة على ان يعقدوا اجتماعاتهم في منزل صاحب المجلة فاجتمعوا فيه للمرة الاولى في التاسع عشر من الشهر الحالي، وبعد المداولة رأوا أن يؤجلوا انتخاب الموظفين الى ما بعد مخابرة فريق من التجار الوطنيين المشهورين بغيرتهم على المشروعات الخيرية وضم من يريد منهم الانخراط في سلك اللجنة.

أما الآن وقد باشرت اللجنة أعمالها التمهيدية في سبيل اغاثة البقية الباقية من مواطنينا فعلى الجالية أن تهب إلى القيام بواجبها المقدس، وتقوم بنصيبها من انقاذ الوطن مما حل به من المجاعة والاوبئة والكوارث الهائلة التي تعقد الالسنه وتعقل الاقلام.

هوذا الموت يحصد أخواننا في الوطن بمنجله المخوف، والبقية الباقية منهم تستغيث بنا. أفلا نستجيب استغاثة الذين يقضون جوعاً وهم يتوسلون الينا من وراء البحار لنجود عليهم بكسرة من الخبز، ويستنجدون بنا لننقذهم من مخالب المنية.

إن المسؤولية الملقاة على عواتقنا هائلة، فليحاسبن كل مواطن شرفه ووجدانه أمام نفسه، وليعلم ان كل من يعرض عن إغاثة أهله ومواطنيه في هذه الكارثة لا مثيل لها في التاريخ يقترف جريمة لا تعد الخيانة في جانبها شيئاً مذكوراً.

لا وقت لنا للانتظار، فالسخاء في التبرع والاسراع في جمع الاعانات والتعجيل في إرسالها ينقذ ألوفاً من النفوس البريئة المستغيثة بنا، ويضاعف قيمة الاعانات والنتائج التي تترتب عليها.

إن التخاذل في نصرة مواطنينا موت أدبي لنا وموت مادي لوطننا. ولقد استثارت نكبتنا شفقة الاجانب علينا فرثوا لحالنا وأغاثونا بعض الاغاثة، وبذلوا ما في وسعهم لمواساتنا وتخفيف بليتنا، فهل نحجم نحن عن إغاثة أخواننا الذين هم لحم من لحمنا ودم من دمنا، وهل نقف موقف الذين لا عاطفة حنان تختلج بين ضلوعهم، كأننا نشاهد مأساة تمثيلية على مسرح من مسارح الروايات الخيالية. أليس الذين يعانون الآن حشرجة الموت من أخواننا في ذلك الوطن الجميل الذي رأينا فيه نور الحياة وصرفنا زمن الطفولة والصبا، وهو قد انقلب الآن مسرحاً للمجاعات والاوبئة والبلايا التي تكل الاقلام عن وصفها.

أليس من العار علينا ان نقبل على إغاثة الغرباء عنا، ونحجم عن إغاثة أهلنا وأبناء وطننا؟ أنقبل على إغاثة الايطاليين في زلازلهم ونتلكأ عن إغاثة السوريين في مجاعتهم؟

ألا هبّوا أيها السوريون ولو مرة في الحياة لانقاذ البقية الباقية من منجل المجاعة وسيف الاوبئة واعقدوا القلوب والخناصر على نصرة اهلكم ومواطنيكم، وابذلوا عن سخاء في دفع ذئاب المجاعة عن أبناء سوريا التعساء الذين قضى عليهم سوء الطالع بالتخلف في الوطن. ليقف كل منكم ولو لحظة مفكراً في رجال صرعى في منازلهم ورجال صرعى في شوارع مدنهم وقراهم واولاد يهيمون على وجوههم يطلبون نباتاً يرعونه كالحيوانات السائمة فلا يجدونه وأطفال تطلب لبناً من أثدية أمهاتهم فاذا تلك الأثدية جافة وتلك الامهات ميتة. فكروا ولو لحظة في تلك الوجوه الشاحبة والاعضاء المرتجفة والعيون الغائرة ساعة يسلم فيها الجائع روحه ويلفظ أنفاسه الاخيرة وفي صدره غصة وفي عينيه دموع وفي قلبه حسرة على هذه النكبة التي لم يرَ لها تاريخ بلادنا نظيرات. فكروا في عويل النساء ساعة احتضار اطفالهن وفي صراخ الاطفال ساعة احتضار امهاتهم، وفي حرقة الرجل السيء الطالع الذي قضت عليه الاقدار بالبقاء حياً يشاهد هذه المناظر الهائلة. فكروا في كل ذلك وإذ بقي أحد بعد هذا لا يلين قلبه ولا تثور في نفسه عاطفة الشهامة والمروءة ولا يبذل ما في طاقته لانقاذ البقية الباقية من مثل

هذه الفواجع التي تليّن الجماد، فهذا الشخص البربري ليس منا ولا نحن منه. إننا نبرأ إلى الارض والسماء أن يكون بيننا مثل هؤلاء الاقوام، ونرجو من أجل البشرية عموماً واسم السوريين خصوصاً أن لا يكون بيننا رجل واحد مثل هذا.

الانباء الخصوصية والعمومية بخصوص حال الوطن تدل على أن وطننا التعس سائر في سبيل الانقراض، وإذا لم تهب الجوالي السوريين في المهاجر لاغاثة اخوانهم لم يبق من هؤلاء السيئ الطالع إلا كل طويل العمر.

قامت الجوالي الاجنبية الاخرى بواجبها، ولم تتلكأ عنه إلا جاليه الارجنتين ولكننا رأينا الآن أن نداء الجامعة السورية قد وقع على آذان مضغيه وقلوب واعية وقد أظهر كبار الجالية وتجارها ووجهاؤها وادباؤها غيرة كبيرة يستحقون لأجلها أطيب الثناء، وستتخذ لجنة اغاثة سوريا ولبنان في الارجنتين كل الوسائل التي في وسعها لتعيمم الاكتتاب وتنشئ فروعاً خاصة في مدن الولايات لجمع التبرعات، وارسالها إلى الوطن تباعاً بأسرع ما يمكن لان الجوع والموت لا ينتظران أحداً.

فواجب كل سوري ولبناني في الجمهورية الفضية غنياً كان او فقيراً ان يتبرع لوطنه بكل ما في وسعه، لان النكبة عامة ولم يعد في وطنا التعس من فارق بين الاغنياء والفقراء وبين اصحاب الاملاك ومن لا يملكون شيئاً، لان البلية عمت الجميع على السواء وانتشرت المجاعة في طبقات الشعب كله، فاذا لم نهب للقيام بهذا الواجب المقدس كان ذلك لطخة عار علينا لا تمحوها كرور الايام.

ولكن حركة الحياة التي رأيناها مؤخراً في جالية العاصمة تبشر بنهضة يكون من ورائها خير لوطننا العزيز.

في هذه النكبة تنسى الجالية أحزانها السياسية واختلافاتها الدينية وفوارقها الطائفية لان الموت في الوطن يحصد الجميع على السواء، والغرض الذي نسعى إليه أشرف الاغراض كلها واهمها واشدها ضرورة الا وهو اغاثة المواطنين.

أمام هذا الغرض المقدس يزول كل فارق بين المواطنين، ولا يبقى أمامهم الا الواجب المقدس وهو انقاذ الوطن من مخالب المجاعة.

نداء إلى الجالية

[4]

الاتحاد المنظم أساس كل حركة سياسية خطيرة ترمي إلى غاية وطنية سامية كالغاية التي نسعى إليها الآن، ألا وهي إحراز الاستقلال والجزم في نوع الحكومة التي نريدها لأنفسنا. لذلك رأينا أن تكون بونس أيرس مركز حزب سياسي لأميركا الجنوبية له لجنة سامية منفذة غرضها الاتحاد المنظم. ولقد مهدنا السبيل لهذه الخطوة منذ زمن دون ضجيج ولنا جمعيات في أميركا الجنوبية تشد أزرنا وتناصرنا في إحراز هذا المطمح الوطني. نرغب في توحيد قوانا وقيادتنا إذ بدون ذلك تذهب مساعينا أدراج الرياح.

ندعو الطبقة الراقية في نيويورك التي تذهب مذهبنا إلى تأليف لجنة كاللجنة المشار إليها تكون مركزاً لأميركا الشمالية وسائر الجوالي، فنرسل إليها مندوباً عنا، فإذا لم نتوفق إلى ذلك في خلال ثلاثة أشهر ندعو جمعيات الجالية في العالم الجديد كله التي تؤمن إيماننا أن تضع يدها بيدنا، ونسير معاً في سبيل هذا الواجب المقدس.

ترسل كل جمعية ترغب في الانضمام إلينا بياناً يتضمن تاريخ إنشائها وأسماء موظفيها الحاليين وسائر أعضاء لجنتها فنحسبها جزءاً منا ونبعث إليها بالإفادات اللازمة والاجراآت السياسية التي نقوم بها، أو نطلب إجراءها منها، ويحب أن تكون المراسلات باسمنا رأساً إما تلغرافياً أو بواسطة البريد.



كلمات وخطب وردود

إلى المشتركين الكرام

أيها الرفاق

لقد انتظمنا وإياكم الآن جيشاً مجاهداً في خدمة الوطن والأمة، نقوم بهذا الواجب المقدس لا يأخذنا في إتمامه ونآً، ولا يلفتنا عن متابعته نداء، ولا يثنينا عن قضائه عناء، بل نسير وإياكم إلى الأمام برؤوس مرتفعة ونفوس كبيرة وجوانب عزيزة، ندوس المصاعب بأقدامنا ونمهد العقبات بجدنا ونقطع المعضلات بعزيمتنا.

أجل: لقد انتظمنا وإياكم جيشاً كبيراً، لأن نداءنا قد وقع على آذان مصغية وقلوب واعية، فأصبح مشتركونا جيشاً حقيقياً نرفع به رأسنا ويعتز به ساعدنا، فقد نفدت جميع أعداد العدد الأول من «المجلة» في بضعة أيام حتى قد نرى نفسنا مضطرين إلى إعادة طبعه. وقد طبعنا من العدد الثاني ما يربو على الأول، ووردتنا الطلبات تترى من كل فج سحيق من أنحاء أميركا الجنوبية: من الأورغواي وبرازيل وتشيلي وسواها، فإذا كان أحد من رصفائنا يشكو إحجاماً وانكماشاً من الأمة، فالمجلة لا تشكو شيئاً من ذلك، بل تحسب أنها نالت من النجاح قسطاً قد لا تستحقه، ومن الإقبال نصيباً قد لا تكون أهلاً له. نقول ذلك لا تبجحاً وافتخاراً، فإننا أبعد الناس عن التبجح والمباهاة. بل لنسدي إليكم شكرنا ونهدي ثناءنا. فالفضل في كل ذلك لكم، والفخر عائد إليكم. فالمجلة بدونكم صرخة في الصحراء أو حياة في الرمضاء، فأنتم سندها وأنتم عمادها، وإليكم يعود كل فضل في نشوئها وارتقائها.

إذا تخلّف عنا من القادرين على الانخراط في صفوفنا من أوهى الوهن جلده، أو أذلّ اليأس نفسه، أو أوهن القنوط عزمه، أو أحرج الملال صدره، أو قبض الخنوع قلبه، أو ضربت الضلالة على بصيرته حجاباً، أو سدلت الغواية على سريرته نقاباً، فهذا ليس منا ولا نحن منه. نسير وإياكم، أنتم إلى إصلاح وطننا التعيس وأمتنا السيئة الطالع بقلوب الأبطال الجريئة وخطوات

الجبابرة الكبيرة وشرف الإخلاص الباهر ونور الأمل الزاهر والأمانة التي لا يأتيها الباطل من ناحية، والعزيمة التي لا يعتورها الوهن من جهة. نسير وإياكم إلى نصرة الوطن والآمال تملأ نفوسنا، ونجري إلى واجبنا المقدس والجرأة تملأ قلوبنا. نسير إلى الأمام بثقة لا تزعزعها الزعازع ونخطو إلى غرضنا بعزيمة لا تهزها الزوابع. نسير ولواؤنا الفلاح، وعلمنا النجاح، وشعارنا صوت الشعب صوت الله.

أيها الرفاق

لم يحن الآن وقت الجهاد في سبيل إنقاذ الوطن مما حلّ به قروناً طوالاً من التعاسة والشقاء، فإذا لجمنا الآن قلمنا فعندما نلجمه حباً بوطننا، وإذا عقلنا لساننا فإنما نعقله إشفاقاً على أمتنا. يصمت القلم متى نطق المدفع، ويغمد اليراع متى سلّ السيف، ويخرس الحق متى تكلمت القوة. أما متى صمتت المدافع حلّت الألسنة من عقالها، ومتى أغمد السيف سلّ اليراع ومتى خرست القوة رفع الحق صوتاً جهورياً يمزق الفضاء ويبلغ عنان السماء.

متى نامت حربنا استيقظ قلمنا. استيقظ قلم لم يعرف الجبن يوم جبنت الرجال، ولم يتعود الخنوع يوم خنعت الأبطال، ولم يجر إلا بالحق ولم ينطق إلا بالصدق ولم يتخذ إلا الإخلاص شعاراً ولم يرفع إلا الهدى مناراً.

أيها الرفاق

ليس هذا الصمت سوى الهدوء الذي يلازم الثقة، وليس هذا السكوت سوى سكون الكهربائية في بطارية. سيأتي زمن وهو ليس بعيداً نصعق فيه الخيانة والموارثة صعقاً، ونسحق فيه الفساد والضلالة سحقاً، ونبين الذرائع الأساسية التي يجب اتخاذها لإنهاض الوطن من كبوته وإيقاظه من هجعته وإصارته شعباً حياً له ما لغيره من حقوق الحياة والسيطرة على شؤونه الخصوصية ومرافقه العمرانية، لا يعارضه فيها معارض ولا ينازعه منازع ولا يمانعه ممانع.

أجل: متى نامت حربنا استيقظ قلمنا، ومتى هجع بؤسنا هب شعبنا، هب شعب أذلّ التملق عزة نفسه وأطفأ الجهل نور عرفانه وغشى الظلام بصيرته وعقل الخوف لسانه وأضل الضلال

أقدامه ووضع الظلم لجاماً في فيه وشكيمة في أنفه وأغلالاً في عنقه وقيوداً في رجليه ثم قذف به إلى المطابق المظلمة لا يرى فيها شيئاً، ولا يسمع شيئاً، ولا يبدي حراكاً ولا ينطق ببنت شفة.

بيد أنه سيأتي يوم، وهو قريب يقطع فيه هذا الجبار وثاقه كأنه خيط من القطن، ويكسر أغلاله كأنها طوق من فخار، ويسحق قيوده كأنها خيوط من عنكبوت، ويخرج من مطبقه خروج الأسد من عرينه، ويرتد على الظلم فيقذف به إلى عالم الظلمات كما قذف به إلى عالم الأموات.

من أجل هذا الشعب البائس أنشأنا «المجلة»، فهي ابنة الشعب، وأخت الشعب وأم الشعب. تحترم الشعب كابنة وتحبه كأخت وتذود عن حقوقه كأم.

أيها الرفاق

سوف نصيح في هذا الشعب صيحات توقظ الأموات من قبورها حتى يستيقظ. سوف نضرم النار في مطبقه الذي تلبدت فيه الظلمات طبقات بعضها فوق بعض حتى يفتح عينيه ويبصر التعاسة والشقاء اللذين يحفان به ويهب مذعوراً من رقاد الخمول وخمول الموت. سوف نكسر بالمطارق تلك السلاسل التي حبكتها أيدي الباطل في جهنم وقيدت بها رجليه. سوف نقطع وثاقه بسيوف الأقلام إلى أن يتقطع وتنحل ذراعاه من وثاق الجحيم. سوف نقوم بنصيبنا من الجهاد لإخراجه من ذلك المطبق الهائل مطبق الظلام والجهل والشقاء والذل إلى فضاء النور والحرية والحياة.

يستغرق الفرد في نومه بضع ساعات، أما الأمم فتستغرق في سباتها قروناً طوالاً ولكنها متى استيقظت وخرجت من مطابقها إلى فضاء الطبيعة يستحيل إعادتها إليها. من يرى النور ويرضى بالعودة إلى الكهوف المظلمة؟

سوف نوقف أمام محكمة الأمة والوطن، مجرمي الشعب وفي عدادهم ذلك الفريق من الأغنياء الذي امتص دم الأمة وتصدر مجالسها ونواديها، ولا رأس مال لديه سوى ما عنده من رؤوس أموال لم يبذل منها درهماً في بناء مستشفى أو تشييد مدرسة أو إقامة ملجأ أو إغاثة فقير أو نصرة مشروع وطني، بل حسب أن الجيوب الملآنة والأدمغة الفارغة هي كل الشروط الضرورية لزعامة الأمة.

ينظر الأوربيون والأميركيون إلى الغنى المجرد عن منفعة الوطن نظرهم إلى الجرائم الفاضحة وينظرون إلى الأغنياء الذين لا يبذلون جانباً من أموالهم في سبيل الأمة نظرهم إلى المجرمين السافلين، فلما توفي المثري الأميركي الشهير غولد المشهور في غناه الفاحش وبخله الفاضح على الأمة، عقدت الصحف على شحه مقالات لو جمعت على هيئة لفافة لطوَّقت الأرض لذلك لا تجد غنياً في بلاد الغرب يجرؤ على ترشيح نفسه للنيابة عن الأمة أو لمحافظة مدينة ما لم يكن قد بذل قبل ذلك أموالاً طائلة في سبيل الشعب أو أهدى إليه بقعة من أرضه لتكون له متنزّهاً أو قام بمبرة تستحق الذكر، خلافاً للفريق الأعظم من أغنيائنا الذين يتصدرون زعامة الأمة وفضيلتهم أنهم امتصوا دم الأمة وساعدوا الظلم على إيثاقها ودهورتها إلى مطابق الظلام.

علينا أن نهدم بيتنا القديم البالي حتى يصبح على مستوى الأرض قبل أن نشرع في البناء. من يبني قصراً فخماً على جدران متداعية إلى السقوط؟ من يبني قلعة على كوخ؟ من يبني تمدناً عصرياً على الخرافات والأوهام والجهل والتعصبات الدينية والمذهبية التي تأصلت في النفوس تأصل جذور النباتات في التربة؟ من يدفع أزمة أمره إلى مجنون ولا يحل به الخراب؟ من يسلم قيادته إلى أعمى ولا يعثر؟ إذا كان أعمى يقود أعمى، فمن البديهي أن الاثنين يسقطان في حفرة.

أنزلوا العميان من قادة الشعب عن كراسيهم، ولا تعفروا وجوهكم أمامهم. إنهم أصنام لا تبصر ولا تسمع ولا تشم ولا تذوق ولا تحس. لا تجروا وراءهم خطوة أخرى إنهم يقودونكم إلى الخراب العاجل والهوة الهائلة. عبادتهم في الشرق أثر من آثار عبادة الأصنام الحقيقية. كل من ينتخب لخدمة الأمة غنياً أو وجيهاً لمجرد الغنى أو الوجاهة فهو عابد وثن وخائن وطن.

أيها الرفاق

كما يحارب الجندي الراقي في ساحات المعارك، كأن مصير المعركة كلها متوقف على جهاده وحده، كذلك يترتب علينا نحن أن نجاهد في إصلاح وطننا كأن إصلاحه يتوقف علينا وحدنا

ونرجو أن كل جماعة من جماعات الشعب وحملة الأقلام تنحو هذا النحو وتجري على هذه الخطة، ونسير وإياهم يداً واحدة وقلباً واحداً لغرض هو أشرف الأغراض وغاية الغايات.

التواكل في الأمور أي أن يتكل الواحد منا على الآخر من أعظم آفات الشرق، وهو في شؤوننا العمرانية والوطنية داء عضال ومرض عقام علته عدم احترام النفس وعدم الثقة بها وعدم الشعور بالواجب العام، ومن لا يحترم نفسه فهو ليس أهلاً لاحترام الغير، ومن لا يثق بنفسه فهو ليس أهلاً لثقة الغير، ومن لا يشعر بما عليه من الواجبات لوطنه فهو عضو ميت في جسم الاجتماع.

وكما لا يصح أن نتكل بعضنا على بعض، كذلك لا يجوز لنا أن نتكل على حكومتنا أو دولتنا إذا بقيت لنا دولة أو أن نتكل على أية حكومة أو دولة أخرى تنصّب نفسها علينا.

اتكال الشرقيين في جميع شؤونهم السياسية والعمرانية على حكوماتهم من أكبر أغلاطهم الفاضحة، وإذا بقوا سائرين على هذه الخطة العوجاء المخالفة لنواميس الطبيعة فلا بد أن يكون مصيرهم عاجلاً أو آجلاً إلى فقدان الاستقلال الذاتي في كل قول وعمل وخسران صفات الرجولية التي بدونها لا قيام للأفراد أو الأمم.

لذلك يترتب على الشعب قبل الشروع في عمل ما، أن يشعر بأنه سيد بلاده وسيد حكومته وحكامه والخطوة الأولى التمهيدية للوصول إلى هذا الغرض أن تكون للأمة حياة ذاتية مستقلة لا تستمدها من أحد، وأن تكون مستعدة للتضحية في إثبات سيادتها على حكومتها وبلادها.

أيها الرفاق

إذا كان الدستور الذي نلناه لم يف بالمرام، فذلك لأنه ليس من عمل الشعب أو الأمة، بل صدقة تصدّق بها علينا الجيش، فهو بالحقيقة عرض من أعراض انحلالنا وموتنا لا حياتنا واستقلالنا. هو أشبه بأعراض احتضار رومية يوم كان جيشها السيد المطاع ينزل الأباطرة عن كراسيهم، ويضع مكانهم من نال حظوة في عينيه. فدستورنا في الحقيقة عرض من أعراض موتنا لا دليل على حياتنا. هو تألق نور السراج الأخير قبل انطفائه، لا تبلّج الفجر عند انبثاقه.

لقد قام بيننا أنبياء كذبة ومعلمون كذبة وعمرانيون كذبة. أطباء يدعون شفاء الأمراض وهم أنفسهم مصابون بجميع الأمراض. أطباء يحاولون شفاء أبناء القرن العشرين بعلاجات القرون المظلمة. لقد كان فريق من أعضاء مجلس أمتنا في الأستانة عاراً علينا وعلى ممثلينا حتى بلغت الحماقة بأحدهم مبلغ الجنون، فوقف على منبر الأمة ونادى على رؤوس الاشهاد أن النصارى في البلاد العثمانية «كمية مهملة»، وأنه عندما يشير إلى العرب يعني بهم مسلميهم لا مسيحييهم. من أجل أمثال هذا النائب عرّف المنطقيون الإنسان بالحيوان الناطق.

لقد شط بي اليراع واليراع كالفرس الجموح يجري بصاحبه خبباً وإهماجاً إلى حيث يريد ولا يريد.

«نسطر ما تقدم بمزيد الأسف لان النائب المشار إليه كان سابقاً في عداد أصدقائنا، وكنا نحسبه من خيرة المصلحين. التقينا به في القاهرة من القطر المصري وعقدنا معه ومع غيره من كبار الأمة اجتماعات للنظر في إصلاح وطننا التعس وإنقاذه من جور الطاغية عبد الحميد الذي كان لا يزال وقتئذٍ في أبّان استبداده وعتوه، فإذا بهذا النبي الكاذب وغيره من الأنبياء الكذبة أقتل للوطن من كل طاغية مستبد ينفثون من صدورهم سموماً تشل أعضاء الأمة وتفرق بين عناصرها وتقضي على كل أمل لها بالحياة.

أيها الرفاق

سوف نصيح بالشعب حتى نوقظه من سباته، وننبهه إلى احترام نفسه ومبلغ قوته وحقوق سلطته، وحتى يقذف بأنبيائه الكذبة إلى زوايا الإهمال وبأصنامه المتحركة إلى عالم النسيان خالعاً ذلك الثوب القديم البالي من الخرافات والأضاليل والتعصبات نابذاً ظهرياً عبادة الأصنام، بادئاً حياة جديدة تختلف في كل شيء عن حياته القديمة التي كان فيها أشبه بالحيوانات الحلمية التي تعيش على عصارات غيرها منه بالإنسان الراقي.

أول الشرائط الضرورية لحياة الكائنات الحية، أن يطابق الفرد نفسه على المحيط أو البيئة التي هو فيها، فإذا لم يفعل هلك لا محالة عاجلاً أو آجلاً. وما يصح على الأفراد يصح على الجماعات والشعوب، فكل أمة لا تطابق نفسها على البيئة التي تعيش هي فيها تموت موتاً.

البيئة التي نعيش فيها هي علوم القرن العشرين واكتشافاته واختراعاته وفنونه وصناعاته وكلها ينطوي تحت لفظ التمدن العصري، فإذا كنا نطمح إلى حياة عمرانية مستقلة صحيحة وجب علينا قبل كل شيء أن نطابق حياتنا على محيطنا كما سنبين كل ذلك في حينه.

أجل، يجب علينا أن نهدم بيتنا البالي إلى مستوى الأرض قبل أن نشرع في البناء لأن الهدم في بلاد أكل التعصب الديني قلبها وأعمى الجهل بصيرتها وعششت الأوهام والخرافات في رؤوس أهلها، ودرس الفساد أخلاقها وشل الاستبداد أعضاءها أول خطوات البناء. ثم نشيد على ذلك الطلل البالي والأثر الدارس تمدناً باذخاً ومجداً شامخاً، سائرين في كل ذلك طبقاً للنواميس الطبيعية متمشين مع الشرائع العمرانية متذرعين لنيل مطامحنا بالذرائع العصرية.

هذا ما كرسنا له وقتنا، ووقفنا عليه حياتنا، وأنشأنا في سبيل تحقيقه مجلتنا، وأعددنا له جهادنا ونحن على يقين أن مشتركينا الكرام يسيرون وإيانا إلى هذا المطمح النبيل بقلوب جريئة وخطوات كبيرة ونفوس عزيزة، وإنا لمجاهدون وإياهم في هذا الواجب المقدس حتى يحصحص الحق، ويزهق الباطل إنّ الباطل كان زهوقاً.

كلمة في احتفال الجالية لإغاثة منكوبي الوطن[1]

أيتها السيدات والسادة

اسمحوا لي أولاً أن أشكركم لإقبالكم على هذه الرواية الجميلة وأسدي إليكم الشكر بالنيابة عن اللجنة البيروتية لأنكم لم تحضروا هذه الحفلة لمجرد تمتيع النظر بمشاهدها، بل أيضاً لإغاثة الوطن ونصرة السوريين الذين عضهم الجوع بنابه، فقد جمعتم هذه الليله بين ترويح النفس لكم والإحسان إلى مواطنيكم.

وإني أثني بعد هذا ثناءً طيباً على الأدباء الأفاضل الذين تبرعوا بتمثيل هذه الرواية وصرفوا كثيراً من أوقاتهم الثمينة في إتقان تمثيلها دون أن يكون لهم في كل شيء من النفع الخاص سوى ذلك الشعور الشريف الذي يشعر به كل رجل كريم الأخلاق كبير النفس سامي العواطف، يقدم عملاً يكون من ورائه كفكفة دموع وإغاثة الشيوخ والأطفال وتخفيف الشقاء عن ألوف من المواطنين الذين هم الآن بين براثن الوباء ومخالب المجاعة، فنحن مدينون هذه الليلة لهؤلاء الشبان الأدباء في كل شيء، ومتى عادوا إلى منازلهم ووضعوا رؤوسهم على وساداتهم باركهم الله في السماء كما يباركهم مواطنوهم على الأرض.

تدور الرواية على شاب سامي المقام افتتن بابنة موسيقي فأراد أبوه أن يمنعه عن حبها دون جدوى، فسجن أبا الفتاة وأمها واشترط عليها في إنقاذهما أن تكتب كتاباً غرامياً لغير حبيبها، ففعلت ثم احتال وشريكه في الجريمة وأوقعا الرسالة في يد الإبن فلم يشك هذا في خيانة حبيبته فأهلكها وأهلك نفسه.

1 [ألقى الدكتور خليل سعاده هذه الكلمة في الحفلة التي أقامتها الجالية السورية في بونس أيرس على مسرح فيكتوريا في 30 أيلول سنة 1916 والتي يعود ريعها لإغاثة منكوبي بيروت خلال الحرب. عرضت في الحفلة مسرحية «الحب والخداع» للشاعر شلر].

لست الآن في مقام الشارح فستتجلى لكم بعد هنيهة هذه المأساة بكل ما فيها من نار الحب وألم الفراق وهول الموت وستسمعون من أفواه الممثلين البارعين ما يغنيكم عن كل شرح، ولكنني أريد أن أقول كلمة في المغزى الأدبي لهذه الرواية، فهي تدور على التضحية الشريفة التي قامت بها هذه الفتاة في سبيل إنقاذ أبويها وبعبارة أخرى التضحية في سبيل الواجب.

أيتها السيدات والسادة

يدور عمران الأمم على محورين أولهما معرفة الواجب نحو النفس والغير، وثانيهما القيام بهذا الواجب قياماً عادلاً.

لا أخالني مخطئاً إذا قلت إن علة تأخر الشرقيين عموماً والسوريين خصوصاً ناشئة أما عن جهل الواجب الذي تفرضه علينا النواميس العمرانية، أو عن عدم قيامنا به بعد معرفته وخصوصاً متى كان هنالك تضحية في سبيله، ولا يمكن فرد أو مجموع أن يقوم بالتضحية المطلوبة إلا إذا كانت هنالك أخلاق راقية وهي المحور الذي يدور عليه ارتقاء الأفراد وعمران الأمم.

فالتضحية والأخلاق صنوان متلازمان نحن الشرقيين أشد حاجة إليهما من سوانا.

الأخلاق ركن الأفراد والشعوب التي تطمح إلى مراتب الكمال.

الأخلاق أساس النهضات العمرانية في الأمم الحية.

الأخلاق مرآة النفس وقوام الروح والأفراد الذين لا أخلاق لهم أشبه بالأجسام التي لا حياة فيها والأمة التي لا أخلاق لها أشبه بالصحارى الخالية من الواحات.

الأخلاق أساس التضحية والتضحية أساس كل ما هو جميل وشريف ومفيد.

التضحية عنوان الغيرية وهي أسمى الصفات البشرية التي تدني بنا إلى المرتبة الإلهية.

تاريخ العالم عبارة عن تاريخ التضحيات التي قام بها الجنس البشري، والأمة التي لا تضحية في تاريخها أمة تعسة، وتاريخها تاريخ عقيم جاف أشبه بالمومياء المصرية.

الأمة التي لا تضحية في تاريخها أمة شحيحة مجرمة، والأفراد الذين لا يقومون بتضحيات أفراد غلاظ القلوب متحجرو العواطف، خالون من كل شعور لطيف وعاطفة حنان.

التضحية أسمى الصفات البشرية، ولكنني أعود فأقول إن أساسها الأخلاق التي هي أساس الأمم. إننا نريد تضحيات وأخلاقاً!

بالتضحية تُبنى المستشفيات والملاجئ وتنشأ الجمعيات الخيرية ومعاهد البر والإحسان.

بالتضحية تُرسَل بعثات الرحمة إلى ساحات الوغى، ووسط قنابل المدافع وكرات البنادق والنيران السائلة والغازات السامة، تعمل ملائكة الرحمة معرضات أجسامهن اللطيفة للموت الزؤام.

ما أجمل التضحية! وما أسمى التضحية! وما أشرف التضحية! وما أمجد التضحية!

سيداتي وسادتي

لا يجوز لي أن أتعدّى هذا الوقت وأعتدي على حقوقكم وحقوق الممثلين، فسترون الآن التضحية بعيونكم وتسمعون روايتها بآذانكم، لذلك أفسح مجالاً للممثلين ولكنني قبل ذلك أكرر شكري لكم لما أظهرتم من كرم الأخلاق وارتقاء الصفات بحضوركم هذه الحفلة، فأشكركم وأشكر اللجنة البيروتية التي ضحت بأوقاتها وأتعابها في سبيل إعداد هذه الحفلة فضلاً عما قامت به سابقاً من التبرعات في سبيل إغاثة منكوبي الوطن.

فليحي المواطنون! وليحي الوطن!!

خطاب صاحب المجلة[1]

لقد اجتمعنا هذه الليلة لمشاهدة الرواية الجميلة التي رأت الجامعة السورية تمثيلها في سبيل إغاثة وطننا العزيز وهو يستصرخنا الآن ويستغيث بنا من وراء البحار. وقد ربانا لمثل هذا اليوم العصيب. فواجبنا المقدس أن نهب لنصرته باسم الجامعة السورية. أشكركم كلكم لإقبالكم على هذه الحفلة وباسم سوريا ولبنان، أقدم بين أيديكم وأيدي الممثلين الأفاضل دموع الشكر المنهلة من عيون الأطفال والنساء والشيوخ ممن بقي من مواطنينا.

لنا في هذه الأيام السوداء تعزية وحيدة وهي أن بعد الضيق فرجاً، وبعد المجاعة رخاءً وبعد الشقاء نعيماً فلسوف يبزغ على سوريا ولبنان من هذا الظلام الدامس نور يبهر الأبصار. سوف تتحول دموعهما إلى لآلئ نضيدة، وتنهداتهما إلى نسمات منعشة، وعويلهما إلى موسيقى مطربة، وتصدح البلابل على الأغصان مبشرة بقدوم ذلك العصر الذهبي الذي هو أمنية كل وطني.

أجل: سوف ينبثق من الظلمة نور، ومن الجهل علم ومن التعصّب تسامح. ذلك التعصب الذي كان لعنة علينا في الأعصر الغابرة ولا يزال لعنة علينا في الأزمة الحاضرة. لعنة نرجو أن نطرحها يوماً ما في أعماق الأوقيانوس حيث تبقى إلى الأبد.

أجل: سوف تتحرك العظام الرميمة في قبرها وتكتسي لحماً وعصباً وتأتي إليها الروح من الرياح الأربع، فينتصب الميت على قدميه ويخرج من ظلمة اللحد إلى نور الحياة مطالباً بحقوقه الطبيعية تلك الحقوق التي تتمتع بها طيور السماء السابحة في عنان الجو والمغردة

1 [مساء السابع والعشرين من آب سنة 1917 قدمت الجامعة السورية على مسرح اسبلندد في بونس أيرس مسرحية «جزاء الشهامة» التي خصص ريعها لإغاثة المنكوبين في الوطن. ألقى الدكتور خليل سعاده بين الفصلين الأول والثاني هذه الكلمة].

على أغصان الأشجار. الحقوق التي تتمتع بها زنابق الحقل التي تبللها قطرات الندى المرطبة وتنعشها نسمات الأسحار اللطيفة وتنميها أشعة الشمس المحيية.

يمزق هذا الميت الأكفان التي كفنته بها أعصر الظلم والاستبداد، ويقطع الوثق التي أوثقته بها أيدي القرون المظلمة، ويقذف بالعصائب التي عصبته بها يد الجهل وحاكتها الخرافات كأنها نسيج عنكبوت، ويبرز إلى عالم الحياة طالباً هواءً نقياً ونوراً مشرقاً برفع ذراعيه إلى السماء. ويقول تعالي إليّ يا آلهة الحرية الجميلة واملئي قلبي حباً لك. إجري مع كل نبضة من نبضات قلبي ومازجي كل قطرة من قطرات دمي الجاري في عروقي وتخللي كل ذرة من ذرات جسدي ودماغي. ظلليني بجناحيك اللطيفين واملئي سمعي بصوتك العذب. أوحي إليّ من سمائك أخلاقاً سامية وشعوراً راقية وأوحي إلى وطني ديناً جديداً هيكله الوطنية واجعلي عرشك في قلبه واجلسي عليه يا إلاهة الجمال فنحرق أمام مذبحك بخوراً يتصاعد دخانه إلى عنان السماء، ونعبدك كما كان يعبد أجدادنا الفينيقيون الإلاهة عشتاروت!

يخرج هذا الميت الحي إلى عالم الوجود، وقد دفن الرجل القديم ودماغه القديم وقلبه القديم في جوف الأرض. يخرج رجلاً جديداً له دماغ جديد وعقل جديد وقلب جديد. يخرج رجلاً جميلاً إلى عالم جميل في وسط جميل.

كل فلسفة تحاول أن تضع عصائب أخرى على عينيه يدوسها بقدميه. كل فلسفة تحاول أن تمنع نموه الطبيعي وتضع دماغه في قالب حديدي كما يضع الصينيون أرجل بناتهم في قوالب حديدية يقذف بها إلى هاوية الأبالسة. كل فلسفة تحاول أن تصور له النور ظلاماً والظلام نوراً يطرحها إلى أتون النار.

الويل لمن يقف في طريق هذا الحي الذي قام من الأموات! الويل لمن يحاول إيقافه عن السير في سبيله! إذا أمكنك إيقاف تيار نهر جارف، أو الوقوف في طريق العاصفة يمكنك الوقوف في وجه هذا الرجل الغريب. لقد سار في وادي ظلال الموت وقاسى عذابات جهنم وهو يطلب بعد خروجه من الجحيم مكاناً تحت الشمس أسوة بسائر الخلائق العاقلة الحرة. يطلب عدلاً لا رحمة وحقاً لا صدقة وحياء لا موتاً.

لقد وضعت هذه الحرب الطاحنة الجنس البشري برمته في بوتقتها الهائلة وأضرمت نيرانها

الآكلة حتى بلغت حرارتها درجة البياض. في هذه البوتقة المضطرمة بالنار تحرق الطبيعة الهشيم والخشب من الآراء البالية ولا تبقي إلا على الذهب المصفّى من الحقائق الرائعة!

هوذا أصوات الأمم المتألمة تملأ الجو وزفراتها الصاعدة من صدورها تتصاعد إلى عنان السماء. من البحر الشمالي حتى المحيط الهندي ومن الأوقيانوس الأتلانتيكي حتى الأوقيانوس الباسيكفي، تملأ عويل الأمم الفضاءات من أطراف أوربا حتى سهول سيبيريا ومن الجزر الشمالية حتى رأس أفريقيا ترتعد الأمم، لأن البروق بهرت أبصارها والرعود صمت أذانها وأنهر الدماء قبضت أعضاءها وجثث القتلى ملأت ساحاتها. آلام على الغبراء وآلام في الهواء وآلام على الماء وآلام تحت سطح الماء. ذلك لأن الطبيعة تجري على الجنس البشري برمته عملية جراحية هائلة. تستأصل من جسمه سرطاناً نخر بنيته منذ دهور. تبتر من جسمه أعضاء لعبت بها الغرغرينا منذ قرون. تهدم هذا البناء البالي البيت وتقيم على أنقاضه قصراً فخماً تبني الآن أساساته وسط لعلعة البنادق ورعود المدافع وصليل السيوف. تبني أساساً يدوم مدى الأدهار لأنها تبنيه على حقوق الشعوب وحريتها وكل بناء يُبنى على الحق يبقى قائماً إلى أبد الدهر!

إن الرواية التي تمثّل أمامنا الآن مثال لما تعانيها الأمم الحية في سبيل إحراز حريتها التي هي ملك لها من الله والطبيعة، وما يقوم به عظام تلك الأمم من التضحيات الكبرى فلا النفي ولا السجن حتى ولا الموت نفسه يقف حاجزاً في سبيل الرجال الذين يطمحون إلى إنالة شعبهم حقوقه الطبيعية.

هوذا الطبيعة بأسرها تتمخض الآن بمولود جديد لم يرَ له العالم نظيراً. سوف تطلع الحرية الحقة وسط لعلعة البنادق ورعود المدافع وصليل السيوف كما تطلع الشمس بعد العاصفة. تخرج إلى العالم تحت سماء زرقاء وبين رياض غناء. تتجلى في السماء إلاهة رهيبة جميلة حاملة بيمينها سيفاً من نار وبيسارها كرة من نور!

أجل: سوف تخرج أمم العالم بعد هذه الحرب الطاحنة كما تخرج الطيور من أوكارها بعد زوبعة هائلة. تخرج أيضاً أمم الشرق ويخرج معها لبنان وسوريا مكفنين بمجدهما القديم الشامخ ومكللين بتاريخهما الخالد الباذخ.

يخرجان إلى المروج الخضراء والجنائن الغنّاء بلبلين صدّاحين بين الرياض الزاهرة والأزهار الفائحة عبيراً وندىً والمياه المتفجرة كأنها ذوب اللجين. وبين الزنابق والورود والياسمين من أرز لبنان الذي يناطح السحاب حتى خرائب تدمر التي قل نظيرها في العالم، ومن جنائن دمشق الفيحاء جنة الله على الأرض حتى بيروت الزاهرة القائمة كالغادة الحسناء، ومن حمص وحماه حيث تصادمت جيوش زنوبيا وجيوش رومية، وحيث يجري العاصي الجميل وعلى جوانبه النواعير النائحات كأنها ندّابات أبدية على سوريا السيئة الطالع حتى صور وصيدا حيث دفن الفينيقيون مجدهم الخالد وسارت ركبان الإسكندر المكدوني فاتح العالم، ومن البيّاضة البديعة حيث تصافح أنطونيوس وكليوبطرا حتى بطاح سوريا حيث تصافحت الصوارم الأشورية والمصرية، ومن قمم صنين الشامخة حيث تتفجر مياهه كأنها ذوب اللجين حتى البحر المتوسط حيث تتكسر أمواجه كأنها ذوب الزمرّد، ينشد لبنان وسوريا مغردين.

أيها الراقدون في الشرق هبّوا — لاح فجرُ الصباح والليل أدبر

نهض الشرق من سبات عميق — لاح فجر الحياة الله أكبر!

كلمة في احتفال جمعية «الاتحاد اللبناني»

يا حضرات المندوبين السياسيين والسيدات والسادة[1]

لقد اجتمعنا هذه الليلة للاحتفال بحادث تاريخي كبير ألا وهو إنقاذ شعب لبث قروناً طوالاً تحت سيطرة تركيا الهمجية. فالزوبعة الحربية التي خرج منها الأتراك آخذة الساعة في ابتلاعهم، والحق يقال إن تركيا لم يكن في وسعها أن تختار وقتاً للانتحار أفضل من هذه الحرب، ففي هذا العراك الكوني ستتقوض أركانها وتهوي إلى الحضيض بين أنقاض هائلة من أمبراطوريات هائلة، وتعود إلى الظلمة التي حبل بها فيها وولدت هي فيها، فلقد كانت أشبه بنميس إلاهة النقمة تسير في الأرض تتقدمها الأهوال ويجري وراءها الخراب.

ألا يوجد إذن من فضيلة لتركيا؟ إني لقائل الآن فيها ما قاله كارليل في كتابه «الثورة الفرنسية» معاذ الله أن تكون أمة بلا فضيلة، ففضيلة تركيا أنها عاشت ستمائة سنة! فهي المملكة الكبرى الوحيدة في التاريخ التي لم تخلف تمدنا، ولقد وضع العالم أكاليل من الأزهار على قبور بابل وأشور ومصر واليونان وقرطاجنة ورومية وبغداد. أما على قبر تركيا فإنه لا يذرف دموعاً ولا يضع إكليلاً.

لقد انفصلنا الآن عن تركيا انفصالاً أبدياً وواجبنا الأول في هذا الاحتفال الحافل أن نسدي شكرنا إلى الأمم العظيمة التي دفعتها شهامتها إلى إنقاذنا من المستبدين بنا، فقد قدمت زهرة شبانها ضحية في سبيل أقدس الحقوق وسيكون جهادها الخالد أبذخ نصب للتمدن العصري!

إننا على ثقة من وعد الحلفاء ونيل استقلالنا، وندري أننا قد لا نحسن في أول الأمر القيام

1 ترجمة الخطاب الإنكليزي الذي ألقاه الدكتور خليل سعاده في أيلول سنة 1919 أثناء الحفلة التي أحيتها جمعية «الاتحاد اللبناني» في بونس أيرس احتفالاً بتحرير سوريا ولبنان من نير الأتراك.

بشؤوننا، بل قد نخبط فيها خبطاً كثيراً، وأن فينا مواضع ضعف كثيرة، وأن الأيدي القوية التي أنقذتنا يترتب عليها أيضاً أن ترشدنا ولكننا لسنا بالأطفال الرضع كما يزعم بعض الذين مثلونا أمام الحلفاء تمثيلاً يؤخذ منه إننا غير أهل للاستقلال. فإذا لم يعرف الرجل كيف يمرّن رئتيه في الهواء المطلق على الطريقة الهيجينية المقررة فلا يجوز أن يستنتج من ذلك أنه لا يحق له أن يتنفس، فلا منطق أرسطوطاليس ولا فصاحة ديموستين، ولا فلسفة سقراط تقدر أن تمنع شعباً من حقوقه الطبيعية!

أجل: سوف نحرز استقلالنا، ولما كانت بريطانيا العظمى وفرنسا والولايات المتحدة وإيطاليا كفيلاتنا في هذه المعمودية المقدسة معمودية الدم والنار، فاستقلال سوريا ولبنان أمر لا بد منه، فقد تعهدت بشرفها أمام الله في السماء والناس على الأرض أن تنيلنا هذه الأمنية، وأن التصريحات التي أعلنتها بهذا الصدد على رؤوس الأشهاد لأبلغ خطب ألقيت على مذبح الحرية!

أما تصريحات الرئيس ولسن فإننا نخفض صوتنا عند الإشارة إليها لأننا نقترب منها بذلك الاحترام الذي يقترب به المسيحي إلى إنجيله والمسلم إلى قرآنه، فكلماته تقع على نفوسنا الجافة العطشى وقوع المياه المنعشة على الأرض الجافة العطشانة، بل إنه يكاد يكون لكلماته جلال كلمات التوراة ويقع تصديقها في القلوب موقعه هذا. فقد ألقى من على جبل فرنون[2] في الرابع من يوليو تلك العظة التاريخية التي لا تفوقها عظة قط إلا عظة يسوع المسيح على جبل الزيتون!

أجل: لا حاجة للسوريين بعد تصريحات الحلفاء السابقة وتصريحات الرئيس ولسن أن يرفعوا دعواهم إلى السماء لأنه لا يزال يوجد عدل على الأرض!

إن «الجامعة السورية» التي أتشرف بتمثيلها والتي أتكلّم باسمها تشعر أن مسألة سوريا ولبنان لم تبسط أمام الحلفاء البسط الكافي بل إن هنالك بعض إشاعات يؤخذ منها أن السوريين واللبنانيين ليسوا فقط غير أهل للاستقلال، بل إنهم لا يريدونه ومن البديهي أنه لا يوجد شعب صحيح العقل يتنازل بملء إرادته عن سيادته وينتحر. أما فيما يختص بأمنيتهم

2 اشارة الى خطاب الرئيس الأفيركي ولسن في 4 تموز 1918 من على جبل فرنون.

للاستقلال، فهم أرقى من الشعوب البلقانية كلها في فجر استقلالها.

يوجد أنبياء كذبة في كل مكان، أما نحن السوريين فلنا نصيب وافر منهم حتى في بونس أيرس، وفضلاً عن موهبة النبوة الكاذبة، لهم موهبة التملق الحقيقي الذي أتقنوه في مدرسة الأتراك سادتهم ومستخدميهم السابقين ومطمعهم أن يتخذوا الجالية السورية ذريعة لأغراضهم النفعية فإنهم يعرفون حق المعرفة أنه لا يحق لهم أن يتكلموا في موقف رسمي أو غير رسمي باسم الجالية السورية في الأرجنتين، ولا باسم الجوالي السورية في أميركا الجنوبية لأنهم يعلمون حق العلم بأنهم لا يمثلون أحداً إلا شخصهم، ونحن لسنا في حاجة إلى نفر ينصبون أنفسهم وسطاً بيننا وبين سفارات الحلفاء لأن منقذينا يقابلوننا بصدور رحيبة.

حدثت منذ بضع سنين في إحدى المحاكم الإنكليزية دعوى غريبة في بابها وهي أن رجلاً أقام دعوى أمامها على شركة من الشركات، وبينما كانت الدعوى سائرة والرجل على وشك ربحها، أقنعته الشركة بالتنازل عنها، بيد أن القاضي تدخّل في الأمر وقال «لا أسمح بذلك فإنّ هذا الرجل المسكين صرف أربع سنين في الهم والهم يُهلك قوة الإرادة، لذلك يجب متابعة الدعوى في المحكمة» وكانت نتيجة ذلك أن الرجل ربح دعواه. والآن توجد شركات سياسية تحاول أن تحمل السوريين على التنازل عن دعواهم ولكننا على ثقة من أن بريطانيا العظمى وفرنسا والولايات المتحدة وإيطاليا تتدخل في الأمر وتقول «إن هذا الشعب المسكين قضى أربعة قرون في الاستبداد والهم فضعفت إرادته، لذلك يجب متابعة دعواه في محكمة الأمم». وإننا لرابحون دعوانا!

لذلك ترجو «الجامعة السورية» سفراء بريطانيا العظمى وفرنسا والولايات المتحدة وإيطاليا أن يرفعوا إلى حكوماتهم أمانينا المذكورة في هذا الخطاب على ما سنقدمه إليهم.

أما الآن، وقد طرح عصر قصاصات الأوراق في غرفة عاديات التاريخ، نرجو أن يبزغ علينا ذلك العصر الذهبي عصر الحق والعدل وحقوق الأمم!

كتاب مفتوح إلى السوريين واللبنانيين والفلسطينيين

يا بني وطني في الوطن والمهاجر

أرفع إليكم التهاني لتحرركم من سيطرة الأتراك الظالمين الذي ساموكم خسفا وجوراً وتحكموا فيكم أربعة قرون طوال لم يتعلموا في أثنائها شيئاً، ولم ينسوا شيئاً فشادوا سلطنتهم على الاستبداد، وأسسوا ملكهم على الظلم، واتخذوا لحوم الأمم التي تحكموا فيها طيناً لبنائهم ودماءها ماء لذلك الطين، وبنوا حجارته من جماجم الشعوب الرازحة تحت أثقالهم الهائلة ولكن هنالك مثلاً لاتينياً يقول متى أرادت الآلهة إهلاك أحد ضربته أولاً بالجنون، وهو ما فعلته بالأتراك، فلقد ضربتهم بجنون ليس وراءه من جنون فزجوا بأنفسهم عمداً في هذه الحرب الطاحنة، وحفروا قبرهم بأيديهم وها هم الآن قد توسدوه فواراهم الدهر فيه، وسيبقون في قبرهم إلى الأبد!

يا بني وطني

نحن الآن واقفون على مفرق الطرق، فمستقبل سوريا ولبنان متوقف على الخطوة الأولى التي نخطوها، ومتى بدأنا السير في طريق لا نسير فيها عشر سنين أو مائة سنة أو ألفاً، بل نسير إلى الأبد!

إننا الآن في هيكل الوطن، فيجب علينا أن نركع أمام مذبحه ويقسم كل منا يميناً رهيبة أن يكون مخلصاً له كل الإخلاص، وأن يبذل ما أوتي من مواهب عقلية وقوى أدبية وما يمكنه بذله من موارد مادية في سبيل استقلاله.

أجل: يجب علينا أن نقترب من الوطن كما يقترب المسيحي من مذبح الكنيسة أو المسلم من الكعبة، لأنه عندنا أقدس بقاع الأرض. فالوطن هيكلنا العام تجتمع فيه عبّاده ركّعاً سجوداً

يدينون بدين واحد هو الوطنية والاستقلال مذبح ذلك الوطن، فيجب أن ندنو منه بخشوع وورع كما يدنوا المسيحي من مائدة الرب والمسلم من جبل عرفات، وأن نغسل ضمائرنا قبل ذلك من أدران العالم ونطرح عنا آثامنا وخطايانا الوطنية كما يطرح المشرف على الموت آثامه وخطاياه الدينية، لأننا مشرفون على الاستقلال وهو ولادتنا وساعة ولادة الأمم رهينة كساعة الموت!

ليس فينا الآن مسلم ومسيحي ودرزي ويهودي، فالمشانق نصبت للجميع على السواء والمجاعة انتابت الجميع على السواء. الأوبئة حصدت الجميع على السواء، فلقد صهرتنا هذه الحرب الآكلة في بوتقتها المتأججة وكوّنت منا كتلة واحدة فنحن الآن سوريون ولبنانيون وفلسطينيون دون فارق في الأديان والمذاهب.

لنتصافح أمام هذا المذبح الذي نحن الآن راكعون حوله ولنعقد الخناصر والقلوب على أن نكون يداً واحدة في خدمة الوطن خدمة منزهة عن كل غرض، ولنتحد اتحاداً لا انفصام بعده لأن اتحادنا في هذه الساعة الرهيبة ساعة ميلادنا الوطني ليس فقط قوتنا بل حياتنا وانشقاقنا ليس فقط وهننا بل موتنا موتاً أبدياً.

الويل لمن تأتي بسببه في هذه الساعة الرهيبة العثرات الوطنية!

خير لذلك الرجل أن يعلق في عنقه حجر الرحى ويطرح في البحر!!

يا بني وطني

نحن الآن في فترة غريبة جداً وقصيرة جداً لا مثيل لها في تاريخ الدهور الغابرة وقد لا يكون لها مثيل في تاريخ العصور الآتية، فهي فترة نضال هائل بين عصرين يتصارعان صراع اليأس الواحد منهما في حشرجة الموت والآخر في فجر الحياة. وفي هذه الفترة القصيرة التي هي أشبه بغمض الجفن تحتضر أمم وتولد أمم، فمن أي الامم تريدون أن تكونوا؟

اذا أردتم أن تكونوا من الأمم المحتضرة، فلا تفعلوا شيئاً أو افعلوا ما أنتم فاعلون. تنابذوا وتخاصموا وتهاتروا وانشقوا وليطلب بعضكم احتلال هذه الدولة وحمايتها وليطلب الآخر احتلال تلك الدولة وحمايتها وليطلب آخر الانضمام إلى تلك المملكة وليفرغ فريق منكم ما

أوتي من ذلاقة لسان في إقامة الدليل على أننا لا نصلح لنحكم أنفسنا، وأننا لا نفقه شيئاً من مبادئ العمران ولا نعلم مقدار ذرة من نواميس الحياة، لأن هذه أقرب طرق الخراب والهلاك.

أما إذا شئتم أن تكونوا في عداد الأمم الحيّة، فهبوا هبة رجل واحد واتقوا الله في وطنكم واحترموا أنفسكم لأن من لا يحترم نفسه لا يحترمه أحد، واطلبوا حقوقكم الطبيعية التي منحكم إياها الله مع الهواء الذي تتنفسونه، والماء الذي تشربونه، والسماء التي تظلكم والأرض التي تقلكم.

اطلبوا الاستقلال! اطلبوه بصوت عالٍ يبلغ عنان السماء بلا خجل ولا وجل. اطلبوه عاجلاً. اطلبوه الآن قبل فوات الفرصة لأن الوقت لا ينتظر أحداً. دولاب الدهر يدور الساعة بسرعة هائلة لا مثيل لها في تاريخ العالم، وعما قليل يعقد الحلفاء مؤتمر السلم الذي سيكون حكمه فصل الخطاب في مصير الأمم والشعوب، فمتى خرج منادي المؤتمر ينادي «جاء دور سوريا ولبنان وفلسطين» فما يكون جوابهما يا ترى؟

يا بني وطني

لا تصيخوا سمعاً إلى القائلين، إنكم لم تهرقوا من دمائكم ما يوازي ثقل الاستقلال، فالأمة التي سدت في وجهها طرق البحار وضرب الأتراك حولها نطاقاً من الفولاذ ولا أسلحة ولا ذخائر عندها تفتك بها المجاعة وتحصدها الأوبئة، لا طاقة لها على إضرام نار الثورة إلا إذا كانت راغبة في الانتحار، ولو أنزل الحلفاء جيوشهم في سوريا عوضاً عن إنزالها في الدردنيل لالتف حولها السوريون واللبنانيون والفلسطينيون وقصدوها من كل فج عميق. والأمة التي جاهرت بميلها إلى الحلفاء والسيوف مصلتة فوق رقابها والمشانق منصوبة أمام أعينها ليست بالأمة الجبانة ولا بالأمة التي لا تستحق الحياة.

لا يجوز أن تقاس حرية الأمم بقوتها الحربية، ولا أن يغتصب حق لمجرد كون صاحبه لا يقدر على استرداده بالقوة، ولقد أعلنت حكومات الحلفاء من منابرها أنها تحارب في سبيل تحرير الشعوب الضعيفة وإنالتها حقوقها الطبيعية وهي الاستقلال، وأن يكون لها الحق المطلق في أن تتولى شؤونها بنفسها وتختار نوع الحكومة التي تريدها وتنتخب من

ترى فيهم الصلاحية لخدمة وطنهم، وصرّحت غير مرة أن سورية في عداد هذه الشعوب.
لماذا نرفض الحرية ونرضى العبودية؟ لماذا نسبك بأيدينا أغلالنا وقيودنا؟ لماذا نصنع أقفاصاً لنا ولذريتنا ونحن طليقون؟ لماذا ندوس بأقدامنا أثمن درّة في تاج الوطن؟ لماذا نحتقر نفوسنا وأعظم أمم العالم طراً تحترمنا؟ لماذا نرفض حقوقنا الطبيعية التي بذل الحلفاء الشرفاء دماءهم الشريفة في سبيل استرجاعها من يد المغتصب وإعادتها إلينا؟ لماذا نصغّر نفوسنا؟ لماذا نعفّر وجوهنا؟ لماذا نقف على الباب وقفة الذليل المستعطي ونحن أصحاب الدار؟
أعرضوا عن مثل هذه الصغائر، وكونوا رجالاً أحراراً واعلموا أن هذه الفرصة السانحة الآن لن تسنح لكم مرة أخرى أبد الدهر، فما يحكم به مؤتمر الحلفاء الآتي يحكم به إلى الأبد.

يا بني وطني
لا تؤجلوا إلى الغد ما يمكنكم عمله اليوم، لأن الغد ليس لكم ولا لي، بل هو لله والطبيعة ومصير الأمم سائر الآن بسرعة دوران الأرض حول الشمس، فكل يوم بل كل ساعة، بل كل دقيقة تمر دون أن نقوم فيها بالواجب المقدس الذي يدعونا إليه الوطن جريمة يسجلها علينا التاريخ إلى الأبد!

لا يكفي أن نهب هبة واحدة ولا أن نعمل كلنا، بل يجب أن يكون عملنا منظماً لأن السر كل السر في التنظيم. فالجماعات القليلة المنظمة لخير بكثير من الجماعات الكثيرة المشوشة لأن في الأولى دماغاً مفكّراً مدبّراً يسيّر القوى كلها معاً في وجهة واحدة إلى غرض واحد. أما في الثانية، فالقوى متضاربة متنافرة، أو تسير في وجهات مختلفة، فتفني الواحدة منها الأخرى، أو تفنى كلها بفراغ زخمها. فالأولى أشبه بالقوة الكهربائية التي تدير الآلات الميكانيكية المنتظمة خلافاً للثانية التي هي أشبه بقوة الشلالات التي تذهب عبثاً.

أما المبادئ السياسية الأساسية المشار إليها أعلاه، فيجب أن تكون استقلال سوريا ولبنان وفلسطين. أما علاقة لبنان وفلسطين بسوريا، فيترك الحكم في أمرها إلى الشعب اللبناني والفلسطيني. فأما أن يكون كل منها ولاية سورية مستقلة بشؤونها الأهلية تعود في سياستها الخارجية إلى الحكومة السورية العامة على حد الولايات المتحدة، أو أن يستقل استقلالاً

منفصلاً، وعندنا أن الأول أفضل من الثاني ولكن من البديهي أن الفضل في ذلك يعود إلى ميل الشعب نفسه وحكم الحلفاء الجازم بشأنه.

متى جاء موعد حكم الشعب في نوع حكومته يبعث نواباً عنه على نسبة عددية كأن يبعث مثلاً نائباً عن كل خمسين ألف نسمة، سواء في ذلك الوطن والجوالي، فيعقدون مؤتمراً في بيروت أو دمشق ويقرون على نوع الحكومة التي يريدونها لأنفسهم.

على الجمعيات المركزية والفروع أن تبشر بالوطنية بواسطة مبشرين ونشرات وعلى صفحات الجرائد وتحمل على التعصب الديني حملات شعواء، وتكتب مقالاتها بلغة بسيطة يفهمها العامي، وأن تفهم الشعب أنه سيد نفسه وعماد بلاده، وأن الحكم الفاصل في كل شأن وطني هو له ومنه وإليه وأن ترفع منزلته في عيني نفسه حتى يفقه حقوقه، ولكن يجب أن تبين له أن لا حقوق بدون واجبات، وأن الشعب الذي يطلب احترام الغير له عليه أولاً أن يحترم هو نفسه.

يا بني وطني

إذا كنتم لا تصيخون سمعاً إلى نصائحي ونصائح المصلحين المخلصين من مواطنيكم، فعبثاً تطلبون الحياة الوطنية وعبثاً تعملون. إذا كنتم تريدون أن تكونوا كلكم رؤوساً فأين الجسم؟ وإذا كان الجنود يريدون أن يكونوا كلهم قواداً فأين الجيش؟ إذا كنتم تريدون أن تعملوا منفردين فأين القوة؟ وإذا كنتم تريدون أن يسير كل منكم في طريقه فأين الغاية؟ للأجرام السماوية نظام حتى المذنّبات منها وللمواد نظام حتى الغازات منها، وللجماد نظام وللنبات نظام وللحيوان نظام، فهل تريدون أن تكونوا أحياء غريبة لا نظام لها؟ إذا كنتم تعصون شرائع الطبيعة، فهي تحكم عليكم بالموت لأنها قاضٍ صارم ولكنه عادل. لا تجرّبوا الطبيعة لأن من يجرب الطبيعة يجرّب الله!

لا تصيخوا سمعاً إلى المتشائمين الذين يقولون لكم إن مصيركم ليس بيدكم، وإن السلاسل المرصّعة والأقفاص الذهبية خير من الحرية. لا تصغوا إلى نعيق الغربان بل انصتوا إلى أصوات الطيور المغردة على أرز لبنان ورياض سوريا وأدواح فلسطين تحت تلك السماء الزرقاء الجميلة وعلى قنن الجبال الشامخة، وفي بطون الأودية التي تكسو أرضها الخضرة النضرة وتعلو

جدرانها الطبيعية النباتات المتعرشة. أصغوا تسمعوا تغاريدها في ذلك الوطن الجميل من وراء الأوقيانوس، وهي تشدو صادحة «يا رجال سوريا ولبنان وفلسطين كونوا أحراراً مثلنا!».

أجل: يا رجال سوريا ولبنان وفلسطين كونوا أحراراً كطيورها الشادية، كونوا أحراراً ولا تخالطوا العبيد، ولا تصغوا إلى العبيد، ولا تصيخوا سمعاً إلى فلسفة العبيد، فهي فلسفة خاسرة جاهلة كلها حماقة!

أجل: لا يكتفي أولئك العبيد أن يكونوا عيبداً ويدعوا إلى العبودية، بل يلبسون عبوديتهم ثوباً قشيباً من الفلسفة. إننا نضرب بتلك الفلسفة عرض الحائط. نريد فلسفة أحرار لا فلسفة عبيد!

البداوة مع الحرية خير من الحضارة مع العبودية، والتوحش مع الاستقلال خير من التمدن مع الاحتلال.

إذا كان يجوز للرجل أن يكون متوحشاً، فالأولى أن يجوز له أن يكون مستقلاً.

استقلال الأمة حياتها، فمتى سُلبت استقلالها ماتت وسيادة الشعب على نفسه حق طبيعي له، فمن يسلبه سيادته يسلبه كيانه الوطني...

ومهما يكن من الامر ففصل الخطاب لمؤتمر الصلح الذي سيعقد بعد أسابيع معدودات فيجب علينا أن نبسط أمانينا لدول الحلفاء، وحتى تعلم أننا شعب حي يفقه معنى الحرية ويطالب بها وهو أهل لها، وستكون فرنسا وانكلترا والولايات المتحدة أكثر دول الحلفاء اهتماماً بشؤونها ولأنها أعلنت لما لها من العلاقة الاقتصادية بشؤونها، ولانها أعلنت مراراً عديدة من منابر مجالسها النيابية أن تحرير الشعوب الضعيفة في عداد الاغراض التي ترمي اليها بخوضها غمار هذه الحرب الطاحنة، وجاء ذكر سوريا صراحة غير مرة في عرض كلام رؤساء حكوماتها ورجال سياستها...

لا يطلب منا الآن سوى تذكيرها بالعهود التي أخذتها على نفسها فيما يخصنا، وأن نبرهن لها أننا رغماً مما فينا من مواضع الضعف أهل للاستقلال الذي ننشده، بيد أنه لا بد لنا في هذا المطلب الاخير من الاتحاد التام...

يا بني وطني

لا وقت لنا للجدل والمناقشات العقيمة والآراء السلبية، فيجب علينا أن نعمل وأن نعمل بانتظام. حسن أن ننشئ جميعات، ولكن يترتب عليها أن تعود إلى لجنة وطنية سامية تتكلم باسم الجمعيات السورية كلها، وقد قلنا السورية اختصاراً من باب تسمية الكل باسم البعض.

لنتفق ولو مرة واحدة في سبيل وطننا المفدى الذي حل به من البلايا والرزايا ما تهتز له الجبال الراسيات، وهذا الوطن التعس ينادينا الآن من وراء البحار لنجدته ونصرته ويستحلفنا بربوعه الجميلة التي رأينا فيها نور الحياة، بتربته المقدسة التي تضم رفاتنا بعد الممات أن نعقد الخناصر والقلوب على خدمته خدمة صادقة خالصة من كل شائبة، وأن نتحد اتحاداً متيناً منظماً لا انفصام له خالٍ من حب الظهور، ومن كل ضعف يقضي بفريق منا إلى تضحية مصلحة الوطن المقدسة على مذبح المطامع الشخصية.

يا بني وطني

لنتحد، ولو لمرة واحدة في سبيل أقدس واجباتنا لوطننا، ولنتقدم إلى هذا الوطن العزيز ونقُل له «يا وطننا المقدس لقد فرقتنا التعصبات الدينية وأفضت بنا إلى المنازعات السياسية والمشاحنات الإقليمية والاضطرابات الطائفية، فبددنا رجالنا على قلتها وأنهكنا قوانا على وهنها، وضحينا بك على مذبح أغراضنا الذاتية ومصالحنا الشخصية، وفضلنا حب الظهور على حبك ومصالحنا على مصالحك، فكنا كالعميان نتلمس طريق الحياة تلمساً. أما الآن وقد انفتحت أعيننا وبزغ علينا فجر عصر جديد فإننا نتضرّع إليك أن تغفر آثامنا وتصفح عن سيئاتنا، وعند موطئ قدميك ندفن جهلنا وتعصبنا وشقاقنا ونتصالح نحن المسيحيين والمسلمين والدروز واليهود والذين لا دين لهم، ونقسم لك يا من أوجدتنا وربيتنا لمثل هذا اليوم الرهيب أننا نتحد اتحاداً أبدياً سرمدياً لا انفصام له، ونكرس حياتنا وقوانا ومواردنا ومواهبنا في سبيلك لأن كل ما لنا منك ويجب أن يعود كل ما لنا إليك!

«نقسم بك أننا نتحد اتحاداً منظماً، وأن لا نختار لخدمتك إلا من نعتقد به الكفاءة لها والإخلاص لك، ولا ننصب علينا قادة للرأي العام من الوجهاء لمجرد الوجاهة ولا من

الأغنياء لمجرد الغنى، بل نحسب كل غني أو وجيه لا يبذل شيئاً من ماله أو قواه في سبيل حياتك خائناً لك، كافراً بنعمتك بل صنماً من الأصنام أو وثناً من الأوثان، وكما كسّر موسى العجل الذهبي في البرية، وكما قلب المسيح موائد الصيارفة في الهيكل، وكما قضى محمد على عبادة العزة واللات في مكة، كذلك نحن نحطّم قوى عجولنا الذهبية ونقلب موائد هؤلاء الصيارفة الخونة في هيكلك المقدّس، ونقضي على عبادة الأصنام قضاءً مبرماً!

«نقسم بك أننا لا ندين ونحن في هيكلك إلا بدين الوطنية، وأننا نبذل قوانا في سبيل إحراز الاستقلال الذي هو حياتك وفي سبيل المحافظة عليه بعد نيله وأن يكون شعارنا الحرية والإخاء والمساواة، وأن لا ننصب علينا حكاماً يحابون بالوجوه ولا حكومات تفضل أصحاب دين على أصحاب دين آخر، ولا نواباً ليسوا أكفاء للنيابة عنا سواء من الوجهة العلمية أو العمرانية أو السياسية.

«نقسم بك أننا نربي ذريتنا تربية وطنية فنجعلك إلهنا على الأرض، كما أن الله إلهنا في السماء، فنرضعهم حبك مع لبن الأمهات ونُجري الوطنية في أجسامهم مجرى الدم في شرايينهم، ونعلمهم أن لهم نحوك واجباً مقدساً هو فوق كل واجب، وأن لهم في إدارة شؤونك حقاً مقدساً هو فوق كل حق، وأن حكامهم من أكبر كبير إلى أصغر صغير هم خدامهم لا سادتهم ونوابهم لا متحكمين فيهم، وأن لا سيادة لأحد عليهم إلا سيادتهم على أنفسهم، وأن صوت الشعب صوت الله!

«أبانا الذي على الأرض ليتقدس اسمك، ليأتِ ملكوتك، لتكن مشيئتك فينا كمشيئة الله في السماء، روح الاتحاد أعطنا اليوم واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا، ولا تدخلنا في تجربة، لكن نجنا من الشرير، لأن لك الملك والقوة والمجد إلى أبد الآبدين آمين!»

بسط وإيضاح

جاء في رصيفتنا «فتى لبنان» لصاحبها صديقنا وزميلنا السيد رشيد عطيه مقالة افتتاحية بشأن الكتاب المفتوح الذي صدرنا به الجزء الحادي عشر من «المجلة»، أثنى فيها علينا بما هو أهل له وانتقد منه بعض ما أشكل عليه بأدب رائع نرجو أن يكون نموذجاً لبعض الصحف التي لا تفرق بين الانتقاد والطعن، وهذا التأدب في الانتقاد الذي سماه تلطفاً ملاحظات وتناوله موضوعاً حيوياً وشؤوناً وطنية لا نريد أن يبقى فيها رأينا وقولنا موضعاً للشبهات حملانا على تسطير هذا البسط والإيضاح رغماً من كثرة الشواغل الوطنية التي لا تكاد تبقي لنا مجالاً للنظر في سواها، فإذا لم نعد إلى هذا البحث مع حضرته مرة أخرى فقد أوضحنا عذرنا للرصيف الكريم وهو أدرى من سواه بأن هذه الأيام الثمينة التي تمر بنا يجب أن تصرف في خدمة الوطن المقدس بغير المناقشات، لأن هذه معنا في كل حين خلافاً لمؤتمر الصلح الذي نرجو أن يكون آخر مؤتمر من نوعه.

لاح لصديقنا الرصيف أن اقتراحنا إنشاء الجمعيات الواردة في الكتاب المنوه عنه تصوري أكثر منه عملياً، ثم أكد ذلك بلفظين إفرنسيين، أما إعداداً لنا للحماية الفرنسية المنتظرة أو لأن هذا الخاطر عرض أولاً لصديق له يفكّر بالفرنسية فدفع إليه الصورة كما رسمتها المخيلة لأن التعبير العربي كافٍ وحده لبيان المعنى المراد وعهدنا بصاحب الفتى متضلعاً من العربية.

تحوّل حضرته بعد ذلك من التعابير الفرنسية إلى الرياضيات، فأفادنا أن تنظيم الجمعيات المشار إليها يستغرق خمس سنين، ثم انتقل إلى اللاهوت فقال «اللهم إلا إذا كانت الأعوام في منزلة الأيام على حد ما جاء في المزامير ألف سنة في عينك يا رب مثل يوم أمس الذي عبر»، وحتى لا تبقى الآية مبتورة نورد تتمتها «وكهزيع من الليل».

ولو تمعن حضرته في ما جاء بهذا الصدد في الكتاب المفتوح لأدرك أن للجمعيات المشار إليها

غرضين متميزين أولهما طلب الاستقلال، وثانيهما بيان رأيها في نوع الحكومة التي هي أصلح للشعب من سواها بدليل ما جاء بعد ذلك وهو ما يأتي:

«متى جاء موعد حكم الشعب في نوع حكومته يبعث نواباً عنه على نسبة عددية كأن يبعث مثلاً نائباً عن كل خمسين ألف نسمة سواء في ذلك الوطن والجوالي، فيعقدون مؤتمراً في بيروت أو دمشق ويقرون على نوع الحكومة التي يريدونها لأنفسهم.

«على الجمعيات المركزية والفروع أن تبشر بالوطنية بواسطة مبشرين ونشرات وعلى صفحات الجرائد، وتحمل على التعصب الديني حملات شعواء وتكتب مقالاتها بلغة بسيطة يفهمها العامي، وأن تفهم الشعب أنه سيد نفسه وعماد بلاده، وأن الحكم الفاصل في كل شأن وطني هو له ومنه وإليه، وأن نرفع منزلته في عين نفسه حتى يفقه حقوقه.

ومن البديهي أنه يمكن تأليف جمعيات مركزية قبل أن يبدأ مؤتمر الصلح مباحثه في شؤون الوطن، لأن المؤتمر لا ينظر في شؤون تركيا إلا بعد انعقاده بأشهر، إذ أن الأشهر الأولى مقررة للبحث في شؤون شتى أهمها شؤون ألمانيا والنمسا وما يشاء منها، بعد ذلك ينصرف إلى إعداد الأمة لنوع الحكومة التي يراه أفضل لها من سواه.

وهنالك غرض آخر للجمعيات لم نذكره، بل لم نرد حينئذٍ ذكره، وهو لو فرضنا أن الوطن لم ينل استقلاله المطلوب، ونال استقلالاً إدارياً تحت حماية فرنسا، كان من واجب الجمعيات المشار إليها متابعة عملها لأن فرنسا في مثل هذا الحال تدخل الوطن كما تقول «لإعداده للاستقلال التام» إلا إذا كان المراد بذلك أنها تقيم في وطننا وتتولى حمايتنا إلى الأبد أو أنه لا يحق لأصحاب البلاد أن يطالبوها بالاستقلال الموعود به.

ولقد تألفت جمعيات من بونس أيرس بعد صدور الكتاب المفتوح بخمسة أيام وفي أماكن أخرى من أميركا الجنوبية بعد صدوره بخمسة أسابيع، وتألفت جمعية في نيويورك بتوارد الخواطر منذ بضعة أسابيع فقط، وقد وردنا بالأمس أنه قد تألف حال وصول الكتاب المفتوح حزب سياسي من أحرار بوليفيا وبيرو وتشيلي. أما المواطنون الذين لا يدركون حراجة الموقف وضرورة السرعة فالكتاب المفتوح لم يكتب لهم.

أما المأخذ الثاني الذين أخذه علينا، فهو تعيين بونس أيرس مركز الحزب السياسي في أميركا

الجنوبية ولقد جاء في صدر كلامه بهذا الصدد ما يأتي: «نحن مع احترامنا لإخواننا في عاصمة الأرجنتين لا نظن أنهم أرقى من جالية سان باولو، بل إن هذه لها حق السبق في المضمار الوطني على سائر الجوالي السورية في سائر المهجر».

وأول ما نقوله لحضرة الرصيف بهذا الصدد إن جالية سان باولو والبرازيل كلها تخصنا وتخص الوطن، كما أن جالية الأرجنتين تخصنا وتخصه، ولا دخل للاقتراح في تفضيل جالية على أخرى، ولا نفر من المواطنين على نفر آخرين، فالمواطنون أينما حلوا ونزلوا أخوة وأبناء وطن واحد يفتخر بالنابغين والمخلصين منهم على السواء سواء كانوا في الجمهورية الفضية أو البرازيل أو الولايات المتحدة أو غيرها من أنحاء العالم، وكل من يحاول أن يفرق بين هذه الجوالي بالبحث العقيم وهو أيها أفضل، وخصوصاً في هذه الأزمة التي نحن فيها الآن فليس من العاملين على بث روح الأخاء والتضامن في شيء.

أما الباعث على اتخاذ بونس أيرس مركزاً للحزب السياسي الذي نوّهنا عنه في ذيل الجزء الحادي عشر من «المجلة»، فلأنها أكبر عاصمة في جنوب أميركا ولأن السوريين فيها أكثر منهم في مدينة أخرى من أميركا الجنوبية، ولأنها نقطة مركزية، ولأنه وجد فيها منذ سنين حزب سياسي سري منظم له فروع شتى، ولأن إيماننا السياسي يختلف عن إيمان صاحب الفتى والجمعية الوطنية على ما سنبينه.

ثم تابع رصيفنا كلامه فقال: «كانت جمعية سان باولو تعمل بجرأة وتواصل السعي في سبيل الاستقلال وكان أعضاؤها يحملون على الأتراك وأهلهم في الوطن عرضة للقتل والنفي والمشانق في حين أن جالية بونس أيرس خلا بعض أفراد لم تكن تحرك ساكناً خوفاً من نقمة الأتراك، بل أن الدكتور نفسه صاحب «المجلة» والاقتراح كان يتحاشى لمس الأتراك ولو من طرف خفي، وهذه مجلته شاهدة عليه، فما باله قام الآن وأصلت سيفه على الترك واقترح جعل بونس أيرس مركزاً للجمعية».

نثني على جمعية سان باولو أطيب الثناء ونعجب بجرأتها ومواصلتها السعي في سبيل «الاستقلال»، وسيشكرها الوطن على التضحيات التي قامت بها سواء كانت حقيقية أو مجازية كحملتها على الأتراك.

ثم سألنا صاحب الفتى بعد ذلك قائلاً «لماذا لم يدخل الدكتور ميدان الجهاد الوطني حين كان الجهاد خطراً حتى على أبطال الرجال؟ هل تراه ظل غافلاً سحابة ثلاثة أعوام ثم أفاق الآن بعد نضج الطعام ودخول الحلفاء إلى بلادنا وفوز الجمعية الوطنية ومريديها في جهادهم العظيم؟»

والجواب على ذلك بسيط جداً وهو أن الدكتور لم يدخل ميدان الجهاد الوطني لأنه كان معتمداً على «أبطال» سان باولو، وهو يفتخر بمشاطرة الجمعية الوطنية ومريديها الجيش الإنكليزي فتح فلسطين وسوريا ولبنان، وإن ظل هو غافلاً سحابة ثلاثة أعوام كما يفتخر كل إنكليزي ظل غافلاً في وطنه سحابة هذا الزمن بالفتح الذي أحرزه اللنبي وجيشه. فلتحي بريطانيا العظمى ولتحي الجمعية الوطنية في سان باولو!

كلا! إننا لا نبخس الجمعية الوطنية حقها بل من يبخسها حقها إنما هو صاحب الفتى نفسه إذ لم يطالب قط على صفحات جريدته فرنسا والحلفاء بما للجمعية من حق الفتح في سوريا ولبنان وفلسطين. وبالتالي بما للوطن من هذا الحق الذي أكسبته إياه الجمعية الوطنية. بل من يبخس الجمعية إنما هو الجمعية الوطنية نفسها، إذ أنها عوضاً عن مطالبة الحلفاء بالإجراءات الحربية التي قامت بها في ساحات النضال، انصرفت إلى طلب حماية فرنسا صارفة النظر عن حقها الحربي عاملة على إنشاء فروع في الداخلية تطلب حماية فرنسا كأن فرنسا لا ترضى حمايتنا إلا إذا سفكنا دمنا في سبيل هذه الحماية!

أما نحن فقد أعرضنا عن إنشاء جمعيات تدعو إلى التطوع لأننا لم نرد أن نقذف بشبابنا الذين هم لحم من لحمنا ودم من دمنا إلى خطوط النار والفولاذ قبل أن نعرف في سبيل أي شيء نجازف بحياة إخواننا ومواطنينا. أفي سبيل الاستقلال أم في سبيل الحماية؟

لم نرد أن يتطوع أحد من إخواننا في سبيل الحماية الفرنسية أو حماية أية دولة أخرى، ولم نرد أن نزين لشبابنا الشجعان البسطاء أنهم يحاربون في سبيل الاستقلال ونزج بهم في أتون جهنم لأجل الحماية، ولم نرد التغرير بمن يثق بنا ويضع حياته في كفه إجابة لدعوتنا، ولم نرد أن نطبخ طعاماً وقوده أبناء وطننا.

هذه هي الأسباب التي لبث لأجلها الدكتور غافلاً سحابة ثلاثة أعوام بينما كان طهاة سان باولو يطبخون طعامهم!

هذه هي الأسباب التي أعرض لأجلها قادة الرأي العام وطلاب الاستقلال من اللبنانيين والسوريين في القطر المصري والولايات المتحدة والبرازيل والأرجنتين وتشيلي وبوليفيا وبيرو والأرغواي عن التطوع والدعوة إلى التطوع.

أخذ علينا صاحب الفتى عدم تعرضنا للأتراك وعدم سبهم ولو من طرف خفي، كأنه يحسب سب الأتراك اكتشافاً جديداً أو فتحاً مجيداً وهو سب تساوى فيه الجهلاء والحكماء واستوت عنده الجرائد المحترمة والجرائد الصفراء.

أتينا سابقاً على فساد أحكام الأتراك ومظالمهم وفظائعهم وسوء إدارتهم وفوضى سلطنتهم قبل الدستور وبعد الدستور يوم كان غيرنا يقدّس في بيروت سلطانهم ويحمل المباخر أمام حكامهم ويحرق البخور أمام ولاتهم ويدير عليهم كؤوس الثناء والمديح سلسبيلاً ويسبّح بحمدهم بكرة وأصيلا.

يقول إننا كنا نخشى الأتراك، فلا نمسهم من طرف خفي ولا نكلف النفس مؤونة الرد عليه إلا بإثبات فقرات جاءت في صدر الجزء الرابع من السنة الأولى للمجلة وفي هذه الفقرات أيضاً إيماننا السياسي لذلك رأينا إثباتها هنا وهي كما يأتي:

«وكما لا يصح أن نتكل بعضنا على بعض، كذلك لا يجوز لنا أن نتكل على حكومتنا أو دولتنا إذا بقيت لنا دولة أو أن نتكل على أية حكومة أو دولة أخرى تنصب نفسها علينا.

«اتكال الشرقيين في جميع شؤونهم السياسية والعمرانية على حكوماتهم من أكبر أغلاطهم الفاضحة، وإذا بقوا سائرين على هذه الخطة العوجاء المخالفة لنواميس الطبيعة، فلا بد أن يكون مصيرهم عاجلاً أو آجلاً إلى فقدان الاستقلال الذاتي في كل قول وعمل وخسران صفات الرجولة التي بدونها لا قيام للأفراد أو الأمم.

«لذلك يترتب على الشعب قبل الشروع في عمل أن يشعر بأنه سيد بلاده وسيد حكومته وحكامه. والخطوة الأولى التمهيدية للوصول إلى هذا الغرض أن تكون للأمة حياة ذاتية مستقلة لا تستمدها من أحد، وأن تكون مستعدة للتضحية في إثبات سيادتها على حكومتها وبلادها.

«أيها الرفاق

«إذا كان الدستور الذي نلناه لم يفِ بالمرام، فذلك لأنه ليس من عمل الشعب أو الأمة، بل صدقة تصدق بها علينا الجيش، فهو بالحقيقة عرض من أعراض انحلالنا وموتنا لا حياتنا واستقلالنا. هو أشبه بأعراض احتضار رومية يوم كان جيشها السيد المطاع ينزل الأباطرة عن كراسيهم ويضع مكانهم من نال حظوة في عينيه، فدستورنا في الحقيقة عرض من أعراض موتنا لا دليل حياتنا. هو تألق نور السراج الأخير قبل انطفائه لا تبلج الفجر عند انبثاقه.

«لقد قام بيننا أنبياء كذبة وعمرانيون كذبة. أطباء يدعون شفاء الأمراض وهم أنفسهم مصابون بجميع الأمراض. أطباء يحاولون شفاء القرن العشرين بعلاجات القرون المظلمة. لقد كان فريق من أعضاء مجلس أمتنا في الأستانة عاراً علينا وعلى ممثلينا حتى بلغت الحماقة بأحدهم مبلغ الجنون، فوقف على منبر الأمة ونادى على رؤوس الأشهاد أن النصارى في البلاد العثمانية «كمية مهملة» وأنه عندما يشير إلى العرب يعني بهم مسلميهم لا مسيحييهم. من أجل أمثال هذا النائب عرَّف المنطقيون الإنسان بالحيوان الناطق.

«لقد شط بي اليراع واليراع كالفرس الجموح يجري بصاحبه خبباً وإهماجاً إلى حيث يريد ولا يريد.

«نسطر ما تقدم بمزيد الأسف لأن النائب المشار إليه كان سابقاً في عداد أصدقائنا، وكنا نحسبه من خيرة المصلحين. التقينا به في القاهرة من القطر المصري وعقدنا معه ومع غيره من كبار الأمة اجتماعات للنظر في إصلاح وطننا التعس وإنقاذه من جور الطاغية عبد الحميد الذي كان لا يزال وقتئذٍ في أبّان استبداده وعتوه. فإذا بهذا النبي الكاذب وغيره من الأنبياء الكذبة أقتل للوطن من كل طاغية مستبد ينفثون من صدورهم سموماً تشل أعضاء الأمة وتفرق بين عناصرها وتقضي على كل أمل لها بالحياة».

إن هذا النبي الكذاب هو عبيدالله أفندي الشهير أحد أركان جمعية الاتحاد والترقي والأنبياء الكذبة الآخرون رفاقه من أركان الجمعية المذكورة.

أما أننا لم نحمل على الأتراك الحملات التي يعنيها صاحب الفتى، فهذا صحيح وإننا لنحمد الله ألف مرة على أنه لم تكن لنا يد ولا أصبع في هذه المأساة التي كان من ورائها إثارة النمر

التركي على أهلنا ومواطنينا دون أن تترتب عليها فائدة قط سوى إنشاء الجيش اللجب الذي سار في مقدمته صاحب الفتى والجمعية الوطنية في سان باولو لنيل استقلالنا مع أوربا أو على الرغم منها كلها.

نأتي الآن على ملاحظات أخرى للرصيف الكريم وهي ما يأتي:

«والغريب في الاقتراح ما جاء فيه من التناقض بحيث لاح لنا أن جناب الدكتور أخطأ من حيث لا يدري، وبيان ذلك أنه يوصي السوريين من جهة برفع الرؤوس ويحذرهم من الخنوع ويحضهم على طلب الاستقلال التام ويشير عليهم من جهة أخرى بالالتجاء إلى فرنسا لضمان استقلالهم، فإذا كان حضرته يعتقد أن الإقرار بالعجز ذل وخنوع، فلا معنى لطلبه الالتجاء إلى فرنسا. وإذا كان يعتقد أن ادعاء المرء ما ليس فيه رجولة وفضيلة، فكان الأحرى به أن يقتصر على حث السوريين على التجافي عن مواطن الذل الذي يزعمه ويجرد حسامه ويمشي في طليعة الجيوش السورية لنيل الاستقلال التام على الرغم من أوربا كلها.

«إن الدكتور لا ينكر على السوري عموماً عجزه وضعفه وانحلال رابطته، وهو لا يجهل أيضاً أن الاعتراف بالعجز فضيلة، وبالتالي فلا غنى لنا عن دولة قوية تشد أزرنا وتساعدنا على ترقية شؤوننا لنصير أهلاً للاستقلال على أن جنابه اعترف بهذه الحقيقة إذ صرح بجلاء أن لا غنى لسوريا عن مناصرة فرنسا وحمايتها، ريثما تشتد سواعدنا وتختمر مداركنا».

السؤال الأول الذي تبادر إلى ذهننا بعد مطالعة ما تقدم هو لمَ يا ترى أشكل على صاحب الفتى عند مطالعته «الكتاب المفتوح» وهو الكتاب المتفننِ ما لم يشكل على غيره من المطالعين، والحل الوحيد الذي تراءى لنا هو أنه طالعه تحت اعتقاد قديم راسخ في ذهنه أن صاحب «المجلة» من طالبي الاستقلال تحت حماية فرنسا، أو أنه طالعه على عجل لأنه كرر هذا التصريح مراراً عديدة في مقالته التي نحن بصددها دون أقل مسوغ على الإطلاق، بل رغماً من التصريح الجلي الواضح الذي أتينا عليه في الكتاب المفتوح مما يخالف اعتقاده فينا كل المخالفة.

ومن الغريب أن يؤكد ويثبت هذا الاعتقاد ولفظ حماية لم يرد في «الكتاب المفتوح» الطويل

العريض إلا في موضع واحد فقط مما يأتي: «إن أردتم أن تكونوا من الأمم المحتضرة فلا تفعلوا شيئاً أو افعلوا ما أنتم فاعلون. تنابذوا وتخاصموا وتهاتروا وانشقوا وليطلب بعضكم احتلال هذه الدولة «وحمايتها»، وليطلب الآخر احتلال تلك الدولة «وحمايتها» فهل بعد هذا من حراجة؟

أنطلب حماية ونحن الراكعون في هيكل الوطن أمام مذبحه المقدس والقائلون له:

«نقسم بك أننا نربي ذريتنا تربية وطنية فنجعلك إلاهنا على الأرض كما أن الله إلاهنا في السماء ونرضعهم حبك مع لبن الأمهات وتجري الوطنية في أجسامهم مجرى الدم في شرايينهم وتعلمهم أن لهم نحوك واجباً مقدساً هو فوق كل واجب وأن لهم في إدارة شؤونك حقاً مقدساً هو فوق كل حق وأن حكامهم من أكبر كبير إلى أصغر صغير هم خدامهم لا سادتهم ونوابهم لا متحكمين فيهم وأن لا سيادة لأحد عليهم إلا سيادتهم على أنفسهم وأن صوت الشعب صوت الله».

ولعل ما حمل صاحب الفتى على هذا الزعم البعيد عن محجة الصواب قولنا لا بأس بأن تكون فرنسا مرشدة لنا وذلك في ما يأتي:

«صرحت فرنسا غير مرة أنها لا ترمي إلى استعمار الوطن وأنها على اتفاق مع بريطانيا العظمى في منح الشعوب المستوطنة شرق البحر المتوسط حريتها وفي عدادها سوريا ولبنان وفلسطين. وأعلنت قبل دخولها سوريا بشهور عديدة أنها لا تدخلها غازية ولا تجيئها فاتحة، بل تأتينا مواسية لنا وعاطفة علينا، فلا بأس بأن تكون فرنسا مرشدة لنا في طريق الحرية ومدربة إياناً على الحكم الذاتي على شريطة أن يكون استقلالنا مضموناً».

إن الإرشاد والتدريب لا يعنيان الحماية قط، فقد كانت ألمانيا مرشدة ومدربة لتركيا دون أن تبسط عليها حمايتها، وقد كانت أوربا مرشدة ومدربة لليابان دون ظل حماية. ولقد قلنا ذلك على فرض بقاء فرنسا دون سواها في الوطن إلى أن ينال الاستقلال.

وقد استنتج حضرته من قولنا «على شريطة أن يكون استقلالنا مضموناً» أنه يعني ضرورة الالتجاء إلى فرنسا وحدها لضمانة الاستقلال على ما يؤخذ من كلامه المتقدم بيانه، وهو استنتاج لا يعذر عليه قط كاتب مدقق كصاحب الفتى.

بقيت هنالك غرائب أخرى تظهر غرابتها الآن بوضوح بعد ما تقدم لنا بيانه وهو قول الرصيف ما يأتي:

«ثم إن الدكتور وافق في اقتراحه على خطة الجمعية الوطنية في سان باولو أي طلب استقلال سوريا تحت حماية فرنسا وهو الطلب المعقول الذي لا غبار عليه، وكل من يزعم أن الاستقلال والحماية ضدان لا يجتمعان، فهو ضعيف المدارك قصير النظر فلا شأن لنا معه».

علم حضرته مما تقدم أننا لم نوافق قط في اقتراحنا على خطة الجمعية الوطنية أي الاستقلال تحت حماية فرنسا، أما كون هذا الطلب معقولاً فما لا ريب فيه على الإطلاق لأنه لو لم يكن كذلك لما طلبته عقول راجحة كصاحب الفتى والجمعية الوطنية، أما كونه لا غبار عليه، فهذا من المباحث الهيجينية التي لا نريد الدخول فيها.

تأتي الآن غريبة الغرائب وهي قوله «كل من يزعم أن الاستقلال والحماية ضدان لا يجتمعان، فهو ضعيف المدارك قصير النظر، فلا شأن لنا معه». ونرجوه أن يقابل قوله هذا بقول له سبق لنا تقريره نثبته الآن مرة أخرى وهو «والغريب في الاقتراح ما جاء فيه من التناقض بحيث لاح لنا أن جناب الدكتور أخطأ من حيث لا يدري وبيان ذلك أنه يوصي السوريين من جهة برفع الرؤوس ويحذرهم من الخنوع ويحضهم على طلب الاستقلال التام ويشير عليهم من جهة أخرى بالالتجاء إلى فرنسا لضمان استقلالهم».

فإذا كان الاستقلال وضمان فرنسا له متناقضين أو ضدين لا يجتمعان بإقرار صاحب الفتى نفسه، فما قوله بالاستقلال التام وحماية فرنسا له؟ أفيريد صاحب الفتى بعد هذا البيان أن لا يكون له شأن مع نفسه؟

أما دعوته إيانا إلى امتشاق الحسام والهجوم في طليعة الجيوش السورية لنيل الاستقلال التام على الرغم من أوربا كلها، فقد كفانا مشقته صاحب الفتى نفسه والجمعية الوطنية اللذان جردا سيوفهما ومشت جحافلهما جنباً إلى جنب مع الجيوش الإنكليزية.

أجل: ندع الإجراءات الحربية إلى الجمعية الوطنية وحملاتها الشعواء على الأتراك. أما نحن فنعتمد في طلب الاستقلال على حقوقنا الطبيعية التي أعطانا إياها الله مع الهواء الذي نتنفسه والماء الذي نشربه ولقد قلنا بهذا الصدد في الكتاب المفتوح ما يأتي:

«يا بني وطني

«لا تصيخوا سمعاً إلى القائلين إنكم لم تهرقوا من دمائكم ما يوازي ثقل الاستقلال، فالأمة التي سدت في وجهها طرق البحار وضرب الأتراك حولها نطاقاً من الفولاذ ولا أسلحة ولا ذخائر عندها تفتك بها المجاعة وتحصدها الأوبئة لا طاقة لها على إضرام نار الثورة إلا إذا كانت راغبة في الانتحار، ولو أنزل الحلفاء جيوشهم في سوريا عوضاً عن إنزالها في الدردنيل لالتف حولها السوريون واللبنانيون والفلسطينيون وقصدوها من كل فج عميق، والأمة التي جاهرت بميلها إلى الحلفاء والسيوف مصلتة فوق رقابها والمشانق منصوبة أمام أعينها ليست بالأمة الجبانة ولا بالأمة التي لا تستحق الحياة.

«لا يجوز أن تقاس حرية الأمم بقوتها الحربية، ولا أن يغتصب حق لمجرد كون صاحبه لا يقدر على استرداده بالقوة، ولقد أعلنت حكومات الحلفاء من منابرها أنها تحارب في سبيل تحرير الشعوب الضعيفة وإنالتها حقوقها الطبيعية وهي الاستقلال، وأن يكون لها الحق المطلق في أن تتولى شؤونها بنفسها وتختار نوع الحكومة التي تريدها وتنتخب من ترى فيهم الصلاحية لخدمة وطنهم، وصرحت غير مرة أن سوريا في عداد هذه الشعوب.

«لماذا نرفض الحرية ونرضى العبودية؟ لماذا نسبك بأيدينا أغلالنا وقيودنا؟ لماذا نصنع أقفاصاً لنا ولذريتنا ونحن طليقون؟ لماذا ندوس بأقدامنا أثمن درة في تاج الوطن؟ لماذا نحتقر نفوسنا وأعظم أمم العالم طراً تحترمنا؟ لماذا نرفض حقوقنا الطبيعية التي بذل الحلفاء الشرفاء دماءهم الشريفة في سبيل استرجاعها من يد المغتصب وإعادتها إلينا؟ لماذا نصغر نفوسنا؟ لماذا نعفر وجوهنا؟ لماذا نقف في الباب وقفة الذليل المستعطي ونحن أصحاب الدار؟

«أعرضوا عن مثل هذه الصغائر وكونوا رجالاً أحراراً واعلموا أن هذه الفرصة السانحة لن تسنح لكم مرة أخرى أبد الدهر، فما يحكم به مؤتمر الحلفاء الآن يحكم به إلى الأبد!».

هذه حجتنا في طلب الاستقلال وهذه السيوف التي نجردها، وهذه الجيوش التي نجري في طليعتها.

إننا نأسف لاضطرار الفتى قلمنا إلى تناول الجمعية الوطنية في سان باولو لأننا نريد أن نحسن الظن بها ونعتقد بأنها عملت تبعاً لما أوحى به إليها وجدانها سواء كانت مصيبة أو مخطئة،

ولكن استصحاب الفتى معه للجمعية الوطنية إلى معامعه وخلطه شؤون الفتى بشؤون الجمعية وحشره الجمعية في معرض المغامز الانتقادية ومحاولته إكراه الجمعية على الوقوف بجانبه في مواقفه الجدلية ومباهاته بأعمالها في موقف التعريض بالغير، ليس من مصلحة الجمعية في شيء وقد لا يكون من رغائبها في شيء.

إن للجمعية لجنة متى أرادت أن تبدي رأياً أو تنتقد أحداً من المستيقظين أو أصحاب الكهف نظيرنا، فلها رئيس وأمين أسرار ينطقان باسمها ويعبران عن آرائها.

ختم صاحب الفتى انتقاده بما يأتي:

«بقي أن نشير إلى فقرة وردت في آخر الجزء المذكور من «المجلة»، فقد قال الدكتور إنه طالما سعى إلى الغرض المتقدم ومهد له السبيل، فلا ضجيج. فهل لحضرته أن يفيدنا متى كان هذا السعي وأي سبيل مهدها؟ نتمنى أن يكذب ما نظنه من طموح الدكتور إلى زعامة حزب سياسي عام، فإن الحزب موجود وهو حيّ عامل والزعيم معروف، فلا سبيل إلى المزاحمة».

علم حضرته مما تقدّم أن لنا حزباً سياسياً عاماً سرياً تلتف حوله جمعيات شتى في أنحاء شتى من العالم، وإذا كان لم يعرف شيئاً عنه الآن، فسيعرف عنه أشياء في المستقبل.

أما قوله إنه يتمنى أن يكذب ما يظنه فينا من الطموح إلى زعامة حزب سياسي عام، فحضرته يعرف وكل من يعرفنا يعرف أننا أبعد الناس عن حب الظهور وتصدر المجالس وزعامة الجمعيات والأحزاب، ولكننا الآن في هيكل الوطن المقدس، فمن وقعت عليه قرعة الكهنوت وجب عليه أن يتقدم إلى المذبح.

لذلك نطمئن صديقنا صاحب الفتى أن ظنه فينا لم يكذب قط، فقد تولينا زعامة حزب سياسي عام يسمى «الحزب الديمقراطي الوطني». أما حزبه الموجود الحي العامل فنرجو له وجوداً سعيداً وعمراً مديداً وعملاً مجيداً. أما الزعيم المعروف فنظن أنه يعني به مواطننا الأستاذ نعمه يافث الذي رشحه صاحب الفتى ليكون ممثلاً «لسوريا» في مؤتمر باريس. ولقد علم حضرته أن لا سبيل إلى المزاحمة على الإطلاق لأنه هو وحزبه في واد ونحن وحزبنا في وادٍ، والمزاحمة لا تكون إلا متى كان الفريقان في واد واحد.

بيد أن لنا كلمة نرسلها إلى صاحب الفتى بخصوص ما جاء بهذا الصدد في محلية العدد

السابق للعدد الذي انتقد فيه بعض ما جاء في الكتاب المفتوح وهو قوله:

«أرسلنا في عدد سابق كلمة إلى الأصدقاء الذين سألونا رأينا في من يصلح لتمثيل سوريا في مؤتمر الصلح»، ثم جاء له بعد ذلك في الكلام عن الحقوق التي يطلبها الممثل أنها تنحصر في تأليف جمهورية من سوريا ولبنان وفلسطين تتولى فرنسا حمايتها» إلى أن قال «نعود الآن إلى الزعيم الكبير الذي يليق بالنيابة عن السوريين للمطالبة بما تقدم وحمل مندوبي المؤتمر على تقريره الزعيم هو ـ بلا جدال ـ الأستاذ نعمه يافث لأنه هو السوري الوحيد في المهاجر كلها الجامع بين قوتي العلم والمال، وله من نفوذه السياسي ومقامه الرفيع في عيون رجال الحل والربط في فرنسا وحلفائها ما يؤهله لهذه المهمة الكبرى. بل ما يدعو السوريين عامة إلى الإلحاح عليه في قبول النيابة لأننا لا نظن أحداً من المهاجرين وإن شئت فقل من المتخلفين أيضاً يقول إنه أولى من الأستاذ بالنيابة أو نظير له في الكفاءة والأهلية من كل الوجوه للنطق بلسان السوريين، وسنعود إلى الموضوع».

ولما كنا في عداد السوريين الذين يعنيهم رأينا إن واجبنا الوطني يقضي علينا بإرسال كلمة في هذا الصدد:

إن الأستاذ نعمه يافث في عداد أصدقائنا وإن كنا لم نراسله قط، وهو من وطننا الصغير الشوير الذي أخرج رجالاً يفتخر بهم. وقد علمنا أنه أصبح من كبار المثرين فكل من عرف نعمه يافث وأخلاقه الراقية ومواهبه العقلية ولا يسر بفلاح هذا العصامي، فهو صغير الأخلاق صغير العقل صغير النفس صغير الوطنية.

ولو كان موقف صاحب الفتى معه موقف مديح مجرّد لأثنينا عليه وزدنا الممدوح مدحاً، ولكننا الآن بإزاء حقوق وطنية مقدسة لا يجوز لأحد أن يعبث بها وتجاه واجبات وطنية مقدسة لا يجوز لأحد أن يتنصل منها.

أما كون الأستاذ نعمه يافث صالحاً للنيابة عن السوريين، فهذا ما لا نجادله فيه. أما كونه الرجل الذي لا نظير له في المهاجر والوطن لهذه النيابة، فنقول نضن بأن يكون قائله صديقنا صاحب الفتى ونضن بأن يرضاه لنفسه صديقنا نعمه فإن في سان باولو نفسها بل في الجمعية الوطنية نفسها من كبار العقول من لا يقلون أهلية قط عن الأستاذ نعمه. أما الثروة فلا دخل

لها على الإطلاق في مثل هذه المواقف الوطنية، ولا يجوز لأحد في هذه الحال أن يزين جيوب الرجال مع أدمغتهم والأمة التي لم تنجب في نصف قرن رجلاً آخر مواهبه العقلية كالأستاذ نعمه يافث أمة عقمية كل العقم.

ومن البديهي أيضاً أنه متى كان الأستاذ يافث ممثلاً لسوريا وبرنامجه استقلال سوريا تحت حماية فرنسا، فذلك يعني أن السوريين كلهم أو جلهم يطلبون هذه الحماية، وهو قول لا يصح صدوره من صحافي يقيم لكلامه وزناً، بل إن فرنسا نفسها لا تدعي ذلك ونحن نؤمن على طلب الأمير فيصل بوجوب إرسال لجنة إلى سوريا تأخذ أصوات أهلها الموقوف على رغائبهم.

بيد أن وجه الخطل في هذه النيابة أن يكون الأستاذ يافث ممثلاً لسوريا ونائباً عن السوريين لمجرد كونه نائباً عن الجمعية الوطنية في سان باولو وأضرابها، ومن البديهي أن هذه الجمعيات ليست كل جمعيات المهاجر، وإن جمعيات المهاجر ليست كل الجوالي، وإن الجوالي كلها ليست سوريا والسوريين. ومن البديهي أيضاً أن «ممثل سوريا» يجب أن تنتخبه سوريا انتخاباً قانونياً برضا سوريي الوطن أنفسهم.

إننا على ثقة من أن الأستاذ يافث لا يرضى إهانة أمته وشعبه بمثل هذه التصريحات التي لا مسوغ لها قط، وهو لا يقدر على انتحال هذه النيابة إذا أراد ولا يريد إذا قدر ونرجو صديقنا صاحب الفتى متى عاد إلى هذا الموضوع إن لم يكن قد عاد إليه أن يقيم لكلامه وزناً جرياً في عادته لأن في السويداء رجالاً من سوريي المهاجر والوطن نفتخر ونفاخر بهم، وفيهم كل أهلية وصلاحية للنيابة عن الوطن المقدس متى انتدبهم إلى هذه الخدمة دون أن ندخل في بحث التفاضل بين جمهور غفير من السوريين لأنه بحث عقيم لا نهاية له.

وإذا أجاب صاحب الفتى أنه لم يجزم بالأمر، بل إنما قال «لا نظن أحداً من المهاجرين وإن شئت فقل من المتخلفين أيضاً يقول إنه أولى من الأستاذ بالنيابة أو نظير له بالكفاءة والأهلية من كل الوجوه للنطق بلسان السوريين». قلنا هل ادعى يا ترى الأستاذ يافث أن لا نظير له في الكفاءة والأهلية وأنه أولى بالنيابة من غيره؟ وإذا كان الأستاذ لم يدع هذه الدعوى الطويلة العريضة، فكيف جاز لصاحب الفتى أن يرشحه على هذه الصورة؟ وإذا جاز لصاحب الفتى أن يرشّح رجلاً لم يقل هذا القول، أفلا يجوز لصحافيين آخرين أن يرشحوا رجالاً شهيرين لا

يدعون هذه الدعوى ولكنهم رجال أكفاء؟ لا نظن الأستاذ يافث يقول إنه أولى منهم بالنيابة أو نظير لهم في الكفاءة والأهلية من كل الوجوه للنطق بلسان السوريين؟

إن هذه الدعوى الطويلة العريضة رغماً من بعدها عن الحقيقة، ورغماً من كونها لا تنطبق على مواطن قط، ليست من مصلحة الأستاذ في شيء، بل هي دعوى لا يدعيها أعظم رجال السياسة في أعظم دول العالم.

لما مثل أحد الخطباء في حضرة أحد رؤساء جمهورية فرنسا، وألقى بين يديه خطاباً جاء في خلاله «أنت رجل فرنسا الأوحد» أوقفه الرئيس حالاً وقال له «لا أسمح لك بمتابعة خطابك إلا إذا استرجعت هذه الجملة لأني إذا كنت رجل فرنسا الأوحد، فما يكون مصير بلادي إذا مت؟ فلا أسمح لك قط بنشر هذه الجملة مع الخطاب». فاسترجع الخطيب الجملة واعتذر إلى الرئيس. أما نحن فإننا أرقى من الفرنسيس الذين يطلب المرشح والمرشّح حمايتهم، فلا الأستاذ نعمه يافث احتج على هذا القول ولا صاحب الفتى اعتذر عنه وهو عين الصواب لأنه متى لم يكن هنالك خلاف في الرأي بين الفريقين لم يكن من ثمة داع إلى الاحتجاج والاعتذار!

وهل يا ترى الأستاذ الوطني الكبير نعمه يافث أولى بالنيابة وأكثر كفاءة وأهلية من كل الوجوه للنطق بلسان السوريين من المجاهد الوطني الكبير شكري غانم؟ وإذا كان هذان الوطنيان الكبيران من حزب سياسي واحد، فما الداعي لذهاب الأستاذ مندوباً عن المهاجرين بعد أن بعث المجاهد الوطني الكبير كتاباً إلى المسيو كليمنصو يقول له فيه إن المهاجرين السوريين كلهم انتدبوه للنيابة عنهم؟ وكيف يصح للأستاذ أن يرشح نفسه للنيابة بعد ما تقدم ويزاحم المجاهد والمعروف أن المجاهد هو رئيس الحزب الموجود الحي العامل لا الأستاذ لأن الأول رئيس الجمعية المركزية التي تتناول سلطتها سائر جمعيات المهاجر خلافاً للجمعية الوطنية في سان باولو التي لا تتجاوز دائرة اختصاصها حدود البرازيل. هذا إذا لم يكن للجمعية الوطنية في الريو سلطة تعادلها، فلمَ إذاً هذه المباراة والزعيم معروف ولا سبيل إلى المزاحمة؟

وإذا كان الأستاذ مرشحاً «لتمثيل سوريا» فمن البديهي أنه لا بد له قبل توجهه إلى باريس من انتظار وثائق النيابة من السوريين في الوطن وحدود سوريا على وجه الإجمال جبال طورس شمالاً وعريش مصر جنوباً والصحراء شرقاً والبحر المتوسط غرباً. فإذا كان يقتضي بموجب

عملية الفتى الرياضية خمس سنين لتنظيم جمعياتنا وهي مؤلفة من أفراد معدودين معروفين اقتضى بموجب عمليتنا نحن لجمع أصوات السوريين على طريقة الفتى الحالية، لا أقل من خمسين سنة وإذا كان المؤتمر لا ينتظر خمس سنين، فمن البديهي أنه لا ينتظر خمسين سنة اللهمّ إلا إذا كانت الأعوام في منزلة الأيام على حد ما جاء في المزامير «ألف سنة في عينيك يا رب مثل يوم أمس الذي عبر، وكهزيع من الليل».

نرجو لصديقنا صاحب الفتى نجاحاً مضموناً ولصديقنا الأستاذ سفراً ميموناً!

كلمة في افتتاح المؤتمر الأول للحزب الديمقراطي الوطني

أيتها السيدات وأيها السادة

باسم الحزب الديمقراطي الوطني[1] أفتح حفلة مؤتمر الحرية، وباسم الحرية المقدسة أفتح حفلة مؤتمر الاستقلال!

سوف يكون هذا المؤتمر الذي عقدناه الآن بجانب القطب الجنوبي، حادثاً تاريخياً في حياة الوطن يتناقله الخلف عن السلف وسوف تنقش أسماء القائمين به على صفحات تاريخنا، فهو أول مؤتمر عقده المواطنون، ولقد عقدناه في أحرج الظروف. وفي أثناء أزمة سياسية لا مثيل لها، فوطننا يتراوح الآن بين الموت والحياة، وبين الأمانة والخيانة، وبين الحق والقوة، وبين العدل والمحاباة.

إن لسوريا ولبنان وفلسطين في مؤتمر الصلح محكاً للمبدأ الذي يريد أن يجري عليه العالم بعد هذه الحرب الطاحنة، وما إذا كان يريد أن يظل جارياً على مبدأ القوة مموهة بطلاء جديد يسمى «رابطة الأمم»، ومحولة إلى شكل جديد يسمى «مساعدة الشعوب الضعيفة»، كما يطلى النحاس بالذهب أو كما تحول الكهربائية إلى حركة ميكانيكية.

---

1 ألقى الدكتور سعاده هذه الكلمة في 17 نيسان سنة 1919 أمام المؤتمر الاول للحزب الديمقراطي الوطني المنعقد في بونس أيرس. لم تنشر هذه الكلمة حينذاك إنما بقيت مخطوطة احتفظ بها أدوار سعاده بعد وفاة والده في سان باولو في 10 نيسان سنة 1934. عرّف الدكتور سعاده الحزب بالتالي:

(الحزب الديمقراطي أول حزب ذهب إلى وجوب استقلال لبنان وسوريا وفلسطين استقلالاً تاماً مجرداً عن كل سلطة أجنبية تكون معه كل بلاد من هذه البلدان بعد إعادة لبنان إلى حدوده الجغرافية الطبيعية مستقلة استقلالاً إدراياً تاماً وتؤلف كلها جمهورية واحدة على حد الولايات المتحدة، وأول حزب بسط هذه القضية لممثلي حكومات الحلفاء فقد كان عاملاً على تحقيق هذه الأمنية قبل كل حزب أو جمعية ظهرت إلى الوجود لمثل هذا الغرض، وقبل ان أمطرتنا الجمعيات والأحزاب الأخرى التي تؤمن إيمانه رسائل برقية ونشرات سياسية رحبنا بها ونرحب بمثلها كل الترحيب).

سوف نرى، ما إذا كانت أركان التمدن تظل بعد هذه النكبة الهائلة قائمة على المدافع والقنابل والديناميت أو تشاد على العدل والحق والحرية. سوف نرى، ما إذا كانت حقوق الشعوب الضعيفة حقوقاً طبيعية أو ألعوبة ناولنا إياها الجبابرة لنتلهى بها كما تتلهى الأطفال بألاعيبها. سوف نرى، ما إذا كانت الديمقراطية العصرية ماءًا زلالاً يشفي أدام الأم العطشانة نظرياً، أو سراباً خلاباً يخدع بصائرنا كما تخدع رهرهات اللآلئ أبصارنا. سوف نرى، ما إذا كان الحق قوة أو القوة حقاً وما إذا كان للشعب المتمدن الضعيف من الحقوق الطبيعية ما للشعب المتمدن القوي. سوف نعرف ذلك كله، يوم يصدر مؤتمر الصلح حكمه بشأن سوريا ولبنان وفلسطين، وما ذلك اليوم ببعيد.

ومهما يكن من ذلك الحكم الذي ننتظره بفارغ الصبر، فقد اجتمعنا الآن لنعلن رغائبنا بطريقة تستلفت أنظار الأمم عامة وقضاة الأرض خاصة، ونطلب بصوت جهوري يسمعه العالم كله حقوقنا المسلوبة وبلادنا المغصوبة.

أجل: نرفع صوتنا حتى يسمعنا العالم كله، ويطل من نوافذه ليرى أية دولة قوية تسول لها نفسها هضم حقوق هذا الشعب الضعيف الذي جوع في سبيل الحلفاء، واضطهد في سبيل الحلفاء، واستشهد في سبيل الحلفاء؟

نرفع صوتنا حتى يسمعنا مؤتمر الصلح، ويقع على آذان قضاتنا ويرن في محكمة الأمم رنين صراخ شعب آخذ في الاحتضار. نرفع صوتنا حتى تسمعنا رابطة الأمم أم الشعوب الضعيفة، وترى بعينيها إحدى بناتها مطموع بها باسم الإنسانية، معتدى عليها باسم الحرية، مظلومة باسم العدل، موثقة باسم التحرير، مُجار عليها باسم الرحمة، مساءٌ إليها باسم التمدن، مغلولة باسم الاستقلال.

نرفع صوتنا حتى يسمعنا أبطال الأمم القوية الذين أسمعونا من على منابر العالم أثناء أربع سنين طويلة أناشيد الحرية المطربة، وأغاني الاستقلال الشجية. الحرية التي تاقت إليها نفوسنا العطشى، كما تتوق الأيائل إلى ينابيع المياه والاستقلال الذي كان هواجس نهارنا وأحلام ليلنا. الحرية التي قضى في سبيلها أحرارنا معلقين على المشانق. الحرية التي قضى في سبيلها آباؤنا وأبناؤنا وإخوتنا وأخواتنا وأعز الناس علينا، وهم يلفظون مع أنفاسهم الأخيرة

ليحي الاستقلال! الاستقلال الذي حدقنا به أربع سنين طوال كما يحدق الطفل بهدية عيد الميلاد الجميلة، ووثقنا به وثوق الطفل بوعد أبيه، وطربنا طرب الطفل لمنظر جميل. الاستقلال الذي وقع اسمه كل يوم على آذاننا أثناء أربع سنيين طويلة وكان له كل يوم زفة موسيقية، ترقص لها قلوبنا وتشعشع بها نفوسنا.

أجل: نرفع صوتنا حتى يبلغ آذان عظماء الأرض الذين أسمعونا هذه الأنغام، ومنونا بهذه الوعود، ورسموا لنا أمام أعيننا هذه الصورة البديعة، ووعدونا بهذا الفردوس الأرضي، جنة تجري من تحتها الأنهار. أنهار من لبن وعسل وفيها من كل فاكهة زوجان. والآن نريد أن نتذوق شيئاً من هذا اللبن والعسل لأننا جياع عطاش، نريد أن نتذوق الحرية، لا أن نراها من بعيد. ونريد أن نبصر الاستقلال، لا أن نبصره في السحاب، نريد حقائق لا أوهاماً ومواد لا صوراً. نريد أن نشبع نفوسنا الجائعة، ونريد أن نروي نفوسنا العطشانة.

نرفع صوتنا حتى يسمعنا ولسن كوكب الحرية وملجأ الشعوب الضعيفة الذي أصغينا إلى كلامه على ضريح وشنطن المقدس، كما يصغي المسيحي إلى إنجيله والمسلم إلى قرآنه واليهودي إلى توراته. ولسن محط آمال الشعوب المسلوبة والأمم المظلومة. نرفع صوتنا حتى يقع على أذن ولسن لأن رسائل الأحرار البرقية اختطفتها أياد خفية ظلت أعواماً تعمل في الظلام، ولا تزال تعمل في الظلام حتى الساعة. خنقوا أصوات أحرار اللبنانيين والسوريين حتى لا يقع صراخهم على آذان المؤتمر. خنقوا أصوات الاستقلال القوية الجريئة وأبقوا على أصوات الاحتلال الضئيلة الخافتة. خنقوا أصوات الحرية وأبقوا على أصوات العبودية. خنقوا أصوات الاستغاثة وأبقوا على أصوات الحماية. خنقوا أصوات أمة برمتها وأبقوا على أصوات بضع عشرات أو مئات. حجبوا أمة عن بكرة أبيها بخمس أو عشر رجال وضعتهم في المقدمة ليكونوا لسان حال هذه الأمة السيئة الطالع. وضعوا مشعوذين على مسرح السياسة يضعون من أفواههم بضع قصاصات أوراق توكيل فيخرجونها من حلوقهم لفافات طويلة عريضة ليس لها أول يعرف، ولا آخر يوصف، وحولوا خزعبلات لا تجوز على صبيان المكاتب بضع مئات من السوريين إلى ستمائة ألف نسمة أوصلوها بعد أربع وعشرين ساعة إلى مليونين ومئتي ألف نسمة. استعملوا السحر الحرام للقصد الحرام. مثلوا على مسرح السياسة رواية نصفها هزلية ونصفها مأساة. طلوا بهتانهم بطلاء الصدق وافتراآتهم بطلاء

الحق، وأخذوا يولولون بعد ذلك صارخين. منعونا عن تمثيل جوالي سورية أخرى. ادعوا أنهم ينوبون عن جالية الأرجنتين، لأن بعض أشخاص فيها أنابوهم عن أنفسهم، وادعوا أنهم يمثلون سوريي العالم الجديد والقديم، لأن بعض جمعيات بعثت إليهم بوكالة ثم وقفوا تحت الشمس بقحة غريبة لا يخافون الله ولا يستحون من الناس قائلين «نحن نواب سوريا ولبنان وفلسطين»!

الجالس في العلاء يضحك منهم ! الله الذي شاهد من عرش مجده هذه الرواية المضحكة المبكية يستهزئ بهم! ويستهزئ بهم أيضاً لبنان وسوريا وفلسطين! ويستهزئ بهم أيضاً سادتهم الذين يحركونهم من وراء الستار، كما يحرك اللاعب بخيط من القنب ألاعيب من جفصين!

نرفع صوتنا حتى يسمعنا العالم كله لأننا لا نريد أن نموت دون أن نرفع أصوات الاستغاثة. لا نموت دون أن نشهد السماء والأرض على الذين خنقوا أصواتنا، ويحاولون الآن خنق حريتنا واستقلالنا.

خنقوا أصواتنا فلم تقع كلها على آذان مؤتمر الصلح وولسن، وأوسعوا المجال لأصوات الاحتلال وقالوا لمؤتمر الصلح على مشهد من الله والناس «هذه أصوات السوريين». وضعوا تلغرافات الأحرار في مجال الخطر، كأنها قنابل ديناميت، ولم يكونوا مخطئين لأنها قنابل تنسف الأعشاش التي بنوها والأكواخ التي أقاموها والخيام التي نصبوها. لم يكونوا مخطئين لأنها قنابل تنسف الفساد والاستبداد والاستعباد. أما أصوات الاحتلال فطنطنوا بها ما شاؤوا، ورددوها ما شاؤوا، وأذاعوها ما شاؤوا، وأعلنوا للحكومات التي تشد أزرنا، والأمم التي تأخذ بناصرنا، أن السوريين غير أهل للاستقلال، بل إنهم لا يريدونه وأنهم هم أنفسهم يعلنون قصورهم وعدم كفاءتهم. لقد ساء فألهم، وخابت آمالهم، فالسوريون لا يرضون من الاستقلال بديلاً، فهم لا يريدون العبودية أياً كان رسمها.

السوريون شعب متمدن. السوريون أرقى شعوب الشرق الأدنى، بل أرقى شعوب آسيا كلها خلا الشعب الياباني. السوريون يريدون الاستقلال التام المطلق. السوريون عندهم فلاسفة وعمرانيون وعلماء وقادة أفكار يصلحون لتدبير ممالك.

لا نريد أن نبدل عبودية تركية واهية كان يمكننا التخلص منها متى شئنا واتحدنا، من عبودية غربية قوية ليس في وسعنا التخلص منها شئنا أم لم نشأ، واتحدنا أم لم نتحد. لا نريد أن نبدل سلاسل حديدية علاها الصدأ من سلاسل فولاذية متينة، ولا أن نبدل قفصاً خشبياً من قفص ذهبي. لا نضع بأيدينا قيوداً في أرجلنا، ولا أغلالاً في أعناقنا، ولا شكائم في أنوفنا كما يفعل العبيد. نريد أن نكون أحراراً في بيوتنا وسادة على أنفسنا وحكاماً على وطننا. لا نريد العبودية! لا نريد العبودية! لا نريد العبودية!

نحتج على أعمال الظلام والظلم والظلمة والظالمين وكل مشتقات فعل «ظلم»!

نحتج على التمثيل الكاذب والممثلين الكذبة الذين لا يمثلون إلا أنفسهم. نحتج على كل حكم لا ينطبق على تصريحات الرئيس ولسن. نحتج ليس فقط لننال باحتجاجنا حقاً مهضوماً ووطناً مغصوباً وملكاً مسلوباً، بل لنبرهن أيضاً أننا أمة حية مشغوفة بالحرية كلفة بالاستقلال. أمة تعرف حقوقها الطبيعية وتطالب بها بصراحة وجرأة وشدة. نحتج لنشهد علينا السماء والأرض أننا لم نطلب قط دولة مسيطرة علينا، وأنه إذا كان هنالك دولة تحاول إرغامنا على قبولها، فتلك الدولة ليست من مطالبنا، ولا هي من رغائبنا.

نحتج هذه الليلة أمام الله والناس على كل من يهضم حقوقنا الطبيعية ويستبد بمعتقداتنا السياسية ويحاول إحباط مطامحنا الوطنية. نحتج على الذين يساومون علينا ويحسبوننا قطعاناً من الغنم. نحتج على من يقايضون بنا ويحسبوننا متاعاً يباع ويشرى. نحتج على أعمال الظلام في عهد النور، وعلى أعمال الظلم في عهد العدل. نشهد علينا هذه الليلة الله والناس والتاريخ أننا قمنا بواجبنا نحو أنفسنا وذوينا ووطننا وطالبنا بحقوقنا التي دفعنا ثمنها نحواً من خمسين بالمئة عن مجموع شعبنا، فإذا كانت الضحايا النسبية قياساً لحقوق الشعوب، فالسوريون أولى بالاستقلال من كل شعب آخر ضعيف، لأن خسارتهم جاوزت خسارة كل الشعوب المحاربة، فهي على أقل تقدير عشرة أضعاف خسارة أية أمة من الأمم المحاربة أو المنكوبة!

ليس أمام الدولة التي تحتل سوريا إلا الثورة! الثورة النتيجة الطبيعية لجور باسم العدل، الثورة النتيجة الطبيعية لاستعباد باسم الحرية، الثورة النتيجة الطبيعية لاستعمار باسم الحماية،

الثورة النتيجة الطبيعية لاستعباد باسم الحرية، الثورة النتيجة الطبيعية لإرغام أمة على قبول ما لا تريده، وعلى السادة تمثيلها وتمثيل رغائبها أمام مؤتمر الصلح ورابطة الأمم، الثورة ملجأ البائسين والمظلومين والمضغوطين، الثورة انفجار ناشئ عن الظلم، كما أن ثوران بركان انفجار ناشئ عن الضغط. نحمد الله لأجل السلام ولكننا نحمده أيضاً لأجل الثورات لأنها حياة الامم المظلومة. إن الدولة التي تجلس على لبنان وسوريا تجلس على قنبلة من ديناميت!

أوليس المؤتمر الذي عقدناه معاً، ونحتفل الآن به ضرباً من الثورة الفكرية؟

أليس هذا المؤتمر ضرباً من الانفجار العقلي؟ أليس هو كالثورة مظهراً من مظاهر الاحتجاج على الذين يريدون أن يستبدوا بنا، ويرغمونا على قبول سيادتهم وسيطرتهم وحمايتهم ضاربين بشعورنا عرض الحائط دائسين حقوقنا الطبيعية، كارهين وراء ظهورهم أمانينا الشرعية قاتلين آمالنا الوطنية؟ أليس هو احتجاجاً على الذين يحاولون سلب حياتنا القومية ودمغ جباهنا بطابع الذل والعبودية.

أليس هذا المؤتمر ثورة على الآراء المظلمة في عصر النور، وعلى الأعمال الظالمة في عهد العدل وعلى مطامع الاستعباد في عهد الحرية، وعلى مطامح الاحتلال في عهد الاستقلال؟

أليس هذا المؤتمر تشنجاً من تشنجات وطننا السيء الطالع الذي كان أربعة قرون طوال ضحية الهمجية قبل الحرب، وأربع سنين طوال ضحية البربرية أثناء الحرب، وأربعة شهور طوال ضحية الاستعمار بعد الحرب؟ أليس هو صوت لبنان وسوريا وفلسطين مجتازاً البحار يستغيث بكم لإنقاذه من الهاوية التي هي الآن فاغرة فاهها لابتلاعه إلى الأبد؟ الا تسمعون من هذا الصوت حشرجة الذين ماتوا ينادونكم من قبورهم للقيام بواجبكم نحو الوطن؟ قبورهم؟ أستغفر الله لهذا الخطأ الفاحش فهل قبروا لتكون لهم قبور؟ ألم تطرح جثثهم في الأزقة والشوارع كالكلاب؟ ألم تتعفن جثثهم وسط بيوتهم المنهوبة ومنازلهم المخروبة؟ ألم يتساقطوا موتى على قوارع الطرق دون أن يكون للباقين منهم قوة على دفنهم؟ ألم تمزق جثثهم غربان الجو؟ ألم تنهشها كلاب الأزقة ووحوش الفلاة؟ ألم تنقرض في لبنان وسوريا قرى عن بكرة أبيها دون أن يبقى منها من يخبر بما حل بأخواننا المساكين المساكين؟

أمن أجل الحماية عادينا الأتراك واحتملنا جورهم؟ أمن أجل الحماية وقف أحرارنا على

دكات المشانق؟ أمن أجل الحماية قاسينا آلام الجوع ونار الحمايات وفظاعة الجنود وبربرية السفاحين اسماعيل أنور وجمال باشا ومحمد طلعت باشا؟ أمن أجل الحماية جزت بنات لبنان شعورهن للصليب الأحمر؟ أمن أجل الحماية دوت هضابه الجميلة وأوديته المطمئنة بأصوات أجراس كنائسه مبشرة بنصر الحلفاء؟ ومن أجل الحماية استقبل جنود الحلفاء بالتهليل؟ أمن أجل الحماية ملأت فتيات لبنان جوه بأصواتهن الجميلة وأناشيدهن الرخيمة؟ ليحيى لبنان وليحيى مستقلا!

إننا من القائلين باستقلال لبنان وسوريا وفلسطين متحدة، ولكننا لا نريد أن يكون هذا الاتحاد إرغامياً بل يجب أن يكون برضا وملء اختيار الشعوب التي تكونه، ولا يمكن لبنان أن يكون جزءًا من هذا الاتحاد إلا إذا كان ولي أمره، ولا يمكن أن يكون ولي أمره إلا إذا كان مستقلاً، لذلك يؤيد الحزب الديمقراطي الوطني استقلال لبنان بكل قواه، ويدعو الشعب اللبناني إلى عقد اتحاد سياسي مع شقيقته سوريا وفلسطين، والاتحاد الذي نعنيه ونطلبه إنما هو اتحاد اختياري لا اتحاد إكراهي، لذلك أعود فأقول مرة أخرى ليحيى لبنان وليحيى مستقلاً!

إن أرواح شهداء الوطن الذين ذهبوا ضحية هذه الحرب الواقفة الآن أمام عرش الله تحتج على الأحزاب الاستعمارية والدسائس الاحتلالية، بل هي ترف الآن فوق رؤوسنا في هذه الليلة الحافلة دون أن ننظرها ونسمع حفيف أجنحتها اللطيفة، وهي تبارك عملنا وجهادنا في سبيل الوطن المقدس وجهاد الأحزاب الاستقلالية كلها، وجهاد الأحرار في الوطن وكل صقع فيه مهاجرون منه، وكل حزب أو جماعة عقدت القلوب والخناصر على خدمته خدمة صادقة شريفة منزهة عن كل مصلحة شخصية أو منفعة مادية. ليحيى الوطن وليحيى أحراره!

إن المؤتمر الذي عقدناه الآن لصوت أمة لبثت دهراً طويلاً في مطابق الظلام، وهي تريد الساعة والخروج منه إلى نور الله وهواء الطبيعة، بل هو صوت أمة لبثت قروناً طوالاً من العبودية، وقد عمدت الآن إلى تكسير تلك السلاسل التي سبكتها أيدي الابالسة في جهنم، بل هو صوت أمة رأت النار شبت في بيتها فهبت لأطفائها. هو صوت أمة واقعة تحت سكين الجراح ولا يعلم إلا الله وحده نتيجة هذه العملية التي يريد بعض الجراحين السياسيين إجراءها لشفاء علة غير موجودة في جسمها!

أعطت هذه الأمة الجنس البشري أعظم رجل ظهر في العالم وأعظم تمدن رآه العالم. ففي سوريا ولد يسوع المسيح الذي تسجد له مئات من الملايين وتعبده أعظم أمم العالم طراً. من سوريا طارت شرارة التمدن المسيحي التي كهربت العالم، وأضاءت أرجاءه وفي سوريا وضع الحجر الأول من أساس هذا التمدن العجيب الذي شيدت أركانه على الإنسانية والمحبة والرفق والرحمة، وقام بنيانه على العدل والحق والصدق والحرية. أجل إن فجر التمدن المسيحي تبلج في سوريا، وأن مؤسس هذا التمدن لهو يسوع المسيحي السوري!

إن العالم المتمدن لا يشعر كم هو مديون لسوريا، ولا ما لسوريا من الفضل على العالم أجمع. فسوريا مهبط الديمقراطية الحقة، والمسيحية مهدها الأول، وهي البلاد الأولى التي أزالت الفوارق بين طبقات الشعب برفع الطبقات الدنيا منها إلى مستوى العليا، وقالت أن لا فرق عند الله بين البيض والسود، ولا بين السادة والأرقاء، ولا بين الأغنياء والفقراء، وأن المساواة ضرورية في الهيئة الاجتماعية المسيحية، وأن الحق يحرر العالم كله، وتعرفون الحق والحق يحرركم. لقد عرفنا حقنا الطبيعي وهذا الاستقلال وهذا الحق يحررنا!

لا توجد في العالم تقاليد تاريخية يجوز إنجازها وسيلة لحرمان شعب من مقدمة الطبيعة. لا توجد في العالم تقاليد تاريخية تقضي على شعب بالعبودية والاحتلال. لا توجد تقاليد تاريخية تقضي على شعب بالموت السياسي. لا توجد تقاليد تاريخية يصح استعمالها ضد مصلحة شعب برمته، وإذا كان هنالك دولة تريد أن تتخذ ما يسمى تقاليد تاريخية للسيطرة علينا والتحكم فينا واستعمارنا، فهي ليست بالدولة التي حاربت في سبيل استقلال الشعوب الضعيفة. لا توجد تقاليد تاريخية في سوريا إلا تقاليد الفهد التركي الفاسد الذي كان من ورائه تدخل الأجانب في شؤوننا. لا توجد في سوريا تقاليد تاريخية يجوز أن تكون ذريعة للاستعباد، ولم توجد ولن توجد!

إذا كان مؤتمر الصلح قد أنقذنا من الأتراك أفلا ينقذنا أيضاً من التقاليد التاريخية؟ أجل: إن المؤتمر لم يقرر إرسال لجنة إلى سوريا إلا لإنقاذنا من تلك التقاليد. قرار إرسالها ليقف على رغائب السوريين الحية لا ينبت من خرائب الأموات. لم يكتف الذين انتدبوا أنفسهم ليمثلونا بإساءة التمثيل، ولكنهم أخذوا أن الاحتجاج على تعيين اللجنة لأنهم يعلمون أنهم يطلبون عبودية والشعب السوري يطلب حرية. هم يطلبون احتلالاً والشعب السوري

يطلب استقلالا. هم يطلبون حماية والشعب السوري يطلب حياة. هم يطلبون دولة أجنبية والسوريون يطلبون حكومة وطنية. الشعب السوري يطلب سيادته المطلقة، وأن يكون هو رب بيته والحاكم المطلق في وطنه. فليحيى الشعب ولتحيى الديمقراطية!

إذا كان الذين انتحلوا تمثيلنا على ثقة من أنهم يمثلون ملايين من السوريين فلم هذه الجلبة إثر تعيين اللجنة؟ ولم هذا اللّغط والضجيج؟ ألا يريدون أن يكونوا من الصادقين؟ ألم يصرحوا المرة بعد المرة أن السوريين قاطبةً يطلبون الحماية؟ ألم يطلبوا المرة بعد المرة قائلين سلوا السوريين إن كنتم صادقين؟ فلم هذا الاضطراب بعد تعيين اللجنة؟ ذلك لأنهم على يقين من أنه إذا توجهت لجنة سمعت أصوات اللبنانيين والسوريين والفلسطينيين كالرعد القاصف من جبل طوروس حتى العقبة ومن الفرات حتى البحر المتوسط طالبة الاستقلال! الاستقلال! الاستقلال!

بيد أن الأنباء البرقية التي وردت أمس تفيد أن اللجنة المشار إليها قد انحلت على اثر اجتماع عقده كليمنصو ولويد جورج وفيصل، ولا ندري مبلغ هذا النبأ من الصحة، ولكننا نرجو من أجل البشرية أن لا يكون صحيحاً، لأنه بت بصراحة بدون استشارتها مخالفاً للتصريحات المتكررة التي أعلنها الحلفاء والرئيس ولسن من على منابرهم المرة بعد المرة، وهي لا تتفق على الإطلاق مع فجر العصر الجديد الذي يريد العالم أن يبدأه بعد هذه الحرب الطاحنة، ولا مع التقاليد الشريفة للأمتين العظيمتين اللتين لا توافقان قط على مساومة تحسب الشعوب قطيعاً من الماشية تتصرف به تصرف المالك بملكه، وإن في هذا العدول عن إرسال اللجنة إلى سوريا إذا صح هذا الخبر إجحافا بيناً بحقوق شعب ضعيف استشهد في سبيل الحلفاء عامة والاثنين المشار إليهما خاصة.

إننا نحتج على مثل هذه الأعمال الجائرة المخالفة للعدل الإلهي والعدل البشري والعدل الطبيعي، وسنرفع احتجاجاً إلى رابطة الأمم وحكومات الحلفاء متى وثقنا بصحة هذا النبأ، فإذا لم تنصفنا رفعنا احتجاجنا إلى السماء لأنه لم يبق عدل على الأرض!

إذا اتفقت هذه المبادلة مع عادات البدو فإنها لا تتفق مع روح العهد الجديد، ولا مع مبادئ ولسن، ولكننا نمسك الآن القلم حتى يتبين لنا صدق هذا النبأ أو كذبه.

إن الاستقلال كالنور والهواء حق طبيعي لنا، وليس في طاقة أحد أن يمنعه عنا مشرعاً متمدنين كنا أم متوحشين، وبناء على هذا الحق سألنا مؤتمر الصلح ما نريد، وبناءً على هذا الحق لا يجوز لدولة أن تنصب نفسها وصية علينا، ولا أن تتولى أمرنا، ولا أن تحتل بلادنا لتمدننا، ولا أن تقيم نفسها حامية لنا لترد الحيف عنا، ولا أن تقبض على رغبة أمورنا لتحافظ على مصالحها الاقتصادية، ولا أن تسيطر علينا بسبب تقاليد تاريخية.

إذا أجمعنا على طلب الاستقلال التام المطلق كان لنا ما نريد، ونحن لا نريد إلا الاستقلال التام المطلق دون حماية أو وصاية أو رعاية أو غيرها من الكلمات المطاطة التي تفضي بنا أخيراً إلى العبودية مموهة بألفاظ لا يشتغل وقعها على الأذن، ولا ينفر منها الطبع، ولكنها تجردنا من سيادتنا الوطنية وتضمنا إلى أملاك دولة أجنبية.

لكل شعب من شعوب العالم حق في الاستقلال دون قيد ولا شرط، فليس للاستقلال من شرط قط إلا ما تضعه القوة القاهرة الجائرة الطامعة في أملاك الغير السالبة الأمم باسم الإنسانية، الناهبة الشعوب باسم البشرية، المستعبدة باسم الحرية، الظالمة باسم العدل، المتطاولة على حقوق البشر الطبيعية باسم التمدن، الساترة قفازها الحديدي بقفاز مخملي المناولة الأمم صكوك الحرية بيسراها ومغمدة من قلوبها خناجر الاستعمار بيمناها! نريد أن ندبر منزلنا بالحق الذي يخول البربري تدبير منزله، ونريد أن نحكم وطننا بالحق الذي يخول البرابرة حكم أوطانهم. نفضل أن نكون برابرة أحراراً من أن نكون «عبيداً متمدنين»!

إن الاستقلال حق طبيعي لنا، وهو حق لا يطفأ بالأفواه، ولا يحجب لا بالحق، وسيرى المستبدون الذين يحاولون إطفاء هذا النور أن الحق يأبى إلا أن يتم فوزه، وأنه سوف ينتصر. الباطل ! إن الباطل كان زهوقاً!

سوف تتحرر الشعوب الضعيفة، بعدها يبدأ العصر الذهبي، وسوف نتحرر نحن رغماً من كل من يحاول الاستبداد بنا واستعبادنا. لقد ولدت الحرية الحقة طفلاً جميلاً. بعد أن تضخمت بها الطبيعة أربع سنين طوال أثناء هذه الحرب الهائلة، ولدت طفلاً جميلاً في الخنادق كما ولد المسيح في بيت لحم، وكما سار المجوس إليه حاملين بخوراً ولبانا مرّاً، مهتدين بنجمه الذي ظهر في شمال العالم الجديد، وكما ترعرع المسيح وشب وأوجد تمدنا لم ترَ له العالم نظيراً

كذلك سوف يترعرع هذا الطفل ويشب ويوجد تمدنا لا نظير له، وكما قلب المسيح موائد الصيارفة في الهيكل قائلاً لهم «قد جعلتم بيت أبي مغارة لصوص»، كذلك سوف يقلب هذا الطفل موائد الأحزاب الاستعمارية قائلاً لهم «قد جعلتم بيوت الأمم مغاور لصوص»!

تمخضت الطبيعة باستقلال الشعوب الضعيفة وسط بحار من الدماء، وجبال من الأشلاء، وبروق تبهر الأبصار، ورعود تصم الآذان، وعمّدته بالدم والدموع. إذا كانت الأحزاب الاستعمارية تستهزئ بنا أمام هذا المشهد الهائل، فسيأتي يوم تستهزئ فيه بها لأن الله والطبيعة والحق معنا!

إذا غلبنا على أمرنا، رفعنا دعوانا إلى الرأي العام في أوروبا والولايات المتحدة، ففي حياتها حياة الأمم المظلومة وأم الشعوب الضعيفة. لتحيي الولايات المتحدة ففي حياتها حياة الأمم المظلومة! لتحيى الولايات المتحدة لأنها بدأت فصلاً جديداً من تاريخ الجنس البشري بأحرف من نور! لتحيى الولايات المتحدة لأنها أوجدت تمدناً جديداً قوامه الحق والعدل والحرية! لتحيى الولايات المتحدة لأن حياتها ضرورية لحرية الجنس البشري وسعادته! لتحي الولايات المتحدة لأنها عدوة الاستبداد والاستعباد! لتحيى الولايات المتحدة لأنها ألقت أبلغ خطب صادقة تليت على الجنس البشري! لتحيى الولايات المتحدة لأنها أيدت الحق والعدل والحرية منبراً وقولاً وفعلاً!

نحني رؤوسنا لهذه الأمة العظيمة ونقف أمام منارة تمدنها بخشوع وورع، كأننا في هيكل الحرية نفسها ونتخذ هذه الفرصة وسيلة لنعرب عن شعورنا وشعور الأمة السورية كلها لما أظهرت من الشهامة نحونا والعطف علينا.

إذا غلبنا على أمرنا أنشأنا لجنة سورية دائمة من الحزب الديمقراطي الوطني والأحزاب الاستقلالية الأخرى تقيم في جنيف مقام رابطة الأمم، تطالب بحريتنا المسلوبة وحقوقنا المغصوبة، وتعرض عليها ما يقع على السوريين واللبنانيين من الحيف، وتلقى الخطب في المدن الانكليزية والفرنسية، وتكتب مقالات في أشهر جرائد أوروبا وأميركا، تبسط فيها قضيتنا، وتخلق في عالم السياسة مسألة جديدة تسمى المسألة السورية. سوف نقلق راحة العالم حتى ننال الاستقلال التام المطلق.

سوف يمزق هذا الميت الأكفان التي كفنته بها أعصر الظلم والاستبداد، ويقطع الأوثاق التي أوثقته بها يد القرون المظلمة، ويقذف بالعصائب التي عصبته بها يد الجهل وحاكتها الخرافات كأنها نسيج عنكبوت ويبرز إلى عالم الحياة طالباً هواءً نقياً ونوراً مشرقاً يبسط ذراعيه إلى السماء، ويقول تعالي إلي يا إلاهة الحرية الجميلة واملئي قلبي حباً لك.

اجري مع كل نبضة من نبضات قلبي ومازجي كل قطرة من قطرات دمي وتخللي كل ذرة من ذرات جسدي، ظلليني بجناحيك اللطيفين واملئي سمعي بصوتك العذب، أوحي إليَّ من سمائك وطنية سامية وشعوراً راقياً، وأوحي إلى وطني دينا جديداً هيكله الوطنية، واجعلي عرشك في وسطه، واجلسي عليه يا إلاهة الجمال فنحرق أمام مذبحك بخوراً يتصاعد دخانه إلى عنان السماء، ونعبدك كما كان يعبد أجدادنا الفينيقيون الإلهة عشتاروت!

يخرج هذا الميت الحي إلى عالم الوجود، وقد دفن الرجل القديم ودماغه القديم وقلبه القديم، يخرج رجل جديد له دماغ جديد وعقل جديد وقلب جديد، كل فلسفة تحاول أن تضع عصائب أخرى على عينيه يدوسها بقدميه، كل فلسفة تحاول أن تمنع نموه الطبيعي وتضع دماغه في قالب جديد كما يضع الصينيون أرجل بناتهم في قوالب حديدية يقذف بها إلى هاوية الأبالسة، كل فلسفة تحاول أن تصور له النور ظلاماً والظلام نوراً يطرحها إلى أتون النار، لقد سار في وادي ظلال الموت وقاسى عذابات جهنم وهو يطلب بعد خروجه من الجحيم مكانا تحت الشمس أسوة بسائر الخلائق العاقلة الحرة، يطلب عدلاً لا رحمةً وحياة لا موتاً وحقاً لا صدقةً!

هوذا الطبيعة بأسرها تتمخض الآن بعصر جديد لم ير له العالم نظيراً، فقد طلعت الحرية وسط معلقة البنادق ورعود المدافع وصليل السيوف كما تطلع الشمس بعد العاصفة، تخرج إلى العالم تحت سماء زرقاء وبين رياض غناء، تتجلى في السماء إلاهة جميلة رهيبة حاملة بيمينها سيفاً من نار وبيسارها الحرة من نور!

أجل: سوف تخرج أمم العالم بعد هذه الحرب الطاحنة كما تخرج الطيور من أوكارها بعد زوبعة هائلة، تخرج أيضاً أمم الشرق ويخرج معها لبنان وسوريا مكفنين بمجدهما القديم الشامخ ومكللين بتاريخهما الخالد الباذخ.

سوف يحرزان استقلالهما ويخرجان إلى المروج الخضراء والجنان الغناء بلبلين صداحين بين الرياض الزاهرة والأزهار الفاتحة عبيراً وندىً والمياه المتفجرة، كأنها ذوب اللجين، وبين الزنابق والورود والياسمين من أرز لبنان الذي يناطح السحاب حتى خرائب تدمر التي قل نظيرها في العالم، ومن جنائن دمشق الفيحاء جنة الله في أرضه حتى بيروت الزاهرة القائمة كالغادة الحسناء، ومن حمص وحماه حيث تصادمت جيوش زنوبيا وجيوش رومية، وحيث يجري العاصي الجميل وعلى جوانبه النواعير النائحات كأنها ندابات أبدية على سوريا السيئة الطالع حتى صور وصيدا، حيث دفن الفينيقيون مجدهم الخالد وسارت ركبان الاسكندر المقدوني فاتح العالم ومن البياضة البديعة حيث تصافح انطونيوس وكليو بترا حتى بطاح سوريا، حيث تصافحت الصوارم الأشورية والمصرية، ومن قنن صنين الشامخة حيث تتفجر مياهه كأنها ذوب اللجين حتى البحر المتوسط حيث تكثر أمواجه كأنها ذوب الزمرد ينشد لبنان وسوريا مغردين:

ذهب الظلم وولى مدبراً　　　وأتى العدل أساساً للحياة

خفقت حرية سورية　　　راية الأحياء وأكفان الممات

من الحزب الديمقراطي الوطني
إلى السوريين واللبنانيين والفلسطينيين في المهاجر والوطن

سلام

يا أبناء الوطن

إن الأيام الحاضرة لأثمن أيام الوطن، بل أثمن أيام العالم كله، فهي متمخضة بمستقبل غريب للجنس البشري، يختلف كل الاختلاف عن ماضيه وحاضره. فمصير شعوب الكرة الأرضية آخذ في التكون وعما قليل تصدر محكمة الأمم حكمها الجازم وتتلوه بصوت جهوري من على منبر العالم!

بيد أن من هذه الشعوب من تؤثر هذه الأحكام في كمالياته فقط، ومنها من تؤثر في حياته تواً فأما أن يحكم عليه المؤتمر بالممات أو يحكم له بالحياة، ونحن من الفريق الثاني الواقف الآن أمام هذه المحكمة السامية رافعاً دعوة إليها كأنها الله على الأرض.

علمتم وعلمنا وعلم العالم طرّاً أن لكل شعب من شعوب الأرض حقاً في تقرير مصيره وبت حكمه في نوع حكومته لأن الحلفاء الشرفاء والولايات المتحدة الشريفة رأت أن العدل الإلهي والعدل البشري يقضيان عليها برد حقوق الأمم الطبيعية المسلوبة إليها حتى تكون نتيجة هذه الحرب الهائلة التي لا مثيل لها في تاريخ العالم بركة للجنس البشري لا لعنة عليه، وحتى تكون الدول الظافرة في سبيل العدل والحرية منفذة لوصية ملايين الشهداء الذين سفكوا دماءهم الزكية في سبيل الحق وتحرير الشعوب الضعيفة.

ترون مما تقدم أن ليس بين قضائنا من ينكر علينا حقنا الطبيعي وهو الاستقلال التام المطلق، بل إن هذا الحق كان في عداد الأغراض السامية التي ناضل الحلفاء والولايات المتحدة في سبيل تحقيقها نضالاً مقدساً لأنه رمى إلى أغراض خطيرة مقدسة.

إن مثولنا الآن أمام محكمة الأمم لا لنطلب حقنا الطبيعي، بل لنبرهن لها أننا كلنا أو جلّنا راغبون في هذا الاستقلال وأننا أهل له لا نرضى عنه تبديلاً، فإذا أمكننا إقامة هذا البرهان ربحنا دعوانا وإن لم يمكنا ذلك خسرناها. هذا محور قضيتنا أمام مؤتمر الصلح.

أما أننا أهل للاستقلال، فواضح من أننا أرقى من كل الشعوب البلقانية في فجر استقلالها، بل أرقى من بعض هذه الشعوب بعد استقلال ثلاثين وأربعين سنة. وإذا كانت الحجاز أهلاً للاستقلال وهي أقل ارتقاءً منا بمراحل، فمن البديهي أننا أكثر أهلية له منها.

أما أن الأكثرية الساحقة من السوريين تطلب الاستقلال التام المطلق، فحقيقة لا ريب عندنا فيها. ولكن الحقائق لا تكون حقائق أمام محكمة الأمم إلا إذا قامت البيّنات الجليات عليها. فالبرهان في المحاكم العادية على نوع عام وفي محكمة الأمم على نوع خاص الكل في الكل وهذا البرهان ضروري لاستقلالنا ضرورة الهواء لرئاتنا.

الآراء التي كانت تقول بالاحتلال ماتت ودفنت في قبرها منذ زمن وستبقى فيه إلى الأبد، والآراء القائلة بالحماية آخذة في الاحتضار وبعد أسابيع معدودات تصبح في عالم الأموات، بل ماتت فعلاً قبل أن يبلغ صوتها محكمة الأمم لأن الجمعية المركزية في باريس بطلة هذه الحماية طرحتها على باب المؤتمر الخارجي ودخلته طالبة «الاستقلال التام» راغبة في مساعدة إحدى الدول مساعدة ولائية لأنها أدركت في الساعة الحادية عشرة أن الاستقلال والحماية لا يلتئمان ولن يلتئما وإن الرأي العام السوري نابذ الحماية كل النبذ.

ولما كان إعراض الرأي العام السوري عن الحماية لا يفيد قضيتنا شيئاً إلا إذا أقمنا الدليل على ذلك أمام محكمة الأمم. ولما كان لا يمكننا إقامة الدليل القاطع إلا باتحاد الجمعيات في المبدأ الأساسي وهو الاستقلال التام المطلق خالياً من كل حماية وجب علينا كلنا أن نوحّد مطلبنا ونرفع رغائبنا إلى مؤتمر الصلح رأساً أو بواسطة ممثل في باريس بأسرع ما يمكن.

أما برنامج الحزب الديمقراطي الوطني فمواده الأساسية كما يلي:

المادة الأولى: يجب أن تكون سوريا ولبنان وفلسطين مستقلة استقلالاً تاماً مطلقاً بضمان بريطانيا العظمى وفرنسا وإيطاليا والولايات المتحدة.

المادة الثانية: تعاد إلى لبنان حدوده الجغرافية الطبيعية ويكوّن مع سوريا وفلسطين اتحاداً

سياسياً تكون معه كل من هذه البلدان مستقلة استقلالاً إدارياً تاماً وتؤلف جميعها جمهورية ديمقراطية لها حكومة عاملة على حد الولايات المتحدة، وتسمى هذه البلدان الولايات السورية المتحدة.

المادة الثالثة: فصل الدين عن السياسة

ولا بد لنا من الإلماع هنا إلى أن طلب الضمان لا يعني قط بسط شيء من الحماية أو الرعاية أو الوصاية أو ما شاكل، بل تأميننا على الاستقلال التام المطلق لأننا أرقى شعوب الشرق الأدنى، بل أرقى شعوب آسيا كلها خلا الشعب الياباني، فنحن قادرون على تولي شؤوننا بأنفسنا. أما استخدام أخصائيين أوربيين وأميركيين فضروري ولكنهم يكونون في مثل هذه الحال تحت سلطة الحكومة الوطنية.

لذلك ندعو الأحزاب والجمعيات التي تؤمن إيماننا أن تضع يدها في يدنا ونسير وإياها إلى هذه الغاية المقدسة، ولما كان لا متسع لنا من لوقت للمخابرة نظراً لتعجيل مؤتمر الصلح في أعماله وعزمه على إنجازها بعد أسابيع معدودات، نرغب إلى الأحزاب والجمعيات المشار إليها أن تبادر إرسال تلغرافات إلى مؤتمر الصلح وولسن وحكومات الحلفاء والولايات المتحدة رأساً دون إضاعة يوم واحد طالبة الاستقلال التام المطلق خالياً من كل حماية بضمان الدول المذكورة.

إن الوطن المفدّى يدعو الأحزاب الوطنية كلها إلى القيام بواجبها المقدس في هذا اليوم العصيب لنظهر أمام محكمة الأمم بمظهر شعب حي متمدن مجمع على المطالبة بحقوقه الطبيعية بجرأة وصراحة لأننا واقفون هذه الساعة على مفرق الطرق.

إن الوطن والعالم والتاريخ لمراقبة الآن ما نحن فاعلون فلنكن أهلاً للوقوف في هذا الموقف الرهيب. وليكن الله معنا ومعكم!.

بونس أيرس، في 12 آذار سنة 1919

اللجنة العليا المنفذة

أمين الأسرار	أمين الصندوق	نائب الرئيس	الرئيس
خليل الصائغ	جبرائيل مجدلاني	يوسف المعلم	الدكتور سعاده

رد على القنصل الفرنسي في بونس أيرس

حضرة الرصيف المحترم

رأى الموسيو غوسن سفير فرنسا في العاصمة بعد مرور شهر كامل على صدور العدد الأخير للمجلة إبداء بعض الملاحظات بشأن ما جاء فيه أرسلها إلى بعض الجرائد العربية فرأينا أن نقول فيها كلمتنا الآتية:

أولاً: إن الغرض من مقالتنا التي استغرقت عدداً كاملاً من «المجلة» لم يكن بيان حديث صحافي نعرضها على سعادته قبل نشرها كما هو المألوف، بل جاء الكلام بشأن ذلك الحديث عن عرض مقالة تناولت فيها مواضيع شتى وليست العادة المألوفة في مثل هذه الظروف أن يعرض الصحافي مقالته على أحد.

ثانياً: لم نتهم الأمير أمين إرسلان صريحاً بأنه صاحب الوشايات وقد ذكرنا في مواضع «الوشاة» بلفظ الجمع، فإذا كان قد تبادر إلى ذهن السفير اسم إرسلان فذلك أمر طبيعي ولا يسعنا إلا تصديق السفير ـ لذلك لا نتهم الأمير بالوشاية.

ثالثاً: قال سعادته إنه يشجب انتقاداتنا الزائفة لإرسلان، كما شجبها بلا شك كل صديق لبلاده، ولا ندري ما هو المانع من تلك الانتقادات أهو يا ترى خيانته لحزب الاتحاد والترقي أم خيانته وطنه لبنان يوم حاول نزع استقلاله الإداري أم خيانته الحالية في الغواصة أم خيانته دولته وهو قنصل لها في الأرجنتين. لا ندري ولا المنجم يدري.

أما في ما يختص بشجب سعادته لها فلا نجادله في رأيه وهو حر في أحكامه. أما تأكيده أن كل صديق لبلاده يشجبها أيضاً فنقول أقل ما يقال فيه إنه مخالف للمنطق والحقيقة والواقع.

كتاب مفتوح إلى المعتمد الفرنساوي في تشيلي[1]

مولاي

التاريخ يعيد نفسه كذلك سفراء فرنسا في الجوالي السورية!

كما في الأرجنتين كذلك في تشيلي وكما في البرازيل كذلك في الولايات المتحدة وكما في مصر كذلك في الوطن.

الهندسة تعلمنا أن الأشياء المتساوية لشيء واحد متساوية بعضها لبعض، والمنطق يفيدنا أن الأسباب المتشابهة تؤدي إلى نتائج متشابهة.

جرى سفراء فرنسا وقناصلها في الجوالي السورية على قواعد الهندسة وأصول المنطق فكانت النتيجة أشبه بعمليات رياضية متشابهة في كل شيء إلا في كمية الأعداد.

---

1 [قدّمت «الرابطة السورية الوطنية» في تشيلي هذا الكتاب المفتوح للدكتور سعاده، والذي نشر في جريدة «الشبيبة» الصادرة في سانتياغو على الشكل التالي: «إن ما نشرته الصحف العربية من إطراء أعمال «الرابطة السورية الوطنية» منذ نشأتها قد كان من أحد العوامل المشجعة لأعضائها على مثابرة السير في طريق المطالبة بالاستقلال الذي تنشده الأكثرية الساحقة من السوريين، وقد استقبل الاستقلاليون قرار اللجنة الأميركية استقبال الأرض العطشانة لوابل الغيث الأمر الذي زادهم قوة ونشاطاً.

وقد كان لقطع علاقات الرابطة مع السفارة الفرنساوية أحسن وقع في نفوس السوريين في جميع أنحاء أميركا الجنوبية على الأخص لأن الصحف العربية قد نشرت خطاب رئيس الرابطة الذي ألقاه في الاجتماع عقب قطع العلاقات وأيضاً تصريحات السفير لوفد الرابطة وقد علقت عليها الجرائد المذكورة محبذة دعوة الرابطة، وقد أطنبت في امتداح الرابطة لمدافعتها عن الشرف السوري أمام تهجم السفارات.

ولكي يحيط القارئ علماً بالجرائد التي تلطفت بتحبيذ خطتنا فإننا نذكر والامتنان ملء أفئدتنا أشهرها: الشبيبة، مجلة الدكتور سعاده، صدى الشرق، الاتحاد اللبناني، الأفكار، الحاوي، يقظة العرب الخ وغيرها من الجرائد التي اكتفت بالتنويه عن قطع العلاقات وما دار بين وفد الرابطة والسفير. ونحن نسدي هذه الصحف شكرنا الخالص وامتناننا الأكيد لتأييدها الرابطة الأمر الذي نعده من أعظم عوامل التنشيط لنا على متابعة الجهاد الوطني».

ولا بد لنا من التنويه عما ورد في مجلة الدكتور سعادة رئيس الحزب الديمقراطي الوطني من الإطراء الذي ما كنا لنستحقه لولا لطفه المعروف. ونحن لا نعد كتابه المفتوح للسفير كمشجع لنا فقط لا بل كمقالة عمرانية احتجاجية دبجتها براعة تدل على ما لصاحبها من المنزلة العلمية السامية التي لا يشغلها إلا العدد القليل من علمائنا الأعلام. وتعميماً للفائدة فقد قررت هيئة الرابطة ترجمة «الكتاب المفتوح» للاسبانية ونشره باللغتين العربية والاسبانية وتوزيعه على الدوائر العليا والسفارات والصحف ليطلع عليه المواطنون الأعزاء في الوطن والمهجر ولكي تحيط الدوائر العليا علما بعزة السوريين ومعاضدتهم بعض لبعض وعدم السماح لليد الأجنبية بزرع بذور الشقاق في ما بينهم].

من المضحك المبكي أن أعداء فرنسا جربوا أن ينفروا قلوب السوريين منها فلم يفلحوا، أما سعادتك ورصيفك في بونس أيرس وسائر سفراء فرنسا وقناصلها فجربتم ونجحتم نجاحاً باهراً!

زرعتم الشقاق وها أنتم تحصدون النفور وزرعتم الرياح وها أنتم تحصدون الزوبعة!

ذلك لأن الشقاق والريح مظهران من مظاهر الطبيعة، ولا بد لهما من الرضوخ لنواميسها كمثلثات إقليدس وقضايا ارسطوطاليس.

سفراء فرنسا والجوالي السورية عبارة عن قوى في حال الحركة لكن عوضاً عن أن تكون هذه القوى متحركة في وجهة واحدة تحركت في وجهات متعددة، فكان من وراء ذلك النتيجة الوحيدة التي لا بد منها وهي التصادم.

نتيجة تصادم القوى السياسية كنتيجة تصادم القوى المادية، لأنها كلها ضروب من القوى الطبيعية.

التصادم عبارة عن صراع مميت بين الحق والباطل، وبين العدل والظلم، وبين الحرية والاستبداد، وبين الاستقلال والاحتلال.

لا وسط بينهما ولا يمكن أن يكون بينهما وسط كما لا يمكن أن يكون وسط بين الموت والحياة.

سفراء فرنسا يريدون أن يكرهوا السوريين على طلب حماية فرنسا، وأن يكرهوهم على القول أنهم يطلبون هذه الحماية عن طيب خاطر، وهو استبداد لم يسمع بمثله في زمن نيرون!

تقول للرابطة السورية في تشيلي أن مطمح فرنسا أن تبسط حمايتها على سوريا، وتقبض على أزمة شؤونها الداخلية والخارجية!

تتهكم على الرابطة السورية لأنها تطلب أن تكون لغة الوطن هي اللغة الرسمية، وتتهكم عليها أيضا لأنها تطلب المساواة أمام المحاكم بين الأجانب والوطنيين.

ثم ختمت قولك بالعبارة الحكيمة الآتية «إذا كنتم تريدون الحماية فأهلاً وسهلاً فلا شغل لي معكم».

من سوء حظ فرنسا خصوصاً والجنس البشري عموماً أن مواهب سعادتك السياسية ذاهبة عبثاً في صحارى تشيلي.

أهنت أمتك لأنك مثلتها أمام العالم أمة ظالمة جشعة مستبدة سالبة لحقوق الأمم الطبيعية مغتصبة لحياة شعب مات في سبيل حبها على المشانق، وطرحت من أجلها جثث أفراده إلى كلاب الأزقة ووحوش الفلاة وغربان الجو.

أهنت فرنسا، لأنك حسبت تصريحاتها بلسان حكوماتها القائلة أنها حاربت لتحرير الشعوب الضعيفة وإنالتها استقلالها رواية هزلية أسدل الآن ستارها.

أهنت فرنسا، لأنك حسبتها تحسب السوريين أحط من هنود أميركا الذين يتساوى أحط صعلوك منهم أمام المحاكم مع أعظم ملك من ملوك المال في الولايات المتحدة.

وأهنت سوريا، لأنك حسبت السوريين أدنى من البرابرة، بل قطعاناً من المواشي لأدنى البرابرة أمام القانون حقوق أرقى أفراد البشر.

وأهنت سوريا، لأنك بعد أن حاولت قتل استقلالها، أردت أن تقتل لغتها، وتقضي على آخر أمل لها بالحياة.

ولكن الاهانة الكبرى التي ألحقتها بفرنسا وسوريا، هي أنك لم تشعر بأنك بتصريحاتك هذه قد أهنت فرنسا وسوريا!

حاولت في سنتياغو أن تلقي الشقاق بين أعضاء لجنة الرابطة السورية، فقلت للوفد الذي أوفدته الرابطة إليك وفي عداده رئيسها صديقنا الموسيو توفيق بالش، أنك تعترف بالرابطة ولكنك لا تعترف برئيسها. فأجابك الوفد: « من لا يعترف برئيس الرابطة لا يعترف بها»!

ثم التفت إلى الموسيو بالش وقلت له « انك تكاتب الدكتور سعاده في بونس أيرس» فأجابك: لي الشرف بذلك فهو من خيرة زعمائنا وصفوة رجالنا الذين نفاخر بهم».

نشكر صديقنا لجرأته وإطرائه إيانا، ولم نورد هذه الحادثة هنا إلا لنتبين لماذا أردت سعادتك أن تعترف بالرابطة السورية ولم ترد أن تعترف برئيسها.

كن على ثقة يا سعادة السفير أن الذين يراسلون الدكتور سعاده من أرقى السوريين عقلاً وأخلاقاً ونفوذاً، ولا تراسله تشيلي فقط، بل تراسله أيضاً كل جمهوريات أميركا وكل ولايات سوريا.

وكن على ثقة أيضاً من أن جواسيس فرنسا في بونس أيرس لم تعرف منا أكثر مما أردنا نحن أن تعرفه فرنسا عنا.

تتهددوننا من حين إلى آخر، بقولكم لنا أنكم تعدوننا من أعداء فرنسا، فإذا كان من يحارب الاحتلال الفرنسي لوطنه ومطامع الحزب الاستعماري الفرنسي عدواً لفرنسا فنحن أعدى أعدائها.

لماذا تعاملوننا كأطفال وتخيفوننا بعداوة فرنسا كما يخيف الرجل الطفل بالغول؟ لماذا تضطروننا إلى الوقوف في مصاف أعداء فرنسا؟ لماذا تتهموننا بالأباطيل التي نحن براء منها؟ لماذا تحولون الأصدقاء إلى أعداء؟ لماذا تحتقرون الشعب الذي مات من أجلكم وجاع من أجلكم ونفي من أجلكم وقاسى عذابات جهنم من أجلكم ونفي من أجلكم ثم تكافئونه بعد ذلك كله بحسبان قادة الرأي العام له أعداء لكم؟

أتظن يا سعادة السفير أنه يوجد سوري واحد في طول العالم الجديد وعرضه لم يفقد أبا أو أماً أو ولداً أو نسيباً أو صديقاً من أجل فرنسا؟ أتظن أنه يوجد عضو واحد من أعضاء الرابطة في تشيلي لم يفقد عزيزاً بسبب فرنسا؟ أتظن أني أنا أيضاً لم أفقد أنسباء وأصدقاء بسب فرنسا؟

ومع كل ذلك تقولون لهؤلاء الشبان اللابسين أثواب الحداد من أجلكم «أنتم أعداء فرنسا»– تقولون لي أنا أيضاً «أنت عدو فرنسا»

ضحكت من البين مستنكراً وشر البلية ما يضحك

قد تسألني يا سعادة السفير إذا كان السوريون ماتوا من أجل فرنسا فلماذا لا يحيون من أجلها؟ لماذا تحوّلوا عنها وجروا وراء آلهات غريبات؟ لماذا خذلت أكثريتهم الساحقة فرنسا؟

إن سبب ذلك هو أنت ورصفاؤك من سفراء فرنسا وقناصلها وعمال فرنسا ومأجوري فرنسا الذين مثلوا فرنسا غولة تريد التهام سوريا! مثلوا فرنسا أمام السوريين ليس كمنرفا آلهة الحكمة بل كنميس آلهة النقمة، وعوضاً عن أن ينظروا إليها كآلهة الرحمة. رأوا من تصريحاتك وتصريحات رصفائك وسائر عمال الدولة أنها آلهة مفترسة تريد ضحايا بشرية. ولو كانت هذه الضحايا مقصورة على أفراد أو على جيل من البشر لربما قاموا بها بعد الحرب كما قاموا بها أثناءها، ولكن الضحية المطلوبة هذه السنة حياة الأمة عن بكرة أبيها. تحول السوريون

عنكم لأنكم احتقرتموهم ولم تحسبوا لشعورهم الوطني حساباً. لأنكم قلتم لهم إذا كنتم تطلبون حماية فرنسا فأهلاً وسهلاً وإلا فلا شغل لنا معكم. لأنكم تتهكمون على أمة تريد أن يكون لها في وطنها من الحقوق ما للغريب. لأنكم أعرضتم عن زعماء الأمة الحقيقيين الذين بيدهم أزمة الرأي العام، وجريتم وراء الظواهر والهرج. لأنكم اعتمدتم على الأنبياء الكذبة في باريس الذين قالوا لكم «سلام! سلام» وليس هنالك سلام بل ثورة تتمخض بها الأمة السورية كما يتمخض البركان بانفجار! لأنكم اعتمدتم على النبي الكذاب العظيم الذي أوحى إليه سفيركم في بونس آيرس كما كان يوحي الصنم مولوخ باسطا ذراعيه المعدنيتين أن يتكلم باسم الجوالي السورية في أميركا الجنوبية عموماً وبصفته زعيماً لطائفة الدروز، خصوصاً وأن يرحب بهاتين الصفتين بحماية فرنسا. وأما جواب السوريين فقد أخذتموه من اللجنة الأميركية التي قضت على نفوذكم في الشرق قضاء مبرما وأعلنت للعالم أن السوريين يرحبون بالحماية الفرنسية على رؤوس الأسنة وشفرات الصوارم! أما جواب طائفة الدروز التي ادعى زورا وبهتانا أنه زعيمها فقد أخذتموه منها في عيناب وبعقلين!

وضعتم على مسرح باريس مشعوذين سوريين يضعون في أفواههم بضع قصاصات أوراق توكيل، فيخرجونها من حلوقهم لفافات لولبية ليس لها أول يعرف ولا آخر يوصف. حجبتم شعباً كاملاً ببضعة أشخاص كثيري الجلبة قليلي البركة، وقلتم للعالم هؤلاء ممثلو سوريا.

خنقتم أصوات الحرية الجريئة وأبقيتم على أصوات الحماية الضئيلة.

خنقتم أصوات الاستقلال وأبقيتم على أصوات الاحتلال.

الجالس في العلا يضحك منكم. الله من عرش مجده يستهزئ بكم واستهزأ بكم أيضاً التاريخ وتستهزئ بكم أيضاً فرنسا معها.

أجل: هدمتم في سنة ما بنته فرنسا في قرون ذلك لأن الهدم أسهل كثيراً من البناء، ومتى هدأ ثوران هذا البركان وتطلعت فرنسا إلى الشرق لترى أثراً من آثار نفوذها السابق وجدت نفسها كالرومان الذين جاءوا ليروا آثار بومباي بعد ثوران يزوف فلم يروا إلا سطحاً منبسطاً من الزفت!

إذا كنتم تحسبون أننا نخافكم، إذا قلتم أننا أعداء فرنسا فضعوا اسمنا في رأس قائمة أعدائها. أما نحن فنبقى على حبنا واحترامنا لفرنسا، لأننا نعرف أن فرنسا ليست في قناصلها ولا

سفرائها بل إن حكومة فرنسا ليست فرنسا نفسها، لأن الحكومات ليست إلا أثواباً تلبس منها الأمم ما شاءت وتخلع منها ما شاءت. وقد حان لفرنسا أن تخلع حكومة كليمنصو التي ليست إلا ثوباً من أثواب نابليون يستره رداء الجمهورية.

أجل إن فرنسا الشريفة تتبرأ من تصريحاتك وتصريحات رصفائك. إن فرنسا المجيدة تتبرأ من الدسائس التي صرفتم خمس سنين تدسونها ضد شعب كاد يفنى عن بكرة أبيه من أجلكم. إن فرنسا أم الديمقراطية لأشرف من أن تستعبد شعباً مات زعماؤه على المشانق وهم يهتفون مع أنفاسهم الأخيرة في حشرجة الموت «لتحيا فرنسا». إن فرنسا محررة العالم تضحك منكم كما تضحك الأم من أولاد لها ينطقون حماقة أن فرنسا العظيمة لأرفع من أن تقضى على حياة شعب لأنه يعمل الآن بالدرس الوطني العظيم الذي ألقته هي على حياة العالم. إن فرنسا النقية تقف أمام التاريخ بثوب ناصع البياض، ومن الأسف أن بعض أبنائها يحاول أن يلطخ هذا الثوب بلطخ سوداء. «إن فرنسا الحرية خالدة لا لأنها لا تمثل فقط شعباً شريفاً خالداً، بل لأنها تمثل مبدأ شريفاً خالداً هو الحرية والإخاء والمساواة!

أمام هذه الآهة البديعة نطاطئ رؤوسنا وعلى مذبح مجدها، نحرق بخورنا وفي هيكلها الرحيب الذي يسع العالم كله نجثو قائلين «مباركة أنت بين الأمم»!

لا تشوه يا سعادة السفير هذا التمثال البديع. لا تشوه هذه الصورة الجميلة المرسومة على صفحات قلوبنا. لا تشوهها ليس فقط من أجلنا نحن بل من أجل فرنسا نفسها خصوصاً ومن أجل البشرية عموماً.

وإذا كنت ترى سعادتك أن هذه الصورة لا تنطبق على الواقع وان مصالح الأمم غير الصور الشعرية فنرجوك من اجل الفنون الجميلة أن لا تشوه هذه الصورة البديعة ونرجوك من اجل الإنسانية المتألمة أن لا توقظنا من هذا الحلم الجميل!.

ولكن الخطيئة السوداء التي ارتكبتموها هي أنكم اتخذتم استشهاد السوريين في سبيل حبكم حجة لاستعبادهم، وسميتهم هذا الاستعباد عطفاً عليهم وإعداداً لاستقلالهم، وقلتم للعالم أن السوريين كانوا يصرخون وحبال المشانق معلقة في رقابهم «لتحيي فرنسا» وأنهم ماتوا جوعاً في سبيل فرنسا فيجب على فرنسا إذن أن تبسط سيادتها على سوريا. أما والله لو

نشر نيرون من قبره وجلس على كرسي كليمنصو لم تبلغ القساوة هذا الحد الفاضح.

إذا حجب الله وجهه عن البشر، واضمحل الحق من على وجه البسيطة، وأصبح العدل لفظة يلوكها مشعوذو السياسة من على مسارح رواياتهم الهزلية، واستوليتم على سوريا فمن أجل شرف العقل البشري، ومن أجل الإنسانية لا تقولوا إنكم استوليتم علينا لتدريبنا على الاستقلال ومكافأتنا على استشهادنا في سبيل حبكم حتى لا تحتقر الأجيال الآتية عقولنا وحتى لا تبطل المحبة والتضحية من بين البشر. قولوا حينئذ الحقيقة، قولوا الحقيقة البسيطة التي ستكون عاراً وناراً على تمدن القرن العشرين وأعظم جريمة ارتكبها العالم. قولوا أنكم سفكتم دماء زهرة الجنس البشري في سبيل إشباع مطامعكم الاستعمارية وأنكم لم تسحقوا القوة الألمانية في سبيل تحرير الشعوب الضعيفة، بل لتحلوا محلها القوة الفرنسية. قولوا إن تصريحات رجال حكومتكم من على منابر باريس لم تكن إلا هزءاً وسخرية. قولوا إن الحق للقوة بعد الحرب كما كان قبلها وإنه بدلاً من أن يكون للقوة الألمانية أصبح للقوة الفرنسية.

قولوا حينئذ إن عهد رابطة الأمم الذي وقعتموه بشرف فرنسا والقائل أن لكل أمة من الأمم الضعيفة حق تقرير مصيرها ليس عندكم إلا قصاصة ورق أقل أهمية بكثير من قصاصة ورقة بتمان هولويغ. قولوا بينما كان السوريون يموتون من أجلكم على قوارع الطرق رجالاً ونساء أطفالا وشيوخاً وليس من يدفئهم، كنتم تأتمرون على هذا الشعب المسكين السيئ الطالع وتعقدون المعاهدات السرية لقتل حريته ومحوه سياسياً من عالم الوجود!.

قولوا حينئذ إن تصريحات رجال حكومتكم عن الحرب في سبيل الحق والعدل لم تكن عن رغبة في الحق والعدل بل عن رهبة الجيش الألماني الذي كان منقضاً على باريس انقضاض الصاعقة، قلما أمنتم شره وسحقتموه نزعتم عن وجوهكم براقع الرياء، وظهرتم أمام العالم بهذا المظهر الاستبدادي القبيح الذي سيسجله التاريخ إلى الأبد!.

ومتى قلتم ذلك ببساطة خالية من منطق الحماية وفلسفة الاحتلال، نشعر بشيء من التعزية لأنكم تكونون آنذاك قد قضيتم على حريتنا دون أن تهينوا مداركنا.

ومتى قلتم لا تعيدوا مرة أخرى الرواية الهزلية التي مثلتموها على مسرح العالم أمام الله والناس، ولا تعودوا إلى ذكر نضالكم في سبيل الحق والعدل والحرية واستقلال الشعوب

الضعيفة، ولا لتتبجحوا بتقاليد فرنسا وديمقراطية فرنسا وثورة فرنسا. دعوا أبطال حرية العالم من أمتكم المجيدة راقدين في أضرحتهم بسلام ولا تقلقوا راحة عظامهم! تكلموا ما شئتم عن أسود فرنسا وفهود فرنسا ونمورة فرنسا وسائر سباع فرنسا، أما آلهة الحرية الذين نقشوا حب فرنسا على قلب الجنس البشري وشرفوا الإنسانية فدعوهم راقدين في اولمبوس بسلام لأنكم إذا أكثرتم من التبجح والضجيج فقد توقظونهم وإذا أيقظتموهم فالويل لكم!.

ومتى قلتم ذلك أرحب بكم كما رحبت رومية ببرابرة الشمال، أرحب ببرابرة متمدنين يديرون معاملهم بالكهربائية ويتكلمون بالتلفون ويطيرون في الجو ويتخاطبون بالتلغراف اللاسلكي ويقيسون سرعة النور وتموجات الأثير وأبعاد النجوم ويعرفون كل شيء في الكون إلا شيئاً بسيطاً واحداً لا يخفي على الطفل الرضيع وهو أنه لا يجوز الاعتداء على حقوق الغير!.

عند ذلك يحق لك يا سعادة السفير أن تتهكم على وقاحتنا، لأننا نريد أن نعامل في بيتنا كما يعامل الدخيل، وأن نستعمل في منزلنا اللغة التي أخذناها عن آبائنا وأجدادنا، وأن يكون الإنسان السوري في وطنه مساوياً أمام العدل البشري للإله الفرنسوي!.

عند ذلك يكون لك الحق أن تقول لكل سوري يدخل سفارتك هذه الجملة الحكيمة التاريخية التي ستذهب مثلاً في سوريا: «إذا كنت تريد حماية فرنسا فأهلاً وسهلاً وإلا فلا شغل لي معك».

عند ذلك يكون لك الحق يا سعادة السفير أن تحسب كل سوري يراسل الدكتور سعادة إلى بونس أيرس أو غيرها من مدن العالم مجرماً كبيراً أمام الله والبشر.

«المجلة»، الحرب الكبرى وتطور المسألة السورية

فجر السنة الثانية للمجلة

بلادي وإن جارت علي عزيزة   وأهلي وإن ضنوا علي كرام

قطعت المجلة المرحلة الأولى من حياتها الصحافية سالكة السبيل الذي رسمته لنفسها لا تحيد عنه يمنة ولا يسرة، متوخية المصلحة العامة دائبة وراء الغرض الكبير الذي أنشئت لتحقيقه، ناشدة ضالة الوطن والمواطنين، باذلة ما وسعه جهدها لتوثيق عرى الآخاء المفككة والتأليف بين القلوب المتنافرة والعمل لما فيه فلاح أمتنا ووطنا.

ترى المجلة أول واجباتها إسداء الشكر إلى رصائفها من الصحف الكريمات الأخلاق الراقيات الصفات الرحبات الصدور التي فسحت لها مجالاً في روضتها، وأنزلتها على الرحب والسعة في جناتها، وأكرمت وفادتها، وذكرت صاحبها بما هي أحق به منه سواء في ذلك صحف أميركا الشمالية والجنوبية، وخصوصاً صحف الجمهورية الفضية والبرازيل.

نحيي هذه الصحف الكريمة مرة أخرى في فجر سنتنا الثانية، كما حييناها في بدء سنتنا الاولى ونرجو أن نتضافر وإياها لما فيه فلاح وطننا التعس وصلاح أمتنا البائسة، ذلك الوطن العزيز الذي يقاسي الآن آلام الجوع ويصبر على مضض البلوى وتلك الأمة التي أحاطت بها الرزايا وانصبت عليها البلايا، وأقفلت في وجهها طرق البحار، وسدت منافذ الفرج، وقد علا عويل نسائها وصراخ أطفالها. أطفال ينامون على الطوى ويستيقظون على الأسى إن أصابوا كسرة يابسة من الخبز بللوها بدموعهم، وإذا لم يصيبوها ابتلعوا تنهداتهم وازدردوا غصاتهم وقبضوا على قلوبهم الطاهرة الخافقة المرتجفة بأكفهم اللطيفة وأرسلوا أبصارهم في الليالي المظلمة. وكل لياليهم مظلمة. إلى نواحي الفضاء كأنهم يسائلون الدراري المتألقة في القبة الزرقاء «أصحيح يوجد إله في السماء؟»

أمام هذا المشهد الرهيب نقف حاسري الرؤوس مطأطئي الهامات، كما وقف موسى في برية سينا، ومحمد في وسط الغار، والمسيح في بستان جثيماني طالبين من السماء والأرض أن تعبر عن أقربائنا وأطفالنا هذه الكأس.

أمام هذا المشهد المروع يجب علينا نحن الصحافيين أن نقف مفكرين في نكبة مواطنينا وشقاء بلادنا ومصير وطننا، ويسأل كل منا نفسه «أسائر أنا في الصراط المستقيم، صراط هداة الأمة وقادة الرأي العام؟ أتنطبق الخطة التي رسمتها لصحيفتي على مصلحة وطني ومصير هؤلاء الجياع العراة الحفاة الذين قلص الجوع بطونهم ومدد الخوف قلوبهم؟ فإن لم تنطبق عليها فبماذا أجيب وطني يوم ينتصب الميزان، ويعض النادم على البنان ويرى الإنسان كيف تكون عاقبة الإنسان؟ كيف أرفع وجهي إلى وطني يوم أعود إلى جباله الراسيات وقننه الشامخات وجناته الزاهرات وأزهاره الباسمات؟

كيف أطأ تربة آبائي وأجدادي الذين تتحرك الآن عظامهم في قبورهم لهول ما يقاسيه أبناؤهم وأحفادهم من الصبر على موت في صورة الحياة أو حياة في صورة الموت؟»

متى أسندت رأسك يا رصيفي الصحافي إلى وسادتك في هدوء الليل وسكون الطبيعة والنجوم ناظرة إليك من أعالي الفضاء كأنها عيون السماء، فاخلُ إلى نفسك وسائل وجدانك الابطن الذي يسميه فلاسفة النفس «الوجدان الثاني»، سله ليجيبك عما إذا كان راضياً عن خطتك وخطواتك، وعما إذا كنت سائراً في الطريق المؤدي بوطنك إلى الهاوية أو في المسلك الذي يقضي به إلى النجاة؟ سل نفسك وسط هذا الهدوء الرهيب ما إذا كنت قد قمت بنصيبك من الجهاد في سبيل فلاح وطنك ومواطنيك ومصير أهلك وذويك.

إذا كانت فلسفتك وفلسفتي لا تنطبق على إسعاد الوطن وهؤلاء الأطفال الذين هرّأ الجوع معدهم، وأحرقت الثلوج أقدامهم وجففت العبرات أجفانهم، وألهب البرد صدورهم فلنقذف بها إلى أعماق الأوقيانوس لأنها فلسفة عقيمة لا تشبع جائعاً ولا تكسو عرياناً ولا تؤمن خائفاً ولا ترقي وطناً. دمعة واحدة من دموع هؤلاء الملائكة الصغار تمحو جميع فلسفات العالم.

بدأت المجلة سنتها الأولى ولبنان وسورية على أمر من الصبر، وبدأت سنتها الثانية، ولبنان وسورية على أحر من الجمر.

كان مواطنونا يقتاتون بالحشيش، فجاء الجراد وأكله، فاقتاتوا الجراد، والآن قد ولى الجراد ولم يبق لهم ما يقتاتون به، فهم يموتون جوعاً. تتجاوب أصوات النحيب من قنن صنين وحرمون حتى شواطئ البحر المتوسط ومن القدس حتى بئر سبع ومن حلب حتى اسكندرونة ومن دمشق حتى تدمر. تتجاوب أصداء العويل في هضاب لبنان وسورية وأوديتهما وسهولهما وجبالهما. لا يسمع الآن في الأماكن التي كانت تغرد فيها البلابل والطيور الصادحة إلا أنين الثكالى ونحيب الأطفال وتنهدات الشيوخ. سكت العود والناي والمزمار لأن ملاك الموت قد بسط جناحيه فوق أرجاء سورية وضربها بالجوع كما ضرب بني إسرائيل في غابر الدهور بالوباء. سكتت أصوات الغناء لتفسح مجالاً لأصوات الندب، وصمتت المغنيات ليسمعن أصوات النادبات.

ظلام في المنازل وظلام في النفوس وظلام في الآمال وظلام في القلوب. أوجه كالحة وملامح شاحبة وأشباح ناحلة إذا أطارت الريح عنها الثوب لم تبن.

الأرض التي تفيض لبناً وعسلاً أصبحت الآن تفض جراداً ووباء. الأرض التي لم تعرف الجوع منذ آلاف من السنين أصبحت قاحلة كالصحراء.

وسط البروق التي تخطف الأبصار والرعود التي توقر الآذان والصواعق التي تنقض على قنن الجبال والثلوج المتساقطة رقاعاً تكسو وجه الأرض، والرياح التي تهب كأنها أصوات آلهة متألمة ينام أقرباؤنا وأطفالنا يعضهم الجوع من الداخل ويقرصهم البرد من الخارج.

لا يجسرون على الكلام لأن الجائع لا يتكلم، ولا على التذمر لأن الخائف لا يتذمر، ولا على الحركة لأن الأشل لا يتحرك. لا يجرؤون إلا على الصبر، ولقد صبروا حتى ملهم الصبر وملوه.

امتزجت تأوهاتهم بتأوهات الرياح وزفراتهم بزفرات الزوابع وصرخاتهم بصرخات العواصف وصعقاتهم بصعقات الصواعق وظلمات لياليهم بظلمات القبور.

ما كان أشد هول الشتاء المنصرم وميازيب السماء قد انفتحت كأنها منافذ خزان في الجو والبرد يتساقط كأنه مقذوفات البنادق، والزمهرير يلذع الجسوم كأنه ريح السموم. ينام اللبنانيون ليلاً ثم يستيقظون صباحاً، فإذا الثلج قد كسا الطبيعة حلة بيضاء كأنها أكفان الأحياء.

وضعت هذه الحرب الصاهرة لبنان وسورية في بوتقتها المتأججة، وصهرتهما بنارها الآكلة

فأحرقت ما فيهما من حياة وجففت ما فيهما من عبرات، وخرجت الشياطين من جهنم لتشاهد مشهداً لم يخطر في بال رئيسها بعلزبوب. جاءت لتقتبس من الإنسان شر المخلوقات الحية طرقاً جديدة للتعذيب، وأساليب عصرية للتنكيل بفرائسها في جهنم.

رقصت الشياطين أمام لياج والمارن وإيبرس والاسنه والمايز والإلزاس واللورين وفي جبال كرباثوس وسهول غاليسيا وممالك البلقان وحصون فردون وهي تقهقه وسط صواعق القنابل المنقضة والألغام المتفجرة والأشلاء المتطايرة والنيران السائلة والغازات السامة. أما على قنن صنين وهضاب لبنان فقد وقفت مذعورة، وقد عرتها قشعريرة لأنها شاهدت منظراً لم تعتد رؤيته قط في جهنم. شاهدت أكفان الثلوج تغطي لبنان والشعب اللبناني كله مدرج في كفن واحد وهو راقد رقاد اليأس والقنوط، وفي وجهه من الشحوب والاصفرار وفي جسده من النحول والضآلة وفي سكونه الرهيب وصمته الهائل ما ترتعد له الفرائص.

أجل إن بعلزبوب نفسه وقف على ربى لبنان مذعوراً مقشعراً ثم ولّى مدبراً.

إن وطننا الآن كسائر أوطان الأمم واقف بين دهرين وكائن بين عصرين، الواحد منهما آخذ في الاحتضار والآخر آخذ في الانبثاق. وسط القنابل المنفجرة وأشلاء القتلى التي تراكمت جبالاً بعضها فوق بعض وأعمدة الدخان المنعقدة في الجو وأنهار الدماء المتجمدة على الأرض ووسط أنين الجرحى وصمت الجياع وبكاء الثاكلات وندب النادبات، يحتضر شيخ الدهور الغابرات وتتمخض الطبيعة بمولود العصور الآتيات.

يحتضر عصر الاستبداد وسلطة الأفراد والظلم والجور والتعصب الديني والجهل والرشوة والفساد والخمول والتزلف والمواربة. هوذا عصر الظلام والظلم آخذ في الاحتضار. لقد كان عصراً رهيباً ولكن احتضاره أشد منه رهباً.

أغرب عنا أيها العصر الذي عصبت عيوننا وضغطت قلوبنا وأذللت نفوسنا وأفسدت عقولنا وحمقت مشوراتنا وأوهنت عزائمنا وجعلتنا مضغة في الأفواه ولماظة بين الشفاه.

صببت علينا لعنات الدهور وحملتنا تبعات العصور وسيرتنا بين الأنوار المتألقة في ظلمات دامسة وبددت شملنا فنثرت عقدنا في أطراف الأرض وجهاتها الأربع وألقيت الشقاق بين إخواننا في الوطن ومواطنينا في بلدان الهجرة.

باسم الاستبداد طوقت أعناقنا بأغلال من فولاذ وقيدت أرجلنا بسلاسل من حديد ووضعت شكيمة في أنوفنا ولجاماً في أفواهنا وضربت على أبصارنا حجاباً وعلى بصائرنا نقاباً وزججتنا في غياهب الجهالة وظلمات الغباوة.

باسم الاستبداد قتلت آمالنا ومررت حياتنا ونغصت عيشنا وأحطتنا بظلمات بعضها فوق بعض وروضتنا على العبودية ونشأتنا على الذل وعقلت أقلامنا ونفيت رجالنا وقتلت أحرارنا وأقمت علينا جيشاً جراراً من العيون والأرصاد، فانقلب الإبن جاسوساً على أبيه والأخ على أخيه، وأطبق علينا اليأس وخيم علينا ظلام دامس يكاد يلمس بالأنامل.

ولكن ما فعلت بنا باسم الحرية؟

باسم الحرية وضعت أدمغتنا في قوالب حديدية كما يفعل الصينيون بأرجل بناتهم، وخلقت لنا فردوساً مسحوراً يرى ولكن لا يلمس، ويُنظر ولكن لا يذاق كما تخلق سحرة الهنود أشجار المنغو. وضعتنا في جنة بديعة أبحت لنا ثمارها كلها خلا شجرة معرفة الخير والشر. وضعت أمامنا مائدة شهية أبحت لنا كل ما عليها ولكنك ضربتنا بالشلل فلم نقو على الوصول إليها.

باسم الحرية أوثقتنا بحبال من قتاد وضربتنا بأسواط من عقارب وكويتنا بمياسم من نار وأرضعتنا لبن التعصب ونفثت فينا سموم التفريق وأريتنا النور ظلاماً والظلام نوراً وقذفت بنا إلى أعماق الشقاء وجوف الهاوية وأريتنا في الحياة الحاضرة كيف تكون جهنم الآخرة.

أغرب عنا يا شيخ الدهور الغابرات، واقبلي علينا يا غادة العصور الآتيات.

تعالي إلينا يا آلهة الحرية وحولي تنهداتنا العميقة إلى نسمات الأسحار المنعشة ودموع أطفالنا المتساقطة إلى لآلئ نضيدة وعويل الباكين والباكيات في الليالي الظلماء إلى أناشيد الملائكة وموسيقى السماء. حولي همومنا إلى صفاء وجوعنا إلى رخاء وخوفنا إلى أمن وسهادنا إلى نوم هادئ وكابوس القوى الجهنمية إلى رؤيا أحلام ذهبية.

أشرقي علينا بنورك الباهر وبددي ظلمات حياتنا وأنيري دياجي سبلنا وسددي خطواتنا وضعي بلسماً شافياً لجراحنا والأمي ما انثلم من اتفاقنا ولمي ما تفرق من كلمتنا ووثقي ما انحل من عروتنا ورمي ما تهدم من جامعتنا.

تعال يا عصر العصور ودهر الدهور وحوّل أحلامنا الذهبية إلى حقيقة ناصعة واجعلنا أمة حية راقية. افتح كنوزنا المدفونة في بطن الأرض وشق جوف أراضينا بمحاريثك البخارية ومد السكك الحديد حتى تتشعب في بلادنا تشعب الأوعية الدموية. إملأ سهولنا وجبالنا وأوديتنا بصفير البخار وموانينا بمراكب البحار وشيد المصانع والمعامل في أنحاء الوطن كلها حتى يرن صوت المطارق الصناعية في الجبال وبطون الأودية.

تقف المجلة في فجر سنتها الثانية أمام مأساة الوطن الكبرى معرضة عن شؤونها الخصوصية كما وقف أرميا إزاء مأساة شعبه ولكننا لا نندب ولا نبكي ولا ننوح لأن الأسى متى جاوز الحدود البشرية جفف المآقي وعقل الألسنة وجمد العواطف.

نقف أمام هذه المناحة الكبرى التي لا مثيل لها في تاريخ الوطن حاسري الرؤوس نشيع عن بعد موتى الجوع والوباء في ديارنا إلى مرقدهم الأخير حيث تضمهم الأرض أمنا أجمعين التي هي أشد حناناً عليهم من البشر لئلا تبصر الآلهة في السماء إلى أي حد بلغ جور الإنسان على الإنسان.

أرقدوا بسلام أيها الراحلون عنا في أحشاء الأرض، فقد ذهبتم ضحية الإهمال، وإن أرواحكم الطاهرة لتشكو الآن إلى مبدع الكائنات ما حل بكم من الشقاء الذي لا يقدر قلم من الأقلام على وصفه.

ارقدوا بسلام يا أحبابنا وأفلاذ أكبادنا في مضاجعكم الأخيرة، فأنتم شهداء لبنان وسورية وكما أقامت أم العالم أنصاباً لشهدائها في ساحات الوغى سوف نقيم لكم أنصاباً تبلغ عنان السماء. لم يكن في وسعنا إنقاذكم ولكن في وسعنا أن نشعر بآلامكم ونقدس ذكركم ونحيي وطننا وطنكم، فاقبلوا قبلاتنا الأخيرة التي نرسلها إليكم من وراء البحار.

السنة الثالثة للمجلة

قطعت المجلة المرحلة الثانية من حياتها ورائدها الإخلاص في الفكر والصدق في القول والفائدة في الفعل، فنالت خطتها رضى مشتركيها الكرام. ولقد وردتنا منهم أثناء السنة الثانية للمجلة من رسائل المديح والإطراء وكتب الحمد والثناء ما طوقوا به جيد المجلة منةً. وإذا كان أصحاب هذه الرسائل لم يروا لها أثراً على صفحات المجلة، فذلك ليس إهمالاً بل لأننا لم نعتد نشر مدح نفسنا، ولو فعلنا لاستغرقت تلك الرسائل أجزاء برمتها، فنسدي إلى أصحابها أجمل الشكر وأطيب الثناء وخصوصاً من أتى منهم في عرض الكلام على مباحث وطنية وآراء عمرانية تشف عن أخلاق راقية.

بيد أنه كان لتلك الرسائل التي وردتنا من أنحاء شتى في العالم الجديد وقع جميل في نفسنا لا لأننا نحب الإطراء، بل رأينا في مجموع الجوالي السورية فريقاً ينصف حملة الأقلام ورجال الصحافة المخلصين في خدمة الوطن ويطالع بإمعان ما تسيله الكتبة من أدمغتها مداداً على صفحات الطروس. وخصوصا لأن في بعض ما كتبناه ما كنا نظنه خاصاً بالفئة الراقية من المشتركين كمقالات طبائع الاستبداد مثلاً، ولكن ما وردنا من الرسائل بشأنها جعلنا على يقين من أن فريقاً من الطبقة الوسطى التي لم تنل من التعليم المدرسي قسطاً وافراً يفكر بإمعان في المباحث العمرانية تفكيراً يرفعه من وجهة النظريات العامة إلى مرتبة الطبقة الراقية، فقد كان عدد الكتب التي وردتنا بشأن طبائع الاستبداد فقط يربو على مائتي كتاب أكثرها من أفراد لم يكن يخطر لنا في بال أنهم يهتمون بمثل هذه المباحث، وفي بعض هذه الكتب ما يدعو إلى التبصر والتفكير.

لم يكن في عداد هذه الكتب كتاب من غني مشهور بغناه ولا وجيه مشهور بوجاهته، بل كانت كلها من رجال الأدب والطبقة الوسطى وهو دليل على وجود يقظة في الشعب لا

يعوزها لتحويلها إلى نهضة إلاشيء من الحكمة وثقل الأفكار العصرية إلى عقل الأمة على طريقة قربة المنال.

لا ريب أننا الآن بإزاء تنبه في الأفكار، فالجوالي السورية في المهاجر آخذ في الاستيقاظ من سبات الخمول تريد الخروج إلى فضاء الحرية العصرية، ولكنها لا تزال حتى الساعة في ذلك الطور الغريب الانتقالي الذي تتراوح فيه بين ظلمات الماضي ونور العهد الحالي. والحقيقة أن الجوالي السورية في المهاجر إلا مجموعات منها تعيش في العالم الجديد كأنها في دياجير الظلمات الغابرة فهي في فضاء التمدن ولكنها يحيط بها جو من العصور الخاليات، فقد حملت وسطها إلى بيئاتها الجديدة وظلت أخلاقها على ما كانت عليه سابقاً، ولم ترتقِ إلا في الشؤون المالية والتجارية، ولم يكن هذا الارتقاء ليؤثر في حالتها النفسية شيئاً على الأخلاق، فبينما ترى الجوالي السورية في مهاجرها ترتدي الأثواب الفاخرة وتتكلم لغة البلاد التي هي فيها بسهولة وتجالس الأجانب كأنها وإياهم من طينة واحدة يرى الناقد البصير أن الجمهور الأكبر من هذه الجوالي لا يزال هو بعينه تلك الجماعات الواهنة الأخلاق المفككة العرى الشديدة التعصب الكثيرة الشقاق الوافرة التبجح المتناكرة في أقوالها المتخاذلة في أفعالها التي امتلأت صدورها حقداً ونبضت قلوبها غلاً وضمت بين حنايا أضالعها ذلك الغرور الذي ظل هوة المباهاة وحشوة الجهل ومادته الضغينة ومصيره الإضرار بالنفس والغير.

تلك الجماعات التي إذا اكتشفت بينها نابغة من نبغائها، فعوضاً عن أن تجله وترفع قدره وتفتخر به كما تفعل الجوالي الأجنبية التي تفتش على نوابغها بالمصابيح مع ما هم عليه من وفرة العدد، تراها تبذل كل قواها في سبيل خفضه، ولا يحلو لها عيش أو يغمض لها جفن إلا إذا سدت في وجهه طرق العمل، وأقامت في طريقه عقبات جمة، وأحبطت كل مسعى يحاوله في سبيل رفع قدر وطنه ومواطنيه.

تلك الجماعات التي لا جامعة تجمعها ولا رابطة توثق عراها، ولا قوة توحّد قواها بل هي في حياتها العمرانية والوطنية أشبه بجماهير تائهة في صحراء، فلم تتعلم من الأجانب درساً ولا تلقت من أساتذة العمران أمثولة، فهي أشبه بقارب لا دفة له.

الحقيقة أن تمدن الجوالي السورية في المهاجر عبارة عن طلاء يطلى به الجسد، لا تمثيل

فسيولوجي يتحول به التمدن إلى لحم من لحمنا ودم من دمنا يدور في عروقنا وترسله قلوبنا إلى أجزاء الجسد فينفذ إليها ويصبح جزءاً منها، فإذا لم يبلغ السوريون في مهاجرهم هذا المبلغ، فإن وجودهم في العالم الجديد من الوجهة العمرانية لا يبعث على ارتقائهم ولا إفادتهم وطنهم بعد عودتهم إليه.

لا بد في كل حركة عمرانية من الاعتماد على الشعب نفسه، وكل حركة قد لا يكون عمادها الشعب مقضياً عليها بالفشل، فقد تقدم لنا القول إن عدد الأغنياء والوجهاء الذين يهمهم ترقية الوطن قليل ولولا ذلك لكانوا خير عماد للأمة في طورها الانتقالي وأمتن عضد لها في سبيل هديها إلى الصراط المستقيم.

فالنهضة التي يريد حملة الأقلام إحداثها في المواطنين لبلوغ أينما كانوا، لا بد لهذا الغرض من التأثير في مجموع الشعب وخصوصاً الطبقة الوسطى منه التي عليها المعول بين السوريين في كل حركة عمرانية أو اجتماعية يراد بها إنهاض الأمة من حضيض الخمول والجهل إلى مستوى الأمم الراقية التي تعرف معنى الحياة وتسير في سبيل الرقي سالكة في كل ذلك الخطة المثلى.

كان أهم مظاهر هذه اليقظة هبوب الجوالي السورية في أنحاء العالم كله لإغاثة الوطن العزيز في نكبته الكبرى، وتخفيف شقائه مما أصابه من المجاعة التي لا مثيل لها في تاريخه، فكان ما أرسلته الجوالي باعثاً على إنقاذ أرواح كثيرة من مخالب المنيّة.

يسوءنا أن تنقضي السنة الثانية للمجلة وحال الوطن لا تزال على ما كانت عليه في مغيب سنتنا الأولى، بل إن الشقاء والمجاعة والأوبئة أشد فتكاً منها سابقاً وقد انقطعت عنا أخباره بالمرة بعد شهر الولايات المتحدة الحرب على ألمانيا، ولا يدري أحد ما هو جارٍ الآن في ذلك الوطن التعس وراء ستار الظلام والسكون.

إن الجمعيات السورية في أنحاء المهاجر يلزمها النظام والاتحاد لتسير قواها في وجهة واحدة لفائدة الوطن والمواطنين، فالرابطة القومية تكاد تكون مفقودة بيننا وتوحيد القوى ووجهة العمل ضروري في كل نهضة يكون من ورائها الخير العام، وحتى الآن لم تحدث حركة من هذا القبيل وكان من ورائها بلوغ الغرض المطلوب، ولا يجوز اتخاذ هذا التقصير في الماضي

عذراً لعدم السعي إلى إحراز هذه الأمنية الخطيرة في الاستقبال.

قوانا ذاهبة ضياعاً لعدم وجود النظام والاتحاد في أعمالنا وليس ذلك فقط، بل إن هذه القوى تتعاكس وتتصادم فتفني الواحدة منها الأخرى، وما نحن من القوم الذي يمكنهم تبديد ذرة واحدة من قواهم.

ونحن على علم أنه دون بلوغ هذا الوطن عقبات جمة، ولكننا نعتقد أنه في حيز الإمكان، وأن مسعى فريق من قادة الرأي العام من هذا السبيل مع شيء من التضحية، يكفيان للعثور على الضالة المنشودة.

نسير في مرحلتنا الثالثة بالإخلاص في القول والنزاهة في العمل، كما فعلنا في السنتين الماضيتين، نسير ومشتركونا الكرام الذين هم رفقاؤنا في العمل وشركاؤنا في الآمال لما فيه فلاح الوطن والمواطنين.

السنة الرابعة للمجلة

أتمت «المجلة» السنة الرابعة من حياتها دائبة وراء ما يوحي إليها وجدانها مما فيه صلاح المواطنين سائرة في الطريق التي اختطتها لنفسها منذ عهد إنشائها، متوخية في أبحاثها ما تراه ضرورياً لأمتها في تمهيد العقبات التي تعترضها، مرسلة أشعة تنير دياجر الجهل التي تلبدت في جوّنا ظلمات بعضها فوق بعض، عاملة على إعداد الأمة للحياة الجديدة التي تروجها ومؤهلة إياها عن الطريق الحقة، وهي طريق العلم والعمران والأخلاق للمنزلة التي تصبو إليها أمة ذات تاريخ عريق في القدم والمجد كالأمة السورية.

حسن أن ننشد الحرية، وأحسن منه أن نكون أهلاً للحرية المنشودة، وفي الحالتين كلتيهما يترتب علينا أن نعرف أن علينا واجبات كما لنا حقوق، بل يجب أن نفقه أن الحقوق مكتسبة من الواجبات، وأن من يطالب بحق دون أن يقوم بالواجب الذي يفرضه ذلك الحق لأشبه بقاطع الطريق الذي يسلب المارة أشياءهم.

وما يطلق على الأفراد في الشؤون الفردية يطلق على الأمم في الشؤون العامة، لأن الأمة كائن حي تؤلف الأفراد والمجاميع كريّاته وأعضاءه، كما تؤلف الكريات الحيوية والأعضاء بنية الفرد.

لذلك يجدر بنا أن تكون حريتنا المنشودة عن طريق الكفاءة، وليس هنالك كفاءة إلا إذا كنا أكفاء لمطمحنا، ولا نكون كذلك إلا إذا قمنا بالواجبات التي يتطلبها. ومن البديهي أننا لا نقدر على القيام بتلك الواجبات إلا إذا عرفناها أولاً، وكان لنا من الأخلاق الراقية ما يخرج تلك المعرفة من عالم النظريات إلى عالم الحقائق.

نحن الساعة على أبواب حياة جديدة تختلف اختلافاً كبيراً عن الحياة القديمة، فستخرج الأمم والشعوب كلها من هذا العراك الهائل، وقد صهرتها هذه الحرب الطاحنة في بوتقة الطبيعة

فأحرقت منها الآراء البالية والتقاليد الرثة والأرسطقراطية والأوطقراتية وحقوق الملوك الإلهية فلا يبقى في هذه البوتقة من سبيكة الجنس البشري إلا الذهب المصفّى ولا بأس أن نورد في هذا المقام ما سطرناه في فجر السنة الأولى للمجلة.

إننا الآن على وشك ولوج عصر مجيد وعهد جديد يكون فيه للصحافة النافعة المخلصة شأن كبير مهما كانت نتيجة هذه الحرب الضروس، لأن الأمم على اختلاف أجناسها وتباين عناصرها ستهب من ضجعتها وتستيقظ من رقدتها وتبدأ كل منها فصلاً جديداً من تاريخ حياتها وتسلك سبلاً قويمة في تقويم عمرانها وتصلح كل فساد تطرق إلى تمدنها، وستكون هذه الحرب الغريبة في بابها الهائلة في نتائجها الطاحنة بمدافعها الهابة على العالم أجمع هبوب الزوبعة المنقضة على أبناء آدم انقضاض الصاعقة، مقدمة عصر زاهر وتمدن باهر في تاريخ الحضارة والعمران.

أجل سينبثق من الظلام نور، ومن الموت حياة، ومن الشقاء سعادة، ومن الاستبداد حرية، ومن الجور رحمة، ومن الظلم عدل، ومن المجاعة رخاء، ومن النفاق صدق، ومن الباطل حق.

ليست هذه الحرب الطاحنة سوى عملية جراحية هائلة تجريها الطبيعة على الجنس البشري لاستئصال سرطانه الذي كان ينهش قلبه ويهرّئ أنسجته ويفسد بنيته. عملية جراحية تمزق آلامها الفضاء وتبلغ عنان السماء. آلام صادرة من أبطال في ساحات القتال وفرسان في ميادين النزال وأرامل في الشوارع والساحات ويتامى في الصحارى والفلوات ونساء تهلك أعراضهن وعذارى تغتصب عفتهن وجماعات تنهشها المجاعات كأنها ذئاب خاطفة أو وحوش ضارية.

وسط الدم والديناميت والنار الدخان والقنابل والمجاعات تجري الطبيعة عمليتها الجراحية على الجنس البشري الذي أساء التصرف بما وهبته من القوى العاقلة والمدارك السامية. تستأصل الطبيعة هذا السرطان بالسيوف والحراب، وتكوي فوهاته المتدفقة دماً بالقنابل كما يكوي الجراح جرحاً نازفاً بالحديد المحمى.

بدأت الطبيعة عمليتها الجراحية، ومتى بدأت الطبيعة عملاً أنجزته باتقان شأنها في كل أعمالها، فهي لا تنفك حتى تستأصل هذا السرطان الخبيث الذي ملأ العالم فساداً وشقاء

ومتى استأصلته ألقته في قاع الأوقيانوس حيث يبقى مدفوناً إلى الأبد.

في هذا الجهاد الهائل. جهاد تنازع البقاء تموت أمم وتتهدم ممالك تقوم على ضرائحها وأنقاضها أمم وممالك أخرى، يكون للصحافة في إنشائها أثر كبير وشأن خطير، فما يكون يا ترى مصير سورية يوم يبوق ملاك الحياة في البوق وينشر الشرقان الأقصى والأدنى من قبرهما، ويمزقان أكفانهما ويبرزان من ضريح الظلام والجهل والتعصب إلى فضاء النور والعلم والتسامح؟ ما مصير سورية يوم تقوم الأموات من قبورها وتحيا العظام وهي رميم؟ أتبقى في ظلمة القبر أم تخرج إلى نور الحياة وتمدن العصر؟

إني لعلى يقين، أن الطبيعة التي تبعث الهنود من ضرائحهم بعد أن يدفنوا فيها شهوراً عديدة وتعيدهم إلى الحياة بعد أن تنمو الأعشاب على قبورهم، لقادرة على إحياء أمة ضربت عليها المسكنة وأصابها من التخاذل والذل ما أصارها في عدد الأموات.

بيد أن الطبيعة التي تطهر البرص وتشفي المرضى وتقيم الموتى وتأتي سائر ضروب المعجزات لعاجزة عن شفاء مريض لا يريد نجاة أو إقامة ميت لا يريد حياة، فهل تريد سورية أن تنشر من قبرها وتقوم من ضريحها؟

إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. تلك سنة الله في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلا.

علينا أن نهدم بيتنا القديم البالي حتى يصبح على مستوى الأرض قبل أن نشرع في البناء. من يبني قصراً فخماً على جدران متداعية إلى السقوط؟ من يبني قلعة على كوخ؟ من يبني تمدناً عصرياً على الخرافات والأوهام والجهل والتعصبات الدينية والمذهبية التي تأصلت في النفوس تأصل جذور النباتات في التربة؟

هذا ما حدا بنا إلى انتهاج نهج جديد في المجلة لم تنهجه مجلة عربية، وهو نشر العلوم العصرية بين الشعب السوري بطريقة يفهمها كل قارئ وبأسلوب يجعل هذه العلوم أشبه برواية لذيذة وسط المباحث العمرانية والاجتماعية والتوسع في مباحث الحرية التي ننشدها مع بيان تاريخها في العصور الخوالي، وما كانت عليه أيام اليونان والرومان وكيف تطورت في القرون الوسطى وبرزت كائناً حياً في القرن الثامن عشر وتبدت قوة في أميركا وبرزت آلهة في

فرنسا يوم اندلع لهيب تلك الثورة الهائلة العجيبة وأضاء أرجاء الكرة الأرضية كلها.

أجل: من فرنسا أم المدنية ومظهر الديمقراطية أومضت بروق الحرية وسط لعلعة المدافع وصليل السيوف وقصف البنادق وسيول الدماء، ثم انقشعت تلك العاصفة وتبدت الحرية في سماء فرنسا آلهة جميلة رهيبة حاملة بيمينها سيفاً من نار وبيسارها كرة من نور!

وأغرب من كل ما تقدم، أن فرنسا لم تنس في ذلك اليوم العصيب الشعوب الضعيفة المغلوبة على أمرها، فأصدر مجلس أمتها قراراً يعلن فيه الأمم كلها أن فرنسا مستعدة لمناصرتها في سبيل إحراز حريتها، ولقد ضم ذلك المجلس حينئذ سائر عناصر الجنس البشري في الغرب والشرق وفي عدادها صينيون ويابانيون وهنود وأفغان وإيرانيون وسوريون فكأنّ قلب فرنسا الرحيب حاول أن يسع العالم كله، وكأن ساعدها الشديد حاول أن يحرر العالم كله!

من أجل هذه الروح الشريفة تطاطئ الشعوب رؤوسها احتراماً لفرنسا، ومن أجل هذه الغيرية التي لا مثيل لها في تاريخ العالم تعتبر شعوب الأرض فرنسا وطناً ثانياً لها، ومن أجل هذا العطف على الأمم البائسة نتيجة آمال الشعوب الضعيفة إلى فرنسا بالغريزة الطبيعية كما تتجه النباتات والأزهار نحو أشعة الشمس النعشة![1]

سوف تكون المباحث التي تقدم بيانها مدار المقالات السنة الرابعة للمجلة، وسنلمّ فيها أيضاً بما له مساس بشؤوننا الحيوية وحياتنا المرجوة.

إن واجبنا الوطني المقدس يقضي علينا الآن بالتضامن والوفاق وتوحيد المساعي التي يكون من ورائها إغاثة وطننا، فنحن اليوم في أمس حاجة إلى توحيد قوانا العقلية والأدبية والمادية، فالتفريط فيها ليس فقط خرقاً في الرأي، بل جريمة هائلة يسجلها علينا التاريخ إلى الأبد.

1 تبخرت الوعود الفرنسية المعسولة بعد الحرب العالمية الاولى وتسابقت فرنسا وبريطانيا على الاحتلال والتوسع وخوض الحروب الاستعمارية، الأمر الذي دفع بالدكتور سعاده البدء بحملة على المستعمرين لسوريا استمرت حتى اليوم الأخير من حياته.

تحرير سوريا ولبنان

إن الضربة الساحقة التي ضرب بها الجنرال اللنبي تركيا في سوريا لمن الإجراءات الحربية الباهرة بل هي أتم عمل حربي قام به قائد في ميدان من ميادين الحرب.

حمل على الفيالق التركية، فتساقطت أمامه تساقط أوراق الخريف، وقد لعبت بها ريح زعزع، فمن لم يسقط منها قتيلاً في ساحات المعارك سقط أسيراً ، ومن لم يسقط أسيراً وهو النزر القليل، هام على وجهه في الصحاري والفلوات لا يلوي على شيء.

أذاق الله الأتراك ما أذاقوا السوريين عامة واللبنانيين خاصة من صنوف التعذيب والتجويع ومن ضروب المغارم والمكاره، فقد ولجوا غمار هذه الحرب مدفوعين إليها بطغمة ضربها الله بالجنون، فعاثت في الأرض فساداً تنصب المشانق لأحرارنا وتخطف الرغيف من أيدي صغارنا، وتذل شيوخنا وتمتهن حرمة نسائنا، وتأتي من الموبقات ما يندي له جبين الإنسانية خجلاً وتخفق له القلوب وجلاً.

غادروا مروج سوريا الزاهرة وهضاب لبنان النضرة قاعاً صفصفاً، وداراً بلقعاً لا يسمع فيها إلا أنين الثاكلين والثاكلات وحشرجة المائتين والمائتات.

لم يكن من مسوغ سياسي قط لمثل هذه المعاملة الجائرة لأن سوريا ولبنان أخلدا إلى السكون أثناء سني هذه الحرب، فلم يكن هنالك من ثورة ولا حركة ترمي إلى شق عصا الطاعة، ولكن رجال تركيا الفتاة فاجأونا بفلسفة جديدة لا تبتكرها إلا أدمغة الحمقى. فقد حاولوا تتريك العناصر العثمانية كلها وتحويلها إلى عنصر هو على أعظم تقدير خمس تلك العناصر، بل دفعهم الغرور إلى إحياء اللغة الطورانية وهي لغة المغول الجاهلية قبل أن دفنها الإسلام والعربية بل حاولوا إحياء رميم همجيتهم فسولت لهم نفوسهم إنشاء جامعة طورانية تذوب وتندغم فيها سائر العناصر العثمانية، بل عادوا إلى استعمال التعابير الهمجية لتلك اللغة الخشنة.

في سبيل هذه الجامعة الوحشية جرت دماء الأرمن أنهاراً في سبيل هذه الفلسفة الطورانية. شرع الأتراك في استئصال شأفة السوريين واللبنانيين، فقد تعلموا في مدرسة سادتهم الألمان شيئاً كثيراً من فلسفة نيتشة وهي إبادة العناصر الضعيفة ومحقها عن بكرة أبيها حتى لا يبقى بعد الحرب سوريون ومسألة سورية بل طورانيون ومسألة طورانية.

هذا مبلغ فلسفة أنور وطلعت وجمال[2] الذين باعوا السلطنة العثمانية إلى المانيا بملايين معدودة من الجنيهات وقذفوا بها إلى هاوية الخراب والاضمحلال، فلقد حفروا بأيديهم لتركيا قبراً عميقاً لا تقوم منه ولن تقوم منه إلى الأبد!

شهروا حرباً على بريطانيا العظمى التي لولاها لكانت تركيا في عالم الأموات منذ قرون طويلة، فهي الدولة التي كانت حتى شبوب هذه الحرب عماد السلطنة العثمانية، وهي التي وقتها شر روسيا وهي التي شهرت على الروس حرب القرم الشهيرة بمناصرة فرنسا، وهي التي وقفت في وجه الروس وهم على أبواب الأستانة، وفسخت معاهدة سان استفانو التي وضعت فيها تركيا نفسها تحت رحمة روسيا. أجل إن حياة تركيا حتى هذه الحرب من الله ومن بريطانيا العظمى.

شهروا حرباً على فرنسا بالقروض المالية التي اقترضوها منها، وسبكوا الدنانير الفرنسية حراباً وجهوها إلى صدور الفرنسيس ومدافع أطلقوها على جيوش الفرنسيس، وكافأ فتيان الأتراك فرنسا التي رحبت بهم في باريس وعلمتهم كيف ينشدون دستورهم وناصرتهم على إحرازه بمثل هذه الخيانة التي لا يرتكبها إلا من لا يعرف الجميل.

والآن وقد أمست تركيا جثة لا حراك لها تقوم حكومتها الحالية وتعرض على السوريين والعالم المتمدن استقلال سوريا قائلة إنها تريد أن تبدأ حياة جديدة مع شعوبها وصفحة جديدة من تاريخها وأن لا تجعل فارقاً بين العناصر والأديان. أجل رأت تركيا أن تمثل فصلاً آخر من رواياتها الهزلية، ولكننا نؤكد لها أن هذه آخر رواية تمثّلها هزلاً كان أم جداً.

---

2 اشارة الى محمد طلعت باشا (1874-1921) احد قادة حزب الاتحاد والترقي، والقائد العسكري اسماعيل أنور باشا (1881-1922) أحد قادة «تركيا الفتاة» وحاكم سوريه خلال الحرب احمد جمال باشا (1872-1922).

إن السوريين من أرقى الشعوب الآسيوية، ولقد كانت سوريا أرقى ولايات السلطنة العثمانية طراً، فجرت في ميدان الحضارة والعمران تحت ضغط الأتراك والاستبداد التركي شوطاً بعيداً وأشرقت شمس المعارف على هضاب لبنان يوم كانت السلطنة العثمانية كلها في ديجور من الظلام، ولا تكاد ترى الآن في لبنان فرداً من الناشئة الجديدة لا يحسن القراءة والكتابة.

بل إن السوريين هم الذين نشروا المعارف في القطر المصري، وهم الذين أنشأوا فيها الجرائد الأولى، وهم الذين تولوا في بدء الاحتلال إدارة مصالحه، ولا يزال كثيرون منهم حتى الساعة يديرون دفة أعماله.

والسوريون واللبنانيون هم الذين يديرون الآن شؤون مملكة العرب، وهم الذين يشغلون المراكز التي عليها المعوَّل في إدارة الدولة العربية.

لقد رُفع الآن كابوس الأتراك عن السوريين واللبنانيين فخرجوا من مطابق الظلام إلى فضاء النور والحياة، وأمامهم الآن مستقبل مجيد لا يعوزهم إلى السير في سبيله إلا الإرادة.

مضى عهد الظلم والظلام والتسويق وجاء عهد العدل والنور والجد. انقضى عهد «فرق تسد»، وجاء عهد «اتحدوا تسودوا»، فلم يبق بعد الآن في سوريا ولبنان مسيحي ومسلم ودرزي ويهودي، بل كلنا وطنيون دينهم الوطنية وهيكلهم الوطنية وقبلتهم الوطنية.

على ضريح الدولة العثمانية
(شعر منثور)

على ضريح ملكة المشرق وسيدة المغرب وشقيقة رومية وندة قرطاجنة، أقف مؤبّناً ملكاً شامخاً وعزاً باذخاً ومجداً بلغ عنان السماء وشرفاً ناطح برقيه الجوزاء.

على ضريح سلطانة البرين وخاقانة البحرين، أقف قارئاً التواريخ وأسطرها والايام وعبرها والدهور وشؤونها والاحاديث وشجونها.

قرأت كيف تولد الأمم من الجماعات وتشاد الممالك على العسالات، وكيف تنهض الأفراد بأممها وتنفخ فيها نسمات حياتها وتختط لها طرق الفتح وتسلك بها سبل الاجتياح، وكيف تكون الهمم العاليات والعزائم الماضيات، وكيف تذلل العقبات بعزيمة الجد وتعقد المطامح بنواصي المجد.

كنت يا أميرة الخافقين ملكة عظيمة تنحني أمامك المناكب والهام، وتكاد ترفع إليك الصلاة والسلام. فتحت بسيفك الاقطار ودوخت الامصار. بسطت ظل مجدك على ثلاث قارات من الكرة الارضية حتى دانت لك الممالك، وبلغت من الآمال مكانا قصياً ومن المطامح مجداً أثيلاً. دست بسنابك خيلك جوانب الغبراء من المحيط الهندي حتى الاوقيانوس الاتلانتيكي، ومن خليج فارس حتى ضفاف البوسفور. ثم انقضضت على أوروبا انقضاض الصواعق، فاكتسحت بلدانها واعتقلت فتيانها وملأت أممها خوفاً حتى طارت قلوب أهلها شعاعاً وهلعت افئدتها فرقا، فتسابقت ملوكها إلى المثول بين يديك ورموا بصوالجهم وتيجانهم عند قدميك.

أجل: بسطت ظل مجدك على آسيا الصغرى والقسطنطينية واليونان ومقدونيا والروملي والصرب والبلغار والجبل الاسود وسورية وبلاد العرب ومصر والسودان وطرابلس الغرب

وتونس والجزائر ومراكش وجزائر البحر المتوسط، فخلفت العرب في ملكهم الشامخ ومجدهم الباذخ، وبنيت دولتك على عروش الممالك. فما فعلت رومية أكثر من ذلك.

ضربت بفيالقك الحصون فاندكت مبانيها، وبجيوشك المعاقل فتهدمت جوانبها وانهزمت مواكبها. ظهرت كالزوبعة وسرت كالعاصفة، فمن اعترض سبيلك انقضضت عليه انقضاض الصواعق فسحقته تحت أقدامك كأنك القضاء المبرم، وسرت تتمشين من نصر عظيم إلى نصر أعظم.

نصبت سرادق مجدك على ضفاف البوسفور، وشدت عرشك على أطلال مملكة رومية الشرقية. ولامس صولجانك القرن الذهبي.

ملأت الدردنيل قلاعا وحصونا ومعاقل، فكنت أشبه بلبوة في عرينها لا يجسر بشر على الدنو منها.

قبضت بيمناك على أوروبا وبيسراك على آسيا ووطئت بقدميك افريقيا. فكنت على الارض كجوبيتر في السماء. صوتك كهزيم الرعد يملأ العالم ذعراً ويتجاوب صداه من أعمدة هرقل حتى جوانب الهند ومن عاصمة العباسيين حتى أسوار فييِنّا.

كنت تجلسين على عرشك فتمر سفراء أوروبا المحتشدة في بابك الواحد بعد الأخر يحيون عرشك تحية الاحترام، فما كنت ترمقين أحدهم بنظرة. بل كان سلاطينك منشغلين عنهم بنظم قصيدة أو مطالعة كتاب، ووزراؤهم يقبلون تحية السفراء ويستعرضونهم كما يستعرض القائد جنوده.

أتذكرين تلك الايام يوم كنت تدعين ملك الفرنسيس وتنعمين عليه بصلة؟ أتذكرين يوم أطبقت جيوشك على روسيا فنكلت بها تنكيلا حتى اضطرت امبراطورتها كاترين ان تقدم حلاها لقائدك ليتحول عنها؟ أتذكرين يوم استجار بك ملك أسوج الباسل قادماً من بلاد الشمال بعد نكبته فيها؟

ما أجمل عاصمتك وما أمنعها! مدينة غناء تحف بها الهضاب الشامخة والاشجار الباسقة والازهار الباسمة وتحرسها الحصون المنيعة والقلاع الحصينة والمعاقل الراسخة، فهي أجمل من اللآَلِيء وأعز من جبهة الأسد. تشرف من مضجعها على البوسفور كما تشرف الغادة

من خدرها. هامت بها ملوك الارض وأمراء العالم قديماً وحديثاً. تترقرق مياه البوسفور عند سفحها فتغسل قدميها كأنها من جواريها.

كما كنت عاصفة في البر كذلك كنت إعصاراً في البحر. ملأت مراكبك سطح البحار وتهادت عليه خيلاء كأنها حصون طافية على وجه المياه. كما كنت ملكة البر كذلك كنت سيدة البحار. كان أسطولك يحطم مراكب الاعداء ويبطش بها بطش جيوشك في المعارك البرية. من كان حينئذ مثلك بين الملكات يا ملكة البوسفور؟

بيد انك انقلبت إلاهة شريرة ظالمة ملأت مملكتك ظلماً وجوراً وعبثت في الارض فساداً وفجوراً. افترست بنيك كما تفترس الغيلان أولادها. ملأت تربتك دماء وغطيت الارض بأشلاء قتلاك. بنيت مجدك على الظلم ولطخت عرشك بالدم!

يا ابنة الزوبعة وشقيقة العاصفة وأم الاعصار وربيبة النار. كنت كالهوجاء في غيظك وكالهيجاء في حنقك وكالعاصفة في انتقامك وكالنيران في فتكك، تقتلين كل شيء وتسحقين كل شيء وتلتهمين كل شيء. يمشي أمامك الهول ويسير وراءك الذعر. حيثما سرت سار الخراب والبوار، وحيثما نزلت نزل البلاء والدمار. منازل مهدومة وقرى منهوبة وسهول بائرة وديار مقفرة ومدن خائفة وولايات وجِلَة ومملكة نخرها سوس الفساد ورعية تتقلب على فراش القتاد.

لمَ لم تتخذي العدل أساساً والحق نبراساً؟ كان أساسك الاستبداد ونبراسك الاستعباد. حجر زاويتك الرشوة التي أعمت البصائر وأماتت الضمائر وقبلت الحق باطلا وصورت الظالم عادلا.

كان ديدنك التفريق بين الأديان والقاء بذور الشحناء بين الأعيان. واتخذت التعصب الديني الذميم دينا فلم تساوي بين أفراد رعيتك، بل جعلت بينهم فارقاً وأقمت حاجزاً وحسبت أن التباغض بينهم يكون لك نصيراً... ولكن بئس ما صرت إليه مصيراً.

كما فرقت بين الأديان كذلك فرقت بين العناصر، فجعلت عنصرك سيد الدولة وأمير المملكة إليه تعهد المناصب الحربية والمقامات الدولية يتصرف بشؤون الرعية تصرف المالك في ملكه لا يزعه وازع ولا يردعه رادع ولا ينازعه منازع، فطغى وتجبر وبغى وتكبر وجار جور المعتز

بقدرته المعتد بقوته وتحكم في الاموال والرقاب وسطا بالتهديد والارهاب. إن هذه لعاقبة الظالمين، فمكروا ومكر الله بهم والله خير الماكرين.

أصلت سيفك فوق رقاب بنيك، وأغمدتِ خناجرك في صدور رجالك. في بلاد مقدونية منها الاسكندر الكبير فاتح العالم ومدوخ المسكونة، ارتكبت الموبقات وأتيت المنكرات. في بلاد البلغار وسط شعبك الآمن في حماك المستظل بهلالك المطمئن تحت سمائك سفكت دماء الابرياء، فقتلت رجالها وذبحت شيوخها ونحرت كهنتها ودنست كنائسها، وأخذت الاطفال من بين أذرع أمهاتهم وبقرت بطونهم وقطعت أيديهم وفقأت عيونهم أمام أعين أولئك الامهات النادبات لا ترثين لضراعة ولا تأخذك شفقة ولا رحمة. ملأت الكنائس بجثث القتلى، وأجريت الدماء في الاسواق كالسواقي. دنس جنودك طهارة العذارى أمام أعين أخواتهن، وانتهكوا حرمة الفتيات على مرأى من آبائهن وارتكبوا الفحشاء بالنساء تحت أعين أزواجهن. أضجرت فظائعك الله في السماء والناس على الأرض وصار اسمك عاراً على أبنائك، كلما ذكر بين أمم العالم ستروا وجوههم بأيديهم وسدوا آذانهم بأصابعهم حتى لا يبصروا سخرية القوم ولا يسمعوا تقريعهم. فظائعك منقوشة على صحيفة التاريخ بأحرف من دم ومجففة بألسنة من نار!

في أرمينيا التي وقفت حينا من الدهر في وجه رومية ونكلت بجيشها تنكيلاً، طغت مظالمك حتى أصبحت سيلاً جارفاً. أطبقت على أهلها جنودك وعصابات أكرادك فأثخنوا فيهم قتلا حتى ملأت جثثهم الهضاب والبطاح. دخلوا المنازل من أبوابها ونوافذها فذبحوا بحد السيف أهلها، سبوا نساءها وهتكوا أعراضها ورفعوا أطفالها على حرابهم وساقوا شيوخها إلى المذابح كما تساق النعاج. مليون جثة طرحت في الشوارع والحقول والجبال والاودية والمدن والقرى حت ضج العالم المتمدن لهذه الفظائع ضجيجاً بلغ عنان السماء. بلغت فظائعك لبنان. ذلك الجبل الأشم الشامخ الذرى الرفيع العماد، الناطح السحاب، المكلل بالضباب، المسربل بالثلوج الناصعة البياض، البالغ أرزه الجو، المكسوة أرضه رياحين وأزهاراً، الجارية ينابيعه الفضية جداول وأنهاراً، الفائحة تربته ندىً وعبيراً، الذي يهب نسيمه عليلا ويجري هواؤه بللا. جبل أهله شم المعاطس، كبار النفوس لا يصبرون على ضيم، ولا ينامون على ذل... وطئت ذلك الجبل فدنست تربته وأفسدت أرضه ودست أزهاره وسممت

هواءه، وأجريت الدماء على هضابه الجميلة وأوديته المطمئنة كأنها السيل الجارف.

أجل: لطخت ثلوجه الطاهرة بدماء أبنائه يوم وقفت بين أخويه وفرقت بين شقيقيه. وقفت تشاهدين كيف يتبارز القرنان، وكيف يقتتل الندان، وكيف تراق دماؤهما على شفار الأسنّة وذباب السيوف. وقفت عن بعد أو قرب باسمة الثغر مشرقة المحيا وضاحة الجبين كأنك تشاهدين رواية تمثل على مسرح من مسارح التمثيل. خبرك اللبنانيون بطنا وظهراً ونفروا منك سراً وجهراً. لقد ساء فألك وأحبطت آمالك، فما كاد الشقيقان يفترقان حتى التقيا وما أوشكا يتنافران حتى اصطفيا. وها هما الآن يعقدان الخناصر فوق ضريحك ويتعاهدان على الولاء فوق لحدك.

ألا تذكرين ما فعلت بأبنائك يوم ارتقى نيرونك عرش المملكة وقبض على صولجان الدولة، أطفأت نور الحرية وأخذت بخناق الرعية وبطشت بكل كبير سوّلت له نفسه إصلاحا وبكل عظيم أراد لأمته فلاحاً. أقفلت مدارسك في وجه رعيتك وفتحت أبواب سجونك لأحرارك وضغطت جرائد الامة ضغطاً شديداً وأرغمتها أن تسبح بحمدك بكرة واصيلا وتحرق على مذبحك البخور نهارا وليلا. أفسدت أخلاق الأمة إفساداً بلغ شغاف قلبها ونكلت بها تنكيلا وفتكت بها فتكا ذريعا، وأقمت عليها جيوشاً جرارة من الجواسيس السافلين ونصبت عليها مديرين من الرجال المنافقين والقضاة والمرتشين والحكام الظالمين البائعين ذممهم بدراهم معدودات، المرتكبين ضروب الموبقات الآتين بين أبنائك أصناف المنكرات، فخنعت الرعية أمام هذا الاستبداد الهائل خنوعاً لم يسمع بمثله منذ غابر الدهور وانقلب الابن جاسوساً على أبيه والأخ على أخيه والزوج على زوجها والأخت على شقيقها، وخيم على الدولة ظلام دامس يكاد يلمس بالأنامل حتى أصبحت السلطنة في ظلمات بعضها فوق بعض. ظلام في العقول وظلام في النفوس وظلام في الاخلاق. اتخذت لنفسك ألقاباً ضخمة وادعيت أنكِ ظل الله على الارض. حاشا الله العلي العظيم أن يكون له ظل يميت النفوس ويقتل العدل ويعقل الحرية ويطفئ النور ويعبث في أرضه يهرق دماء عبيده ويستبيح أموالهم ويهتك أعراضهم ويذبح أولادهم، انه الاله العزيز الحكيم تقدست أسماؤه الحسنى وتعالى علواً كبيراً عما يقول الظالمون.

انقضى عهد الاستبداد وجاء دور الدستور الذي كان نشيد شعرائك وموضوع كتابك وقيثارة

مغنيكِ يوم سكرت الأمة به كما بالصهباء وتعانق الاقوام في الساحات والشوارع ورفعوا أهلالك فوق دورهم المزدانة بالانوار والازهار وحسبوا أن العصر الذهبي قد حل بعد طول الانتظار. يوم تنوسيت الاديان والعناصر وعقدت الامة على ولائك الخناصر وتجاوبت أصداء التهليل من سهول سورية حتى بلاد العرب ومن جبال مقدونية حتى طرابلس الغرب. رن صدى هذه الافراح في طول البلاد وعرضها، وشعرت المملكة المرة الاولى في حياتها أنها أمة واحدة ذات شعور واحد وروح انبثق عليها فجر عصر جديد، فانفسح أمامها الامل كأنه صورة جميلة وقام في مخيلتها الاستقبال كأنه فردوس بديع، وحسبت الاهة النصيب لفت عليها يمينها وشمالها وأن كل شعب طلب السعادة نالها.

حسبت أن الامم بدساتيرها ولم تفقهي أن الدساتير بأممها، وخيل اليك أن الشعوب بمجالس شوراها ولم تدري أن مجالس الشورى بشعوبها. ظننت الدستور معملا كيماويا، بل حسبته خجر الفلاسفة الذي يحول المعادن ذهبا أو أكسير الحياة الذي يمنح الامم الخلود. أينبت الشوك ورداً أو الحسك نرجساً؟

يا أمة ضحكت من جهلها الامم. ماذا أفاد دستورك أو ما جنيت من شوراك؟ مناقشات عقيمة ومشاحنات سقيمة واختلافات جنسية وتعصبات دينية. كان الفساد قبل الدستور استبداديا فأصبح بعده شورويا. اقترضت حكومتك حينئذ أربعين مليوناً من الجنيهات، فما فعل بها أحرارك؟ أين المدارس التي بنوها، والترع التي حفروها، والمعامل التي شادوها، والسكك الحديدية التي أنشاؤوها، والمناجم التي فتحوها، والمعادن التي استخرجوها؟ كان انتخاب نوابك بحد السيف لا ينتخب منهم الا من اشارت بانتخابه حكومتك. غللت ايدي المنتخبين وضغطت حريتهم وأرهبت من لم يمتثل لك أمراً وضيقت على الجرائد، فما هي فائدة دستور شر من الاستبداد؟ وما جدوى شورى اقتل من الاستعباد؟

عشت ستمئة سنة لم تنسي في خلالها شيئاً ولم تتعلمي شيئا. جور على الرعية وظلم في الامة وقتل للحرية ومذابح هائلة وموبقات فظيعة ومنكرات وحشية، يتلو كل ذلك خسران ولاية من ولاياتك. كانت حياتك سلسلة من هذه النوبات العصبية والتشنجات الهائلة، لا تكاد تهجع نوبة منها حتى تبدأ نوبة جديدة تخسرين في نهايتها ولاية أخرى. على هذا النحو بشرت جميع ولاياتك. دبت في جسمك الغنغرينا السياسية التي هي أقتل من الغنغرينا

الجراحية، فماتت اعضاؤك وتساقطت الواحدة تلو الاخرى. سموك بالرجل المريض لأن داءك عضال ومرضك عقام لا يدانيه داء ولا ينجح فيه دواء.

بيد أن أغرب ما فيك أنك لم تخلفي بعد هذه القرون الطوال تمدنا ما. أنت الدولة الوحيدة في تاريخ العالم التي لم تترك وراءها تمدنا. ولدت من السيف وترعرعت بالسيف وعشت بالسيف ولقيت حتفك بالسيف. ورثت دولة العرب في مجدها وفتوحها وسعة سلطنتها وعزها، ولكن العرب خلفت آثاراً خالدة في العلوم والفنون والصناعة والادب، أما أنت فلم تخلفي الا الدمار والخراب. ظهرت كالزوبعة وسرت كالعاصفة وغلبت كالصاعقة. لا يذكر لك التاريخ سوى القوة الوحشية والشجاعة البربرية. وضع العالم أكاليل من الأزهار والرياحين على ضرائح بابل وأشور ومصر وفينيقية ومقدونية واليونان وروميةوقرطاجنة وبغداد، اما على ضريحك أنت يا ابنة التتر فلا يضع زهرة ولا بسكب دمعة.

ما أفوه به الآن على ضريحك صرحت يه يوم كنت حية، وكان سيفك مصلتا فوق رقاب العباد. يوم كان نيرونك السفاح بطاشا فتاكاً، إذا غضب ضرب وإذا ضرب فتك. صرحت به على روؤس الاشهاد في أشهر وأعظم جريدة في العالم. دللتك وقتئذ على مواضع الضعف في سلطنتك وأتيت على بيان ادوائك القتالة، ووصفت لك الادوية الناجعة. فما وقع كلامي على آذان مصغية وقلوب واعية، بل ذهب أدراج الرياح. فكنت كغيري من المصلحين الذين أرادوا لك خيراً، كاتبا على صفحات الماء أو صارخاً في فلوات الصحراء.

أرقدي أيتها الصاعقة في القبر الذي فتحته لنفسك ونامي في الضريح الذي اخترته لرقادك. لقد انقضى نهارك وجاء ليلك فانبثق فجرنا ولاح صباحنا.

هوذا الصباح قد لاح. هوذا الفجر قد انبثق وطلع النهار وبرزت الغزالة في افق المشرق. هوذا الطيور الشادية تغرد على الافنان والازهار الباسمة تملأ الجو بروائحها العطرية وتقر النواظر بألوانها الجميلة. الارض مكسوة حلة سندسية والجداول تنساب بين الانجم والاشجار كأنها مجار فضية. هوذا صفير البخار قد ملأ سهولنا وجبالنا ودم الحياة قد جرى في شراييننا وأوردتنا.

أنصتي، فعمّا قليل تسمعين المطارق الصناعية ترن في مصانعنا رنين موسيقى مطربة، والبخار يدير معاملنا الصناعية وآلاتنا الميكانيكية ومحارثنا الزراعية ومصانعنا التجارية. عما قليل تشق معاولنا وأدواتنا بطن الأرض فتخرج لنا كنوز الذهب والفضة والنحاس والحديد والفحم الحجري المدفونة في قلبها. سنفتح الترع في أنهارنا حتى نجري مياهها عسجدا ولجينا، وننشىء السكك الحديد حتى تتشعب في البلاد تشعب الأوعية الدموية. سنشيد المدارس ونضيء مصابيح العلوم والمعارف التي أطفأتها، وننشر الوية الحرية التي طويتها، ونفسح المجال لجرائدنا ومجلاتنا التي عقلتها، وننير بلادنا بالانوار الكهربائية من قنن الجبال حتى بطون الاودية.

أجل سنمزق اكفاننا وننشر من قبورنا ونبرز الى عالم الحياة والنور أقوياء في أجسامنا وعقولنا، أصحاء في عمراننا وأخلاقنا. سننهج منهاج للبلدان المتمدنة ونسير على طراز الامم الراقية.

سنقطع قيود الاستعباد واغلال الاستبداد، ونخلع تقاليدنا البالية وتعصباتنا الدينية واختلافاتنا الجنسية ونطرحها في قاع البحار حيث تبقى مدفونة إلى الأبد.

لقد انقضى نهارك فانبثق فجرنا، وجاء ليلك فلاح صباحنا.

تطوّر المسألة السورية

كان للمسألة السورية في مؤتمر الصلح شأن خطير لم يكن في حسبان أحد ولم يدانها في الخطورة سوى معضلة الجوغسلاف التي كادت تكون باعثاً على فشل مؤتمر الصلح وانفراط عقده.

كان الطور الأول لهذه المسألة المحالفة التي عقدتها روسيا وانكلترا وفرنسا يوم اقتسمت هذه الدول أملاك السلطنة العثمانية، فكانت القسطنطينية نصيب روسيا، والعراق وما بين النهرين وفلسطين نصيب إنكلترا، وسوريا نصيب فرنسا.

ولما شبت الثورة وتنازل قيصر روسيا عن العرش، عثر البلشيفيكيون في خزائن الدولة على هذه المعاهدة السرية[1] ونشروها، فعقدت إنكلترا وفرنسا بعد ذلك معاهدة سرية جديدة قسمتا بموجبها سوريا إلى مناطق نفوذ بين إنكلترا وفرنسا والدولة العربية.

بيد أن ولسن أعلن عند خوض الولايات المتحدة غمار الحرب أنه لا يجوز العمل بالمعاهدات السرية السابقة، ولا يجوز عقد معاهدات سرية في المستقبل بين الدول. فكل معاهدة يجب أن تكون جهرية فأمّنت دول الحلفاء على قوله، واعتبرت تصريحه بوجوب تحرير الشعوب الضعيفة وإطلاق حريتها في مصيرها ونوع حكومتها وحياً هابطاً من السماء يجب الجري عليه.

ولكن كليمنصو لم يقبل التنازل عن المعاهدة التي كان عقدها مع انكلترا بشأن سوريا، فصرح قبل عقد المؤتمر أن صداقة فرنسا لانكلترا متوقفة على قيام هذه بعهدها فيما يختص بسوريا، وكان كلامه في هذا الصدد شديد اللهجة، بل أشبه بإنذار لإنكلترا. ولما طالعناه استنتجنا أن هنالك خلافاً في الرأي وأن إنكلترا أرادت العدول عن المعاهدة السرية عملاً بتصريح ولسن ومراعاة لمصلحتها هي.

---

1 إشارة إلى معاهدة سايكس–بيكو.

ولما زار الرئيس ولسن إنكلترا في طريقه إلى المؤتمر جرى له حديث طويل مع لويد جورج تناولا في أثنائه أطراف المسائل السياسية، ونرجح أنهما اتفقا حينئذٍ مبدئياً على الشؤون الخطيرة وفي عدادها المعاهدة السرية والمسألة السورية، وعقدا العزيمة على عقد معاهدة أنجلو-سكسونية بينهما فيما إذا عمدت فرنسا إلى المقاومة العنيفة.

أدرك كليمنصو ذلك، فصرّح في مجلس الأمة أن فرنسا تجتاز الآن أزمة لا مثيل لها في خطرها وهو تصريح غريب من رئيس وزارة دولة في إبان مجد الانتصار، وحاول أن يتقي هذه الضربة الهائلة بعقد محالفة لاتينية ولكنه علم أنّ كفته تكون مرجوحة لا راجحة، فعمد إلى الدهاء السياسي.

ولما كانت رابطة الأمم التي قال ولسن بوجوب تأليفها العقبة الكؤود في سبيل استيلاء فرنسا على سوريا عارضها كليمنصو معارضة شديدة وهو يحسب أن لويد جورج يحذو حذوه، ولكن هذا الداهية خيب آمال كليمنصو فوقف إلى جانب ولسن، وأيده كل التأييد ثم دارت بعد ذلك تلك المناقشات الطويلة العريضة بخصوص الرابطة المشار إليها وتمهيد العقبات التي قامت في سبيلها.

كان أمل كليمنصو الكبير فشل الرابطة والعودة إلى المعاهدات الأوربية القديمة، فعقد إذ ذاك معاهدة مع انكلترا وإيطاليا تتقاسم بموجبها السلطنة العثمانية وتكون سوريا من نصيب فرنسا. وفضلاً عن ذلك فإن رابطة الأمم الضامن الوحيد لكيان الشعوب الضعيفة وحريتها، فإذا فشلت الرابطة أصبحت تلك الشعوب تحت رحمة الدولة القوية تتصرف فيها تصرف المالك في ملكه.

لم تفشل رابطة الأمم بل بالضد من ذلك أفلحت والفضل في إقرارها عائد إلى ولسن ولويد جورج لأن كليمنصو وأورلندو أقاما من طريقهما عقبات جمة، ولكنهما اضطرا آخراً إلى الإذعان.

في هذا الموقف، أعلنت إنكلترا أنها تتنازل عن المعاهدة السرية وتضع بين يدي رابطة الأمم ما بين النهرين وفلسطين للحكم بشأن مصيرها، فاضطر كليمنصو إلى أن يضع بين يدي الرابطة المشار إليها سوريا.

تشكلت المسألة السورية حينئذٍ بشكل جديد لم يكن لها قبلاً وخرجت من حيز التحكم والاستبداد إلى حيز الرابطة التي في يدها أزمة العالم، وأحس كليمنصو أن السمكة أفلتت من يده، وخصوصاً لأنه أضيف إلى هذه المعضلة عامل جديد زادها تعقيداً وهو العرب الذين كان قد عقد الإنكليز معهم عهداً على حدة بعد عقدهم المعاهدة السرية مع فرنسا، فجاء الأمير فيصل إلى باريس وطلب من مؤتمر الصلح استقلال البلاد العربية وسوريا استقلالاً تاماً ولم يطلب ضم البلاد الثانية إلى الأولى كما تبادر إلى ذهن الكثيرين، ولكنه طلب إرسال لجنة دولية مختلطة إلى سوريا تأخذ رأي أهلها في نوع الحكم الذي يختارونه لأنفسهم، وأقر مجلس الصلح على إرسال هذه اللجنة كما علمنا في حينه.

في هذا الموقف رمى كليمنصو من يده ورقة اللعب الأخيرة التي كان متشبثاً بها وهي مصر، فناصر الحزب الوطني المصري وقابل وفده في باريس، واستعرت على أثر ذلك الثورة المصرية استعاراً لم يكن في الحسبان، ولم تنقل إلينا الرسائل البرقية عنه إلا ما كان دون الواقع، فكأن كليمنصو قال للويد جورج إذا كنت لا تعطيني سوريا أنتزع منك مصر.

ولما بلغت المسألة السورية هذا الحد أحاط بها الغموض والإبهام، فلا نعرف شيئاً جرى بخصوص اللجنة الدولية، وما إذا كانت أرسلت أم لا، ولكننا نعرف أن الإشاعة القائلة باتفاق فيصل وكليمنصو كاذبة لا أثر لها من الصحة.

في هذا الطور تنبه الشعور الوطني السوري تنبهاً لم يكن في الحسبان، فنشرنا «الكتاب المفتوح» الذي كان له صدى كبير في أنحاء العالم الجديد، وكنا أول القائلين بالاستقلال التام المطلق خالياً من كل حماية أو سيطرة أو وصاية أو ما شابه ذلك من الكلمات المطاطة. وقام الحزب الديمقراطي الوطني بواجبه المقدس للوطن على ما سنبينه في حينه، وأنشأ في خلال بضعة أسابيع سبعة فروع ووضعت الأحزاب الاستقلالية الأخرى في هذه الجمهورية وسواها يده في يدنا وقامت هي أيضاً بما دعاها إليه الواجب الوطني، وهبت الصحافة العربية الحرة في المهاجر تطلب الاستقلال التام المطلق واتجهت الخواطر إلى الولايات المتحدة لتكون هي الدولة المرشدة لنا إذا حكمت رابطة الأمم بوجوب إرشادنا إلى حين. وسنعود إلى هذا البحث الخطير في الاجزاء الآتية.

جهادنا في سبيل الاستقلال

تملّصت سوريا من يد الأحزاب الاستعمارية كما تتملَّص السمكة من يد الصياد!

كنا على ثقة من هذه النتيجة الباهرة حتى في أشد ساعات الظلام حلكاً. فلم تخر لنا قوة ولم يهن لنا عزم ولم يتطرق اليأس إلى قلبنا حتى في أدعى المواقف إلى اليأس.

كان للصيحات التي صحناها وسائر الجمعيات التي وضعت يدها في يدنا والأحزاب الاستقلالية في سائر المهاجر صدى كبير في الدوائر السياسية العليا، لأنها كانت أشبه بيقظة عربية بعد هجوع خيّل عنده إلى الناظرين أن السوريين في سبات الموت.

امتدت هذه الحركة من الجوالي السورية في المهاجر إلى الوطن. وكنا أول من نفخ في ضرامها وأضرم نارها وأول من قال بالاستقلال التام المطلق خالياً من كل سيادة شرقية أو سيطرة غربية وخلواً من كل حماية أو وصاية أو رعاية أو غيرها من الكلمات المطاطة التي لا تؤدي على الحقيقة إلا إلى نتيجة واحدة وهي الاستعباد أو الاحتلال أو الاستعمار.

ولما جاهرنا بذلك أولاً، حسبه بعضهم بدعة سياسية وأكبروا هذا التصريح لأن أدمغتهم كانت مشربة بالأقوال الخنفشارية التي كان يوحي بها طلاب الاحتلال ويسمون عقول القراء بمقالات سفسطانية مطلية بطلاء الفلسفة الكاذبة، قرروا فيها قواعد جمة، في عدادها أن السوريين أطفال رضع لا يفهمون شيئاً من نواميس العمران، ولا يدركون مقدار ذرة من سياسة الشعوب، وأنه لا بدّ لهم من أم حنونة ترضعهم لبنها، وتمهد لهم سبل الارتقاء وتبذل من مالها في سبيل إسعادهم، وتسهر عليهم ليلاً ونهاراً حباً بسواد عيونهم وعطفاً عليهم دون أن يكون لها مطمع في مصلحة سياسية أو سعي وراء غاية اقتصادية.

عقدنا المقالة تلو المقالة في تفنيد هذه المزاعم ونسف هذه الأباطيل، وأبنّا أن السوريين أرقى شعوب الشرق الأدنى، بل أرقى شعوب آسيا كلها خلا الشعب الياباني وأنهم أرقى من كل

الأمم البلقانية في فجر استقلالها. بل أرقى من بعضها بعد استقلال ثلاثين أو أربعين سنة، وأن فينا فلاسفة وعمرانيين وقادة أفكار يصلحون لتدبير ممالك، وأن السوري إذا لم يكن أرقى من أرقى الأوروبيين بينةً وعقلاً، فهو مساوٍ لهم، وأن الأخصائيين الذين نحن في حاجة إليهم يجب أن يكونوا تحت الحكومة السورية أي قوماً مأجورين، وأنه لا يجوز أن يكون لدولة قط سيادة علينا، وأن صوت الشعب صوت الله.

لم نأتِ بهذه البيانات والتصريحات على اكتشاف عظيم لم يخطر على بال بشر، ولكننا أوقفنا البيضة على أحد طرفيها وقلنا قولاً صريحاً استقلالياً جريئاً خالياً من كل غموض وإبهام ونادينا بالحقيقة البسيطة المجردة التي لم يناد بها أحد قبلنا، وهو أن ليس للاستقلال من قيد ولا شرط ولا أهلية لأن عباد الاحتلال ومكتشفي الحماية اتخذوا الأهلية خندقاً يتحصنون فيه كما تحصن الألمان في خنادقهم بعد معركة المارن. ومما قلناه بهذا الصدد ما يأتي:

«كلا! ليس للاستقلال من قيد ولا شرط إلا ما تضعه القوة القاهرة الجائرة الطامعة في أملاك الغير السالبة الأمم باسم الإنسانية الناهبة الشعوب، باسم البشرية المستعبدة، باسم الحرية الظالمة، باسم التمدن الساترة قفازها الحديد بقفاز مخملي، المناولة الأمم صكوك الحرية بيسراها ومغمدة في قلوبها خناجر الاستعمار بيمناها.

«نريد أن ندير منزلنا بالحق الذي يخوّل البربري تدبير منزله، ونريد أن نحكم وطننا بالحق الذي يخوّل البرابرة حكم أوطانهم».

«نفضّل أن نكون برابرة أحراراً على أن نكون عبيداً متمدنين».

كانت هذه المقالات أشبه بتيار كهربائي جرى إلى القلوب، فهز أوتارها وإلى النفوس فكهرب شعورها، فنشطت الهمم ونبهت الخواطر واستيقظت العزائم، ولم ينقض على ذلك إلا القليل من الزمن حتى أصبحت البدعة السياسية إيماناً وطنياً، وأصبح الجميع يطلبون الاستقلال التام المطلق حتى طلاب الحماية!

وبعد أن كانت أكثر جرائد المهاجر تقصر بحثها على أية هي الدولة التي يجب أن تحكمنا، غيرت نغمتها وأخذت تبحث في وجوب استقلالنا استقلالاً تاماً مطلقاً خالياً من كل سيطرة أو حماية أجنبية حتى أن عبيد الاحتلال أنفسهم غيروا نغمتهم وعدلوا عن طلب الحماية

إلى طلب المساعدة وسموا الدولة المطلوبة (الدولة المساعدة) عوضاً عن تسميتها (الدولة الحامية).

أجل إننا ورصفاءنا الذين جروا معنا في هذا المضمار قمنا بواجبنا المقدس نحو الوطن بصفتنا الشخصية وبصفتنا عضواً في اللجنة العليا المنفذة للحزب الديمقراطي الوطني الذي أدى للوطن خدمات جليلة دون ضجيج ولا تبجح، رغماً من كون الهيئة السياسية السورية الأولى التي أطلقت على نفسها اسم (حزب)، والحزب السوري الأول الذي نادى بالاستقلال التام المطلق خالياً من كل قيد أو شرط والتفّت حوله جمعيات شتى.

ومن الغريب بعد كل هذا أن بعض رصيفاتنا من جرائد العاصمة إذا ذكرت الأحزاب السورية القائلة بالاستقلال التام المطلق تفتش في قاموسها على اسم حزب سوري بجانب الخط الاستوائي أو على مقربة من القطب الشمالي. أما الحزب الديمقراطي الوطني فيحسب بجانبها أنها إذا لم تشرفه بالذكر بين أعمدتها سقط من عداد الأحزاب السورية الاستقلالية وأصبح نسياً منسياً!

ولما صادرت المراقبة الفرنسية التلغرافات الجريئة التي بعثناها إلى الرئيس ولسن ومؤتمر الصلح طالبين الاستقلال التام المطلق خالياً من كل حماية أو وصاية ومقررين فيها أن السوريين أرقى الشعوب في الشرق الأدنى وأنهم أهل للاستقلال لا يرضون عنه بديلاً، رجونا الوزارة الخارجية في لندن وسفارة الولايات المتحدة فيها تكرار هذه الرسائل البرقية وتبليغها لأصحابها، وأثبتناها أيضا بتلغراف خاص إلى اللويد جورج في لندن ووزارة خارجية الولايات المتحدة في وشنطن، فكان من وراء ذلك انكشاف دسائس الحزب الاستعماري الفرنسي وإخفائه التلغرافات المشار إليها، فاضطرت الحكومة الفرنسية بحكم الضرورة إلى التحري فكانت نتيجة تلك الفضائح التي وردتنا الأنباء البرقية بشأنها، وهي إخفاء بعض العمال مئات من أمثال تلغرافاتنا بناء على إيعاز الحزب الفرنسي الاستعماري لأنها لا تنطبق على أماني الاحتلال والحماية.

كان الوطن منقطعاً في ذلك الحين عن العالم الخارجي ولم يكن عارفاً شيئاً من قضيتنا أمام مؤتمر الصلح ودول الحلفاء، فكان الجهاد في سبيل استقلال سوريا مقصوراً على الحزب

الديمقراطي الوطني ورصفائه من الأحزاب الاستقلالية الأخرى التي قامت كلها بنصيبها من الجهاد المقدس في سبيل استقلال الوطن إلى أن أتيح لهذا الوطن التعس أن يبسط أمانيه أمام المؤتمر المذكور، ويقول كلمة بشأن نفسه أمام اللجنة الأميركية التي أرسلت خصيصاً لهذا الغرض.

كتابات في البرازيل
سلسلة سورية وفرنسا ومؤتمر الصلح

[1]

في أوائل حرب الأمم

فاجأت حرب الأمم الشرق على غير انتظار، ولكنها لم تؤثر فيه تأثيرا يستحق الذكر إلا بعد أن خاضت الدولة العثمانية غمارها ووضعت كيانها ونصيبها في كفة ألمانيا.

فتش الأتراك في دفاترهم القديمة والجديدة فوجدوا فيها إسم جمعية تسمى الجمعية اللامركزية غرضها إحراز إستقلال سوريا الإداري مع بقائها عضوا غير منفصل عن جسم السلطنة العثمانية، مركزها مصر ولها فروع في الخارج وهي التي كانت قائمة بما أطلق عليه حينئذ إسم الحركة العربية التي كان من أمرها انعقاد مؤتمر في باريس سمي المؤتمر العربي ضم بعضا من أعضائها وفريقا كبيرا ممن لا علاقة لهم بها. وقد رأى المدعوون حينئذ وجوب انتداب سوريين من مصر يكون أحدهما شيخا مسلما لإكساب المؤتمر صفة وطنية والآخر مسيحيا. فبعثت جمعية اللامركزية المرحوم عبد الحميد الزهراوي[1] واسكندر عمون. وتولى الأول منهما رئاسة المؤتمر خصوصا لأنه كان قد اشتهر بدفاعه عن حقوق العرب في مجلس الأمة. وكان من أمر هذا المؤتمر أن جمعية الإتحاد والترقي في الأستانة بعثت بمندوبين من قبلها يتفقون مع المؤتمر على طريقة ترضي الفريقين. ثم توجه بعد هذا الزهراوي إلى الأستانة لعقد اتفاق نهائي ولم ندر بعد ذلك ما جرى لأن الزهراوي عين عضواً في مجلس الأعيان وانتخاب الأعضاء الجدد لمجلس الأمة تم تحت سيطرة جمعية الإتحاد والترقي فكانت أكثريته في جانبها. وبقيت المسألة العربية هاجعة حتى خوض تركيا غمار الحرب.

صهرت نار الحرب السوريين على اختلاف أديانهم وطوائفهم، وكونت منهم في بوتقتها كتلة واحدة فشعروا أن الأمة التي لم يفرق بينها الموت أولى أن تجمعها الحياة.

---

1 عبد الحميد بن محمد شاكر بن ابراهيم الزهراوي (1855-1915) مفكر وصحفي عند نشوب الحرب العالمية الأولى قبضت عليه السلطات العثمانية، وحكم عليه في «ديوان عالية العرفي» بالموت. نفذ به الحكم شنقاً في دمشق في 6 أيار سنة 1916.

كان المواطنون المتخلفون يرقبون البحر منتظرين قدوم فرنسا لتنقذهم من الجوع والظلم. ولو أتت حينئذ قوة فرنسية لا تزيد عن بضعة آلاف لالتف حولها السوريون ولامتلكت فرنسا قلوبهم وربطتهم إليها برابطة لا انفصام لها. ولكنها لم تأتِ ولم ترسل جيشاً حتى ولا فرقة صغيرة رغما من تضرعات قائد قواتها في جزيرة أرواد الذي كان يبصر الشقاء الهائل المحيق بالسوريين، وكاد يسمع عويلهم وأنينهم والتقارير التي بعث بها إلى حكومته بهذا الصدد تفتت القلوب. ولكن من سوء حظ سورية وفرنسا معاً لم تأت قوة إفرنسية إلى بيروت أو غيرها من مدن الساحل.

أما الأثر السيء الأول الذي علق في الأذهان، فكان إهمال قنصل فرنسا في بيروت إعدام الأوراق التي كانت سبباً لهلاك بعض نجباء شبان سورية وهو إهمال لا يعذر عليه رجل عامي، فبالأولى أن لا يعذر عليه ممثل دولة في بلاد أجنبية يعرف أكثر من سواه عواقب الوقوف على أسماء الذين بعثوا بمعاريض يطلبون فيها مطالب سياسية تجوّز لرجال الحكومة العثمانية إتخاذها ذريعة لإهلاكهم.

لم تتألف خلال الحرب جمعيات سورية ظاهرة ترمي إلى استقلال البلاد، لا في الوطن لأن ذلك لم يكن ممكناً إذ أن الحكومة كانت تشنق الذين سعوا أثناء السلم وراء إستقلال سورية الإداري، فكيف بها لو قبضت أثناء الحرب على سوريين يرمون إلى استقلال تام وهو من الوجهة العثمانية جريمة تستحق العقاب بالموت، ولم يكن عليها في ذلك من لوم ولا في المهاجر، لأن الجميع كانوا على يقين من أن مصير سورية يتوقف على نتيجة الحرب، فإذا انتصرت تركيا فلا أمل لهم بالإستقلال. وكانت انتصارات ألمانيا المتوالية وطول أجل الحرب مما يخور العزائم ويحمل على التشاؤم. لذلك تربصوا إلى أن تنجلي النتيجة الفاصلة، وكان تربصهم عين الصواب لأن كل حركة في ذلك الزمن كانت عقيمة إذ لا بد في كل ذلك من توجيه الطلب إلى الحلفاء، والحلفاء أنفسهم لم يكونوا حينئذ على ثقة من بقاء استقلالهم هم. بيد أن آمال كثيرين منهم كانت على الجملة متجهة إلى فرنسا، وكانوا على يقين من أنه إذا كُتب النصر للحلفاء، كانت فرنسا في مقدمة الدول التي تناصرهم نظراً لما بينها وبينهم من العلاقات التاريخية ولما اشتهر به شعبها من حب الحرية. وكانت تصريحات رجال حكومتها

بشأن تحرير الشعوب الضعيفة المرة بعد المرة، وذكر استقلال سورية تكراراً بعبارات صريحة خالية من كل غموض وإبهام مطمئناً للخواطر ومحيياً للأمل بنيل هذه الأمنية الخطيرة التي هي مطلب كل شعب حر يحترم نفسه، ويسعى إلى إحراز الحرية التي هو جدير بها والإرتقاء إلى المقام الذي هو أهل له بين شعوب العالم الحرة.

[2]

سلة المهملات

كان من وراء شنق فريق من السوريين وعدم إصاخة جمال باشا[1] السمع إلى رجاء الوسطاء وفي عدادهم الأمير فيصل، نفور العرب العرباء من الأتراك عموماً وحزب الإتحاد والترقي خصوصا، والإقبال على إقتراح إنكلترا لإضرام نار الثورة. وهي خطوة كانت على قلة العرب الذين قاموا بها كبيرة النتائج، لأن مسلمي الهند رأوا في انتفاض شريف مكة على الدولة العثمانية عملا ملغيا لمنشور الجهاد الذي أذاعه السلطان في العالم الإسلامي. ورأى قادة السوريين الذين كانوا أشبه بمسافرين في بحر تحطم فيه مركبهم أن في الثورة العربية خشبة يمكنهم التشبث بها. ولكن الحركة المذكورة لبثت غامضة، بسبب انقطاع العلاقات بين البلدين، وكان الأتراك يذيعون على الدوام أخبار انتصاراتهم، وهي انتصارات بعضها حقيقي وكثير منها لم يكن إلا وهميا.

من الغريب في أمر الثورة العربية أن جمهور نصارى المهاجر حبذها وأطرأ القائمين بها، أما مسلموها فقد أعرضوا عنها وشجبوها. وعواطف الأولين دليل قاطع على أن النصارى كانوا يكرهون العنصر التركي لا الدين الإسلامي المتدين ذلك العنصر به، ويدركون أن استقلال بلاد العرب مقدمة لاستقلال سورية.

وإذا كان السوريون المتخلفون على جهل تام من المعارك والإجراآت الحربية أثناء حرب الأمم، فإن الجوالي كانت تقف يوميا على الأنباء الضافية التي يحملها البرق كل يوم إلى المهاجر، حتى أنه يصح أن يقال إنّ المهاجر كانت تعرف عن الحركات الحربية أكثر مما كان يعرفه الأوروبيون عن أنفسهم. وكانت التصريحات التي فاه بها ممثلو حكومات الحلفاء بشأن تحرير الشعوب الضعيفة وحقوقها في تقرير مصيرها باعثاً على عقد الآمال بالاستقلال.

---

1 أحمد جمال باشا (1872-1922)، عسكري تركي عين حاكماً عسكرياً لسورية أثناء الحرب العالمية الأولى، لقب بالسفاح لاعدامه العديد من الوطنيين السوريين متهماً إياهم بالخيانة.

أما حكومة فرنسا فكانت على ثقة من أن السوريين راغبون في بسط حمايتها عليهم كل الرغبة، وأنهم منتظرون بفروغ الصبر ذلك اليوم السعيد الذي تطأ فيه أقدام الجنود الفرنسية أرض سورية، ويخفق فوق ربوعها العلم المثلث الألوان. وكان فريق من المتزلفين السوريين في باريس يرسخ هذا الإعتقاد في ذهن الحكومة، ويؤكد لها أن الأمة بحذافيرها تطلب فرنسا بصوت واحد.

لذلك عقدت فرنسا المعاهدة السرية مع إنكلترا وروسيا بشأن استيلائها على سورية، وهي غير معتمدة في ذلك على قوتها الحربية فقط وما يخولها النصر من حقوق القوة، بل مستندة أيضا على عواطف السوريين، وحسبت أنها ملكت قلوبهم قبل أن تملك بلادهم. وزعمت أنهم لا يريدون طرح نير تركيا إلا للحصول على بركة الاستعمار الفرنسي، والحقيقة خلاف ذلك على خط مستقيم.

لما أذاع البولشفيون المعاهدة السرية، ظهر الحلفاء عارين أمام العالم وانفضح إنجيلهم الكاذب الذي كانوا يبشرون الناس به، وتبدت مقاصدهم السيئة التي حاولوا سترها عن أعين البشر. استيقظ السوريون في جملة المستيقظين، وأبصروا النور في جملة المبصرين، وأدركوا أن تلك التصريحات لم تكن إلا ترهات يراد بها ذر الرماد في العيون.

بيد أن خوض الولايات المتحدة غمار الحرب في جانب الحلفاء، وتصريحات ولسن الصادقة بوجوب تحرير الأمم الضعيفة وتنظيف الأرض من شرور الحربية وإبطال المعاهدات السرية، أنعش آمال البشر الذابلة وأشرق على الإنسانية نور جديد. فدخلت حينئذ المسألة السورية كغيرها من مسائل الأمم السيئة الطالع في دور جديد. وكان من مصلحة الحلفاء حينئذ التأمين على أقوال ولسن وموافقته على كل ما يصرح به.

رأت الحكومة الفرنسية منذ البداية أنه لا بد في ستر وجهها أمام العالم المتمدن من اتخاذ الذرائع اللازمة لإقامة البرهان ولو بالسفسطة على أن السوريين هم الذين يطلبون فرنسا، وأن أعمال الحكومة الفرنسية في هذا الصدد مبنية على رغائب أهل سورية أنفسهم.

ولقد ساقها سوء الطالع إلى إنشاء اللجنة السورية المركزية في باريس. ولو عصرت الحكومة الفرنسية دماغها لابتكار طريقة تنفِّرُ منها من بقي لها من الأصدقاء بين السوريين، لما

توفقت إلى مثل هذه الذريعة التي أضرت بعلاقة فرنسا بالسوريين ضرراً لم يخطر لتلك الحكومة في بال.

ولما كان الغرض من تأليف اللجنة المذكورة أن تكون ستاراً لعمل وراءه الحزب الإستعماري الفرنسي ويحقق مطامعه الشعبية في سورية، فقد قامت اللجنة بوظيفة الستار كما يجب. ولكن لسوء حظ الحزب الإستعماري والحكومة الفرنسية، كان ذلك الستار شفافاً جداً إلى حد أننا كنا نشاهد الألاعيب التي كان يقوم بها وراءه كأننا معه. ولكن ذلك لم يهم الحزب المذكور شيئاً لأن الغرض من الستار كان أي يكون حاجزاً بين الحزب المشار إليه وحكومات الحلفاء التي إذا أبصرت بصفتها الشخصية تلك الألاعيب الرياضية السياسية التي تعرفها هي أيضاً جيداً، وكانت هي نفسها آخذة أيضا بممارستها وراء ستر أخرى، فلا يسعها رسمياً القول أنها أبصرت شيئا.

اعتمدت اللجنة السورية في أعمالها على الظواهر، وأعرضت عن الغرض الأصلي الذي أنشئت لأجله وهو إيجاد صلة ودية وتفاهم بين السوريين وحكومة فرنسا. فأنشأت جمعيات تعد على الأصابع بعضها حقيقي والبعض الأخر إسمي أو وهمي. وشرعت تتكلم باسم «السوريين» مستعينة بشركة هافلس وغيرها من الشركات الفرنسية التي كانت تطنطن بالتلغرافات التي تبعثها تلك الجمعيات إلى شكري غانم. وقد بلغت دعواه في هذا الصدد حداً تجاوز كل معقول، إذ ادعى أنه يمثل مليونين ونصف مليون من السوريين وذلك بناء على تلغرافات وردته من تلك الجمعيات. ولقد طالعنا مرة أسماء الجمعيات المذكورة فلم نعرف منها إلا أربع، أما الجمعيات الأخرى فيقتضي لمعرفة مواقعها على هذا السيار أستاذ أخصائي بفن الجغرافية. وبعض تلك التلغرافات من أفراد لا جمعيات قالوا أنهم ينوبون بها عن الجالية كجالية دكر وما أشبه، وهو من الغرابة بمكان وأغرب من ذلك تقديم تلك التلغرافات إلى المسيو كليمنصو واعتباره لها ممثلة للجوالي السورية.

كانت تلغرافات الإحتجاج التي تبعث بها الأحزاب والجمعيات السورية التي كثر عديدها عند إعلان الهدنة، توضع في سلة المهملات ولا يصل منها شيء لأصحابها لأن الحزب الإستعماري كان يقضي عليها كلها بالموت. لكن حدث ما اضطر الحكومة الفرنسية إلى

مداركة الأمر، وذلك أننا أرسلنا من بونس أيرس تلغرافات إحتجاج بصفتنا رئيسا للحزب الديمقراطي الوطني، وهي تلغرافات احتجاج على غانم وحماية فرنسا طالبين الإستقلال لوطننا. وكان في عداد الذين أرسلت إليهم التلغرافات المذكورة، ولسن ولويد جورج في باريس. ولكن لما لم نكن على ثقة من وصولها بسبب دسائس الحزب المذكور، أبرقنا إلى وزارة خارجية إنكلترا وسفير الولايات المتحدة في لندن مثبتين لهما تلغرافاتنا المذكورة وراجينهما أن يبلغوها لأصحابها لأننا لسنا على ثقة من وصولها. فكان ذلك باعثاً على التحقيق فانكشفت إذ ذاك دسائس الحزب المشار إليه واضطرت الحكومة الفرنسية إلى الفحص، فأسفرت النتيجة عن ضياع مئات التلغرافات مثل تلغرافاتنا. فعزلت الحكومة العمال المسؤولين وانفضحت أعمال الحزب الذي كان هو الموعز إلى العمال المشار إليهم.

ومهما يكن من الأمر فإن انعقاد الهدنة والتئام مؤتمر الصلح فتحا للسوريين باباً للتصريح جهداً بآرائهم السياسية وبما يرغبون فيه لوطنهم. ولما كانوا على علم من أن مؤتمر الصلح أفضل فرصة لهم للمطالبة بحقوقهم والعمل لما فيه تحقيق أمانيهم المشروعة، هبوا من كل ناحية للقيام بواجبهم. فأمطروا المؤتمر تلغرافات استلفتت الأنظار وفتحت عيون المجلس السامي للحلفاء، وأدركوا أن بين المطالب التي يطلبها غانم باسم السوريين وبين ما يريده السوريون أنفسهم بوناً شاسعاً.

[3]

قصاصتا ورق

اهتم الرئيس ولسن بالمسألة السورية اهتماماً خصوصياً، وصرح للمسيو كليمنصو بأن السوريين غير راغبين في حماية فرنسا. فسأله كليمنصو إقامة البرهان على ذلك، ففتح حينئذ ولسن محفظته المكتظة بتلغرافات الإحتجاج وأراها للمجلس، فسكت كليمنصو ولم يحر جواباً.

والحقيقة أن السوريين لم يرفضوا حماية فرنسا من أجل فرنسا، ولكنهم لم يكونوا راغبين في حماية دولة أجنبية على الإطلاق سواء كانت تلك الدولة فرنسا أو إنكلترا أو غيرهما. ولكن السياسة العقيمة التي جرت عليها الحكومة الفرنسية والحزب الاستعماري، وبالتالي الجمعية المركزية السورية التي لم تكن إلا ظلا للحزب المذكور، نفَّرت السوريين من فرنسا نفسها لأنهم كانوا يحسبون كل من لا يطلب حماية فرنسا عدواً لها، وأن صداقة فرنسا قائمة بتحكيمها في رقابنا وطلب حمايتها لنا وبسط سيادتها علينا. فمن أنكر عليها ذلك قامت اللجنة السورية المركزية في باريس وأشياعها يقولون فيه «سب فرنسا!» كما كان المسلمون على عهد الأتراك إذا أرادوا الإنتقام من مسيحي قالوا فيه «سب النبي!»

قل بين متنوري السوريين من كان لا يحب فرنسا. ونظن أن التاريخ الأول الذي يقرؤه الشاب السوري هو تاريخ فرنسا وثورتها الشهيرة التي غيرت العالم، وكانت فجر الحرية والديمقراطية في أوروبا والعالم القديم بأسره. فمن يطالع كل ذلك ولا يحب فرنسا ويحسبها الأمة التي يجب أن تكون نصيرة الشعوب الضعيفة؟ ولكن ذلك لا يعني أنها يجب أن تكون سيدة تلك الشعوب. وإذا كان بعض شهدائنا قد هتفوا لفرنسا وهم على دكات المشانق، فذلك لا يعني أنهم طلبوا فرنسا أن تكون حامية لسوريا أو صاحبة السيادة عليها بل الضد من ذلك، أرادوا أن تكون فرنسا نصيرة لنا في إنالتنا الإستقلال.

وإذا كانت حكومة فرنسا ضدنا فذلك لا يعني أن الشعب الفرنسي برمته كذلك.

المراد في عرف السياسة بالحكومة الوزارة وهي تكون من حزب الأكثرية في مجلس الأمة، فإذا كانت تلك الأكثرية ميالة إلى الإستعمار مثلا كانت الحكومة المؤلفة منها إستعمارية. ولكن إذا تغلب الحزب الإشتراكي مثلا أو سواه من الأحزاب التي لا ترى في الإستعمار إلا خطراً على البلاد أو ضرراً لها كانت الحكومة المؤلفة منها كذلك.

ظهر في أوائل عقد المؤتمر خلاف بين فرنسا وإنكلترا بشأن سورية، وهو على خفائه وغموضه حينئذ كان على الحقيقة خلافاً كبيراً كاد يفضي إلى انقطاع العلاقات بينهما، وقد ظهرت بوادر هذا الشقاق أولا بين رجال الجيشين وموظفيهما بعد فتح سورية واحتلالها، واحتكاك الفريقين أحدهما بالآخر احتكاكاً أدى إلى خصام وتبادل المخابرات بين الحكومتين. وكلّ يعرف أن فاتح سورية إنما هو الجيش البريطاني وأن الفرق العربية والفرنسية لم تكن شيئاً يستحق الذكر بالنسبة إلى الجيش الإنكليزي. لذلك لما تم الفتح اعتبر الإنكليز أنفسهم أصحاب الأمر والنهي بحق الفتح، واعتبر كل من الفرنسيس والعرب أنفسهم أصحاب البلاد بحق المعاهدات السرية. فكان من وراء ذلك احتكاك بين الفرنسيس والإنكليز من جهة، واحتكاك بينهم وبين العرب من جهة ثانية. وكانوا بالنسبة إلى قلة عددهم كالمشلولين إذ لم يكن لفرنسا في الشرق كله سوى ثمانية آلاف جندي. فحنق الفرنسيس لذلك حنقاً شديداً وانفجر في شكل مقالات جارحة في جرائد باريس إلى حد أن هذا كان في عداد الأسباب التي لأجلها اقترح بعض أعضاء المؤتمر نقله إلى بلاد محايدة.

والحقيقة أن إنكلترا التي دفعت أثناء الحرب قصاصتين من الورق الواحدة منهما إلى العرب والأخرى إلى فرنسا لتسليتهما، رأت أن زمن التسلية قد مضى وحان الآن زمن الأعمال الحيوية. وكان الأمير فيصل بناء على قصاصة الورق التي بيده، أمر برفع الراية العربية على بيروت وتعيين حبيب السعد حاكماً على لبنان أي إثباته في وظيفته. وكان فيصل لا يزال حينئذ حديث العهد بالسياسة فكان إنزال الراية العربية عن بيروت بعد ذلك ببضعة أيام، الدرس الأول الذي ألقته صديقته إنكلترا عليه ففتح عينيه ورأى الحكمة الباهرة التي فاه بها بتمان هولويغ في أوائل نشوب الحرب، فذهبت مثلا وهي «إن المعاهدات ليست سوى قصاصات ورق».

رأت إنكلترا أن تقضي على هاتين المعاهدتين بضربة واحدة، وهي إخراج الفرنسيس من سورية وإبقاء العرب فيها لتكون مع بقية البلاد العربية تحت حمايتها. ولما كانت لا تقدر على التنصل من معاهدتها مع فرنسا تواً تظاهرت بالتقوى والإنسانية والغيرية، وقالت لمؤتمر الصلح أنها، بناء على اقتراح الرئيس ولسن إبطال المعاهدات السرية، تتنازل عن معاهدتها مع فرنسا التي تخولها حماية بلاد العرب والعراق وفلسطين، ويبقى الحكم في كل ذلك إلى لجنة الأمم. فاضطرت فرنسا بحكم الضرورة إلى التنازل عن المعاهدة السرية فيما يختص بها وهي سورية، وألقت هي أيضاً الأمر في يدي لجنة الأمم.

بيد أن تقوى كليمنصو كانت أدق من تقوى لويد جورج. فأفاد المؤتمر أنه توجد أمة أخرى يجب عرض مسألتها على لجنة الأمم وهي مصر. والحق يقال أنه كليمنصو تشبث بالمسألة المصرية كما يتشبث الغريق بخشبة، لأنه شعر أن سورية آخذة في التملص من يده كما تتملص السمكة من يد الصياد.

أخذت المسألة المصرية حينئذ دوراً خطيراً لأن المصريين رأوا نظيرنا أنه قد جاءت الفرصة السانحة لانعتاقهم من نير الأجانب، وأن تصريحات الرئيس ولسن تنطبق عليهم كما تنطبق على غيرهم من الأمم المستبد بها المغلوبة على أمرها، ولم يكتف المصريون بتقديم العرائض وإرسال التلغرافات، بل أضرموا ثورة حقيقية كبيرة أخفى الإنكليز أمرها ولم يبعثوا إلى العالم الخارجي سوى أنباء ضئيلة عنها تدل على اضطرابات ولكنها لا تشير قطعياً إلى حقيقة الأمر. وظلت الحال كذلك إلى أن صرح وزير خارجية بريطانيا في مجلس الأمة أن الحال في القطر المصري خطيرة وأن الموقف لا يخلو من حراجة. وهو لم يقل ذلك إلا بعد أن بلغت الثورة المصرية حداً، لم يعد إلى كتمانه من سبيل، وخصوصاً، بعد الأسئلة المتكررة التي طرحها أعضاء المجلس بشأن الثورة المصرية. فكان كليمنصو يراقب كل ذلك ويشجع الوفود المصرية قائلا لها أن فرنسا نصيرة الشعوب المظلومة والأمم الضعيفة وأنها سوف تنصفهم.

ومن البديهي أن كليمنصو لم يفعل ذلك إلا ليضطر إنكلترا إلى التسليم بمطالبه فيما يختص بسوريا، لذلك كان وطننا السيء الطالع أشبه بكرة يتقاذفها لويد جورج وكليمنصور إلى أن يبلغ كل منهما وطره.

[4]

أمام رقعة الشطرنج

في لعبة الشطرنج التي لعبها لويد جورج وكليمنصو على سوريا، كان فرز الأول العرب وفرز الثاني مصر. ألم يخض الحلفاء الشرفاء غمار حرب الأمم لتحرير الشعوب الضعيفة؟ والآن يريدون أن يبروا بوعدهم. وكما أن لويد جورج يقول بوجوب منح سورية الإستقلال كذلك يقول كليمنصو بوجوب منح مصر إستقلالها. وكانت الثورة هناك تزداد شبوباً والحال تزداد تدحرجاً من يوم إلى آخر.

أظهر لويد جورج ميلاً إلى التنازل عما بين النهرين، لكن كليمنصو لم يتنازل عن سوريا. أليست سوريا ألزاس الشرق؟ ألا يسمون السوريين فرنسويي الشرق؟ ألم يمت هؤلاء جوعاً في سبيل فرنسا؟ إن السوريين عن بكرة أبيهم يطلبون حماية فرنسا!

في هذا الموقف الحرج اقترح ولسن إرسال لجنة من الحلفاء إلى سورية لتأخذ أصوات الشعب وترى ما يريد السوريون. أليس هذه أفضل طريقة لمعرفة ما يريد فرنسويو الشرق؟

شعر كليمنصو أن هذا الإقتراح أصاب مقتلاً من إدعاآت الحكومة الفرنسية، وأن قصاصات التلغرافات التي دفعها إليه شكري غانم لا تغني فتيلاً فرفض أن تشترك فرنسا بإرسال اللجنة المذكورة. ولما رأى لويد جورج ذلك امتنع عن إرسال لجنة إنكليزية.

كان المنتظر أن ترحب فرنسا بهذا الإقتراح كل الترحيب، لأن اللجنة السورية المركزية في باريس صرفت ثلالث سنين بالضجيج والمناداة بأن سورية منتظرة قدوم فرنسا انتظار الأرض العطشانة للمطر. وأن التلغرافات تردها تترى من سائر أنحاء المعمور تنيبها بها الجوالي السورية عنها، وأنها تمثل على الأقل مليونين ونصف من السوريين، وأن سوريا كلها تطلب فرنسا. أما الآن وقد رأت أفضل فرصة لإقامة البرهان على هذه الدعوى فإن غانم قام نادباً مولولاً معترضاً على فظاعة اقتراح ولسن، وأرسل احتجاجاً إلى المسيو كليمنصو قائلا أن اللجنة المطلوب إرسالها تؤخر بركات الإحتلال الفرنسي!

أخيراً ذهبت اللجنة الأميركية وحدها لترى بعينها وتسمع بأذنها ما يقول هؤلاء البرابرة، فكانت الأكثرية الساحقة في جانب الإستقلال. وإذا كان لا بد هنالك من وصاية تبعاً للمادة الثانية والعشرين من مواد لجنة الأمم، فإنها تطلب الولايات المتحدة. أما لبنان فقد طلب الاستقلال منفصلاً عن سورية مع مساعدة فرنسا، ولكن الطبقة الراقية طلبت أن تكون المساعدة محدودة المدة، أي إلى أجل معلوم، وأن تحدد نوع هذه المساعدة تحديداً واضحاً. وسنفرز للمسألة اللبنانية بحثاً خاصاً على حدة.

والحقيقة أن الحكومة الفرنسية لو جرت منذ بدء الحرب على غير السياسة الخرقاء التي اتبعتها في مسألة سورية، لحلت في قلوب السوريين محل الولايات المتحدة التي تفصلنا عنها بحار لا صلة سياسية لنا معها على الإطلاق. ولكنها اتخذت خطة استبدادية تحكمية دون أن تراعي فيها شعور السوريين وعقدت معاهدات سرية بشأنهم. ولما اشتهر أمر تلك المعاهدات اعتمدت على اللجنة السورية المركزية لتقريب القلوب والعواطف بينها وبين السوريين. فجرت الجمعية على خطة خرقاء مكتفية بالظواهر، معرضة عن العمل الجدي، زاعمة كل من لا يطلب حماية فرنسا عدواً لها، وكل من لا يحني رقبته لنير فرنسا متوحشاً، وأنه يجب أن نطلب فرنسا دون قيد ولا شرط لأنها أم المدنية والحرية بل هي أمنا الحنون إلى غير ذلك من البراهين السفسطائية. ولو أنس السوريون من حكومة فرنسا ميلاً حقيقياً إلى مناصرتهم مجرداً من كل مطمح لامتلاك بلاده لكان في الإمكان الوصول إلى خطة يمكن بها الجمع بين الفريقين.

لم يفضل السوريون وصاية أميركا، لأنهم على ثقة من أن لا مطمح للولايات المتحدة ببسط سيادتها على سورية، ولا بامتلاك البلاد لو لم تظهر حكومة فرنسا هذا الجشع والعزيمة على امتلاك سورية مهما كانت الوسيلة المؤدية إلى ذلك إستبدادية، ومهما كان منظرها قبيحاً أمام البشر، لما رأت من السوريين هذا الإعراض عنها. ولو أظهرت عطفاً حقيقياً على سورية ونزعت من دماغها أن سورية ألزاس الشرق وآزرتنا لنيل استقلالنا من مؤتمر الصلح، لكانت هي الوصية الطبيعية علينا ولكانت ملكت القلوب قبل الجيوب.

لسنا من القائلين بأنه يجب على فرنسا أو غيرها مساعدتنا ونصرتنا لمجرد الإنسانية، والذين يقولون إنها راغبة في مساعدتنا لمجرد حبها بنا إما مخادعون أو مجانين.

الحب لا يمكن أن يكون أساساً للسياسة كما أنه لا يمكن أن يكون أساساً للتجارة. ولكن متى كان هنالك حب متبادل سهّل الأعمال السياسية كما يسهل الأعمال التجارية. وإذا كان أمبراطور دولة مثلا لا يعبأ في سبيل وطنه بالقرابة الدموية التي تكون بينه وبين أمبراطور دولة أخرى كما لم يعبأ ملك إنكلترا بالقرابة الدموية التي بينه وأمبراطور روسيا، فبالأولى أن لا تعبأ دولة غريبة عنا بسواد عيوننا. فمساعدة فرنسا لنا مثلا يجب أن تكون مبنية على نفع متبادل للفريقين لا لفريق دون آخر، وأن يحدد نوع المساعدة وتعين ماهيتها فنعرف بماذا تريد فرنسا أن تساعدنا، وكم هو أجل تلك المساعدة وماذا تطلب مقابل ذلك لأننا نكون وإياها إذ ذاك أشبه بفريقين متعاهدين لهما مصالح وحقوق متبادلة مبنية على أساس معقول لا يجحف بمصلحة أحدهما، فلا تكون فرنسا مسخرة لمساعدتنا حباً بسواد عيوننا، ولا نحن مستعبدون ومستسلمون لها؛ كان يجب أن يعرف كل من الفريقين ما هي حقوقه وواجباته.

ولو عرفنا هذه الأمور جلياً وكنا على ثقة من أن استقلالنا مضمون، وأن الدولة التي تضع رجلها في بلادنا لا تنقلب سيدة علينا ولا مالكة لوطننا، فليس هنالك مانع على الإطلاق من أن نستعين بفرنسا فيما لو حتم علينا مؤتمر الصلح أن نختار وصية علينا. ولكن بدلاً من هذه الصراحة التي لم يكن بد منها في أمر خطير كمستقبل الوطن ومصيره، كانت حكومة فرنسا تدعي ملكية بلادنا بحقوق التقاليد التاريخية، وأن سورية نصيبها من تركة الرجل المريض منذ زمن طويل، فضلا عن أنها أصبحت ملكاً شرعياً لها بموجب معاهدته السرية مع بريطانيا. وكانت اللجنة السورية المركزية في باريس صنيعة حكومة فرنسا والحزب الإستعماري، تقول أن فرنسا ستحتل بلادنا وتملكها رضينا أم لم نرض، فالإذعان خير لنا من الممانعة، وأننا برابرة متوحشون لا نصلح لشيء، وأطفال رضع يلزم لهم أم حنون. وقامت الجرائد المأجورة منها تسلق المطالبين باستقلال وطنهم بألسنة حداد، وتقول إنهم يسبون فرنسا، وأنه يجب علينا أن نسلم بلادنا لفرنسا لأنها تطعم أهلنا ومواطنينا.

[5]

ثلاث سياسات في ثلاث سنين

زاد الطين بلة وطنبور السياسة نغمة، اشتغال سفراء فرنسا وقناصلها بالمسألة السورية وانحيازهم إلى الأحزاب الإحتلالية أو الطالبة حماية فرنسا، وحسبانهم كل سوري لا يطلب تلك الحماية المباركة عدواً لفرنسا. فإذا كان قد بقي عند الجوالي السورية شك فيما ترمي إليه حكومة فرنسا من امتلاك وطنهم والقضاء على حريتهم، أزاله أولئك السفراء بخرق سياستهم. وأعلنوا سوء نية حكومتهم، لأنهم كانوا يعاملون الجمعيات والأحزاب السياسية التي تطلب الإستقلال معاملة عدائية، وذلك لا يتفق قطعاً مع تصريحات تلك الحكومة القائلة أنها تبذل جهدها لإنالة السوريين استقلالهم. وتطرف بعض أولئك السفراء بالصراحة فأفاد أن فرنسا ستلغي اللغة العربية من مصالح الحكومة، وأن السوريين لا يكون لهم من الحقوق في وطنهم ما للأجانب، وأنهم لا يريدون أن تكون لهم علاقة بأحد من السوريين إلا إذا طلب الحماية الفرنسية. وصرح بعض قناصلهم أن الفرنسيس عندما يذكرون سورية كانوا كأنهم يذكرون الألزاس واللورين.

أدرك العميان فضلا عن المبصرين أن حكومة فرنسا تريد امتلاك سورية تحت إسم الحماية أو المناصرة أو المساعدة أو الرعاية أو الوصاية أو غير ذلك من الكلمات المطاطة.

ومن الغريب أن الحكومة الفرنسية خبطت في المسألة السورية خبط عشواء ولا سيما فيما يختص بعلاقة لبنان بسورية. فإنها لما شرعت أولا بترويج مبادئها الإستعمارية في سورية حسبت لبنان جزءاً منها غير قابل الإنفصال عنها، لذلك استقال شكري غانم من رئاسة الجمعية اللبنانية في باريس التي كانت تطالب باستقلال لبنان على حدة، وألف الجمعية السورية المركزية، وأنكر على لبنان حقه في طلب الإستقلال بحجة أن ما يصح له طلبه على عهد تركيا لا يصح له طلبه على عهد فرنسا إذا بسطت نعمة حمايتها على سورية.

لذلك كان إنجيل اللجنة السورية المركزية لبنان وسوريا بلدان لا ينفصلان. وحينئذ شرعت

الجرائد الضاربة على النغم الفرنسي تبشر أيضاً بهذا الإنجيل. ولكن لما ظهر فيصل على مسرح السياسة وعبست إنكلترا في وجه فرنسا وأوشكت سورية أن تتملص من يد الحكومة الفرنسية، لم يبق لهذه الحكومة من عماد إلا لبنان، وخصوصاً لأن أكثرية سكانه من الموارنة الذين تعتمد عليهم فرنسا. فقالت الحكومة الفرنسية بوجوب استقلاله على حدة أي ما كانت تعنيه بالإستقلال وهو أن يكون تحت حمايتها، وللحال قلبت الجمعية السورية المركزية سياستها رأساً على عقب، وتبعتها جرائدها قائلة للعالم أما قلنا لكم أن استقلال لبنان مضمون على حدة؟

بيد أنه رغماً من الحزب الإستعماري الفرنسي وحكومات فرنسا أثناء الحرب والصلح، كان لنا بين جمهور الشعب الفرنسي الشريف أصدقاء كثيرون تطوعوا للدفاع عنا وعن قضيتنا، وانتقدوا حكومتهم إنتقادا شديد اللهجة. فمن أجل هذه الروح الشريفة التي تختلج في صدر جمهور الأمة الفرنسية، ومن أجل هؤلاء الرجال وأمثالهم، لا من أجل حكومات فرنسا أثناء الحرب، حسبنا الشعب الفرنسي صديقاً مخلصاً لنا، وعضداً لنيل استقلالنا. وبرهاناً على ذلك نورد في هذا المقام الإنتقاد الذي وجهه إلى حكومته أحد كبار كتاب فرنسا وذلك في مقالة بعث بها إلى جريدة «لا باتري» في باريس، وهي لسان حال «الدفاع الوطني» وفي صدر الجرائد الفرنسية الحرة. قال الكاتب:

«ثار الحجاز على الأتراك فطهر البلاد منهم وسار الجيش العربي مع الحلفاء جنباً إلى جنب لتحرير سوريا فحرر دمشق وحلب ولبنان. ولم تفتأ هذه البلاد منذ تحريرها تطلب الإستقلال المطلق رافضة كل مساعدة غريبة وكل تدخل غريب. ونحن الآن محتلون سواحل بيروت وطرابلس والإسكندرونه.

«فواضح مما تقدم أن سياستنا تطورت ثلاثة أطوار، وذلك أننا شجعنا أولاً العرب للنهوض في طلب الإستقلال، ثم ناصرنا بعد هذا سياسة الوحدة السورية ضد استقلال لبنان، والآن نناصر استقلال لبنان ضد الوحدة السورية. وعليه فإن سياستنا تقلبت في ثلاث سنين مراراً جارية وراء غايات متنافرةمتضاربة سواء في جوهرها أو شكلها. فكان من وراء ذلك أن الشعب السوري المتمدن الراقي الذي يطالع جرائدنا، أدرك الغرض الحقيقي الذي نرمي إليه في سياستنا».

«نقول للسوريين: «إذا جئتم معنا نلتم استقلالكم». فيجيبوننا: «ما هي الضمانات التي تقدمونها عربوناً على صدق وعدكم أنتم أصحاب معاهدات 1916؟». ما الذي نرمي إليه وعما نبحث؟ لا أحد يدري ونحن سائرون في لبنان حتى النهاية.

«وقصارى القول أن السوريين لما أدركوا عدم صدقنا رفضوا مساعدتنا على الإطلاق، وليس ببعيد أن يجري اللبنانيون على منوالهم بعد وقت قريب[1]».

«لو أن رجال سياستنا المتوفرة لهم كل وسائل الإستقصاء عرفوا حقيقة الرأي العام تجاه تيار جارف من استياء ذلك الرأي العام، لوقفوا وفكروا مليّاً. فإننا بالرغم من مقاومة السوريين للإتفاقات السرية التي عقدناها منذ سنة 1916، لا نزال مصرين على وجوب تنفيذها بينما إنكلترا تصرح بعدم رضاها عن تلك الإتفاقيات. بيد أننا رغما من كل ذلك نعقد على إنكلترا الآمال بأن تقوم لمصلحتنا بما عجزنا نحن عن القيام به».

«إن الأمر بسيط واضح، فالسوريون يطلبون حكومة وطنية مستقلة دستورية حرة، ومصلحة فرنسا تقضي عليها بالعدول عن الدهاء والتلاعب والإنصراف إلى سياسة حرة جلية فيما يختص بالإستقلال والمساعدة. فأين تبتدىء يا ترى تلك المساعدة وأين تنتهي؟ وما هي الضمانات التي تفرضها على السوريين، وما هي سلطة الحكومة السورية الوطنية التنفيذية، وما هي سلطة ممثل فرنسا؟ ومن واجباتنا الإجابة على هذه الأسئلة بصراحة لأن الرأي العام السوري بإزائنا قلق متردد. ولقد حان زمن الإيضاح وكل غموض أو إبهام لا يكون من ورائه إلا الفشل».

«كان من سوء الحظ أن الصحافي الأول الذي أظهر اهتماماً بالقضية السورية شرع في ترديد هذه العبارات الحسنة الوقع: «حقوق فرنسا التقليدية في سورية، نفوذ فرنسا القديم في الشرق». فضربت الجرائد الأخرى على هذا الوتر دون إقامة البرهان على صحة الحكم».

هذه أمثال من مقالة ظهر كثير من أشباهها في الصحف الفرنسية منحية باللوم على حكومتها لتقلب سياستها وخلوها من الجلاء والصراحة، وعدم تفاهمها مع السوريين تفاهماً يؤدي إلى نتيجة عملية. فلقد كان ديدن الحكومة المشار إليها التصريح بأقوال غامضة وعبارات مطاطة لا تفيد معنى جليا على الإطلاق.

---

1 هذا ما حصل فعلاً- الجريدة.

[6]

بروز فيصل

لم تحدد التصريحات الفرنسية موقفاً، ولم تذكر ما هو الواجب الذي تريد اتخاذه على نفسها في سورية، ولا ما هو موقف الحكومة الوطنية السورية تجاهها، ولا مدة إقامتها في سورية، ولا الضمانات التي تؤديها لنكون على ثقة من استقلالنا، ولا ما تريده بدلا من مساعدتها لنا، والمساعدة كلمة مطاطة جداً قد لا تعني شيئاً جوهرياً، وقد تعني كل شيء جوهري حتى القضاء على جوهر الاستقلال.

بمثل أعمال الحكومة الفرنسية الجائرة الإستبدادية الخالية من كل احترام لشعور السوريين الوطني، وبمثل براهين اللجنة السورية المركزية الخالية من كل منطق والدالة على الإستسلام والخنوع، وبمثل أقوال الجرائد المأجورة الصبيانية الخالية من البراهين العقلية والآداب الصحافية، زعم الحزب الإستعماري الفرنسي القابض حالياً على دفة سياسة بلاده أن بإمكانه إرهاب السوريين، أو إقناعهم بوجوب الإذعان لحماية فرنسا وبسط سيادتها على سورية.

الغريب بعد كل ما تقدم ليس أن ينفر السوريون من فرنسا بل أن يبقى لها بينهم أصدقاء!

برز الأمير فيصل إلى مسرح السياسة في باريس للمرة الأولى مسلّحاً بالمعاهدة التي عقدتها فرنسا مع أبيه، وطلب بموجبها من مؤتمر الصلح الذي كان هو فيه حينئذ رئيس وفد الحجاز، ضم لبنان وسوريا بما فيها فلسطين إلى الحجاز. وقال أن أباه الملك حسيناً لم يضرم نار الثورة إلا في سبيل تحرير البلدان العربية ووحدتها. وكان وقتئذ في إبان قوته وعنفوان نفوذه لأن دخول الجيش العربي سورية على قلته وكونه كان مؤلفاً في الغالب من سوريين انضموا إليه بالتدريج أثناء تقدم العرب، كما أفادنا بذلك أحد المعارف بناء على تصريح الكولونيل لورنس، أيقظ روحاً وطنية كانت مبنية أولا على النعرة الدينية فصورت فيصلا منقذ الوطن ومحط رحال الآمال، وأجمعت كلمة المسلمين على كونه الحاكم الطبيعي لسورية.

لا مشاحة في أن الدافع إلى كل ذلك كون الأمير فيصل نجل ملك الحجاز حسين سليل إبنة النبي محمد وشريف مكة. وكانت الأنباء الشائعة حينئذ أنه أصبح خليفة المسلمين، فكان من الطبيعي أن تتجه إلى الأمير فيصل أبصار مسلمي سورية، ويتخذوه إماماً لهم وزعيماً لحركتهم الوطنية.

منذ الفتح العربي لم تظهر حركة عربية كالثورة الحجازية أثرت في نفوس مسلمي سورية سواء من الوجهة الدينية أو السياسية. لذلك كان للأمير فيصل شأن أكبر كثيراً مما ترتب على أعماله الحربية. ولقد عرف كيف يستفيد من ذلك الموقف ويكيفه إلى أغراض جامعة بين المصلحة الوطنية والمطامح الشخصية.

بيد أنه كان حديث العهد في الشؤون السياسية، ولم يكن في حاشيته رجل واحد معروف في عالم السياسة، غير أن ذكاءه الشخصي وجرأته الأدبية كانا كافيين على نوع ما للتعويض عما كان ينقصه من العلم والخبرة والإستفادة من الدروس السياسية في مدرسة العالم بأسرع ما يمكن، فضلاً عن أن لورنس كان يوحي إليه من حين إلى حين ما لا يجيزه الإصطلاح السياسي والدهاء الإنكليزي، الإيحاء به من لويد جورج رأساً.

الخطة التي جرى عليها الأمير فيصل في الدفاع عن قضيته لدى مؤتمر الصلح خطة موضوعة بالإتفاق مع لورنس، مدروسة جيداً ومصادق عليها من لويد جورج. وبعبارة أخرى هي خطة أوصى بها لويد جورج إلى الأمير فيصل بواسطة لورنس.

وهذه الخطة على مدارك الموصي بها، خطة لا تخلو من الغرابة والتناقض، وخلاصتها أن الغرض من الثورة الحجازية تحرير البلاد العربية كلها لأن الحجاز كانت على الدوام مستقلة رغماً من اعتبارها بالإسم تحت السيادة العثمانية. وأن البلاد العربية المشار إليها واحدة لا تتجزأ وهي بالحدود التي ذكرها تشمل بلاد العرب والعراق وفلسطن وسوريا ولبنان، فهذه كلها يجب أن تكون بلاداً واحدة تحت الراية الحجازية وذلك بموجب المعاهدة السرية التي عقدها الملك حسين مع بريطانيا.

استيقظت في هذه الأثناء الجوالي السورية وهبت للمطالبة باستقلال سورية، فبلغ صوتها الوطن بالرغم من قلم المراقبة الذي كان شديد الوطأة حينئذ، ولقد اتخذنا نحن في إبلاغ

صوتنا طرقاً خاصة، فتحولت الحركة السياسية من نهضة دينية إلى نهضة وطنية وطلب السوريون استقلال سورية على حدة.

رأت فرنسا في الحركة الفيصلية خطراً عليها لم تكن تتوقعه ولم تشعر به إلا بعد فتح دمشق ورفع الراية العربية عليها، وإصدار الأمير فيصل أوامره لرفعها في كل أنحاء سورية وفي عدادها بيروت على ما تقدمت الإشارة إليه في غير هذا الموضع، فأوجست شراً من كل ذلك، وأدركت أن وراء الأكمة ما وراءها. أدركت أن وراء فيصل لويد جورج، وانفضح أمر المعاهدة السرية مع العرب لأن فيصلا بنى حقه في المطالبة بسوريا عليها، فكان لذلك دوي كبير في الأندية السياسية الفرنسية رددت صداه جرائدها بمقالات ضافية الذيول.

كان من وراء مطالبة السوريين بالإستقلال على حدة، أن الأمير فيصل أدرك أن موقفه في مؤتمر الصلح بالنسبة إلى سورية غير شرعي فلا يصح له التكلم عنها بصفة رئيس وفد الحجاز، فضلاً عن أن المعارضة التي أظهرتها فرنسا بخصوص ضم سورية إلى الحجاز كانت شديدة. ولم يتمكن لويد جورج من مناصرة فيصل أولاً لأنه رضي بمبدأ ولسن القائل بإلغاء المعاهدات السرية، وثانياً لأنه كان قد عقد مع فرنسا معاهدة سرية أخرى تخول هذه الدولة وضع يدها على سورية. وليست الغرابة في أن يعقد لويد جورج هاتين المعاهدتين السريتين المتناقضتين، بل الغرابة أن يقول بعد كل ذلك أن إنكلترا خاضت غمار الحرب لأن ألمانيا حسبت المعاهدات القاضية بحياد البلجيك قصاصة ورقة، فماذا يقول هو يا ترى عن قصاصتيه؟

ومهما يكن من الأمر فإن فيصلا عاد إلى سورية لترشيح نفسه مندوباً عن السوريين أمام مؤتمر الصلح، وجرى له فيها استقبال باهر، خصوصا في دمشق حيث احتفلوا به احتفالاً نادر المثال وتألفت للقائه وفود من أنحاء شتى من البلاد مؤلفة من وجوه القوم وكبارهم. فاعتبر الأمير هذه الوفود بمثابة مندوبين وألف منهم جمعية وطنية ألقى عليها خلاصة أعماله في باريس، وطلب منها أن تفوضه في شؤونها السياسية والوطنية.

كانت الجمعية المذكورة جمعية رجال عواطف لا رجال عقول، أو رجال تغلبت عواطفهم على عقولهم لأنهم سلموا أمرهم إلى الأمير دون قيد ولا شرط على الإطلاق، أي نصّبوه عليهم

حاكما بأمره وانتدبوه لتمثيلهم أمام مؤتمر الصلح كما يعن له، أي أنهم خولوه قوة أمبراطور مطلق التصرف لا يسأل عما يقول أو يفعل. بيد أن الأمير قال أنه يطلب الإستقلال التام المطلق ولا يرضى منه بديلا.

كانت فرنسا تراقب هذا الإستقبال قلقة مضطربة البال وخصوصاً لأن سياستها كانت مضطربة واللجنة السورية المركزية التي اختارتها وسطاً بينها وبين السوريين أسفرت عن إفلاس تام فيما يختص باستمالتهم إلى سياستها، لذلك لما عاد الأمير فيصل إلى باريس متسلحاً بثقة الأمة وإرادته المطلقة ومؤيّداً بالحكومة الإنكليزية، إن لم يكن جهراً فسراً، شعرت الدوائر السياسية الفرنسية باضطراب وخصوصا لأن لويد جورج كان يقول للفرنسيس عند مخاطبتهم إياه بشأن سورية أن يتفقوا أولاً مع الأمير فيصل وهو يدل ضمناً على أن إنكلترا مناصرة للأمير.

حنقت الجرائد الفرنسية لذلك حنقاً كبيراً، وسلقت الحكومة الإنكليزية بألسنة حداد، وحملت كلها حملة واحدة على إنكلترا حتى خيف انقطاع العلاقات بين الحكومتين. ومما لا ريب فيه أن ذلك الخطر كان حقيقياً رغماً من تكتم الدوائر السياسية في البلدين، يدلك على ذلك أن احتكاك الضباط الإنكليز والفرنسيس في سورية كان شديداً إلى حد أنهم كانوا يتخاصمون جهراً على محطات السكك الحديد، ويمنع أحياناً الضباط الفرنسيون ضباطاً إنكليزيين من إلقاء القبض على متهم سياسي أو بالعكس. وكان الإنكليز ينفون مشاهير السوريين القائمين بحركات سياسية لمصلحة فرنسا كما في حادثة الأمير سعيد وكثير من أشباه هذه الحوادث التي أورثت حقداً في القلوب وولدت ضغائن في الصدور.

كانت حادثة الأمير سعيد أهم الحوادث المشار إليها نظراً لخطورتها، ولأنها كانت على الحقيقة محكاً للمسألة السورية، وأي هي الدولة صاحبة الكلمة الفاصلة في شؤون سورية أثناء الإحتلال لأن فرنسا كانت مؤيدة لهذا الأمير وعاملة على مناصرته بكل وسيلة ممكنة خلافاً لبريطانيا التي كانت مؤيدة لفيصل ودافعة له من وراء الستار إلى الساحة. والظاهر أن الحكومة البريطانية كانت قد عقدت حينئذ العزم على مناوأة فرنسا مناوأة جدية وحرمانها من

سورية بكل الطرق الممكنة، ولو كانت أحدها استقلال سورية استقلالاً تاماً مطلقاً. لذلك نزعت عن وجهها برقع الدهاء والمواربة، ووقفت وقفة ثابتة لأنها كانت تعرف حينئذ ما تريد وعازمة على تأييده بالقوة الحربية. وبلغت من خطورة هذه المسألة أن دارت مخابرات شأنها بين الحكومتين. وحاولت فرنسا أن تسترد نفوذها في الشرق بدعم الأمير سعيد، لكن بريطانيا لم تصخ سمعاً بل أيدت حكم الجنرال اللنبي القائل بنفيه.

[7]

في المركب الشراعي

إن دعوى الأمير فيصل لدى مؤتمر الصلح أن السوريين عرب، وأن سورية جزء من البلاد العربية خليط من الحق والباطل، ومزيج من المنطق والسفسطة. ولا نلج باب هذا البحث الذي لا يكون إلا شروداً عن الموضوع الذي نحن بصدده، وخصوصا لأن الأمير اقتصر بعد عودته إلى باريس على المطالبة باستقلال سورية على حدة دون أن يكون لها أدنى علاقة سياسية مع الحجاز، ومنذ ذلك الحين استقلت قضية سورية عن قضية الحجاز.

لو أظهرت حكومة فرنسا إخلاصاً للسوريين وغيرة حقيقية على مصالحهم الوطنية، وأخذت بيدهم منذ بدء الحرب لأنالتهم الاستقلال وتحقيق أماني طبقتهم الراقية في إنشاء جمهورية ديمقراطية حرة. لم يكن هنالك مسألة فيصلية بل مسألة استقلال، وكانت فرنسا الدولة التي يعتمد عليها السوريون في جميع شؤونهم جانية بذلك كل ما تطمح إلى جنيه من الثمار التجارية والاقتصادية، ومشيدة لها في الشرق صرحاً فخما يبنى على قلوب الأمة وعواطفها.

ثشبثت الأمة السورية بفيصل كما يتشبث الغريق بخشبة، لأن فرنسا لم ترد أن تقدم للسوريين قارباً للنجاة والغريق يتشبث بالمادة الأولى التي تلامس يده وتنقذه من الغرق، سواء كانت تلك المادة خشنة أو صقيلة. وكان السوريون عموماً ومسلموهم خصوصاً يشعرون حينئذ أنهم على وشك الغرق، لأن أمواج الحلفاء الطامية كانت تغطيهم من كل جانب. وعوضاً عن أن تقدم لهم فرنسا باخرة عصرية تنقذ حياتهم وتستعبدهم بشهامتها أبد الدهر، قدمت لهم معاهدتها السرية مع إنكلترا، وعمدت إلى استعبادهم بقوتها، ولما كانت قصاصات الأوراق لا تنجي غريقا، فضلت الأمة السورية سلك البحار بمركب فيصل الشراعي.

من نكد الطالع أن السياسة الخرقاء التي جرت عليها حكومة فرنسا فيما يختص بالسوريين أثناء حرب الأمم، ظلت أتبع لها من ظلها أثناء مؤتمر الصلح فمثلت فرنسا أمام السوريين دولة جشعة طماعة تريد التهام سورية بكل وسيلة ممكنة، وترمي إلى بسط سيادتها عليها بكل

الذرائع التي يمكن ابتكارها، فحفرت بيدها هوة عميقة بينها والسوريين. ولم تغنها الجمعية المركزية فتيلاً، ولم تقدر الجرائد المطبلة والمزمرة لها على أن تخنق صوت الحق أو تستر وجه الشمس. فالحقيقة التي كانت حينئذ بارزة بروزاً واضحاً لا ريب فيه أن السوريين مصرون على الإستقلال التام المطلق لا يرضون منه بديلا. أما أن في إمكان فرنسا احتلال سورية وبسط سيادتها عليها، رضي السوريون أم كرهوا، فهذا بحث خارج عن موضوعنا.

كان كلما ازدادت شقة الخلاف والبعد بين السوريين وحكومة فرنسا، يزداد التقرب بينهم وفيصل رغما من أنه غريب عن بلادهم وعن أن وطنه لا يزال حتى الآن على الحال الفطرية. ولكن الجامعة الدينية بينه وبين المسلمين وكونه سليل إبنة نبيهم ذرت كل ذلك هباءً منثوراً.

من أغلاط حكومة فرنسا فيما يختص بوجهتها السياسية أن الجيش الفرنسي الذي أرسلته إلى سورية كان قليلاً جداً فالأعمال الحربية هناك، كانت أعمال الجيش الإنكليزي. وفي الشرق على نوع خاص لمظاهر القوة تأثير كبير، فلم ير السوريون قوة فرنسا. وكانت أفعال الجيش الإنكليزي وأقوال ضباطه مؤيدة لنفوذ فيصل. ولو انقلبت الآية وكان الجيش الفاتح فرنسيا لم يكن لفيصل شيء من النفوذ رغماً من كونه إبن الملك حسين سليل البيت النبوي، لأن هذه الصفة لم تكن قبل حرب الأمم ذات شأن على الإطلاق، فكان خليفة المسلمين سلطان الأتراك رغماً من أن الإسلام يقضي بأن تكون الخلافة في قريش. وعلة ذلك أن سلطان الأتراك أقوى ملوك المسلمين وأمرائهم، ففلسفة القوة جارية على كل شيء في هذا العالم حتى الدين، فالخلافة في جانب المدافع الضخمة. لذلك لم يكن الملك حسين على عهد الأتراك سوى موظف من موظفيهم لأن وظيفة الشريف كانت وظيفة ملكية دينية محضة. فالحقيقة أن النفوذ الذي كان حينئذ لفيصل استمده من المدافع الإنكليزية لا من الصفة الدينية، ومن لندن لا من مكة. وزاد الطين بلة أن حكومة فرنسا بسياستها الخرقاء أثناء الحرب فيما يختص بسوريا، أثارت عليها حنق السوريين على ما ألمعنا إليه سابقا. فكانت النتيجة الطبيعية لكل ما تقدم امتداد نفوذ فيصل وتقلص نفوذ فرنسا.

ولقد أدرك الفرنسيس أصل الداء فحملت جرائد باريس على حكومة بريطانيا حملة شعواء. أما الإنكليز فقابلوا كل ذلك بالدم الإنكليزي البارد، وأجابوا بوجوب معاملة السوريين بما يقتضيه العدل والحق، وقالوا للفرنسيس إن السوريين لم يخلعوا نير الأتراك ليضعوا على

رقابهم نير فرنسا، وهو قول كله حكمة. ولكن الإنكليز لا ينطقون بمثل هذه الحكم الباهرة إلا متى كانت مصلحتهم بعيدة عنها، فهم لا يرون مثلا في بسط حمايتهم على فلسطين وإعدادها موطناً لليهود اعتداء على حقوق السوريين.

ومهما يكن من الأمر فإن حكومة فرنسا اضطرت إلى مخابرة فيصل بعد أن أعرضت عن ذلك. وكان أساس كليمنصو في هذه المخابرات بسط حماية فرنسا على سورية، أما أساس فيصل فكان حينئذ استقلال سوريا التام المطلق، لذلك لم تسفر تلك المخابرات عن تفاهم يصح أن يكون مقدمة للإتفاق.

كانت الأحزاب والجمعيات السورية في المهاجر سنداً كبيراً للاستقلال. ورأى فيصل في ثباتها ما شدد عزيمته وقوى ثقته بنيل الأمنية التي كان يسعى إليها. وقد أرسل بعض الأحزاب والجمعيات المشار إليها وفوداً إلى مؤتمر الصلح في باريس، وأرسل البعض الآخر رسائل برقية وعرائض يبسط بها حقيقة المسألة السورية وأماني الشعب السوري.

لما رأى ولسن أن جمهور السوريين يطلب الإستقلال التام المطلق، أقنع المجلس السامي للمؤتمر بوجوب سماع قضية سورية من الوجهتين، أي من وجهة مساعدة فرنسا ووجهة الإستقلال التام دون أدنى مساعدة. فكان من وراء ذلك انتداب الدكتور هوارد بلس رئيس الكلية الأميركية في بيروت ليوضح قضية سورية من وجهة الإستقلال، فقضي بذلك على خطة كليمنصو التي كانت ترمي إلى اعتبار شكري غانم ممثل السوريين كلهم وسماع أقواله. وهي طبعاً ترمي إلى إقامة الدليل على أن السوريين متوحشون، وأنهم كلهم يطلبون نعمة التمدن على يد فرنسا أمهم الحنون.

كان الحزب الإستعماري الفرنسي باذلاً جهده لستر الحقائق وذر الرماد في عيون الفرنسيس قبل سواهم، فسير حملة صحافية على الإستقلاليين وحاول أن يعوض عن ضعف القوة الحربية الفرنسية في سورية بقوة المقالات الفنية في جرائد باريس.

[8]

جرائد المهاجر تدير الرأي العام في سوريا

تطرفت الجرائد الفرنسية بلهجتها العدائية بعد الشقاق الذي جرى بين ضباط فرنسا وضباط إنكلترا عقيب فتح سورية على ما ألمعنا إليه. ولكنها ظهرت بلهجة أشد بعد ذهاب اللجنة الأميركية والوقوف على رغائب السوريين، واتهمت اللجنة المذكورة بالإنحياز إلى طالبي الإستقلال وبعدم جريها على خطة العدل في مواضع كثيرة، وهو من غريب الإعتقاد بعد أن أعرضت الحكومة الفرنسية عن إرسال لجنة فرنسية ترى بعينها وتسمع بأذنها مع اللجنة الأميركية ما يريد السوريون. ولكنها كانت تعرف النتيجة سلفاً فلم ترَ من مصلحتها أن تكون لجنتها شاهدة على فشل نفوذ فرنسا في الشرق.

إن الشعب الفرنسي لم يكن ميالا لسياسة الحماية التي جرى عليها الحزب الاستعماري، والحقيقة أن السياسة المشار إليها كانت نتيجة مطامح فريق صغير من متمولي الفرنسيس وموظفي حكومتهم وساستهم. ولكنه الفريق الذي كان قابضاً على أعنة الأحكام ومدير الدفة السياسية.

ولقد انبرى للدفاع عن القضية السورية والتحذير من الخطة العوجاء الجائرة التي جرت عليها الحكومة الفرنسية، فريق من جلة كتاب فرنسا ألمعنا سابقا إلى أحدهم واستشهدنا بشذرات من أقواله. ونأتي في هذا الموقف على رسالة نشرها المسيو جيو في جريدة «الأكسيون كولونيال»، أحدثت دوياً كبيراً في الصحافة الفرنسية نقتطف منها ما يأتي. قال الكاتب:

«لا إخالني في حاجة إلى تبيان خطورة نفوذ فرنسا في سوريا، فهو يرجع إلى عهد قديم ولقد ظل على حاله حتى شبوب حرب الأمم. وكان يقضي علينا العقل بالجري على سياسة ملائمة لميول الشعب السوري ومطامحه، يهدينا في كل ذلك علم تام بما بلغه هذا الشعب من الإرتقاء سواء من الوجهة العلمية أو الأدبية. وأريد بالشعب السوري السوريين المقيمين في سورية والبلدان الأخرى، لأن له مهاجرين كثيرين في أنحاء شتى من العالم خصوصا مصر

وأميركا، ولهم في بلدان هجرتهم جرائد على غاية من الأهمية وهي تدير في المهاجر الرأي العام في سورية.

«إن المطلع على آراء سكان بيروت ودمشق والقدس، لا يقف على المسألة السورية إلا من وجهة واحدة فقط، وعليه إذا أراد الوقوف عليها بحذافيرها، أن يكون على علم من ميول المهاجرين أصحاب الكلمة النافذة.

«وإني لآسف من أن فرنسا لم تجرِ على هذه الخطة كما صرح «إفرنسي» خبير في رسالة بعث بها إلى جريدة (الباتري) في 3 آب، يبدي فيها أسفه لما أظهرته فرنسا من التقلب والتذبذب منذ شبوب الحرب حتى الساعة، وجاهر بأنه لم تكن لفرنسا سياسة صريحة في سورية داعماً قوله بمعاهدة سنة 1916 التي أغفلت المطالب الوطنية للسوريين على ما صرحت به جرائدهم في العالم القديم والجديد. أما الآن وقد شعرنا بخطر الحركة العربية نحسب إيقافها، إنما نقوم بإخفائها عن الرأي العام الفرنسي ونتجاهل حقيقة المسألة السورية بإغلاظنا في الكلام للأمير فيصل، وقولنا أنه صنيعة الإنكليز.

«إن تشبهنا بالنعامة حين تزج رأسها في الرمل حاسبة بذلك أنها تتقي الخطر، لخطر وطني علينا. وإني لمصرح جهراً أننا لبثنا ننادي زهاء خمس سنين بحقوق الشعوب ومبادىء العناصر وتحرير الأمم الضعيفة، وهي تصريحات لا تلتئم في شيء قط مع ما نجاهر به من مطمحنا في فتح سورية.

«والحقيقة أن جمهور الفرنسيس لا يهمه استعمار سورية. فإذا بدا ما يدل على العكس فذلك لأن الظواهر الخداعة وما يسميه بعضهم مطالبة فرنسا «بحقوقها» في سورية، إنما هو عمل فريق من الطامعين في الفتح، وفريق آخر من موظفي الحكومة والساسة. وهو الباعث على استياء السوريين منا، واحتجاجهم علينا، وحمل صحفهم حملات شعواء، وانصرافهم عنا إلى طلب وصاية الولايات المتحدة أو بريطانيا، ورفضهم فرنسا رفضاً باتاً على ما صرحوا به للجنة الأميركية.

«وفضلا عن ذلك فإن فريقاً من اللبنانيين صرح بأن إدارتنا لبلادهم على ما هي عليه الآن تخيفهم كإدارة الأتراك. أفمن الغريب بعد كل ما تقدم أن نرى سياستنا مصابة بالإفلاس،

وأن الراغبين منا في القضاء على نفوذ فرنسا القديم في الشرق قد بلغوا بجهلهم وتصلفهم مدة أربع سنين هذه الأمنية الكبرى. ولقد طعنت جرائدنا طعناً شديداً في الإنكليز لأنهم عرفوا كيف يستميلون العرب ورغبت في بسط حماية وهمية على سورية متجاهلة حقيقة خطيرة، وهي أن كل ما يفسد الصداقة الإنكليزية الفرنسية المقدسة التي هي ركن سلام العالم ضرب من الجنون وخيانة للوطن، ولا يكون من وراء هذا الجهل الفاحش ومصادرتنا آمال السوريين إلا خلق معضلات في آسيا الصغرى وسورية كمعضلات البلقان وتهيئة الذرائع لحرب نزج بها بلادنا في سنة 1940. وإني لأرجو أن لا يتحقق شيء من مخاوفي هذه، ولكنني أريد على كل حال إن يقال أن صحافيا فرنسيا حذر شعبه من شر مستطير وصرح تصريحاً خالياً من كل غموض وإبهام»

[9]

من الملوم: أوزارة الخارجية أم الجمعية المركزية؟

أحدثت مقالة المسيو جيو في جريدة «الأكسيون كولونيال» دوياً كبيراً، أولاً لأنها صادرة من إفرنسي سفه سياسة حكومته بطريقة لا تقبل جدلا، وثانيا لأنه تكلم بصراحة تامة خالية من كل غموض ومن التحفظ السياسي الذي كثيراً ما يسدل على الحقيقة لثام الإبهام.

ولو نحا كتاب فرنسا هذا النحو وجروا على هذه الخطة الرشيدة منذ بداءة مؤتمر الصلح، وحملوا حكومتهم على إنصاف السوريين لم تكن هناك مسألة سورية على الإطلاق، بل مسألة إستقلال سورية ولطلب السوريون مساعدة فرنسا بصوت واحد.

لو فعلت فرنسا ذلك لنالت كل ما كانت ترمي إليه من المنافع الإقتصادية في سورية عن رضى السوريين وطيب خاطرهم. ولكنها لم تفعل لأنها كانت عقدت العزيمة على استعمار سورية والإستيلاء عليها، وإضافتها إلى أملاكها عملا بالمعاهدة السرية التي كانت قد عقدتها مع إنكلترا، يوم كانت هاتان الدولتان تتبجحان بنضالهما في سبيل الحق وتحرير الشعوب الضعيفة.

والغريب في دعوى فرنسا أنها تسمي مطامعها الإستعمارية «حقوقا» لها في سورية. ولا ندري ما هي تلك الحقوق ولا من أين جاءتها. ومحاولة الإستيلاء على أمة بمثل هذه الدعاوى الفارغة والطريقة المنكرة من أقبح ضروب الظلم والإستبداد لأنها تكسو الأول ثوباً من العدل والثاني ثوباً من الحرية.

ولقد أتى المسيو جيو في مقالته المشار إليها على الطريقة الوحيدة التي كان يمكن فرنسا بها إصلاح الخطأ والإرعواء عن الغي الذي زجها فيه الحزب الاستعماري، وصرّح بما صرحنا به قبله المرة بعد المرة ولا نزال نصرح به، وهو أن الشعب الفرنسي نفسه لا يهمه استعمار سورية بل لا يريد هذا الإستعمار بالصورة القبيحة التي جرت عليها حكومته، ولم تكن الدسائس التي قامت بها تلك الحكومة إلا عمل فريقين من جمهور الأمة الفرنسية أولهما أصحاب رؤوس الأموال الذين يريدون استعباد اللبنانيين والسوريين في سبيل استثمار أموالهم،

وإشادة المعامل والمصانع التي تدر عليهم خيراً، واستعمال مواطنينا أجراء في تلك المعامل والتبجح بعد كل ذلك بقولهم أنهم عاملون لما فيه خيرنا وترقيتنا وتمديننا، أي أنهم يستعملون موارد ثروتنا ومحصولاتنا والأيدي العاملة في بلادنا لما فيه إشباع جشعهم الذي لا حد له، واستعبادنا مالياً واقتصادياً وعمرانياً، ويطلبون منا بعد كل هذا أن نقدم لهم الشكر بعد تقديم العبودية.

أما الفريق الآخر فإنه مؤلف من رجال السياسة الطامعين الشرهين الذين يرمون إلى سياسة الفتح والإستعمار وتوسيع أملاك الجمهورية الفرنسية، فهم على الحقيقة رجال إمبراطوريون متسترون برداء الجمهورية. وهم أشد جشعا من نابوليون وإن كانوا أقل منه صدقا وصراحة.

بيد أن الحقيقة الواقعية هي أن هذا الحزب الإستعماري الجشع هو الذي كان حينئذ ولا يزال حتى الساعة قابضاً على أعنة الأحكام يديرها أنى توجهت مطامعه وشاءت أهواؤه. وهو الذي يبذل الدنانير في سبيل مشترى الجرائد العربية ويدفع لها أجرة التطبيل والتزمير. وهو الذي أنشأ اللجنة السورية المركزية السيئة الطالع باذلاً لها كل سنة مئتين وخمسين ألف فرنك يوم كان الفرنك في أوج مجده، لتقيم الأدلة والبراهين على أن أبناء وطنها متوحشون لا يصلحون لحكم أنفسهم، وأنهم كلهم عن بكرة أبيهم يطلبون نعمة الحماية الفرنسية. وأن الذين يحترمون أنفسهم ووطنهم ويطلبون له استقلالاً تاماً مطلقاً ليسوا إلا أقلية لا يعتد بها، وأن الجوالي اللبنانية السورية كلها تصرخ بصوت واحد طالبة الأم الحنون.

ختم المسيو جيو مقالته في «الأكسيون كولونيال» بالعبارات الآتية التي تدل على رجاحة في العقل وأصالة في الرأي وهي ما يأتي:

«وقصارى القول إن الذريعة الوحيدة لإصلاح هذا الخطأ إنما هي إعترافنا بأن كل خطة لا تجري على الصراحة لا يكون من ورائها إلا الخذلان، ويترتب علينا التصريح للسوريين بأننا لا نرمي إلى استعمار بلادهم، ولا إلى بسط حمايتنا عليها، وأننا من أخلص أصدقائهم وراغبون في استقلالهم السياسي ومستعدون كأصدقاء مخلصين للتفاهم والإتفاق معهم بخصوص المساعدة المالية والفنية والإقتصادية التي هم بحاجة إليها، فليتقدموا بطلبهم إلينا حتى إذا رأينا شروطهم موافقة عقدنا معهم الإتفاق المطلوب».

[10]

الساحر في مدينة مسحورة

وقد أتى جيو الكاتب البليغ الصادق اللهجة المخلص الوطنية في عرض رسالته المنوه عنها على الإلمام بالأسباب التي كانت باعثاً على فشل سياسة فرنسا في سورية خصوصاً، والشرق عموماً، وبحث في من هو المسؤول عن الخذلان الكبير الذي ألم بسياسة حكومته: أوزارة خارجية فرنسا أم اللجنة السورية المركزية.

وعندنا أن اللوم واقع على الوزارة والجمعية المركزية معاً، فالوزارة مسؤولة في الدرجة الأولى عن الخطة الجائرة التي جرت عليها وهي استعمار سورية واستعباد السوريين تحت برقع الحماية والوصاية والمساعدة والإشراف، وهي مسؤولة في الدرجة الثانية عن سوء اختيار الجمعية المركزية التي كانت أسوأ واسطة بين فرنسا وسورية، والمعول الأول الذي هدم نفوذ فرنسا في الشرق.

كان النصر أثناء وجود فيصل في باريس أقرب إليه منه إلى حكومة فرنسا، لأن بريطانيا كانت مؤيدة له تأييداً واضحاً. ولكن حدث أثناء عودته من باريس إلى سورية ما غير المسألة السورية تغييراً تاماً فدخلت إذ ذاك في طور جديد تختلف كل الإختلاف عن الطور الأخير. ولا ندري حقيقة هذا التغيير فقد يكون للمسألة المصرية فيه شأن كبير، وقد يكون هنالك أسباب أخرى خطيرة غيرها. ولكننا نعرف أن القضية السورية أدخلت حينئذ إلى غرفة السياسة المظلمة التي لا يدري أحد ما يجري فيها ولا يجلوها إلا التاريخ.

طلب حينئذ فيصل من سورية تلغرافيا، فتوجه تواً إلى لندن دون أن يقف في مدينة من مدن فرنسا فقابل هناك لويد جورج، وجرى له معه حديث لا نعرف كنهه، لأن الأنباء البرقية التي وردت بهذا الصدد لم تكن صريحة، ولكنها كانت كافية للدلالة على أن سياسة بريطانيا قلبت ظهر المجن لفيصل.

كان لويد جورج أولا يحسب أن معاهدة 1916 قصاصة ورق، ورمى بها إلى سلة مهملات لجنة الأمم. أما الآن فعاد يسميها معاهدة. وكان إذا خابره كليمنصو بشأن المسألة السورية يجيبه «إتفق أولا مع فيصل»، أما الآن فكان إنْ كلّمه فيصل بشأن سورية يجيبه «إتفق أولا مع كليمنصو».

عاد فيصل من سوريا فرأى كل شيء في باريس قد تغير كما بسحر ساحر، فكان كيفما دار لا يسمع إلا الجواب «مسألتكم مختصة بفرنسا»، حتى أن المندوبين الأميركيين في مجلس الصلح أجابوه بمثل ذلك الجواب، لذلك لم يكن له من بد من مخابرة كليمنصو.

بقي زمناً في باريس بعد عودته إليها من لندن يطرق أبواب السياسة ويبعث بتلغرافات إلى ولسن دون نتيجة. ومما لا ريب فيه أن المعارضة التي لقيتها معاهدة فرسايل في مجلس أعيان واشنطن وانسحاب الولايات المتحدة من متابعة الإشتراك في مؤتمر الصلح، أضرّ ضرراً بليغاً بمسألة استقلال سورية فقد كانت ملجأها الوحيد في العدل والإنصاف، فضلاً عن أن السوريين كانوا يعلقون آمالاً كبيرة على إمكانية رضى الولايات المتحدة الأميركية أن تكون وصياً على سورية. وذلك بلا مشاحة أفضل وأسلم طريقة لحسم تلك المسألة التي طال دورها في مؤتمر الصلح أكثر من أدوار كل المسائل الأخرى. ولكن ولسن كان حينئذ مريضاً والحملات موجهة نحوه الواحدة تلو الأخرى.

كانت اللجنة الأميركية قد عادت حينئذ من سورية والشرق حاملة نتيجة استقصائها ومشيرة على حكومة الولايات المتحدة بوجوب قبول الوصاية على سورية. ولكن الحكومة المذكورة لم تكن حينئذ في موقف يمكنها من قبول تلك الوصاية فيما لو أرادتها، لأن كل شيء كان موقوفاً على مصير معاهدة فرسايل.

إن الضربة التي أصابت المعاهدة المذكورة كانت ضربة أيضاً على الشرق كله، فلو اهتمت الولايات المتحدة حينئذ به لأنقذته من هوة العبودية التي كان مفقوداً إليها، وأنقذت في جملته سورية من التجزء والفوضى التي أحاقت بها بعد ذلك.

ومهما يكن من الأمر فإن فيصلا قابل كليمنصو وخابره مليا بشأن سورية. وكانت في أثناء ذلك قد ابتدأت الإضطرابات السورية في أنحاء شتى منها، لأن الوجهة الأخيرة التي

اتخذتها القضية السورية لم تكن تبشر بالإستقلال. وكان فيصل قد أفاد لويد جورج في لندن وكليمنصو في باريس أنه لا يكون مسؤولا عن الفتن التي تنشأ في سورية بسبب عدم الإعتراف باستقلالها، لذلك اقتضت السياسة أن يرى الساسة شيئا من مقدمات تلك الفتن.

ولا ريب في أن فيصلا توصل إلى اتفاق مع كليمنصو قبل عودته الأخيرة إلى سورية، ونرجح أن أساس ذلك الإتفاق رضى فرنسا عن تتويج فيصل ملكاً على سورية ورضى فيصل عن المساعدة الفرنسية.

والذي نراه أن خروج الولايات المتحدة من مؤتمر الصلح، اضطر إنكلترا إلى مجاراة فرنسا في أمور كثيرة وفي عدادها القضية السورية، لأن هاتين الدولتين أصبحتا قابضتين على شؤون العالم ومن مصلحتهما إحكام الصلات وروابط الصداقة بينهما، وإلا خسرت كلتاهما نتيجة انتصار الحلفاء في حرب الأمم. لذلك لما تحرج الموقف بينهما بشأن سورية، وخصوصا بعد حملات الجرائد الفرنسية العنيفة اضطرتا إلى عقد اتفاق نهائي بهذا الصدد، فقسمتا حينئذ سوريا إلى ثلاث مناطق وهي لبنان تتولى شؤونه فرنسا، وسورية يتولى شؤونها فيصل مع مساعدة فرنسا إذا لزم، وفلسطين تتولى شؤونها إنكلترا. وأطلقتا على هذا الإتفاق إسم اتفاق مؤقت تقضي به الشؤون الحربية إلى أن يبت مؤتمر الصلح مسألة سورية نهائيا.

كان من مصلحة فرنسا الإتفاق مع فيصل بأية طريقة ممكنة لا تخرج بها نفسها من مساعدة سوريا لأن الإضطرابات السورية أخذت بالإزدياد والتفاقم. وكانت حكومة فرنسا تدري جيداً أن الرجل الوحيد الذي يمكنه وضع حد لهذه الفتن هو فيصل.

عاد فيصل إلى سورية والكلمة الأولى التي فاه بها عندما استقبله الجمهور في بيروت «أبشركم بأنكم قد نلتم استقلالكم»، وذلك دليل على أن الزمن الذي قضاه في باريس لم يذهب سدى، وأن الدروس السياسية التي تلقاها من لويد جورج وكليمنصو لم تذهب ضياعاً.

ألقى في بيروت خطاباً جمع بين الغرض الذي ذهب هو لأجله إلى باريس والغرض الذي أتى لأجله غورو إلى بيروت، قائلا أن الإستقلال الأمنية الوحيدة التي كان ينشدها ولا يتحول عنها. وأثنى على حسن مقاصد فرنسا، وأن الفرنسيس الموجودين هناك إنما جاؤوا لمساعدتنا.

لا ريب أن الخطب السياسية تدعو إلى التحفظ في إلقائها والمجاملة في معانيها. ولكن في الخطة التي جرى عليها الأمير أثناء الأسابيع الأخيرة في باريس، وما فاه به أثناء إقامته في بيروت دليل على أنه قطع في سبيل «فيصل» شوطاً أبعد من الشوط الذي قطعه في سبيل سورية، مع أنه قد جاء باريس للمطالبة بالإستقلال التام دون أدنى مساعدة أو رعاية أو وصاية، وإن ما يلزم سورية من المساعدة تأخذه بإجرة معلومة.

وعلى كل فإن الأمير كان على ثقة من أنه سيد الأمة التي لا يُعصى لها أمر ولا نهي، وأن ما يربطه هو في باريس يكون مربوطاً في سورية، وما يحله هناك يكون محلولا فيها. ولا مشاحة في أن الإجتماع الأول الذي عقده في دمشق باسم الجمعية الوطنية أو مندوبي الأمة، كان قد أرسخ هذا الإعتقاد في ذهنه، لأنه رأى فيه الإستسلام الشرقي مجسماً. وتبدت له بكل وضوح مباراة الشرقيين في التزلف إلى حاكمهم أو أميرهم أو ولي أمرهم.

بيد أن الأمير لم يلبث طويلا بعد عودته الأخيرة من باريس حتى رأى أن كل شيء في سورية قد تغير كما كان قد تغير كل شيء في فرنسا. فرأى أن السياسة التي أشار إليها في الخطاب الذي ألقاه في بيروت لا تمشي جيداً في سورية، وأن السوريين مصممون على نيل الإستقلال بقطع النظر عما يرتئيه أميرهم، بل شاهد تغيراً كبيراً في روح الجماعة. فبعد أن كان يسمع من الجمعية الوطنية «نحن وبيوت الشعر فداك»، صار يسمع ما يدل على أن الجماعات تنبهت إلى أن هناك فارقاً بين الوطن وأمير الوطن، وأن للأمة إرادة متميزة عن إرادة حاكمها فالإثنان ليسا شيئاً واحداً. وبعد أن كان يقول «أنا الحكومة» كما كان يقول لويس الرابع عشر «أنا الدولة»، أصبح يقول «خادم الأمة».

يمكننا القول إذاً، بكل صراحة أن الطور الأخير من المسألة السورية كان الخلاف في وجهة الرأي بين الأمة السورية والأمير من جهة، وبينها وبين فرنسا من الجهة الأخرى، وأن سببه لم يكن قط الخلاف بين الأمير نفسه وفرنسا.

إن تعريج الأمير بين الفرقتين أضر بنفسه وسورية معاً، لأنه لو كان عاقداً العزم على الإستقلال التام المطلق كما كان موقفه سابقاً لاتخذ الإجراآت اللازمة للدفاع عن سورية وجرى بحركة التجنيد شوطاً بعيدا. يدلك على ذلك أنه أدرك في الطور الأول أن الإستقلال يؤخذ ولا

يعطى على ما صرح به غير مرة، ولكي يؤخذ يجب أن يكون هنالك جنود تأخذه. فكان يقول على الدوام بوجوب التجنيد. وهو لو ظل على هذه الخطة لكان جمع جيشاً، وأعد معدات حربية كافية للوقوف في وجه فرنسا أياماً معدودات إن لم يكن أسابيع، وكان هنالك منفسح من الوقت للجنة الأمم أو إنكلترا للمداخلة في حسم القضية السورية حسماً إن لم يرض عنه السوريون كل الرضا، كان كافياً لأن يكون أساساً لاستقلال تام حقيقي.

[11]

إقتراحنا والمناداة باستقلال سورية

إقترحنا نحو مغيب العام المنصرم على الحكومة السورية بواسطة صديق من سراة دمشق وجوب المناداة باستقلال سورية قبل أن يصدر مؤتمر الصلح حكمه بشأنها، لأن نزع استقلال نودي به وخرج من حيّز النظريات إلى عالم الوجود أصعب من القضاء على استقلال لا يزال في عالم الخيال. وقلنا إن ما يسميه الأجانب «فعلاً ناجزاً» شأن خطير يفكرون مرتين قبل الإقدام على إبطاله. وأن ذلك يؤكد لمؤتمر الصلح أن في سورية أمة تحترم نفسها وعاقدة العزيمة على تأييد حقوقها.

كانت حينئذ قد انتظمت في سورية الجمعيات التي اقترحنا تأليفها في «الكتاب المفتوح» الذي أرسلناه على صفحات «المجلة» نداء للسوريين واللبنانيين والفلسطينيين، وفي كتب خاصة بعثنا بها إلى جمعياتنا ورفقائنا في الجهاد. وتحول الشعور الوطني من تحركات سياسية مشوشة إلى نهضة وطنية منظمة. وتصدر مجالس الأمة وأنديتها السياسية رجال من خيرة الطبقة الراقية، ومع أنه ظل في عدادهم نفر ممن لا صفة مميزة لهم إلا الجاه أو الغنى أو الزعامة الوراثية، فقد كان عددهم أقل كثيراً بالنسبة لما كان عليه سابقاً أثناء الإجتماع الأول للجمعية الوطنية، فضلاً عن أن وجود أمثالهم ضروري في بلاد لا تزال على التقاليد القديمة، ولا يستغنى عنهم في الأعمال الوطنية الكبرى التي يقتضي لها أموالاً ورجالاً. وهم فوق كل ذلك مخلصون في وطنيتهم ومحتدمون غيرة لنيل الإستقلال مهما اقتضى من الضحايا. وكانت الأنباء الخاصة الواردة إلينا تبشر بالنجاح والفلاح، وتدل على أن التنظيم قد بدأ أن يضع أصحاب العقول الراقية في المنزلة التي هم أهل لها.

لما بلغ الأمير فيصل دمشق، وجد أن التعابير التي فاه بها في بيروت، لا تنطبق كلها على أماني

الأمة، ولا توافق الوسط الذي هو فيه فضلاً عن أنها ليست بالوسيلة الفضلى التي ترفعه إلى المنصب الخطير الذي يطمح إليه ألا وهو عرش سورية.

لا مراء في أن ذلك كان مطمح بصره منذ وطأت قدماه أرض سورية، ورأى من الحفاوة والإجلال بعد دخوله دمشق ما جعله على ثقة من أن ذلك المطمح سهل التحقيق، ولكن الأمور مرهونة بأوقاتها.

ليس من لوم على الأمير في أن يسعى ليكون ملكاً على سورية. وعندنا أنه لو جرى على خطة واشنطن، ورفض التاج ليكون أول رئيس لجمهورية البلاد، لكان أتى عملاً يخلد له الذكر ويرفع منزلته أبد الدهر، ولكان دعي واشنطن الشرق وهو لقب أشرف من كل لقب ملكي.

ومهما يكن من الأمر، فإن الأمير جرى في دمشق مع التيار الوطني، وأعرض عن طلب مساعدة فرنسا التي كان قد ألمع إليها في الخطاب الذي ألقاه في بيروت. ولو جرى على غير هذه الخطة لدحرج تاجه بيده.

بيد أن الإضرابات التي كانت ترجو حكومة فرنسا أن يكون وصول الأمير باعثاً، على إخمادها لم تخمد إلا في بعض مواضع هرب سكانها النصارى. أما في المواضع الأخرى فازدادت إضطرابا وتفاقم شرها إلى حد حدوث معارك بين السوريين والفرنسيس، وتحرجت الحال إلى حد اضطرت عنده الحكومة الفرنسية إلى طلب نجدات.

والظاهر أن حكومة فرنسا، لم تكن تعرف حينئذ ما تريد أو ما يجب فعله في وضع حد لهذه الإضطرابات التي كان وجود الجنود الفرنسيين باعثاً عليها. فلقد أرسلت الجنرال غورو قائداً عاماً ليشغل المركز الذي كان يشغله القائد اللنبي، ولقد انسحب الجنود الإنكليز ليحل محلهم الجنود الفرنسيس. وكان من المنتظر من الجنرال غورو بعد وصوله إلى بيروت أن يقوم بإجراآت حربية حاسمة ويلقي الرهبة في قلوب الأهالي والجنود السوريين. ولكنه لم يفعل شيئا من ذلك وحاول أن يعوض بالبرهان ما عجز عنه بالحسام، وأن يوهم القوم أن لديه قوة يتمكن بها من سحق كل مقاومة. ولكنه يفضل أولا استعمال اللين والحسنى. فلا هو اعتمد على البطش ولا عول على اللين، والخطة الوسطى التي تخيرها في هذا الموقف من أردأ الخطط لأنها أثارت حنق المسلمين على النصارى دون أن يكون فيها ما يرهب الأولين

ويحمي الآخرين. ودلت على ضعف القوة الفرنسية وعجزها عن إحراز الغاية التي أتت لأجلها بالإرغام فسقطت هيبتها من القلوب.

وليس هناك من ريب في أن الإضطرابات المذكورة نشأت لغرض وطني، ومتى دخلت الغوغاء في مثل هذه المعامع لا يمكنك أن تمنعها عن السلب والنهب، وتحويل أقدس الأعمال إلى أحطها. وكان يجب على الفرنسيس أيضاً أن يدركوا ذلك ويستدركوا الأمر، أو على الأقل لا يبدون حراكا إذا لم تكن لديهم قوة لحماية القرى المسيحية.

وخلاصة الأمر، أن الفتن المشار إليها أتت رغماً من كل ذلك بالغرض الذي أنشئت لأجله، وهو استلفات نظر العالم المتمدن جملة، ونظر فرنسا وإنكلترا خاصة، وبرهنت لهما أن الشعب السوري عازم على تأييد استقلاله بالقوة.

كان ذلك ضربة على الحزب الإستعماري الفرنسي الذي لم يكن يحلم بالمقاومة، وشعر أن مركزه في سورية أصبح حرجاً، لأنه يعرف أن الشعب الفرنسي لا يريد الإنغماس في حرب أخرى من أجل الفتح والإستعمار، بل أن موارد الدولة لا تقوى على ذلك.

وزاد الطين بلة، أن الجنود الفرنسيس ارتدّوا عن بعض المواقع التي كانت قد صدرت إليهم الأوامر بإحتلالها وخصوصا الأجزاء المتممة لحدود لبنان الكبير. وكان الضباط الفرنسيون في مواضع كثيرة عرضة للإهانات بل الإعتداء والقتل.

بلغ فقدان الأمن حتى في قلب البلاد التي احتلها الجيش الفرنسي، وذلك في قلب بيروت نفسها، حدّاً فاحشاً لا مثيل له في تاريخ البلاد. فكثر الإعتداء على أبناء السبيل والعائدين من المهاجر إلى وطنهم، وسلبهم وقتلهم حتى أصبح الأهلون يتحسرون على زمن الأتراك.

وعلى الجملة، فإن الأعمال التي كانت جارية في سورية لم تكن على الحقيقة إلا ثورة. ورغماً من الأعمال الفظيعة التي ترافق مثل هذه الحركات في كل بلاد، وعلى الأخص في بلاد مشهور أهلها بالتعصب الديني كالبلاد السورية، فقد أحدثت دوياً كبيراً في الأندية السياسية الأوروبية عامة، وفي فرنسا وإنكلترا خاصة. وكانت حجة على حزب الإستعمار ودعوة إلى انتقاد الحكومة الفرنسية انتقاداً مراً.

وقد وافقت هذه الإضطرابات من الجهة الأخرى، هوى من الحكومة الفرنسية لتبرهن للعالم

المتمدن أن السوريين متوحشون لا يقدرون على حكم أنفسهم. ولتبرهن للنصارى أن وجودها ضروري لحمايتهم، لذلك كان من مصلحتها تشجيع هذه القلاقل بتحرش ضباطها وموظفيها بالضباط السوريين وجنودهم، ثم الإرتداد، حتى تقع تبعة العمل ونتائجه على رؤوس النصارى.

[12]

سورية ولبنان في مجلس الأمة الفرنسية

كان صدى الثورة السورية في فرنسا أقوى منه في إنكلترا، فأفضى إلى مناقشات عنيفة في مجلس الأمة، نخص منها بالذكر المناقشة التي أثار عجاجها المسيو مارسيل كاشين زعيم الحزب الإشتراكي المتطرف[1]. ولما كان في الخطاب الذي ألقاه بهذا الصدد في المجلس المنوه عنه صورة صحيحة للشعب الفرنسي الشريف والحزب الإستعماري الجشع، رأينا أن نأتي على بيانه لنوضح أن فرنسا لم تكن راضية عن هذه الحملة الحربية، ولا عن الإجراآت التي يراد بها الفتح والإستعمار تحت ألفاظ الحماية والوصاية وما شاكل. أما خطاب النائب المنوه عنه فكما يأتي:

«إن شؤون الشرق الأدنى محجبة عن جرائدنا بحجب الخفاء والإبهام رغماً من خطورتها. والذي أراه أننا قد شرعنا في إرسال حملة هامة إلى هناك، لذلك نرغب نحن الإشتراكيين في استيضاح الحكومة لأن فرنسا على جهل تام بما هو جار في الشرق الأدنى، وتريد أن تقف على كيفية دفاع الحكومة عن مصالحها الحقيقية، وما هو مستور في ثنايا السياسة السرية التي لا تزال الحكومة جارية عليها، رغماً من تصريحاتها بالعدول عنها.

«تنبئنا الجرائد الإنكليزية من حين إلى آخر، بمعارك سالت فيها دماء الفرنسيس بغزارة. أهنالك يا ترى حملة حقيقية كتمتها الحكومة عن فرنسا؟

«كم عدد الجنود الذين أرسلوا إلى هناك؟ وما علة المعارك الحامية الوطيس؟ وما هو الغرض الذي نرمي إليه في سورية؟.

---

1 المقصود النائب الفرنسي مارسيل كاشين (1869-1958)، Marcel Cachin، وهو من مؤسسي الحزب الشيوعي الفرنسي ومن أشد المعارضين للسياسة الاستعمارية الفرنسية. وكرئيس تحرير جريدة الانسانية (L'Humanité) الناطقة بلسان الحزب الشيوعي الفرنسي شن حملة مستمرة على هذه السياسة بمقالات أسبوعية ومداخلات في مجلس النواب الفرنسي.

«أبرمت الحكومة في سنتي 1915 و1916 معاهدات سرية قضت بها على الجزء الأكبر من أملاك تركيا، دون أن تعرف الأمة شيئا عنها. ولما سقطت إحدى الدول الموقعات المعاهدات المشار إليها، حورت في سنة 1919 تحويراً قرر نصيب الأجزاء الآسيوية من تركيا دون أن نعرف شيئا من تلك التفاصيل. فهل يحتمل يا ترى هذا المجلس صمت الحكومة إلى أجل غير معين؟ لقد اشتبكنا في قيليقيه وسورية في وقت واحد، وبعثنا الجنرال غورو إلى هناك لقضاء مهمة خاصة، فما هي يا ترى تلك المهمة؟ أني أسأل الحكومة تقديم إيضاحات عن كل ذلك.

«أعازمون على بسط حماية؟

«تكلم أحد الخطباء الذين تقدموني عن حقوقنا القديمة في سورية التي يزعم أنها تعود إلى زمن الصليبيين. ولكني أستميحكم الإذن في أن أقتصر في كلامي على الحال الحاضرة ومصالحنا الحقيقية في الشرق الأدنى.

«إن سورية كما لا يغرب عنكم بلاد راقية ذات روح عصري يضطرم حماسة ويعرف قيمة الحرية. فهي تطلب منا أن ندعها وشأنها حرة مستقلة. وهل يتم ذلك يا حضرة الرئيس بإرسال عشرين أو ثلاثين ألف جندي إليها؟

«قد لا تكون يا رصيفي العزيز على علم من ذلك، فمتى عرفته ازددت اندهاشاً. ونحن الآن في موقف حرج، وفي حاجة إلى تعديل ميزانيتنا. فليس هو الزمن لإنفاق مئات الملايين على حملة نبعث بها إلى هناك، فالوسائل غير متوفرة لكم لإرسال هذه الحملة. وفضلاً على ما تقدم لا حق لكم بإرسالها، فقد لبت شعوب سورية نداء الحلفاء في سنة 1914 وحارب أبناؤها في صفوفنا، وأهرقت فرق منها دماءها في أرضنا في سبيل حرية الشعوب. وهي الآن تطالبكم باحترام الإستقلال والحرية اللذين وعدتموها بهما جهراً. ولكننا بدلا من أن نفعل ذلك جردنا جيشا للتنكيل بالسوريين والأتراك. ويترتب على الحكومة أن تقدم إيضاحاً حقيقياً عن مواقع بعلبك ومرجعيون وتل كلخ والمطلة، وأن تجلو غامض الأنباء البرقية الواردة من دمشق وبيروت صارفة النظر عن برقيات مصر التي قد تحسبونها مختلفة. ومن واجباتنا أن نقول الصدق، وندرك أننا شارعون في القيام بحملة دموية طويلة الأمد. ومن واجباتنا أن نطلب من الحكومة استرجاعها.

ليست المعارك التي اشتبكنا بها هناك حتى الآن سوى البداية، والعرب كلهم الآن في ثورة. ولا أقول ذلك إلا لأني أريد المحافظة على مصالح فرنسا الحقيقية، فإن ألوفاً من الجنود المنظمين تحشد هناك لمحاربتنا وهم آخذون في الإزدياد يوماً بعد يوم.

«أصحيح أن المسيو روبر دو كاي قدم من بيروت طالباً نجدة للجند الفرنسي؟ وهل من منكر أن الموقف حرج في سورية وقيليقيه كما ألمعت إلى ذلك أمس جريدة «الطان». فنحن مشتبكون في سورية وقيليقيه على السواء، وآخذون في محاربة الأتراك والسوريين في وقت واحد. أفلا ترون كما أرى أنا أن على ناظر الخارجية أن يقدم للأمة إيضاحاً تاماً عن كل ذلك بأسرع ما يمكن؟

«رب قائل يقول ما غرضك من هذا كله؟ غرضي قبل كل شيء أن تعرف بلادي ما هو جار هناك من الأعمال التي كتمتها الحكومة عنها وبعثت بأبناء الأمة لخوض غمار حرب جديدة. فباسم الأمة أطلب بياناً ضافياً دون أدنى إبطاء.

«إذا كان فريق من متمولي الفرنسيس يرمي إلى حماية سورية واستعمارها بدلاً من منحها الحرية والإستقلال والوحدة كما تريد، فإني لمحتج على ذلك باسم الوطن بكل ما فيّ من عزم، لأننا مديونون للشعب السوري بما وعدناه من الحرية التامة، ومصلحتنا تقضي بأن لا نضطره إلى الخروج علينا. ولم يقتصر أمر الإحتجاج على سورية، بل أن لبنان نفسه يحتج على سياستنا اللبنانية. أتريدون أن أتلو عليكم إحتجاج حكومة لبنان الشرعية على أعمال موظفينا هناك؟ إن مجلس الإدارة وهو نائب الشعب احتج جهراً منذ بضعة أيام على محاولتنا الوقوف في وجه استقلاله الإداري والإعتداء على نظامه، وهو نظام كفلته دول الحلفاء نفسها. والإحتجاج المذكور مصوغ في قالب أديب، ولكنه بالرغم من كل ذلك شديد اللهجة مطالب بحرية وطنه.

«نفتخر نحن الإشتراكيين بطلب الحق لكل شعب في تقرير مصيره. فمن أجل الحق نزفت دماء الشعوب زهاء أربع سنين طويلة. والحق يقال إن هذه الخطة الذريعة الوحيدة لصيانة مصالح فرنسا الحقيقية في الشرق.

«إذا احترمتم كما هو الواجب حقوق هذا الشعب الذي ألمع الآن أحدكم إلى أنه تهذب على

يدنا، وضمنتم له الإستقلال لا العبودية المستورة، دعوتموه إلى الهتاف لفرنسا الذي يعتبرها حينئذ محررته الحقيقية التي خلعت عنه نير الأتراك، وصانت له حريته ووحدته. فعند ذلك يتاح لتجاركم وصناعكم وعلمائكم صيانة مصالح الأمة. أما إذا أصررتم على بعث حملات حربية لإنشاء مستعمرة تحت حجب التغرير، خسرت فرنسا بذلك كل فوائد التهذيب الحر الذي أدلته لهذا الشعب منذ قرون».

هذا مثال لما يريده الشعب الفرنسي الشريف، متى كان منزّهاً عن مطامع الحزب الإستعماري. ولقد اضطر بعد هذا المسيو ألكسندر ميلران إلى حضور المجلس على ما سنبينه في العدد الآتي.

[13]

ميلران يحاول تبرير نفسه

كان للخطاب البليغ الذي ألقاه المسيو مارسل كاشين في مجلس الأمة الفرنسيه دوي كبير في الصحف والأندية السياسية، ومنه يدرك المطالع أن الحكومة وضعت عصابة على عين الشعب الفرنسي في كل ما يختص بمقاصدها السيئة في سورية. وسيرت الحملة الحربية إلى الربوع السورية دون استشارة أمتها، بل دون أن تفيدها عن ذلك رسمياً في مجلس النواب. فكان من وراء حملة كاشين على الحكومة الفرنسية، أن أتى في اليوم التالي الموسيو ميلران[1] رئيس الوزارة فألقى خطاباً حاول فيه تبرير حكومته. وإننا نثبت هنا بعض ما جاء فيه بخصوص سورية ليرى المطالع الفرق بين لهجة النائب كاشين الشريفة الصادقة الحرة، ولهجة ميلران المموهة بالرياء والخداع والتي لم تكن إلا ذرا للرماد في عيون الأمة الفرنسية. قال ميلران:

«إن لنا في سورية مصالح خطيرة سواء من الوجهة المادية أو الأدبية. ومن المدهش أن المسيو مارسيل كاشين أتى على ذكرها أمس، باستخفاف رغماً من أنها ترجع إلى زمن الصليبيين، وإذا لم يكن لها غير هذا فحري بالحكومة الفرنسية التي يترتب عليها المحافظة على صيت الأمة أن تذكرها ولا تنساها.

«لا يزال خطاب المسيو كليمنصو الذي فاه به من على هذا المنبر يرن في الآذان. ولقد برهن به على أن فرنسا كانت جندي الآمال فجندي الإيمان فجندي الحرية، وهي اليوم جندي العدل. وعلينا أن نفقه أن النضال في سبيل المصالح السامية هو الذي رفع مجد فرنسا، فلا ننسى ذلك كما أننا لا ننسى واجبنا في المحافظة عليه. وفضلاً عما تقدم، فإن لنا في الشرق مصالح أخرى أقرب عهداً، وأوضح قصداً يترتب علينا صيانتها، ولنا أيضاً مصالح مدرسية ومعاهد خيرية، كانت في عداد العوامل لترقية مصالح فرنسا ونشر صيتها، وعلينا المحافظة على ما لها من

---

1 الكسندر ميلران (1859-1943)، Allexandre Millerand، كان في البدء وزيراً للخارجية، ثم رئيساً لمجلس الوزراء وأخيراً رئيساً للجمهورية الفرنسية ما بين أيلول سنة 1920 و حزيران 1924.

المصالح المالية والإقتصادية والسهر عليها. ولما كانت الحكومة على علم تام بهذه المصالح وشاعرة بما يفرضه عليها الواجب اقترحت اقتراحات وقعت عند أصدقائنا الإنكليز موقع القبول».

وبعد أن ألمع إلى الإتفاق الفرنسي. الإنكليزي بخصوص سورية والإتفاقات المعقودة سابقاً وعزمه على تقديم بيان عن كل ذلك إلى لجنة السياسة الخارجية، عاد إلى الكلام في عنايته وعناية حكومته بسورية السيئة الطالع بعبارات لا تعرف الصدق والإخلاص. قال:

«اتهمنا المسيو كاشين في عرض كلامه عن القضية السورية، بأن سياستنا تهدد سيادة تلك البلاد. فسياسة الحكومة الفرنسية لا ترمي إلى هذا الغرض على الإطلاق، فلا وزارة المسيو بريان الحاضر بيننا ولا الوزارة السالفة، ولا وزارة من يخاطبكم الآن ترمي إلى شيء من ذلك».

«إن من يعزو إلى فرنسا سياسة الفتح والإجتياح يهينها ويهينها مجاناً، لأن هذه ليست غايتها، بل ما تبغيه فرنسا وترمي إليه، إنما هو أن تمتع الشعب المستظل بعلمها إدارة حسنة وعدلاً تاماً فإن ذلك ما هو في حاجة إليه».

إن كلام المسيو ميلران أشبه بنحاس يطن أو صنج يرن، لأنه خال من المحبة لسورية، وخال من الصدق، لأنه يدعي أن الحكومة الفرنسية التي تهددها لا ترمي إلى تهديد سيادة الشعب رغماً من أنها رمت أثناء الحرب والصلح إلى ذلك، ولا تزال ترمي إليه حتى الساعة. وهل أدل على ذلك من عبارات ميلران نفسه الأخيرة، فقد حسب الشعب السوري مستظلاً بعلم فرنسا، وأنه لا يحتاج إلا إلى إدارة حسنة وعدل، أما الحرية والإستقلال فليس من حاجة إليهما».

لم يكن غرض الحكومة الفرنسية في خلال الحرب وانعقاد مؤتمر الصلح إلا بسط حمايتها على سورية واستعمارها استعماراً على حد مراكش. ولا نتكلف في إثبات هذه الحقيقة من إقامة البرهان على ذلك سوى الإتيان على تتمة خطاب ميلران المشار إليه، وقد أحدثت تلك التتمة ضجيجاً كبيراً في المجلس. قال ميلران:

«لما طرق سمعي الإنتقاد الذي صوب أمس إلى الحكومة، ذكرت التقريع الذي رمتنا به ألمانيا سنين طوالا».

وعندما أتى على هذه العبارة حدث في المجلس ضجيج احتجاج من حزب الشمال وضجيج استحسان من حزب اليمين، فقال له النائب ماريوس موته «إن هذا لعار عليك». واحتج آخرون احتجاجاً شديداً ولم يعد السكون والنظام إلا بعد جهد جهيد. وحينئذ أخذ ميلران في الإعتذار وهو عذر أقبح من ذنب فقال:

«أعني بما قلت أن الذين رموا فرنسا بالتقريع في مسألة سورية، قد رموها بمثله في مسألة مراكش وقالوا فيها أنها ترمي إلى سياسة الفتح والإجتياح والإستعباد، فحيثما توجهت فرنسا حملت معها التحرير والعدل».

وكان كلما أوغل المسيو ميلران في الإيضاح، يوغل في جرح عواطف السوريين وإهانتهم وهو لا يدري إلى أن ختم كل ذلك بالعبارة الآتية:

«لما طرق سمعي أمس الإنتقاد الموجه إلى توغلنا في سورية، ذكرت أن مثل هذا الكلام فاه به بعضهم على هذا المنبر، لما بدأنا مثل هذا العمل في مراكش وأننا كنا نسمع مثله في ألمانيا».

فواضح مما تقدم أن حكومة فرنسا ترمي في سورية إلى مثل ما رمت إليه في مراكش، أي سياسة فتح واستعمار واستعباد. وهي التي سماها المسيو ميلران «حرية وعدلا». فمن فم المسيو ميلران ندينه ومن فمه يدين حكومته العالم المتمدن والتاريخ.

تريد حكومة فرنسا أن تضع سوريا ومراكش على مستوى واحد، وأن تعامل الأولى بما عاملت به الثانية، وأن تمنحها نعمة الحرية والعدل التي منحتها للمراكشيين. ولا يخجل بعد كل ذلك من التصريح الذي فاه به في هذا الخطاب من أن سياسة حكومته لا ترمي إلى تهديد سيادة الشعب السوري، ولا إلى سياسة فتح واستعمار سورية.

بمثل هذه الترهات كانت تحاول حكومة فرنسا إخفاء الحقيقة عن مجلس الأمة، وبالتالي عن الشعب الفرنسي نفسه. ورغماً من المقاصد الأثيمة التي كانت ترمي إليها الحكومة المذكورة لم تنفك عن التصريح بأنها لا ترمي إلى الفتح والاستعمار.

ألا يتفضل علينا المسيو ميلران بأن يفسر لنا معنى الفتح والإستعمار، وأن يفيدنا عن اللفظ الذي يطلقه على امتلاك مراكش. فإذا كان ذلك لا يسمى فتحاً واستعماراً فأين الفتح والإستعمار في العالم؟

لقد أجابنا الميسيو ميلران على هذا السؤال في عرض خطابه، فقال لنا «أن فرنسا حيث تذهب تحمل معها الحرية والعدل». وهو يريد بهذا أن يلقي على فرنسا تبعة أعمال حكوماتها وفرنسا بريئة منها. وإن تشبيه سورية بمراكش خرق في السياسة وشرود عن الحق واعتداء على العدل وإهانة للسوريين، كما كان إهانة لمدارك مجلس الأمة الذي ألقى فيه ذلك الخطاب الذي كان جزؤه المختص بسورية من أتعس الخطب التي طالعناها.

[14]

الساسة العميان

كان لخطاب المسيو ميلران رئيس وزارة فرنسا في مجلس الأمة فيما يختص منه بسورية وقع سيئ، لا بين النواب فقط بل في جرائد باريس حتى ما كان منها موالياً للحزب الإستعماري، وخصوصاً لأنه اتخذ الخطة السيئة التي جرت عليها الحكومة الفرنسية في مراكش مثالاً لما عزمت على الجري عليه في سورية. ففضلاً عما بين سورية ومراكش من البون الشاسع في درجة الإرتقاء العقلي والعلمي والإجتماعي والسياسي، فإن انتهاك الحكومة الفرنسية حرمة بلاد متوحشة، لا يسوغ لها انتهاك حرمة حرية بلاد أخرى سواء كانت متوحشة أم متمدنة.

لا يجوز اتخاذ عدم التمدن ذريعة للقضاء على استقلال أمة واستعمارها، والعذر الذي تنتحله الدول الأوروبية في سبيل الإستعمار، وهو تمدين الأمم والشعوب الشرقية، عذر رث بالٍ، أكل الدهر عليه وشرب. ومهما يكن من الأمر فلا يصح اعتبار سورية بوجه من الوجوه أمة غير متمدنة، كما اعترف بذلك نواب فرنسا حتى حزب الحكومة منهم. لذلك كان لإشارة ميلران في خطابه إلى سورية ومراكش ووضعهما على مستوى واحد أثر سيئ. ومما قالته جريدة «الديبا» بهذا الصدد في اليوم التالي، وهي في صدر جرائد باريس رزانة وبلاغة ما يأتي:

«كان الموسيو ميلران صريحاً جداً في كلامه عن المسألة السورية، فوضع سورية ومراكش في مستوى واحد. أما نحن فلا نرى الشبه كثيراً بين هذين البلدين، فإن لسورية مكانة وحالاً خاصتين كحال لبنان التي تستدعي إمعان النظر. وفضلاً عما تقدم فقد ارتكبنا في مراكش ما لا يجوز تكراره بل يجب أن يكون لنا عبرة وتبصرة».

والمتأمل في كلام «الديبا» يراه لا يخرج عن حد الإنتقاد الشديد لميلران بصورة لطيفة، ويدرك أنه يتضمن إنذاراً للحكومة لما قد يخطر في بالها من اعتبار سورية كمراكش، وتنبيهاً لها حتى لا تعود إلى الأعمال الجائرة التي ارتكبتها في مراكش.

ومن الأدلة القاطعة على سياسة الفتح والإستعمار التي تريد الحكومة الفرنسية الجري عليها في سورية ما جاء بهذا الصدد في جريدة «العصر الجديد» في عرض تعليق أحد الكتبة الفرنسيس على خطاب الموسيو ميلران المشار إليه ومن ذلك قوله:

«ويدعي الموسيو ميلران أننا لا نرمي إلى الفتح والإستعمار في سوريا. فإذا كان الأمر كذلك فلماذا يا ترى لنا ذلك الجيش الكبير هناك، ولماذا يتولى الشؤون قائد حربي، ولماذا نتظاهر بأننا سائرون إلى حرب صليبية؟

«وعدنا السوريين وقطعنا عهدا معهم بالإستقلال، وبناء على ذلك رضوا بأن نسدد خطواتهم الأولى في طريق الحرية المتوعر بواسطة مستشارين، وبأن يعطونا امتيازات إقتصادية. فلماذا لا نجري على هذه السياسة التي تنم عن أخلاق كريمة، وتجمع بين الشرف والمصلحة؟ ماذا عسانا نفعل بجنودنا هناك؟ أبلغت ثروتنا حداً يمكننا عنده إنفاق الألف مليون التي طلبتها الحكومة للحملة السورية؟ هل بلغت بنية الأمة القوة حداً يمكننا عنده أن نفتح شرايينها لينزف دمها في حرب تخلق لنا معضلات لا وسيلة لنا إلى حلها، وتحرمنا تلك المصالح الأدبية والإقتصادية التي هي بريق الآمال التي تتجه إليها أبصارنا؟»

ورغماً من ذلك لا نرى في الجرائد العربية الجارية وراء الحزب الإستعماري الفرنسي إلا مديح الحكومة الفرنسية، خالطة بينها وبين الأمة الفرنسية. فالجرائد الفرنسية الحرة لا ترضى لنا إلا الحرية والإستقلال، أما الجرائد العربية الفرنسية فلا ترضى إلا بسط نعمة حماية فرنسا علينا، وهي تقول لحكومتها أن السوريين أمة راقية، أما جرائدنا فتقول أنهم وحوش.

ومما قاله كاشين في جريدة «لومانيته» أو الإنسانية، وهي جريدة الحزب الإشتراكي، بعد أن لفظ الميسيو ميلران خطابه بشأن سورية ما يأتي:

«إننا مشتبكون الآن في الشرق الأدنى بحملة حربية كبيرة، ولقد كانت جريدتنا الوحيدة بين جرائد الصباح التي أتت على ذكرها. ولما رغبنا في إعلان الحقيقة للأمة من على منبر مجلس الأمة، ونحذرها سوء عقبى هذه السياسة الجنونية، قام في وجهنا ميلران وعيرنا بأننا ألمان.

«ستضطر فرنسا هؤلاء الساسة بعد عهد قريب إلى العدول عن اجتياحهم سورية، ولكننا نخشى أنه متى أتى ذلك اليوم لا يكون لنا حق أو وسيلة للرجوع.

«نرانا في مشاكل مع مراكش، وعلى الضفة اليسرى من الرين، وقد اشتبكنا الآن في سورية. وهؤلاء الساسة العميان لا يبصرون ما هي عليه فرنسا من المشاكل الداخلية والمعضلات المالية وأزمات الحال الإجتماعية والعواقب الوخيمة لغلاء المعيشة.

«إن حكومتنا بالضد مما يوحي به العقل السليم تظل عاملة على تكثير المعضلات وبينما الأمة في حاجة إلى ضمد جراحها والتمتع بالسلام، نرى أصحاب رؤوس الأموال يمتطون الأخطار لاجتياح الشرق الأدنى وفتحه».

وهؤلاء العميان أصحاب السياسة العمياء يقودون فرنسا إلى مواطن الخطر ويحسبون أنهم يرهبون أمم الشرق بالغطرسة والأعمال الإستبدادية والتحكم الجائر، ويملكون القلوب بالإعتداء على حرية الشعوب واستقلالها بحجة التمدين والمصالح الإقتصادية والتقاليد التاريخية، ويحسبون أن الشرق لا يزال على ما كان عليه في القرون الغابرة والأعصر المظلمة، فيتكلمون عن حملات صليبية، وهم الذين طردوا أصحاب الصلبان من بلادهم، ويعتدون على حقوق الشعوب الشرقية، وهم الذين قالوا أنهم خاضوا غمار الحرب لتحرير الأمم الضعيفة، ويبسطون حمايتهم بالقوة الجبرية على شعوب قالوا لها المرة بعد المرة إن لكل شعب حقا في تقرير مصيره، ويدفعون أمتهم إلى الوقوف في مواقف يأباها عليها كرم أخلاقها وتنفر منها طباعها، ويزجونها في مآزق لا ترى نفسها مضطرة إلى الدخول فيها ولا تعرف كيف يتسنى لها التخلص منها. وبدلاً من أن يضمدوا جراح أمتهم وجراح أصدقائهم يفتحونها في سبيل إشباع مطامع رؤوس الأموال الشعبية ومطامح الحزب الإستعماري المالية، ويهدمون بأعمالهم الظالمة النفوذ الذي بناه آباؤهم وأجدادهم أثناء قرون متطاولة، ويتعامون عن الحقيقة الملموسة، وهي أن الجنس البشري دخل في طور جديد لا يتفق مع أطواره الماضية ولا تفلح فيه طرائق العصور البائدة.

إذا كانت الحكومة الفرنسية ترمي إلى مساعدة سورية دون استعبادها فأهلا وسهلا، وإننا أول من يرحب برجالها ونفضلهم على سائر رجال أوروبا ونأخذ منهم مستشارين لدوائر الحكومة، ونوسع لهم السلطة إلى أقصى ما تبلغه سلطة تتفق مع سيادة الشعب واستقلال البلاد. أما إذا كانت ترمي إلى اتخاذ المساعدة وسيلة لنزع الاستقلال والقضاء على الحرية، فسترى بعد حين وما ذلك ببعيد أنها أخطأت خطأً فاحشاً.

[15]

اكتشاف طرق أخرى لتعمير البلدان غير ذبح السكان

في اليوم التالي لقرار المؤتمر السوري أي الثامن من آذار، نودي بالأمير فيصل ملكاً على سورية. وسيجلو التاريخ ما إذا كان هنالك اتفاق سابق غير رسمي مع فرنسا أو إنكلترا أو كلتيهما. والأنباء الواردة حينئذ من الوطن تدل على أن ذلك قد تم بمعرفة حكومة فرنسا وموافقتها. وفي عداد الأدلة على هذا حضور قنصل فرنسا في دمشق حفلة التتويج دون وجود موظف بريطاني على الإطلاق، وإرسال الجنرال غورو ضابطاً فرنسياً إلى دمشق ليهنىء الأمير فيصل بارتقائه عرش سورية. وهذان الدليلان وحدهما كافيان للدلالة على ما تقدم بيانه. ولولا ذلك لاستدعت الحكومة الفرنسية الجنرال غورو أو على الأقل أظهرت استياءها منه على ما تقضي به الإصطلاحات السياسية. ولكنها لم تفعل هذا ولا ذاك.

إرسال غورو مندوباً لتهنئة فيصل فعل رسمي يعترف بتتويج الملك، وتصريح حكومة فرنسا قول رسمي بعدم الإعتراف بملكية فيصل، والفعل عند كل الأفراد والأمم أثبت وأصدق من القول.

كل ذلك يحملنا على التأكد من أن هنالك اتفاقاً سابقاً بين فيصل وفرنسا أثناء وجوده في باريس قوامه اعتراف فرنسا بملكية فيصل واعتراف فيصل بمساعدة فرنسا، وأن إنكلترا كانت على علم من هذا الإتفاق.

ومما يثبت ما تقدم بيانه أن الوزارة السورية الأولى التي تألفت أشارت بطلب وصاية فرنسا، وهو شور من الغرابة بمكان بعد رفض تلك الوصاية بتاتاً، وتصريح فيصل بأنه لا يرضى إلا بالإستقلال التام، وأنه إذا تخلفت الأمة بقي هو وحده مدافعاً في سبيل الاستقلال. فكيف يكون أول عمل تقوم به أول وزارة طلب بلاد أعلنت استقلالها، الوصاية قبل أن كاد فيصل يحكم وضع التاج على رأسه؟ أليس كل ذلك بإيعاز من فيصل نفسه؟

بيد أن الوزارة المذكورة لم تكد تجاهر بهذا المطلب حتى احتج عليها المؤتمر السوري، وأسقطها وخلفتها وزارة أخرى تطلب الإستقلال التام لوطنها.

المضحك بعد كل ذلك، أن مؤتمر الصلح دعا فيصل لاستجوابه عن الأسباب التي بعثت على المناداة به ملكاً، وأنه بدلاً من أن يذهب إلى باريس بنفسه، أرسل رجلاً من حاشيته. وأن المؤتمر لم يرض أولا بذلك بل استقدم فيصلا نفسه. ولكن هذ الرواية انتهت أخيراً ببقاء فيصل في دمشق وبقاء ممثله في باريس.

بيد أن الإتفاق المذكور حدث دون معرفة مجلس الأمة الإفرنسية به. ولا بد لنا في هذا الموقف من الإتيان على الخطاب الذي فاه به المسيو كاشين في مجلس الأمة بعد تتويج الأمير فيصل ودفاعه عن حقوق سورية. وقد أضطر الموسيو ميلران رئيس وزارة فرنسا أن يمثل مرة أخرى أمام المجلس المشار إليه، ويقدم إيضاحا عن سياسة حكومته في المسألة السورية. أما خطاب الموسيو كاشين فهو ما يأتي:

«أستميحكم الاذن لتقديم بيان فيما يختص بسياستنا في الشرق، فإن حزبنا الإشتراكي قد عقد العزيمة على الوقوف في وجه السياسة القاضية بتقسيم تركيا وإخراج السلطان من الإستانة. وإذا ظلت الحكومة جارية على الخطة القاضية بهذين الغرضين فسترى فرنسا في المستقبل سوء العقبى.

«أن مؤتمر لندن جار الآن على خطة تخالف الخطة التي كنا نأمل منه اتباعها، وهو فضلاً عما تقدم ما برح جارياً وراء السياسة السرية دون أن يأذن للشعوب التي هي موضوع المباحثة بإظهار إرادتها في شأن مصيرها، وذلك يعني أن تلك الشعوب لا تدري شيئاً عن مستقبلها إلا بعد نجاز الحكم.

«تبيح لنا الوزارة الخارجية من حين إلى آخر إلقاء النظر على خرائط ناقصة، ولكن فيها كفاية لإيضاح الخطط العامة التي رسمتها حكومتنا وحكومات الحلفاء، والمأخوذ منها أن الخطة في آسيا الصغرى هي تجزئة الدولة التركية واقتسامها.

«أرسخت إنكلترا قدمها في الإستانة، ولا يدري أحد ما يكون مصير حكومة تلك المدينة.

«بلى ندري، فإن الإستانة والدردنيل حصة إنكلترا أو حصة الأسد. أما نصيبنا نحن فقيليقية

وسورية. وسمحوا لإيطاليا بمنطقة طويلة حول أضاليا. وإننا ندع الحكم في حصة إيطاليا إلى إخواننا الإيطاليين ورأيهم في هذه الهدية التي أهديت إليهم، ونقتصر على البحث في مصالحنا الحقيقية في حصتنا نحن أي قيليقية وسورية.

«أخذت الحكومة على نفسها حملة قوامها أربعون ألف جندي إلى هناك دون استشارة مجلس الأمة. وقد يكون العدد فوق ما تقدم. ورغماً من ذلك فإن الجنرال غورو يطلب زيادة قائلاً أن ما عنده من القوة لا يكفي لتنفيذ الخطة المطلوبة منه. وأنتم تعرفون أن أربعين ألف جندي ينفقون يوميا نفقات فاحشة، وهم على الدوام عرضة لمخاطر شتى. ولقد خسرنا في مراكش جنودا كثيرين، وعلى الحكومة تقديم الإيضاحات اللازمة بهذا الصدد.

«أبحث أولاً في قيليقية فماذا هناك يا ترى؟ نريد أن نكون على علم تام من قوة الجيش، وأن تعرف الأمة أنها خائضة غمار حرب جديدة في الشرق. وهنا نسأل فرنسا ما إذا كانت ذات ثروة كافية للقيام بذلك رغماً من الديون التي تثقل كاهلها، أفقادرة يا ترى على إنفاق مئات من الملايين وتضحية ألوف من الشبان الفرنسيين؟ هنا جوهر المعضلة!

«إن الحال حرجة والذين يصلهم منكم كتب من هناك يشاركوني في الشهادة أن الشكاوى جمة. ورغماً من كل ذلك لا ألح في مطلبي بل أكتفي بأن تقفوا موقف الحذر وتعرفوا أن الشعب الفرنسي يعترض على هذا التهور.

«طالعت منذ أيام تصريحا فاه به رئيس الغرفة التجارية في ليون جاء في خلاله: (لا يجوز لجنودنا أن تغادر الشرق بعد أن دخلناه بل يجب عليها البقاء فيه، فلنا هناك موارد صناعية من المزروعات القطنية وسنسترد المال الذي ننفقه في الشرق وهو أوائل العمل). أما أنا فلست على يقين من أن الحملة صفقة رابحة، لأن الملايين التي نصرفها الآن هناك لا تصرف إلا في سبيل هذه الحملة نفسها. أما ما يجب صرفه على الصناعة فيترتب علينا القيام به بعد ذلك على حدة.

«رب قائل يقول إن موردنا لا يقتصر هناك على القطن بل يتعداه إلى الزيت المعدني في الموصل وهو من الأهمية بمكان. فأرد على ذلك قائلاً إذا كانت الحملة الحربية تستغرق زمناً طويلاً فلا فائدة منها لوطني، وهنالك طرق أخرى لتعمير البلدان الجديدة غير الشروع في

ذبح السكان، وإمطار أرضهم قنابل مدفعنا. وفضلا عما تقدم فإني لا أزال أشعر بالتأثير العميق الذي أحدثه فيّ رئيس الحكومة عندما شبه حملة سورية بحملة مراكش، إذ انطوى على كلام ضد أصدقائنا هناك وهو ما نأسف له أسفاً شديداً.

«لبثنا نحارب عشر سنين في مراكش، ولم يتح لنا إلا إخضاعها جزئياً. وإذا كان لا بد لنا في إخضاع قيليقية من حرب عشر سنين أخرى، فإني أرفض هذه الهدية.

«بقي هنالك مسألة سورية ولبنان حيث تبدت فرنسا الآن في مظهر غير موافق، فإنهما بلدان كان لنا فيهما نفوذ أدبي كبير، ولا يزال لنا حتى الآن، ولكننا كدنا نخسره فالسوريون لا يرغبون في حمايتنا وفتوحنا، بل يرغبون أن يكونوا أحراراً مستقلين. وقد أعلنت سورية إرادتها بصراحة ليس من ورائها صراحة. وإذا لم يتح لها التصويت العام حتى الساعة، فسيتاح لها كما أتيح لغيرها، ففي مدنها العامرة جرائد منتشرة منها عشر جرائد يومية في دمشق وحدها، وهو دليل على أن الإرتقاء الأدبي بلغ مبلغاً كبيراً في سوريا، حيث عقد زعماؤها مؤتمراً طال عشرة أيام، ووضعوا قراراً يجب أن تعتبروه مقدساً فقد أعلنوا استقلال سورية التام، وأنشأوا حكومة منظمة وانتخبوا ملكا».

ثم تلا الخطيب عندئذ قرار المؤتمر السوري وعاد إلى تتمة خطابه فقال:

«أرغب إليكم أن تحترموا هذا القرار، فوراء هؤلاء الزعماء جنود وسلاح وذخائر للدفاع عن حقوقهم. وليس هنا موضع السؤال من أين حصلوا على كل هذا، وأكتفي بالقول إنه يترتب علينا عدم التعرض لهذا الشعب واحترام مطاليبه جرياً على المبدأ الذي تجري عليه سياستنا الخارجية، وهو إطلاق حرية كل شعب للحكم في مصيره كما يريد هو. ولما انعقد مؤتمر دمشق بعث الجنراك غورو بأحد ضباطه ليهنىء الأمير فيصلا، فقابله الجمهور بالهتاف واحتفوا به أيما إحتفاء. وذلك دليل على أن سورية عاقدة النية على أضطرار الغير إلى احترام استقلالها.

ماذا يقول لنا هذا الشعب الذي خالطنا وأشرب روح مبادئنا؟ يقول أن نرسل إليه اختصاصيين ومعلمين ومهندسين لا حملة حربية. وقصارى الأمر أني أرجوكم أن تحترموا حال سورية الجديدة، لأن هذه البلاد ترغب في الحرية فعلينا أن نحترم رغائبها.

«لا تزعموا أن التصريحات المتواترة التي صدرت من هذا المجلس في سبيل الحرية طيلة

سنوات الحرب الخمس، ذهبت أدراج الرياح. ولا تزعموا أن تصريحات الحكومة الإنكليزية والإيطالية وسواهما من حكومات الحلفاء التي وعدت الشعوب بتقرير مصيرها بعد إبرام الهدنة على ما تريد ذهبت ضياعاً. ولا تزعموا بأن ما فاهت به الديمقراطية الأوروبية لم يتجاوز محيط أوروبا. فكل هذا قد سار في طول العالم وعرضه، والشعوب التي أصغت إليه تقف الآن مندهشة، إذ ترى أنها عندما طلبت حريتها أجيبت بالحراب والمدافع. وإذا ظللنا نرسل ضدها الحملة بعد الحملة، وقعنا في معضلات شتى، فضلا عن أننا نكون حينئذ قد أخلفنا كل الوعود التي وعدناها بها من هذا المنبر ومنابر الحلفاء».

«لا أنكر أن ما حدث في دمشق مما يحتمل النقض فيما يختص بصلات السوريين واللبنانيين في المستقبل، ولكني على ثقة من أن هؤلاء يرضون بالتحكيم. وفي مثل هذه الحال يتاح لفرنسا، نظراً لما لها من النفوذ الأدبي، أن تتوسط بين الفريقين لتنيل كلا منهما حدوده الطبيعية وتؤيد العدل وهي بذلك حرية».

«ومهما يكن من الأمر فاللبنانيون على ما بلغني عاملون على إنشاء حكومة كالحكومة السورية تطلب الإستقلال التام، قائلة لفرنسا أننا على استعداد لقبول مساعدتك الأدبية والمادية جرياً على المناصرة التي ناصرتنا إياها قروناً متطاولة، بيد أننا نرغب في أن نكون في وطننا أحراراً مستقلين».

فيتبين مما تقدم أن أعضاء النواب يزعمون أن السوريين على جهل من أنباء العالم المتمدن والتصريحات التي فاه بها الحلفاء من على منابرهم المرة بعد المرة، وذلك بفضل الجمعية السورية المركزية في باريس وبطلها المسيو غانم الذي راق له أن يمثلنا أمام الأجانب عموماً وفرنسا خصوصاً، أمة همجية وحشية لكي يتخذ الحزب الإستعماري ما تقدم وسيلة لاستعمارنا والقضاء على حريتنا واستقلالنا.

بيد أن كاشين بدد سحائب الأوهام وأفاد مجلس الأمة الفرنسية أن السوريين على علم تام بما يجري حولهم في العالم لاستعمارنا وأنهم واقفون على التصريحات التي فاهت بها حكومات فرنسا وأنكلترا وإيطاليا أثناء الحرب، وأنهم راغبون في الإستقلال لا يرضون عنه بديلا.

أنحى كاشين باللائمة على مؤتمر لندن الذي جرى على السياسة القديمة البالية، سياسة

المعاهدات السرية الأثيمة التي بموجبها لا حق للشعوب في إبداء رأيها بخصوص مصيرها، ولا تعلم مستقبلها إلا بعد أن يبت به بدون أن تسمع لها كلمة بشأنه.

بل الأنكى من ذلك أن سورية عندما طلبت حريتها بناء على ما صرح به مؤتمر الصلح، وما ردده الحلفاء قبل ذلك المرة بعد المرة، أجيبت بالحراب والمدافع، لأن الرواية الهزلية التي تنازل الحلفاء عن عرش مجدهم لتمثيلها والوقوف على دكة مسرح العالم وقوف المشعوذين، انتهت بانتهاء الحرب، وجاء الآن دور الأدوار الجدية، ففتح السوريون عيونهم ليروا تحقيق العهود التي قطعها الحلفاء معهم، فلم يروا سوى الطيارات والدبابات والغازات.

ومع كل ذلك يصرح ميلران في مجلس الأمة أن لا غاية استعمارية لفرنسا في سورية، وأن فرنسا حيثما ذهبت تحمل معها العدل والحرية! وأن لا غاية لها إلا مناصرتنا. وأن من يتهم فرنسا بالإعتداء على حقوق الغير يهينها ويهينها مجاناً! وأن الغرض من قدومها إلى سورية بخيلها ورجالها إنما هو منحها بركات السلام!

إن أمثال مارسيل كاشين مثال صحيح لروح فرنسا الديمقراطية وتقاليدها. أما أمثال كليمنصو وميلران وغورو، فأمثلة لأمة ظالمة مستبدة حانثة بقسمها، مخلفة لوعدها، جائرة في إجراآتها، ضالة عن صراط الهدى، مضللة للرأي العام الأوروبي، وماسخة تاريخ فرنسا مسخاً يسر العدو ويبكي الصديق.

إن أمثال مارسيل كاشين يشرفون الأمة العظيمة التي ينتمون إليها ويبثون في قلوب الأجانب حب فرنسا واحترامها. فمن أجل أمثال كاشين حاولنا أن نقيم فارقاً بين الحكومة الفرنسية والشعب الفرنسي، ومن أجله وأجل أضرابه أحسنا الظن في تقاليد فرنسا، فهدمها رجالها على مرأى منا ومن العالم كله. وفوق ذلك يتبجحون بالبناء الفخم الذي يشيدونه في سبيل الديمقراطية.

حذر كاشين حكومته من الخطة الأثيمة التي جرت عليها سابقاً في استعمار البلدان والتي تريد النسج على منوالها في سورية، فنهاها عن ذبح السكان وإمطار أرضهم قنابل مدافعها. بيد أن الشيء الأول الذي فعلته فرنسا أنها شرعت في ذبح السوريين، وإمطارهم قنابل تلك المدافع. ولم تكتفِ بذلك بل أمطرتهم أيضاً قنابل طياراتها، وأطلقت عليهم

سموم غازاتها، وأفلتت عليهم دباباتها، وفتكت بهم فتكاً لم تفتك بمثله بمستعمرة قط.
كان لفرنسا حب في قلب سورية، وكان لا يزال لها بقية منه يوم ألقى كاشين خطابه التاريخي في مجلس الأمة. ولو انصاعت الحكومة الفرنسية إلى نصائحه، وأقلعت عن سياسة الجور والعسف والإستعمار لاستردت ذلك الموقف الذي هو أساس نفوذها في الشرق، ونالت كل ما كانت ترمي إليه من الوجهة الإقتصادية والتجارية. ولكن القدر الذي يدفعها بيد غير منظورة إلى هوة المستقبل الهائلة، أطفأ بقية نور بصرها وبصيرتها، فاستسلمت إلى مطامع الحزب الإستعماري الذي يقودها إلى الخراب والشقاء.

[16]

القوة أساس احترام الإستقلال

إن ما قدرناه في مقالاتنا السابقة من وجود تفاهم بين الأمير فيصل والحكومة الفرنسية تعترف بموجبه الحكومة المذكورة بحاكمية فيصل على سورية، فيعترف الأمير مقابل ذلك بمساعدة فرنسا، أصاب كبد الحقيقة كما أعلنت ذلك جريدة «الطان» الشهيرة بعد مناقشة حدثت في مجلس الأمة الفرنسية بخصوص ملكية الأمير فيصل.

ولقد أنكرت الجريدة المذكورة في مقالتها المشار إليها ميل فرنسا إلى استعمار سورية، وأقامت فارقاً كبيراً بين سورية وشمال أفريقيا، وهي تعني بذلك مستعمراتها فيها كالجزائر ومراكش وتونس. وإننا نثبت هنا ما قالته الطان بهذا الصدد قبل أن نقول كلمتنا فيه وهو ما يأتي:

«كان للمسألة الشرقية مجال كبير في محادثات مجلس الأمة، قام في أثنائها المسيو بريان وأتى على ذكر الأمور التي كانت أساساً للمعاهدة الفرنسية الإنكليزية بهذا الصدد سنة 1916.

«بيد أن جل المناقشة كان حول موضوع خاص هو المناداة بفيصل ملكاً على سورية. وهو حادث انتقده النائب لنايل انتقاداً مراً وأنحى فيه بالأئمة على الأمير فيصل، لذلك رأينا أن نأتي على رأينا بجلاء وصراحة.

«ما هو يا ترى الواقع؟ عاد الأمير فيصل من أوروبا نحو منتصف يناير بعد أن اتفق مع الحكومة الفرنسية على خطة مساعدة لم يدخل ضمنها ضم فلسطين إلى سورية، أو ترقية الأمير إلى رتبة ملك. ولم يحدث في المفاوضات التي جرت في بيروت بين الأمير والجنرال غورو في غرة فبراير ما يغير الأساس الذي بنيت عليه الخطة المشار إليها.

«بيد أن الأمير رغماً من ذلك أفاد الجنرال غورو في أواخر ذلك الشهر أن ليس في وسعه أن يعارض مناداة المؤتمر السوري به ملكاً. والحقيقة أن المؤتمر المذكور أعلن في 7 مارس القرار الذي أتينا على مآله، ونادى بالأمير ملكاً تحت اسم فيصل الأول، وطلب من إنكلترا وفرنسا

استرجاع جنود الإحتلال. أما هاتان الدولتان فقد بلغتا الأمير فيصلا أن لا قيمة دولية لقرار المؤتمر السوري، وهو بلاغ مصيب. ولا يترتب على هذا أن فرنسا مناوئة للمساعي التي يراد بها إنشاء أمة سورية كبيرة، لأن عمدها إلى تجزئة سورية، وهي تدافع في مجلس الصلح عن سلامة تركيا أبعد من الغرابة بمكان. فالواجب يقضي على الدول صيانة الوحدة السورية الطبيعية ما استطاعت إلى ذلك سبيلا.

«ولا بد في هذا الموقف من تكرارا القول إن فرنسا غير عامدة إلى سياسة استعمارية في الشرق سواء في سورية أو قيليقية. فإن بين شمال أفريقيا الذي هو بمثابة جزء مكمل لفرنسا، وبين الشرق حيث لا مصالح أدبية أو اقتصادية لها فرقاً كبيراً. ومن مصلحة فرنسا ليس فقط استرجاع جيشها من سورية والتعويض عنه بقوى محلية لحفظ الأمن، بل أن ترى هناك مصلحة أو مصالح سياسية وطنية تغنيها عن بذل نفقات طائلة قد تكون دون جدوى. وعليه فإن فرنسا في شمال أفريقيا سيدة، وهي لا تريد أن تكون في سورية إلا وصية.

«بيد أنه بالرغم من ذلك يكون اعترافنا بحكومة أنشئت في سورية بطريقة غير مشروعة على الضد من مبادئنا، وذلك ما يحملنا على مقابلة قرار دمشق بكل حذر، لأنه يلوح لنا إن لم يكن للمؤتمر المذكور صفة نيابية. والواضح من الأنباء السياسية التي وردتنا بشأنه حتى الساعة، أنه ليس سوى صنيعة النادي العربي الذي يلعب الآن دوراً أشبه بدور جمعية الإتحاد والترقي في تركيا، لذلك لم يكن هذا العمل إلا إجراآت أقلية نشيطة اغتصبت حق التكلم بإسم البلاد.

«وهنالك سبب أهم مما تقدم لحسبان تسنم الأمير العرش عملاً باطلاً الآن، وهو احتجاجات لبنان العامة حيث يطلب سكانه من مسيحيين وسواهم عون فرنسا لتقيهم ما يدعونه النير العربي. وما يسوغ التأثير الظاهر للعيان في لبنان، أن المؤتمر السوري يأبى على لبنان كل اتساع في حدوده القديمة وكل نفوذ أجنبي، لذلك كان ادعاء رجال دمشق التكلم باسم الشعب اللبناني دون تفويض، والحكم عليه بقطع علاقاته القديمة بفرنسا ضرباً من الخيال.

«يترتب على الأمير فيصل وحاشيته التي تقويه إذا كانوا يرمون في ما حدث في دمشق إلى

نظام يقبله الجميع، أن يحوروا أساليبهم ويعدلوا عن لهجتهم، فإن ليس في سياسة فرنسا بهذا الصدد إبهام قط لأن الجنود الفرنسية لا تحتل الجهات الشرقية كما صرح المسيو غاسون في المجلس أثناء المناقشة في قيليقية إلا إتماماً للواجب، وهو واجب ليس من عاقل يرغب في بقائه عبئا ثقيلا في المستقبل. بيد أنه قبل استرجاع الجنود تنظم سورية تنظيما كافلا لحياتها، وأن يكون لبنان الموكولة بنا شؤونه على نوع خاص على ثقة من صيانة حقوقه».

يتضح مما اتقدم أن الأمير فيصلا كان على وفاق مع الحكومة الفرنسية قبل عودته من باريس فيما يختص بمستقبل سورية، وأن يكون هو حاكماً عليها بمساعدة فرنسا، وأن تكون فرنسا مشرفة على سورية بمساعدته. ولكن الشؤون التي حدثت في دمشق بعد وصول الأمير اضطرته إلى العدول عن هذه الخطة.

شعرت فرنسا أن سورية كادت تتملص منها كما تتملص السمكة من الصياد، وأن الأمير الحجازي قد تعلم في مدرسة باريس من دهاء السياسة درساً مفيداً.

فدفع إلى فرنسا من نوع النقود التي كانت تدفعها حكومتها وسائر حكومات الحلفاء إلى الشرق عموماً، وإلى سورية خصوصاً أثناء تلك التصريحات التي كانوا يلقونها على الملأ في سبيل الحق والعدل والحرية وتحرير الشعوب الضعيفة، وأدرك أن القوة أساس كل استقلال وركن كل إحترام، ولولا القوة التي أظهرها السوريون في مناوأة الجنود الفرنسيس ومهاجمتهم لم يكن هذا الاعتدال في لهجة «الطان» وإقامتها فارقاً بين مستعمراتها في شمالي أفريقيا وبين سورية، لأن لهجة ممثلي فرنسا في أميركا الجنوبية والشمالية عند مجاوبتهم اللبنانيين والسوريين بشأن استقلال بلادهم لم تقم هذا الفارق على الأطلاق.

وإذا كانت فرنسا لا تريد أن تكون في سورية إلا منتدبة، وكانت راغبة في استرجاع جيش الإحتلال بأسرع ما يمكن، فلماذا يصرح ممثلوها في لبنان وسورية أنهم قد جاؤوا ليقيموا إلى الأبد، وأنهم يظلون في ربوعنا ما ظلت فرنسا في عالم الوجود؟ ولماذا لا تعين أجل هذه الوصاية، وتحدد ما هيتها وتقول ما تريد مقابل مساعدتها؟

لا نرى في كل ذلك إلا غموضاً يراد به ذر الرماد في العيون. وليس هنالك من قول صريح يجلو الحقيقة سوى قول موظفيها أن فرنسا لن تبرح سورية. وإذا كانت حكومة فرنسا راغبة

تمام الرغبة في معرفة حقيقة أماني السوريين، فلماذا أعرضت عن الإشتراك في اللجنة الدولية التي أريد إرسالها إلى سورية.

قد يكون تنصيب الأمير فيصل ملكاً عملاً تحكمياً قام به المؤتمر السوري، وقد لا يكون للمؤتمر المذكور صفة نيابية حقيقية بالمعنى المعروف في البلدان المتمدنة للمناداة بالأمير ملكاً. ولكن ذلك لا يفيد شيئاً من جوهر المعضلة، ولا يفيد الحكومة الفرنسية مقدار ذرة في ما ترمي إليه، لأن السوريين قد أعلنوا إرادتهم بطريقة جلية واضحة لا شيء فيها من الغموض والإبهام، وهي أنها تريد الإستقلال التام المطلق.

ولقد برهنت الأمة السورية عن هذه الإرادة باستعدادها للتضحية في هذا السبيل، وبأنها تحارب لإحراز هذا الغرض، وقد حاربت فعلا. ولو وقف الأمر عند حد الكلام والمطالبة بالحقوق بواسطة عرائض إلى مؤتمر الصلح لم يكن هنالك من مسألة سورية بل كانت الجيوش الفرنسية قد إحتلت دمشق منذ البداءة، كما احتلت لبنان وبيروت، ولكان حينئذ المستشارون الفرنسيون أصحاب الأمر والنهي في سورية كما هم الآن في لبنان.

ومهما يكن من الأمر فالحقيقة البارزة للعيان حينئذ، أن السوريين كانوا عاقدي العزيمة على نيل الإستقلال مهما كلفهم من الضحايا، وأن ترهات ممثلي فرنسا لم تجز عليهم، وأن القفاز الحديدي برز تحت غطائه المخملي بروزاً واضحاً، وأن غريزة الشعب غلبت سفسطة السفسطائين الذين لم يكتفوا بأن يكونوا خائنين، بل أحبوا أن يكونوا خائنين «متفلسفين».

ولقد أيد الشعب السوري فيصلا لأنه نادى بالإستقلال التام المطلق، ولولا ذلك لم يرفعه إلى رتبة ملك. وأدرك فيصل أن تاجه متوقف بالإستمساك بهذا التصريح الواضح لذلك لم يجرؤ قط على المجاهرة بطلب وصاية فرنسا كما في الإتفاق الذي عقده مع كليمنصو في باريس. وكان إذا اضطره الموقف الرسمي إلى ذكره ألمع إليه بطريقة مبهمة غامضة تحتمل وجهين وتنطوي على تفسيرين، لأن الدروس التي تلقاها فيصل في مدرسة لويد جورج وكليمنصو لم تذهب عبثا.

تجاهلت الحكومة الفرنسية إرادة الشعب وحاولت اتخاذ فيصل وسيلة لإقناع الأمة السورية بوجوب قبول انتدابها وصية على سورية، حاسبة أن فيصلا الكل في الكل. وهو دليل واضح

على أنها نظير ملوكها البوربون السابقين لم تتعلم شيئاً ولم تنسَ شيئا. فهي حسبت أن الشرق لا يزال على ما كان عليه في القرن التاسع عشر، وأن حركة الخواطر العامة لم تؤثر شيئاً قط في الأمم الشرقية عامة والأمة السورية خاصة، ولا تزال على الإعتقاد الجنوني الذي سيكون عاجلاً أو آجلاً سبباً لخرابها.

[17]
المذابح اللبنانية

المذابح اللبنانية أتعس مظهر من مظاهر المسألة السورية، وأسوأ نتيجة من تضارب مطامع فرنسا الإستعمارية وإجراآت سورية الإستقلالية. وهي ليست على الحقيقة إلا نتيجة مداخلة فرنسا مداخلة لا تعنيها في شؤون بلاد لا تعنيها، ومحاولتها إكراهها بالقوة الجبرية شعبا لا يحبها ولا يريدها على الخضوع لإرادتها وإرغامه على قبول وصايتها.

فرنسا في سوريه أشبه برجل مغرم بفتاة لا تريد أن تتزوج به، بل لا تريد أن ترى له وجهاً. وهو رغماً من كل ذلك يقيم في بيتها، ويقص في خلواته مع أصدقائه أحاديث ملفقة عن غرامها به، كما كانت تقص فرنسا على الحلفاء أحاديث غرام سورية بها.

المذابح اللبنانية نتيجة اعتداء فرنسا على سورية، ونتيجة سياستها الخرقاء للتفريق بين المسيحيين والمسلمين، ووقوفها وقوف المدافع عن الأولين في زمن لم يكن من خطر عليهم على الإطلاق، لأن المسلمين لو أرادوا ذبح المسيحيين لكان في إمكانهم ذلك أثناء الحرب، ولكنهم لم يفعلوا رغماً من تحريض الأتراك الذين كانوا يرون في هذه المذابح واقياً لهم من اتفاق الفريقين عليهم. ولو أراد فيصل ذبح النصارى لفعل ذلك يوم لم يكن في سورية قوة تستحق الذكر. ولكن التعصب الديني لم يكن من عيوب فيصل فهو رجل ذكي يدرك نتائج الأمور، ويعرف أن ذبح النصارى أعظم نكبة على ملكه وتاجه خلافاً لفرنسا التي كانت تريد أن تتخذ من المذابح المذكورة وسيلة لغرضين: أولهما حمل النصارى على أن تطلب منها إحتلال البلاد وبسط حمايتها عليها، وثانيهما حمل أوروبا على الإعتقاد أن السوريين غير قادرين على حكم أنفسهم بأنفسهم.

من البديهي أن المذابح نتيجة عرضية لا غاية أصلية، لأن الغرض الأصلي إنما كان منع الفرنسيس بالقوة من الإعتداء على حقوق سورية. ولما كانت القوى الفرنسية في أوائل أمرها

قليلة جدا لا تقوى على الوقوف أمام السوريين، كان يعمد الفرنسيس إلى حيل سياسية حربية غريبة في بابها، وهي أن يتحككوا بالجنود السوريين كما فعلوا في مرجعيون مثلا، ثم يتراجعون تاركين النصارى تحت رحمة المسلمين. فكان هؤلا إذا جمعوا صفوفهم يهاجمون البلدة التي خرج منها المعتدون عليهم. ولما كان المهاجمون ليسوا جنوداً منظمين بل عصابات مؤلفة من خليط القوم، اختلط الغرض الجوهري الذي لأجله حدثت الإضطرابات وهو صيانة استقلال سورية، بالغرض الفرعي الذي لأجله انضمت الغوغاء إلى العصابات وهو السلب والنهب.

المذابح اللبنانية نتيجة احتكاك قوة الفرنسيس الضعيفة بقوة السوريين القوية، واعتداؤهم على هؤلاء عمداً لإحداث اضطرابات في البلاد ونزاع بين العباد.

تمسكت فرنسا بالتعصب الديني كما يتمسك غريق بخشبة، لأن أمواج أصوات السوريين ضدها تجاه اللجنة الأميركية أغرقت تلك الإدعاآت الكاذبة والترهات الملفقة التي كانت تدعيها أمام مؤتمر الصلح. فاتخذت اللجنة السورية المركزية الخائنة وسيلة لتنفيذ أغراضها الأثيمة بواسطة التمثيل الكاذب.

كان حصنها الوحيد في الشرق حينئذ جبل لبنان الذي اشتهر أهله من قديم الزمان بميلهم إلى فرنسا. وكانوا هم أصحاب الفضل عليها منذ أوائل الحروب الصليبية، فأنقذوها من مواقف حرجة جداً كاد جيشها يفنى فيها لولا هبوب اللبنانيين لنصرتها. وكانت المكافأة الوحيده التي تستحق الذكر التي كافأتهم بها قدومها لإيقاف مذبحة الستين التي كانت من أعمال تركيا. ولما كان اللبنانيون مفطورين على الشهامة، لم ينسوا لها هذا الجميل رغماً عن أنه لم يكن إلا وفاء بعض الدين الذي كان ولا يزال للبنان على فرنسا.

في تلك الأيام كانت العاطفة الدينية في الشرق كما في الغرب مدار سياسة الأمم والممالك، فاتجه اللبنانيون عموماً والموارنة خصوصاً، وهم الأكثرية الغالبة في الجبل، بعواطفهم نحو فرنسا. ولكن فرنسا حولت هذه العواطف إلى رأس مال سياسي حاولت بواسطته أن تسيطر على الشرق كله بحجة حماية النصارى من اعتداء المسلمين. وقد أفلحت قديماً بهذه السياسة إلى حين.

بيد أن احتلال فرنسا سورية في مذبحة الستين لم يكن لمجرد إغاثة النصارى، بل اتخذت

هذه الإغاثة وسيلة لبسط حمايتها وسيطرتها على البلاد التي احتلتها، وحاولت البقاء في سورية لو لم ترَ إزورار بريطانيا واحمرار عينها. ولم تخرج من سورية إلا بعد أن أيقنت أن بقاءها فيها يفضي إلى حرب طاحنه بينها وحليفتها الحميمة الحالية.

ولما أدركت فرنسا أن خروجها من لبنان وسوريا أمر لا بد منه، ولم يعد لها مطمح بالحماية والسيطرة اللتين كانت تحلم بهما، جاهرت حينئذ بالحق الصراح وهو أن لبنان أهل بالإستقلال ويجب إنالته هذه الأمنية. ولكن بريطانيا وقفت حينئذ بجانب تركيا كما فعلت بعد ذلك في كل أزمة من الأزمات العثمانية وحرمتنا نعمة الإستقلال التي هي حق طبيعي من حقوقنا. فرسخ منذ ذلك الحين حب فرنسا في قلوب اللبنانيين لأنهم كانوا يحسبونها الدولة الأوروبية الوحيدة التي تناضل عن حقوقنا الطبيعية. وظل الرأي العام كذلك إلى أن نشبت حرب الأمم، وأفشى «لصوص» البلشفية المعاهدة السرية التي عقدتها فرنسا وإنكلترا وروسيا بخصوص اقتسام الدولة العثمانية وسقوط لبنان وسورية في كيس قرعة فرنسا في زمن كان يتساقط فيه اللبنانيون والسوريون موتى على قوارع الطرق من أجل فرنسا. فانفتحت حينئذ عيون اللبنانيين والسوريين وأدركوا الحقيقة الناصعة التي أدركتها الطبقة الراقية منذ زمن طويل أثناء تتبعها تطور السياسة الأوروبية وأعراض احتضار «الرجل المريض».

ولكن اللبنانيين الذي تخلفوا في لبنان لم يعلموا شيئاً من كل ذلك بسبب انقطاع المواصلات بينهم والعالم الخارجي. ولما فتحت بريطانيا سورية، ودخلت معها شرذمة من الجنود الفرنسية دخول المطيب مع المغني، لم ير اللبنانيون أمامهم إلا منقذيهم من المجاعة وأهوال الحرب فرحبوا بهم عموماً، والفرنسيس أصدقاؤهم القدماء خصوصاً، ونثروا الأزهار على رؤوسهم وقابلوهم بالهتاف والتهليل، لأنهم كانوا لا يزالون جاهلين كل شيء وخارجين من مجاعة آكلة، والجائع يهتم عادة بمعدته قبل حريته.

ولما برز فيصل إلى ميدان السياسة السورية تؤيده سورية وتناصره بريطانيا، أدركت فرنسا أن الخطر على الأبواب، وعلمت أن سورية تملصت من يدها كما تتملص السمكة من يد الصياد. فلم ترَ لها مخرجاً من هذا المأزق، إلا بإثارة التعصب الديني والنفخ في نار الأحقاد الطائفية القديمة حتى يمكنها أن تكسب على الأقل جمهور النصارى في لبنان وسورية لغرضين: أولهما أن يكون لها بأصوات المسيحيين أقلية يمكنها أن تستر بها وجهها أمام مؤتمر الصلح

الذي أقلقت راحته بإدعاآتها الفارغة أن السوريين يطلبونها عن بكرة أبيهم. وثانيهما أن تبرهن للمؤتمر المذكور أن الأمن لا يستقر في لبنان وسورية إلا إذا تولت هي الوصاية عليهما.

لذلك كانت المذابح اللبنانية من مصلحة فرنسا لا من مصلحة سورية. وهي لم تكن من مصلحة فيصل إلا في طورها الأول يوم اتفق الحلفاء على أن تكون سورية منطقة العرب ولبنان منطقة فرنسا وفلسطين منطقة بريطانيا. وكانت الإضطرابات في أول أمرها سياسية محضة، أي أن الهجوم كان موجهاً ضد القوات الفرنسية التي احتلت جزءاً من الأراضي السورية، ما كان ليجوز لها حينئذ عده ضمن منطقتها. فاتخذ فريق من البدو والرعاع هذه الإضطرابات وسيلة للقتل والسلب والنهب دون رادع ولا وازع.

والأنكى من كل ذلك أن الجنود الفرنسية كثيراً ما كانت تعتدي على الجنود السوريين، ثم ترتد إلى موقع أمين حتى يقع غضب العصابات على النصارى وتفتك بهم. وكان إذا تضرع النصارى إلى الجنود الفرنسية طالبين منهم حمايتهم يجيبونهم بقولهم «إتفقوا أنتم وإياهم». ولما طفح الكيل ولم يعد في وسع اللبنانيين احتمال اعتداآت أخرى، ورأت حكومة لبنان الظلم والجور الذي أنزله بهم الفرنسيون أثناء الإحتلال وتوجه أعضاء مجلس إدارة لبنان ليتفقوا مع حكومة سورية، قطعت فرنسا الطريق عليهم واتهمتهم بخيانة وطنهم وأنهم مبيعون إلى «الحكومة الشريفية»، واستاقتهم إلى مجلس عرفي بعد أن أوسعتهم شتما وضربا، فحكمت عليهم بالنفي والغرامات الفادحة.

إن أصدق دليل على إثارة فرنسا التعصب الديني بين اللبنانيين والسوريين تسميتها الحكومة السورية في دمشق «حكومة شريفية»، وهي تعني بذلك أن الحكومة المذكورة من قبل شريف مكة وذلك تنفيراً للنصارى من الحكومة الوطنية السورية. وقد كرر ذلك الجنرال غورو في منشوراته المرة بعد المرة بذات الرزانة التي يستعملها المشعوذ على مسرح التمثيل.

والدليل على أن المذابح اللبنانية نتيجة أعمال فرنسا، أن المدن والقرى اللبنانية التي حصلت فيها تلك المذابح أشد حقداً على فرنسا وعمالها منها على الذين ذبحوا أهلهم بأنفسهم!

[18]

مسؤولية فرنسا في المذابح اللبنانية

إن مسؤولية فرنسا في المذابح اللبنانية السورية لمسؤولية هائلة لم تشعر بخطورتها حكومة فرنسا لأنها حكومة بلا ضمير. ولا ينتظر من حكومة خائنة تعقد المعاهدات السرية لاستعباد الشعب الذي هلك نصفه من أجلها خلال الحرب أن يكون عندها شيء من الشعور الرقيق تجاه هذه النكبة، وإن تكن من النكبات التي يجب أن يشعر فيها مع أصحابها كل شعب أوتي ذرة من عاطفة البشرية. فضلا عن الشعب الذي يتبجح على الدوام بإنسانيته وتمدنه كالشعب الفرنسي الذي كنا نريد أن ننزهه عن مساوىء حكومته، لولا أنه أيدها أخيراً في الإجراآت الإستبدادية الظالمة التي أتتها في لبنان وسورية معاً.

الطريقة التي جرت عليها فرنسا في لبنان وسورية إثارة أصحاب دين على دين آخر، والتحريش بين أصحاب الطوائف من دين واحد، جارية في ذلك على خطة تركيا. وذلك يؤيد الزعم أنها اقتفت تركيا أيضاً في المذابح اللبنانية السورية مع فارق وحيد بينهما، وهو أن تركيا كانت تتظاهر في الوقوف إلى جانب المسلمين والدروز، وفرنسا تتظاهر الوقوف في جانب المسيحيين، فهما تبادلتا المراكز. وهنالك شبه آخر بين هاتين الدولتين، وهو أن تركيا وفرنسا ليستا دولتين متعصبتين، ولكنهما اتخذتا التعصب الديني آلة لتنفيذ مآربهما السياسية والتفريق بين العناصر الوطنية.

بيد أن الفظاعة الكبرى أن عمال فرنسا كانوا سبباً لهذه الفظائع بدم بارد. وكان إذا جاءهم النصارى مستغيثين بهم، يقولون لهم «اتفقوا أنتم معهم». وكيف يمكنهم أن يتفقوا مع مواطنين لهم بذلت فرنسا جهدها في التفريق بينهم وإثارة المذابح الوطنية والحرب الأهلية، وجعلت الأديان التي وجدت بين البشر للسلام والوئام ذريعة للحقد والعداء وسفك الدماء.

قلنا في ما تقدم أن فرنسا رمت في إحداث المذابح اللبنانية السورية إلى غرضين قريبين أولهما

أن تبين للعالم أن اللبنانيين والسوريين غير أهل لأن يحكموا أنفسهم بأنفسهم. وثانيهما أن تتخذ المذابح المذكورة وسيلة لاحتلال البلاد. ولكن لها فضلا عما تقدم غرضين آخرين بعيدين: أولهما توليد الأحقاد والضغائن في الصدور بين المسيحيين والمسلمين حتى يستحيل بعد ذلك الوفاق بينهم، والإتحاد لإضرام ثورة يراد بها إخراج فرنسا من تلك الربوع. وثانيهما أن يرى المسيحيون أن حياتهم دائما في خطر إلا إذا بقيت فرنسا في لبنان وسوريا على الدوام.

الحقيقة أن فرنسا قدمت المسيحيين في لبنان وسورية ضحية على مذبح استعمارها، والكره الذي يشعر به الآن النصارى لفرنسا أشد كثيراً من كره المسلمين لها. كما أن الكره الذي شعر به المسلمون أثناء الحرب ضد تركيا كان أشد كثيراً من كره المسيحيين لها.

إن هجوم الجنود الفرنسية وهي في أوائل عهدها على المناطق المختلف عليها بقوات ضعيفة لا يمكنها احتلالها، سواء كان الحق معها أو عليها، لا يمكن تفسيره إلا بأن فرنسا كانت راغبة في إحداث مذابح وطنية. ولو كانت قواتها كافية لتأييد مزاعمها باطلة كانت أم حقيقية، لكانت عواقب شرها أخف كثيراً على المسيحيين.

ما يزيد من مسؤولية فرنسا أمام العالم المتمدن، أنها كانت على علم تام حينئذ من نزارة قواتها وغزارة قوات السوريين، بل أنها كانت تعرف مبلغ قوات السوريين أكثر من السوريين أنفسهم لأن ممثليها في دمشق وحلب وبيروت وسائر الجهات كانوا يمدونها بالأنباء اللازمة فضلاً، على أن جواسيسها كانوا منبثين في مصالح الدولة كلها. ولها جواسيس آخرون يمرحون في طول البلاد وعرضها، وقد نظمتهم على أصول الجاسوسية أثناء الحرب.

لا نعني بما تقدم أن التعصب الديني في لبنان وسورية لم تكن له إصبع في المذابح المذكورة، بل ما نعنيه أن فرنسا أضرمت التعصب الديني واتخذته وسيلة لنيل أغراضها. وحكومتها أدرى بروح الجماعات والحال التعسة في الشرق من الشرقيين أنفسهم، فهي تدري أن الجماعات غير المتهذبة التهذيب الكافي متى اندفعت وراء غرض سياسي لا تحصر نفسها ضمن حدوده، بل تتجاوزه إلى ما هو أبعد منه كثيراً، مما يحدث من أمثاله في أرقى البلدان الأوروبية والثورة الفرنسية نفسها أعظم شاهد على ذلك.

ومما ضاعف جريمة فرنسا أنها جرت إليها على طريقة منظمة وأساليب علمية بكل ما لها من

العلوم النظرية والإختبارات الإجتماعية. وأقبح من كل ذلك أن تقف بعد هذا موقف الدولة التي جاءت لإسعاد لبنان وسورية.

تعلم اللبنانيون والسوريون هذه الأمثولة في مدرسة العالم لا في مدارس العلم، واشتروا هذا الدرس بدمائهم وأموالهم وراحتهم وسعادتهم. تعلم اللبنانيون والسوريون «المتوحشون» هذا الدرس العظيم في مدرسة الإختبار، فلم يحدث بينهم في أثناء الحرب ما يكدر صفاء السلام والوئام. والآن جاءت فرنسا «المتمدنة» تعلم هؤلاء «البرابرة» التعصب الديني الذي عانوا عذابات الجحيم للتخلص من سمومه القتالة.

بدأت فرنسا التحرش بالمسلمين في الجهات التي لم تنل من العلم حظاً وافراً لذلك كان أهلها أقرب إلى الإنفعال بعوامل التعصب الديني من سواهم، وأسرع إلى العودة إلى ما كانوا عليه سابقاً ولم يشفوا منه تماماً من سواهم. اتخذتهم فرنسا موضوعاً لامتحاناتها البسيكولوجية كما يتخذ الأطباء الحيوانات الداجنة موضوعاً لإجراء امتحاناتهم الفسيولوجية. وكما يتمكن الفيلسوف الطبيعي من معرفة رد الفعل في جسم جامد، كذلك تمكنت فرنسا من معرفة رد الفعل في هؤلاء الأقوام الذين لا يزالون على الفطرة. وكما يتمكن الفيسيولوجي أن ينبيء بالأفعال المنعكسة التي يمكن صدورها عن تنبيه عصب من الأعصاب، كذلك تمكنت فرنسا من الإنباء بالأفعال المنعكسة التي يمكنها إجراؤها في الطبقة غير الراقية من المسلمين والبدو.

ظلت فرنسا في إجراء هذه الإمتحانات الفسيولوجية سنتين من الزمن، أفسدت في خلالها النتائج الحسنة التي خلفتها الحرب، لأن ويلاتها صهرت مواطنينا وكونت منهم في بوتقتها كتلة واحدة. فجاءت الكيميا الفرنسية المحللة تفسد عمل الكيميا الطبيعية المركبة، فأعادت ملح لبنان إلى سميه الكلور والصوديوم.

ولما شعر اللبنانيون برائحة الكلور، وعرفوا الخطر المحدق بهم، هبوا إلى الإتفاق مع السوريين ليضعوا حداً لهذه المذابح التي لم تكن لتحدث قط لولا مداخلة فرنسا، وليصونوا استقلالهم الذي لم يكن في خطر قط لولا عوامل التفريق التي استعملتها بين السوريين. ولكن لما شعروا بالخطر كان قد قضي الأمر الذي كانا فيه يختصمان.

[19]

عواقب المذابح اللبنانية

كان من عواقب المذابح اللبنانية السورية نتيجتان متضادتان على خط مستقيم أولاهما في مصلحة فرنسا، وثانيهما في مصلحة لبنان وسورية.

نالت أولاً فرنسا جل ما كانت ترمي إليه من إحداث الإضطرابات، وهو أن فريقاً من مسيحيي العامة رأى وجوب انتداب فرنسا لحمايته من المسلمين. وكانت الجرائد المأجورة بمال الفرنسيس في الوطن والمهاجر تقوم بوظيفتها حق القيام، بل أنها كثيراً ما كانت تتطاول على أحرار اللبنانيين والسوريين وتنهال عليهم بالسباب والشتائم. وكان صوت كل جريدة منها في هذا السلم الموسيقي بالنسبة إلى المال المدفوع، لأن الدفع لم يكن بالنسبة إلى مقدرة الصحافي العلمية والسياسية بل بالنسبة إلى قوة صوته وضخامة حنجرته ومقدار ما ودعته ذاكرته من قاموس البذاءة والسفاهة. لذلك كان الصياح على قدر المال المدفوع وكان المال المدفوع طبعاً على قدر الصياح.

ولكن بعد هذه الجلبة التي كانت دليلاً آخر على عقم سياسة فرنسا في الشرق، والتي أسقطت منزلتها من عيون الطبقة الراقية من اللبنانيين والسوريين، حصل رد فعل عنيف في طبقات الشعب كلها، فضرب اللبنانيون والسوريون بالجرائد المأجورة عرض الحائط، وأدرك جمهورهم حتى أجهل طبقاته أنهم كانوا يقتتلون ويهرق بعضهم دماء البعض في سبيل مطامع دولة ظالمة لا دين لها بل تطرد رجال الدين من بلادها، ولكنها تتخذ الدين في الخارج وسيلة لقضاء أغراضها السياسية وإشباع مطامعها الإستعمارية.

هذا هو الطور الثاني الذي انقلبت فيه المذابح اللبنانية السورية إلى عكس ما كانت ترمي إليه فرنسا، فحل النفور منها محل الحب لها، وأصبحت البلاد بجملتها من نصارى ومسلمين ودروز راغبة عنها عاملة على ما فيه توثيق صلات الإخاء وجامعة الوطنية.

الغريب في كل ما تقدم أن تقف فرنسا لدى أوروبا موقف الدولة التي جاءت لتقرر الأمن في سورية وإنشاء النظام ونزع التعصب الديني، وهي التي كانت سبباً للفوضى والمذابح وإثارة التعصبات الدينية التي كانت قد هجعت هجوعاً تاماً أثناء الحرب.

كان من عواقب المذابح اللبنانية أيضاً، أن فرنسا خسرت كل ما بقي لها من النفوذ والأثر الطيب ليس في سورية وحدها بل في الشرق كله، وحسرت «إلاهة الحرية» نقابها عن وجه غولة مضرجة بدم الأبناء الذين جاءت إليهم أماً حنوناً، وجارية إلى الإستعمار على جثث بقية الرجال الذي استشهدوا في سبيل إخلاصهم لها.

لا نظن أن فرنسا ظهرت قط في بلاد أجنبية بمثل هذا المظهر التعس الذي دعاه غورو مظهراً «لتقاليد فرنسا الكريمة»! وقد يكون مصيباً في قوله هذا لأن فرنسا جرت في سورية على تقاليدها في الجزائر وتونس ومراكش، وحاولت أن تضرب ستاراً بين أفعالها القبيحة في سورية والعالم المتمدن. ولكن إذا كانت حيلتها لم تجز على عامة اللبنانيين والسوريين، فمن البديهي أنها لم تجز على رصائفها من الدول الأخرى التي أخذت هي أيضاً على عاتقها أيضاً تحرير الشعوب الضعيفة!

ولكن فرنسا أغفلت عن أمر جوهري جداً أفسد عليها النتيجة التي كانت ترمي إليها من وراء إثارة التعصب الديني الذي أفضى إلى المذابح المشار إليها، وهو أنها لم تنكر في أن عجزها حينئذ عن حماية النصارى يؤدي إلى عكس ما كانت تجري وراءه. فرأى المسيحيون أن إخوانهم المسلمين خير لهم وأبقى من دولة تثير الشحناء بينهم، دون أن يكون لها حول أو طول في إغاثتهم ورد الأذى عنهم.

أما غرض فرنسا فإنما كان إثارة الحرب الأهلية في سورية إلى أن تتمكن من إرسال قوات كافية لاحتلال دمشق. فهي أرادت شغل اللبنانيين والسوريين بأنفسهم عنها إلى أن يتاح لها أن تقضي على حرية الفريقين بالقوة وتستعبدهم بالسيف والمدفع. ولكن اعتداءها على حرية السوريين أثار حقدهم عليها، وعجزها عن حماية المسيحيين أثار سخطهم، فكان شعورهم فيما يختص بفرنسا قائماً في أي من الفريقين أشد عداء وكرهاً لها من الآخر لا أيهما أميل إليها.

[20]

أتعس مظاهر فرنسا في الشرق

لم تظهر فرنسا في الشرق قط بالمظهر التعس الذي تبدت فيه في سورية أثناء المذابح اللبنانية وبعدها، فجعلت السوريين يتحسرون على عهد الأتراك، وفتحت عيونهم ليروا أن فرنسا التي كانوا يحسبونها مثال الحرية والديمقراطية ليست على الحقيقة سوى غولة مفترسة. وهذا الإعتقاد الذي رسخ في ذهن السوريين كلهم خلا مأجوري فرنسا وعبيدها لم يضر فقط بالإسم الفرنسي في الشرق، بل أضر ضرراً بليغاً بالصيت الأوروبي جملة لأن السوريين، وخصوصاً عامتهم، كانوا يحسبون الأوروبيين أنصاف آلهة، وكانوا يزعمون أن الدول الأوروبية المتمدنة على وجه العموم، وفرنسا على نوع خاص، عنوان العدل والإستقامة والمبادىء الشريفة. فرأوا من رجال فرنسا أثناء الإحتلال من الظلم والرشوة والخشونة وعدم إحترام المبادىء الأساسية للآداب العامة، ما حملهم على احتقار الفرنسيس وكرههم معاً.

أدركت فرنسا أن الغرض الأساسي الذي كانت ترمي إليه ألا وهو استمالة السوريين حتى تظهر أمام أوروبا بمظهر الدولة المرغوب فيها قد آل إلى الفشل التام المطلق، وأن نفور سورية منها يزداد يوماً عن يوم. لذلك سعت جهدها لإيجاد حزب لها في دمشق، وبذلت لرجاله الدنانير حتى يكون مؤيداً لدعواها وراغباً في وصايتها. لكنه كان حزباً ضئيلاً مات جنيناً، وولد سقطاً فلم يجسر على رفع صوته في عاصمة سورية رغماً من الإتفاق السري الذي كان قد عقده فيصل مع كليمنصو، وهو دليل على شدة تمسك السوريين بحريتهم وشغفهم باستقلالهم.

إن السياسة السيئة التي جرت عليها فرنسا في سورية لم تشرف قط الإسم الفرنسي، بل أزالت البقية التي كانت عالقة في الأذهان من صيته، سواء كان ذلك الصيت مبنياً على حقائق فعلية في الشرق أو على أوهام وخرافات تناقلها الخلف عن السلف، لأنها سياسة جمعت بين الضعف والمراوغة والدسائس والتزلف والإعتداء، فضلاً عن أن كل موظف

فرنسي كان يفعل ضمن دائرة اختصاصه ما يحسن في عينيه، مما يخالف على خط مستقيم إجراءات زميله في منطقة أخرى. وعلى الجملة فإن عمال فرنسا في سورية كانوا أشبه بعمال برج بابل، والغرض العام الذي كانوا يرمون إليه كلهم الإستعمار بأية وسيلة كانت.

مما يؤسف له كل الأسف أن المنطقة التي كانت ضمن الإحتلال الفرنسي، كانت على أسوأ حال سياسياً وإدارياً ومالياً واقتصادياً، بينما المنطقة الشرقية التي يدير أعمالها وحكومتها السوريون الوطنيون أنفسهم أسعد حالاً وأرقى إدارة وأكثر أمناً من المنطقة الغربية. وكان رجال فرنسا الإداريون يتعاونون بسوء عمالهم وبظلمهم واستبدادهم وتناولهم الرشوة جهاراً على هدم كل نفوذ لأمتهم في الشرق عموماً، وفي سورية خصوصاً. وقد أفلحوا في ذلك إفلاحاً لم يكن في حسبان أحد حتى أعداء فرنسا أنفسهم.

زد على ما تقدم المخازي والفظائع التي كانت تقوم بها برابرة جنود فرنسا في المنطقة الغربية، والمنكرات التي كانوا يرتكبونها، واللصوصية التي كانوا يأتونها دون أدنى رادع. فكانوا يسلبون المارة أشياءهم على قارعة الطريق في رائعة النهار، ويجرحونهم ويقتلونهم ويدخلون البيوت عنوة ويرتكبون المكر مع النساء، بل كانوا يعتدون عليهم جهاراً في الشوارع بعد أن يسلبوهن حلاهن. أما أثناء الليل فمن حملته الجرأة أو الحاجة القاهرة على الخروج من بيته والمجازفة بنفسه وعاد إليه سليم الجسم والجيب، حسب نفسه سعيداً وحمد ملاكه الحارس. وكان هؤلاء المغاربة البرابرة يدخلون القهاوي والمطاعم فيتناولون فيها ما حلا لهم من المشروبات الروحية والأطعمة اللذيذة، وينصرفون دون أن يدفعوا سنتيماً واحداً، بل كثيراً ما كانوا يحملون معهم ما تصل إليه أيديهم كالسكاكين والأشواك والملاعق والساعات المعلقة على الجدران. فإذا اعترضهم صاحب القهوة أو المطعم انهالوا عليه سباً وشتماً ولطماً وضرباً. فإذا شكاهم إلى البوليس هز كتفيه ساخراً. هذا فضلا عن السلع التي كانوا يشترونها من المخازن دون أن يدفعوا شيئاً من أثمانها، والحلى والجواهر الثمينة التي كانوا يسلبونها الصياغ. وعلى الجملة فإن مظهر فرنسا في سورية كان أتعس مظاهرها في الشرق.

[21]

إجماع السوريين على كره فرنسا

ما حاولت ألمانيا وتركيا فعله عبثاً من إرغام السوريين على كره فرنسا أثناء الحرب أفلحت فيه فرنسا نفسها إفلاحاً باهراً أثناء السلم. جرب أعداؤها كل وسائل الإرهاب وتفننوا في أساليب الفظائع، يوم كانوا لا يزالون سادة البلاد، وأهلها تحت رحمتهم بالسجن والنفي والتجويع والقتل والمشانق، ففشلوا فشلاً تاماً. أما فرنسا فجربت ذلك بعد أن رحب بها الشعب كمنقذة ونثر الأزهار على رؤوس قوادها وجنودها ولاقاها بأغصان الزيتون وسعوف النخل، وفتح لها صدره وبيته. فنجحت نجاحاً لم يكن في حسبان أحد حتى ولا في حسبانها هي، فدخلت سورية ولا عدو لها، وها هي الآن لا تزال فيها ولا صديق لها.

يحار العقل البشري في عقم سياسة فرنسا في الشرق. ولكن فرنسا مبرزة في كل شيء حتى في العقم السياسي. ولو عصر أكبر أعداء فرنسا وأعظمهم عقلاً دماغه، وظل ساهراً ليالي طويلة يفكر في وسيلة يمكنه فيها تنفير السوريين منها، لما توصل بعد سنين طويلة إلى ما توصلت إليه فرنسا نفسها بالبداهة في مثل غمض الجفن.

الخطأ المميت الذي ارتكبته فرنسا فيما يختص بعلاقتها بسورية منذ أوائل الحرب حتى الساعة خطأ مركب من خطأين: أولهما أنها لم ترد أن تعترف بوجود رأي عام في سورية، وثانيهما أنها ضربت بهذا الرأي العام بعد وضوح الشمس في رابعة النهار عرض الحائط. حسبت فرنسا أنها بجيشها تقدر أن تفعل كل شيء. ولما كانت معتمدة على القوة دون سواها، لم تحسب أدنى حساب للشعور الوطني السوري. لذلك لما كانت في سورية بدون جيش، شعرت أنها في بلاد غريبة عنها في شعورها، غريبة عنها في مطامحها، غريبة عنها في الثقة المتبادلة. شعرت بما هو أمر من ذلك. شعرت أنها في بلاد عدو محتلة. شعرت بما هو أمر من ذلك أيضاً. شعرت أنها مشلولة لا تقدر أن تأتي بأدنى حركة إلا بواسطة القوة الوحشية التي اعتمدت هي عليها. لذلك كانت نغمة غورو في كتبه إلى حكومته تضرب على نغم واحد: «أرسلوا إليّ جنوداً».

إن الأحرف التي كانت تضعها فرنسا على طوابع البريد في سورية لم تكن فقط لتدل على أن سورية بلاد عدو محتلة لاعتبارها جزءاً من الدولة العثمانية، بل لأنها بلاد عدو بالمعنى الحقيقي لأن فرنسا برهنت بالفعل على أنها عدو لسورية، وسوريا التقطت القفاز الحديدي الذي رمت به إليها فرنسا.

حتى هذا الحد كانت فرنسا تحاول أن تعوض بالدهاء السياسي وإثارة العصبيات الدينية عن ضعف قوتها الحربية واضمحلال نفوذها في الشرق، وبعد أن أفرغت كل جهدها عبثاً لاستمالة السوريين إلى الرضوخ للعبودية تحت برقع الوصاية، شرعت في إعداد الأهبة الحربية للجري إلى الوصاية على نهر من الدم وتلال من جثث القتلى.

كان غورو يطلب جيوشاً بحجة المذابح اللبنانية التي لم تكن إلا نتيجة إثارة التعصبات الدينية، وبحجة اعتداء العصابات العربية التي لم تكن إلا ذبًّا عن اعتدائه هو على حرية سورية السياسية. وهذه الطلبات المتتابعة التي كان يطلبها بلجاجة نمت عن حراجة موقف الجيش الفرنسي في الشرق، وأفضت إلى مناقشات عنيفة حادة في مجلس الأمة الفرنسي، وانتقادات جارحة فاه بها فريق من منصفي نواب فرنسا أنفسهم على ما ألمعنا إليه في حينه.

كانت فرنسا في هذا الحين منشغلة في كيليكيا وسورية في وقت واحد. وكان الجيش الوطني التركي ينكل بالجيش الفرنسي ويذيقه الأمرين. ولكن غورو كان يسمي كل جيش وطني يقف في وجه فرنسا الظالمة لحماية وطنه من ظلمها واستبدادها وفظائع برابرة جنودها «عصابات». فكان كلما لحقت بالجيش الفرنسي هزيمة أو نكبة في الشرق، يسمي الوطنيين حماة ذمارهم قطاع طرق وعصابات متشردة كالعصابات التركية والعصابات العربية. ولو جرت الحكومة الوطنية السورية على الخطة الجريئة التي سار عليها مصطفى كمال في الأناضول، وعقدت النية على التذرع بالقوة في ذلك الدور الإنتقالي دون سواها، لكانت سورية الآن على غير الحال التعسة السيئة التي هي عليها الآن.

ومهما يكن من الأمر فإن فرنسا أدركت أنها لا يمكنها أن تبسط نعمة حمايتها وتمدنها العصري على كيليكيا وسورية معاً، وأنها لا بد لها في هذا العراك الشديد من تضحية الواحدة منهما في سبيل امتلاك الأخرى. ولما كانت سورية تفيض لبناً وعسلاً وكيليكيا لا تفيض إلا سيوفاً

ومدافع، عولت على إفلات الأولى من مخالبها لتقبض ببراثنها كلها على الثانية.

لذلك أعلنت حينئذ أنها تتخلى عن كيليكيا لأنها تريد أن تحصر حنوها كله وما ودعته الطبيعة في قلبها من عواطف الإنسانية ومناصرة الشعوب الضعيفة في سورية وحدها المنكودة الحظ السيئة الطالع.

كانت حملات مارسل كاشن ورصفائه في مجلس الأمة الفرنسي على حكومته في عداد الأسباب التي عجلت في هذا الجزم، لأنهم طلبوا باسم الأمة الفرنسية بياناً فيما يختص بالإجراآت التي كانت تقوم بها الحكومة في هاتين البلادين دون أن يكون الشعب على بينة من أمرها. وسألوها ما إذا كان الشعب الفرنسي يخوض الآن في غمار حرب في الشرق، وما إذا كان في استطاعته أن يستنزف بقية دمه وماله في سبيل إشباع مطامح حزب ضحى بصيت فرنسا ورجالها وأموالها على مذبح الإستعمار.

لم تختلف أجوبة الحكومة الفرنسية عن أمثالها في مثل هذا الموقف فصرحت المرة بعد المرة أنها لا ترمي إلى فتح أو استعمار في سورية، بل جل ما ترمي إليه منحها الحرية والإستقلال، وأن مهمتها هناك لا تتعدى حد الإرشاد والمساعدة الفنية، ضاربة أيضاً على النغم القديم الذي لا نهاية له، وهو أن لفرنسا في سورية تقاليد لا يمكنها أن تتنازل عنها، ومصالح إقتصادية ليس في وسعها إهمالها. وهي كلها تعابير مطاطة قد لا تعني شيئاً جوهرياً، يمس حرية سورية واستقلالها، وقد تعني كل شيء جوهري حتى إماتة تلك الحرية والقضاء على ذلك الإستقلال قضاء مبرماً على ما بيناه سابقاً.

كنا على اعتقاد لا نزال عليه، وهو أن الشعب الفرنسي جملة غير راغب في استعمار سورية، فالإقتراح القائل بذلك إنما هو اقتراح الحزب الإستعماري. ولكن الشعب رغماً من ذلك استسلم لحكومته، وسورية ليست عنده من الأهمية ما يسقط لأجلها وزارات، لذلك سار في تيار حكومته الأثيمة وجاراها في إجراآتها الظالمة وسجل معها على نفسه الإستبداد بشعب قضى نصف سكانه في سبيل حب فرنسا فكان جزاؤه منها الغدر والخيانة.

[22]
مؤتمر سان ريمو

ما أكثر مؤتمرات الحلفاء وما أقل نفعها! منذ عقد الهدنة حتى الساعة أنشأوا مؤتمرات شتى لم يأت واحد منها بالنتيجة المطلوبة. وقد اكتشفنا الآن بعد مرور ثلاث سنين من الزمن أن المؤتمر الذي سموه مؤتمر الصلح ليس إلا مؤتمراً حربياً لا نظير له بين سائر مؤتمرات الحروب في تاريخ العالم كله. وعوضاً عن السلام العام سبب في أثنائه حروب شعوب في العالم تربو على عشرين حرباً. وإذا لم تعدل فرنسا وإنكلترا عن سياستهما الجائرة وبسط حمايتهما بالقوة على أمم الشرق والتذرع بالنصر إلى فتح البلدان واستعمارها، استيقظ العالم بعد حين ليرى أن النار قد شبت في بلدان شبوباً أشد منه في حرب الأمم.

ما يعنينا رأساً من هذه المؤتمرات السيئة الطالع مؤتمر «سان ريمو» الذي كان بوتقة تبلورت فيها آراء الحلفاء بشأن الشعوب الضعيفة، والصك الذي بموجبه اقتسموا تركة «الرجل المريض»، وحسم الخلاف الذي كان قائماً بين فرنسا وإنكلترا بشأن سورية. واقتسم «محررو الشعوب الضعيفة» تلك الشعوب المنكودة الحظ كما يقتسم الرعاة قطعاناً من الماشية.

في «سان ريمو» سجلت فرنسا على نفسها الجريمة الأدبية السياسية التي دمغت بها جبهة ألمانيا، وهي حسبانها المعاهدات قصاصات ورق. فقبل أن يجف حبر معاهدة «فرسايل» داست المادة الثانية والعشرين منها القائلة أن لكل أمة ضعيفة حق تقرير مصيرها واختيار الوصية التي تريدها هي مرشدة لها دون أن يكون من هذا الإرشاد ما يتضارب مع استقلالها وحريتها، ونصبت نفسها وصية على سورية بالمساومة لأنها دفعت إلى إنكلترا القطعان البشريه الكائنة في العجم والعراق وفلسطين عوضاً عن القطعان البشرية في سورية.

ما فعلته ألمانيا صادقة فعلته فرنسا كاذبة. ألمانيا قالت إن المعاهدات قصاصات ورق، وأن الضرورة الحربية تبيح خرق حياد البلجيك، وأن القوة حق. أما فرنسا فقالت إن المعاهدات مقدسة لا يجوز أن تعبث بها ضرورة حربية أو سياسية وأن الحق قوة. وبعد أن قالت ذلك

داست بقدمها في «سان ريمو» ما لا ينطبق على مطامعها من معاهدة «فرسايل» التي عقدت في قلب عاصمتها. وجرت على سياسة أن القوة حق فبسطت، وصايتها على السوريين بالرغم من احتجاجات أحرار نواب فرنسا نفسها في وسط مجلس أمتها.

في «سان ريمو» ظهرت فرنسا القرن العشرين أمام العالم والتاريخ كما مثلها الوهم والخيال الشعري. ظهرت لا كارهة الحرية بل كالإلاهة التي تجلس على شواطىء الجزر وتغري بغنائها الجميل البحارة بالإقتراب منها حيث تتكسر مراكبهم وتبلعهم الأمواج. في «سان ريمو» نزعت برقع الألوهية الكاذبة عن وجه غولة مفترسة. ومنذ الساعة التي نالت فيها الوصاية على سورية نالت كره سورية، وخسرت البقية القليلة التي كانت باقية لها من النفوذ في الشرق.

في «سان ريمو» حاولت فرنسا أن تكتسب بواسطة المؤتمر الحق الذي بموجب المادة الثانية والعشرين من معاهدة «فرسايل» لا يقدر أحد على تخويلها إياه إلا السوريون الذين رفضوا وصايتها بتاتاً. حاولت أن تظهر أمام العالم بمظهر الدولة التي طلب منها مؤتمر «سان ريمو» القيام بخدمة جليلة في سبيل الحرية والإنسانية والتمدن، وذلك بعد أن أقلقت راحة الله في السماء والناس على الأرض بالجلبة والضوضاء اللتين أحدثتهما حول سورية، وهددت سلام العالم إذا لم تتملك سورية باسم الوصاية.

في «سان ريمو» وقفت فرنسا في حضرة التاريخ وجهاً لوجه تجاه تصريحاتها الكاذبة، وأعلنت للبشر بلا حياء ولا خجل إنها كانت تمثل على قبور الملايين من شهداء الحرب الذين ضحوا بنفوسهم في سبيل العدل والحرية رواية نصفها هزلية ونصفها مأساة، وأنها خدعت الأموات والأحياء معاً، وأن ألفاظ العدل والحرية واستقلال الشعوب الضعيفة التي كانت ترددها أثناء الحرب لم تكن إلا ألفاظ مشعوذ أنهى ألعابه الشعوذية بالهزء والسخر كسائر المشعوذين. وفي سان ريمو خانت الشعب الذي قضى نصفه في سبيل حبها، وهي تعلله بالأماني الكاذبة والوعود العرقوبية إلى أن خانته بمثل هذه الخيانة التي قل مثيلها في عالم السياسة.

[23]

تساقط صناديق الكرتون

لا ندري الأحاديث المظلمة التي جرت بين مشعوذي السياسة في «سان ريمو» وراء أبواب مقفلة، ولكننا على ثقة من أنه لو أوتيت إنكلترا علم الغيب وعرفت أن حكومة العجم سوف ترفض المعاهدة الإنكليزية - العجمية، وأن العراقيين سيضرمون ثورة تضطر الإنكليز إلى نزع كل فكرة إستعمارية وإلى إقامة حكومة وطنية، لكنا الآن دولة مستقلة. ولكن بيوت الكرتون التي بناها لويد جورج وسائر الحلفاء في مؤتمر الصلح، وأنبأنا بسقوطها في مقالتنا الإفتتاحية من العدد الأول للجريدة، أخذت الآن تتساقط على رؤوسهم صندوقاً خلف صندوق فسقط صندوق كرتون العجم، وصندوق كرتون العراق، وصندوق كرتون قيليقيا، وصندوق كرتون إزمير، وصندوق كرتون القسطنطينية، وصندوق كرتون ألبانيا، وصندوق كرتون سكة حديد بغداد. والله وحده يعلم بقية الصناديق التي على وشك السقوط، ولكننا نعلم أن صناديق لبنان وسورية وفلسطين آخذة في الميلان وهي الآن أشبه بقبة «بيزا» لا يدري أحد متى تسقط!

لا ندري المنطق الذي استعملته فرنسا لإقناع بريطانيا بوجوب التسليم لها بامتلاك سورية تحت إسم الوصاية. ولكن أحد أعضاء مجلس اللوردات الإنكليزي صرح في المجلس المشار إليه، بناء على مناقشة حادة بخصوص الإحتلال الفرنسي وتسفيه سياسة الحكومة البريطانية في التجاوز عن أعمال فرنسا الجائرة في سورية، وسفكها دم السوريين في ميسلون وخلع الملك فيصل، تصريحاً خطيراً جاء في عرضه أن إغضاب فرنسا فيما يختص بسورية تتوقف عليه عواقب وخيمة جداً على الإمبراطورية البريطانية. لذلك نرجح ترجيحاً يكاد يكون عندنا يقيناً، وهو أن فرنسا هددت إنكلترا بالوقوف في وجهها فيما يختص بالمسألة العجمية، وبمناصرة المصريين والهنود في مطاليبهم الإستقلالية إذا لم تكن قد تجاوزت الحدود إلى ما هو أبعد من ذلك.

وكل من له إلمام بالسياسة يدرك أن إنكلترا لم تغضب فيصلا وملك الحجاز والعرب إلا مكرهة، ولم تضطر إلى إخلاف وعدها لهم إلا بالقوة القاهرة. تصريح لويد جورج بأن بريطانيا لم تعقد مع العرب معاهدة لم تقم بها أو اتفاق لم تنفذه لا يجوز إلا على صبيان المكاتب لأن الكولونل لورانس الذي كان ترجماناً بين ملك الحجاز وبريطانيا، والذي على يده عقد الإتفاق المذكور، والذي هو أعرف إنسان بما جرى بين ملك الحجاز وحكومة بريطانيا، استاء استياء شديداً لنكث حكومته عهودها، ونشر مقالة ضافية الذيول في إحدى أمهات جرائد لندن، ندد بها في حكومته تنديداً جارحاً ودمغ جبهتها بطابع الخيانة، وقال إن جبينه يندى خجلاً من انتمائه إليها، وأنه يحتج بكل قوته، وبناء على ذلك يستعفي من وظيفته في الجيش وخدمتها ويعود إلى جامعته. ولا نظن أن أحداً يتهم لورنس بسوء المفهومية لقصور مداركه في اللغة العربية لأنه من فحول المستشرقين، ونظنه ندّاً لصديقنا المستشرق الكبير مرغوليوث أستاذ اللغه العربية في جامعة أوكسفورد، وهو الذي أتحفنا بمقدمة إنكليزيه لقاموسنا الإنكليزي العربي الشهير المسمى «قاموس سعاده».

نقول ذلك لأن لويد جورج ادعى أن هنالك سوء مفهومية في الترجمة، فكأنه حاول أن يلقي تبعة خيانته على عاتق لورنس ويتهمه بإساءة الترجمة إذ لا يحق له أن يتهم ملك الحجاز بسوء الفهم، إلا إذا إتهم أولاً لورنس بقصوره في العربية، وهو ما لم يسلم له أحد به خصوصاً لأن لورنس كان أثناء إقامته في البلاد العربيه أثناء الحرب، موضع إعجاب العرب بعربيته الصريحة وتعابيره الفصيحة.

فالخلاف الذي حصل بين فيصل ولويد جورج، وبالتالي بين الملك حسين وحكومة بريطانيا مصدره اضطرار إنكلترا إلى مجاراة فرنسا بالرغم منها، لأن هذه هددتها بما يضر بسلامة الإمبراطورية البريطانية ضرراً كبيراً، وذلك بمناصرة الأمم الشرقية الواقعة تحت سيادة بريطانيا لنيل استقلالها، لأن فرنسا متى لم تكن لها مصلحة استعمارية أصبحت أعظم نصيرة للحرية.

[24]

نتيجة مؤتمر سان ريمو

إن كل الأنباء التي وردتنا أثناء انعقاد مؤتمر «سان ريمو» تقول صريحاً أن لويد جورج وميلران دخلا المؤتمر مختلفين في الرأي. وأن الخلاف المذكور سوي أثناء انعقاد المؤتمر. أما ما نرجحه فإن الوزيرين كانا على تفاهم تام فيما يختص بالمسألة الشرقية عموماً وسورية خصوصاً قبل اجتماعهما في «سان ريمو». أما ما حدث في «سان ريمو» نفسه فهو اكتساب الإتفاق الشفاهي الذي كان قد تم بينهما صفة رسمية دولية.

وبعد أن تقايض لويد جورج وميلران بالشعوب الشرقية، كما يتقايض الرعاة برؤوس البقر والماعز، أفادتنا الأنباء البرقية أن هذين النابغتين هز أحدهما يد الآخر مظهرين سرورهما باتفاقهما على حل المسألة الشرقية واقتسام شعوبها.

ليس في كل ذلك شيء من الغرابة، ولكن وجه الغرابة أن هذين الرجلين لم يشعرا حينئذ أنهما أتيا أمراً أمداً، وأن أبصار العالم شاخصة إليهما، وأن التاريخ قد سجل عليهما وعلى دولتيهما خيانة المبدأ المقدس الذي لأجله سقطت ملايين من القتلى في ساحات الوغى. لويد جورج وميلران حسبا أن دفن جنديين مجهولين بعظمة وفخار يعوض على الجنس البشري ما خسره من ملايين الرجال وألوف الملايين من الأموال، وما عانى أثناء هذه الحرب الطاحنة من عذابات الجحيم. في مؤتمر «سان ريمو» سجلت فرنسا وإنكلترا على نفسيهما خيانة الحق والعدل والحرية والتمدن واستقلال الشعوب الضعيفة. وسيأتي زمن، وما هو ببعيد، يدفعان فيه ثمن هذه الخيانة مع فائدتها المركبة!

إذا كان قد بقي هنالك أمل بالتوفيق بين مصالح فرنسا في الشرق واستقلال سورية، فإن مؤتمر «سان ريمو» قضى عليه بالطريقة الجائرة الإستبدادية التي جرى عليها فيما يختص بسورية وسائر البلدان في الشرق الأوسط.

رأى السوريون بأم عينهم أن محرري الشعوب الضعيفة آخذون في افتراسهم وسائر إخوانهم الشرقيين الواحد تلو الآخر، وأنه إذا كان لا بد لهم من نيل استقلالهم، فلا بد لهم أيضاً من الإعتماد على أنفسهم لأن رياء الحلفاء وضح لهم وضوح الشمس في رائعة النهار.

كان من وراء مؤتمر «سان ريمو» أن حدثت حركة خواطر بين السوريين في طول البلاد وعرضها، ومع أنهم كانوا مجمعين قبل ذلك على طلب الإستقلال التام المطلق. فقرار المؤتمر المشار إليه جعلهم كتلة واحدة متضامنة، وعقد عزيمتهم على التمسك بحقهم الطبيعي، مهما كلفهم ذلك من المال والرجال.

مؤتمر «سان ريمو» قطع خط الرجعة على الأمير فيصل، فلم يعد في وسعه على الأطلاق تنفيذ الإتفاق الذي كان قد عقده سابقا في باريس مع كليمنصو فيما يختص بوصاية فرنسا على سورية، لأن الطريقة الإستبدادية التي جرى عليها المؤتمر دائساً بقدمه الشعور الوطني السوري والمادة الثانية والعشرين من معاهدة الصلح، نفَّر السوريين من فرنسا نفوراً تاماً وزادهم استمساكاً بعروة الوطنية السورية واعتماداً على أنفسهم. ولو جرى فيصل مع تيار الأمة بقلب جريء وصراحة خالصة وإخلاص تام، لكان وقى سورية من الإحتلال وتاجه من السقوط.

أدرك السوريون أن الخلاف الذي كان قائماً بين إنكلترا وفرنسا فيما يختص بسورية قد زال تماماً، وأن هاتين الدولتين قد تفاهمتا في «سان ريمو» على حساب الأمم الشرقية وأصبح واجبهم الوطني واضحاً أمامهم، وهو المطالبة بحقوقهم المهضومة لدى مؤتمر الصلح والإعتماد على ما بقي لهم من الموارد والقوة بعد الرزايا التي أنزلتها بهم الحرب الطاحنة. لذلك تواردت احتجاجات السوريين على المؤتمر المذكور من كل أنحاء المعمورة. ومع أن الطبقة الراقية من السوريين كانت تدرك أن الإحتجاجات المشار إليها لا تغني فتيلاً أمام دول جشعة طماعة، عقدت العزيمة على هضم حقوق البشر، فقد قاموا بها لتكون احتجاجاً على المؤتمر أمام العالم المتمدن.

وسيظل مؤتمر «سان ريمو» عاراً على فرنسا وإنكلترا إلى أن تصغي الأمتان العظيمتان لهاتين الدولتين إلى احتجاجات أحرار رجالها الذين سفهوا خطة حكوماتهم علناً في مجلسي أمتيهما، وسلقوها بألسنة حداد تعود بالفخر إليهم وبالخزي والعار على حكوماتهم.

[25]

إكتشاف الشرق

نظن أن سلال المهملات لمؤتمر الصلح كانت كبيرة جداً، لأن تلك الإحتجاجات وأمثالها كان يرمي بها محررو الشعوب الضعيفة إلى السلال المذكورة بشيء من عدم الإكتراث والإحتقار المزوجين بالضجر من وقاحة الأمة السورية وأشباهها، لأن نفسها سولت لها التشبه بالغربيين. ونظن أنهم احتقروا الأمة السورية لبلاهتها أيضاً، لأنها آمنت بأقوال الحلفاء عموماً وبأقوال رجال فرنسا خصوصاً.

من حسنات مؤتمر «سان ريمو» إنه مزق ثوب الألوهية الكاذبة الذي كان يستر فرنسا، وأظهرها أمام العالم كما هي: جشعة، طماعة، مخلفة للوعود، ناكثة للعهد، كاذبة أمام أحيائها، حانثة بيمينها على حثث قتلاها. اكتشف الشرق اكتشافاً عظيماً، وهو أن الهوة الهائلة الكائنة بين الشرق والغرب لا وجود لها إلا في مخيلة الشعراء والحالمين. مؤتمر «سان ريمو» مزق عصائب الوهم التي عصب بها الجهل عيون السوريين دهورا طوالا، وأظهر أن آلهة أوروبا الذين كان يعبدهم الشرقيون ويخرون أمامهم ركعاً سجوداً لاعتقادهم بتفوقهم عليهم وبألوهيتهم أشبه بالثيران التي كان يؤلهها المصريون ويعبدونها. وأن فرنسا نفسها لم تكن إلا «أبيس» الثور الكبير المقدس. فلما مزق مؤتمر «سان ريمو» ثوب الألوهية عنها لم يبق منها إلا الثور. مؤتمر «سان ريمو» قام بأعظم خدمة للشرق والشرقيين وفعل في بضعة أيام ما لا يمكننا فعله في بضعة قرون. مؤتمر «سان ريمو» كان أعظم مبشر للشرقيين بوجوب الإعتماد على النفس، وبأن الجبلة البشرية واحدة في أوروبا وآسيا، وأنه يجب على الآسيويين عموماً والسوريين خصوصاً أن يعامل الواحد منهم الغربي معاملة الند للند، وأن فلسفة القوة التي قال الحلفاء إنهم خاضوا الحرب للقضاء عليها هي هي الفلسفة التي جروا عليها سابقا ويجرون عليها الآن، وسيجرون عليها في المستقبل. وأن الأكاذيب التي فاهت بها فرنسا وإنكلترا أثناء الحرب لا تجوز الآن على أحد حتى ولا على صبيان الأزقة.

تعلم السوريون من مؤتمر «سان ريمو»، أنهم إذا أرادوا أن يكونوا مستقلين وأصحاب حياة قومية وجب عليهم أن يسيروا في طريق الأمم الحية التي تقدمتهم في هذا المضمار، وأن يعتمدوا على أنفسهم دون سواهم، وأن يكسروا الأوثان الأوروبية التي كانوا يعبدونها سابقاً وأن لا يجثوا من الآن فصاعداً لبعل.

مؤتمر «سان ريمو» أبطل في الشرق عبادة الأصنام!

والغريب في مؤتمر «سان ريمو» ليس أن فرنسا وإنكلترا جرتا على سياسة القوة حق، ولا أنهما أثبتتا السياسة القديمة الرثة البالية التي بموجبها يحق للقوي ابتلاع الضعيف، ولا أنهما عقدتا اتفاقات سرية لم يعلم العالم منها شيئاً إلا نتائجها الوبيلة على الشرق والشرقيين، بل الغريب أن يقف ميلران ولويد جورج بعد انتهاء المؤتمر المذكور ويهز الواحد منهما يد الآخر ويهنئه على مرأى من العالم والتاريخ باتفاق كلمتهما على اقتسام القطعان البشرية الشرقية دون حياء ولا خجل، ودون أن يشعرا بأنهما قد ارتكبا جريمة فظيعة ضد الحق والعدل والإنسانية.

لما دفع مؤتمر «سان ريمو» سورية إلى فرنسا تحت إسم الوصاية بالرغم من أهلها، حاولت حكومة فرنسا استمالة السوريين إليها بكل وسيلة ممكنة لا لنيل الوصاية التي قد حصلت عليها بالرغم منهم، بل ستراً لوجهها أمام العالم المتمدن حتى يقال إنها دخلت سورية على شيء من رضا أهلها. فضاعفت إغداق الهبات على الجرائد المأجورة في الوطن والمهجر، وشراء ما يمكن شراؤه من الجرائد الأخرى. وبعثت رسلها إلى دمشق وبقية مدن سورية، وبثت جواسيسها في كل صقع من الأصقاع السورية، وصرح رجالها المرة بعد المرة على منابر الخطابة بأكاذيبهم الإعتيادية، وهي أن فرنسا لم تدخل سورية بقصد الاحتلال والإستعمار، بل لبسط نعمة وصايتها وإنالة سورية الحرية والإستقلال. ولكن ذلك كله لم يجد نفعا على الإطلاق، لأن السوريين إذا كانوا قبل مؤتمر «سان ريمو» قد أعرضوا عن فرنسا ونفروا منها، فإنهم بعد المؤتمر المذكور كرهوها كرهاً تاماً.

[26]

بين التاج والوصاية

أفلست السياسة التي كانت فرنسا قد حاولت سابقاً ترويجها بواسطة فيصل إفلاساً تاماً لأن فيصل بعد أن وضع التاج على رأسه، وزعم أنه بلغ منتهى القوة أصبح بلا قوة على الإطلاق لأنها كانت حينئذ في يد الشعب الذي أقامه ملكاً عليه على شريطة أن يكون شعباً مستقلاً إستقلالاً تاماً مطلقاً. وهو دليل قاطع على أن فكرة الإستقلال فكرة اختمرت في الشعب كله، ولم يكن في طاقة فرد من أفراده حتى ملكه نفسه أن يصرفه عنها.

حاول فيصل المرة بعد المرة أن يمهد الطريق لوصاية فرنسا تحت أسماء شتى، وبأعذار شتى كقوله إننا نستخدم أخصائين إفرنسيين، وأننا نشعر بضعفنا ووجوب الإلتجاء إلى فرنسا لمساعدتنا. فكان بعد كل خطاب يلقيه من هذا النوع تتزعزع ثقة الشعب به، ويشعر كأن الأرض مادت تحت قدميه، وأن التاج الذي كاد يهبط على رأسه أخذ في التنائي، وأن الصولجان الذي كاد هو يقبض عليه أخذ بالإبتعاد عنه كأنه عصا ساحر. ولكن فيصلا تعلم دروساً كثيرة أثناء مؤتمر الصلح في مدرسة كليمنصو ولويد جورج، فكان دائماً يحفظ خط الرجعة، ولم يصرح قط تصريحاً لا يلتئم مع الإستقلال التام المطلق. فإذا استدرج الشعب إلى الوصاية يتحفظ بقوله :على شرط أن لا يمس جوهر الإستقلال». وكان كلما صرح في خطاب بوجوب طلب مساعدة الحلفاء عموماً وفرنسا خصوصاً، ووقع تصريحه وقعاً سيئاً لدى السامعين، يعود فيلقي خطابا آخر يصرح فيه بأننا لا نرضى بديلاً من الإستقلال التام المطلق حتى يسترد بذلك ما خسره من ثقة الشعب به.

ولا ريب في أن الإتفاق الذي عقده مع كليمنصو في باريس لا يلتئم قط مع الإستقلال التام المطلق. فقد كان ذلك الإتفاق عبارة عن استدراج الشعب السوري إلى الوصاية دون أن يشعر بها أو يتنبه لها.

الخطأ المميت الذي ارتكبه فيصل نحو سورية عدم اعتماده على قوة الشعب السوري في نيل الإستقلال مع علمه بأن الإستقلال يؤخذ ولا يعطى. ولم يكن ذلك ناشئاً إلا عن الموقف المضطرب الذي وقفه بين سورية وفرنسا، وبين الحرية والوصاية، وبين التاج والشعب، وبين مصلحته الخاصة ومصلحة الأمة العامة. وكان من وراء محاولته التوفيق بين نقيضين والجمع بين ضدين، أنه خسر ثقة الشعب وفرنسا معاً.

بيد أنه قبل التتويج أوهم الشعب بأنه لا يزال على عقيدته الأولى، وهي الإستقلال التام المطلق مهما كلف الأمة من الضحايا. ولولا ذلك لما نصبه الشعب عليه ملكاً. ولكنه عاد بعد هذا إلى الموقف المضطرب الذي وقفه بعد عودته من باريس واتفاقه مع كليمنصو، فحاول المحال وهو أن يجمع بين الإستقلال ووصاية فرنسا التي اتخذت إسم الوصاية سبيلاً للتضليل، وإخفاء غرضها الحقيقي وهو الإستيلاء على سورية. وزاد الطين بلة في أنه حاول إيهام الجمهور أن ليس هنالك من وصاية أو سيطرة على الإطلاق بل مجرد استخدام أخصائيين فنيين.

ولما وضع فيصل أخيراً التاج على رأسه وجد نفسه مؤتمراً بأوامر الأمة عوضاً عن أن يكون سيدها، الآمر، وعقد الشعب السوري العزيمة على أن لا يتنازل عن حقه الطبيعي ألا وهو الإستقلال التام المطلق، وأن يكون ملكه طوع بنانه لا هو طوع بنان ملكه، لذلك لم يزده مؤتمر «سان ريمو» إلا تشبثاً بحقوقه.

إن مؤتمر الصلح لم يغير فقط جغرافية البلدان وحكومات الشعوب، ولكنه غير أيضاً قواميس اللغة عند كل أمة من الأمم، وخصوصاً قواميس الأمم الشرقية. فوضع حدوداً جديدة لكثير من الألفاظ القديمة «كالإستقلال» و «الحرية» و «الحق» و «العدل» و «الوصاية» و «المساعدة» و «التمدن» و «الإنسانية» و«حكم الذات»، وكثير من الألفاظ الأخرى التي يقضي تعدادها صفحات برمتها. وبناء على هذا القاموس الجديد أقر مؤتمر «سان ريمو» على منح سورية «الإستقلال» تحت «وصاية» فرنسا. أما معنى ذلك الإستقلال وهذه الوصاية فواضح من العبودية التي ترسف الآن سورية في سلاسلها، وهي عبودية لم يسمع بمثلها في غابر الدهور إلا عبودية الإسرائيليين في مصر.

[27]

النمر تتحفز للوثوب

شعر فيصل بعد قرار «سان ريمو» أن الواجب يقضي عليه بالتوجه إلى أوروبا خصوصاً،أن مؤتمر الصلح بعث يسأله الحضور إليه بعد أن توج ملكا على سورية، دون أن يلبي هو الدعوة رغماً من تكرارها المرة بعد المرة. ولما ألح عليه المؤتمر بذلك، بعث فيصل أخيراً مندوباً من قبله، فأبى المؤتمر أولاً إلا أن يحضر فيصل نفسه، لكنه تساهل أخيراً في الأمر ورضي أن يقوم المندوب بالإيضاحات اللازمة المتعلقة بالأسباب التي منعت فيصلا من الحضور شخصيا.

من سوء حظ فيصل، أنه لم يكن في حاشيته وبين رجاله الذين بعث بهم إلى مؤتمر الصلح ولندن في سبيل قضية سورية رجال مشهورون في عالم السياسة والأدب أو ظهر منهم أثناء تلك المخابرات نبوغ أو دهاء سياسي، لذلك كانت أسفارهم عقيمة دون أدنى جدوى على الإطلاق. ولو عملت الحكومة السورية بالنصيحة التي بعثنا بها إليها حينئذ بواسطة أحد سراة دمشق، وهي عدم الإكتفاء بالإحتجاج أمام مؤتمر الصلح، وبوجوب إرسال وفد إلى لندن وباريس يبسط المسألة السورية أمام الرأي العام ويلقي خطباً بشأنها من على المنابر، وينشر مقالات ضافية بخصوصها في جرائدها الكبرى، ويرفع دعواه إلى الشعبين العظيمين لينصفا بلاده من حكومتيهما، لكان ترتب على ذلك نتائج أفضل بكثير من النتائج العقيمة التي أنبأنا بها فيما لو اقتصرت الحكومة السورية على المخابرات الرسمية. ولو توجه فيصل نفسه إلى مؤتمر الصلح يوم طلبه المؤتمر المذكور، لترجح حصوله على نتائج هامة في سبيل الإستقلال.

ومهما يكن من الأمر فإن فيصلا اضطر بعد ذلك إلى العزم على التوجه إلى باريس ولندن، لأن اللورد كرزون وزير خارجية بريطانيا ألقى في الثامن والعشرين من شهر يونيو في العام الفائت خطاباً في مجلس الأمة أثناء مناقشة في شؤون الشرق الأدنى جاء في عرضه ما يأتي:

«إن القرار الذي أصدره مؤتمر «سان ريمو» بخصوص سورية، يعد بمثابة موافقة على طلب الأمير فيصل الذي جعله شرطاً لذهابه إلى أوروبا. ولما كنت مسؤولاً عن جل ذلك ترتب على الأمير فيصل الحضور».

ويعني اللورد كرزون بطلب فيصل الشرط الذي اشترطه لذهابه إلى المؤتمر، وهو الإعتراف باستقلال سورية، وهو اعتراف صرح به المؤتمر عن طيب خاطر، وذلك بموجب القاموس الجديد الذي دفعه إلى العالم.

رأى فيصل بعد هذا البيان وجوب التعجيل في الذهاب إلى أوروبا خصوصاً، لأنه شعر أن غورو قلب له ظهر المجن بعد وصول النجدات إليه، وأن الساعة الفاصلة لتقرير مصير سورية بعد قرار مؤتمر «سان ريمو» آخذة في الدنو سريعاً، وأن العاصفة التي رأى غيومها السوداء متلبدة في أفق سورية آخذة بالإقتراب منه شيئاً فشيئاً.

لذلك طلب من الجنرال غورو في الثامن من شهر يوليو أن يعين باخرة فرنسية تقله إلى أوروبا لأنه عازم على الحضور إلى مؤتمر الصلح. فأجابه غورو جواباً خالياً من المجاملات السياسية الإعتيادية قال فيه إنه لا يسعه تعيين باخرة لسفره إلا إذا قام أولاً بتنفيذ شروط يراها هو ضرورية. وأنه إذا حاول السفر بواسطة أخرى، فالحكومة الفرنسية تتخذ حينئذ الإجراءات التي تراها لازمة لضمان مصلحتها. وكان في عداد تلك الشروط حق استعمال الخط الحديدي الكائن بين رياق وحلب، لنقل الجند والذخائر إلى غير ذلك من المطاليب التي تجعل سورية في قبضة فرنسا.

كان هذا الجواب الإنذار الأول بأن فرنسا نزعت عن وجهها برقع المواربة، وعقدت النية على أن تبسط وصايتها الجائرة على سورية السيئة الطالع بالسيف والمدفع، وأن تقود السوريين إلى العبودية باسم الحق والإستقلال والحرية. ولم يؤخرها عن تنفيذ هذه الأغراض الأثيمة حتى الساعة إلا أمران، أولهما عدم اتفاقها مع إنكلترا بشأن القطعان البشرية في سورية، وثانيهما عدم وجود قوات حربية كافية لديها. أما الآن وقد زال هذان السببان، وقد برزت أمام السوريين نمرة مفترسة تحفزت للوثوب عليهم.

[28]

الدسائس لإغتيال فيصل

تعلم فيصل في مدرسة كليمنصو ولويد جورج دروساً كثيرة، ولكنه نسي دروساً أخرى كان يجب عليه أن يذكرها، وفي عدادها أن ساسة أوروبا ينسون اتفاقاتهم التي عقدوها مع الغير متى كان النسيان موافقاً لمصلحتهم.

إن ذاكرة الساسة أشبه بضمائرهم، فهي مطاطة جداً تطول وتقصر تبعاً لمقتضى الحال. لذلك رأى فيصل بوادر الشر من غورو، وأن في عداد الأسباب التي اتخذها الجنرال وسيلة للنزاع، الخلاف الذي كان قائماً بينهما فيما يختص ببلاد البقاع الكائنة بين المنطقتين الشرقية والغربية. ذكر فيصل أنه عقد بهذا الصدد في شهر سبتمبر سنة 1919 اتفاقاً مع حكومة باريس يرد بموجبه كل خلاف إلى لجنة مختلطة تؤلف من السوريين والفرنسيين والإنكليز، وتحل الخلاف بالطريقة التي تراها موافقة. فسأل غورو العمل بموجب هذا الإتفاق حسماً للنزاع. ولكن حكومة باريس خانتها الذاكرة هذه المرة، كما في الكثير من المرار السابقة، فلم تذكر شيئا من هذا الإتفاق قطعياً.

كان الواجب على فيصل أن يفقه أن الساعة قد حانت لإعلان الجهاد الوطني في طول سورية وعرضها، وإرصاد القوات الحربية على آخر الحدود بين المنطقتين الشرقية والغربية، وشهر حرب العصابات مع الحرب المنظمة، والوقوف في وجه العدو حتى النفس الأخير، ليستلفت نظر العالم إلى الطريقة البربرية التي أرادت فرنسا أن تبسط بها وصايتها على سورية.

لم يستيقظ فيصل إلا بعد أن شبت النار في بيته، وبعث إليه غورو في الرابع عشر من تموز بالإنذار النهائي الذي أخطره فيه بوجوب الإذعان إلى مطالبه كلها. وهو إنذار ينتهي أجله في منتصف ليل الخامس عشر من الشهر المذكور. لذلك استيقظ فيصل مذعوراً لأن النار لا تنتظر أحداً.

إن تقاعد فيصل عن القيام بالواجب الوطني لم يكن إبن ساعته، بل بدا منه هذا الترهل قبل ذلك بأسابيع، بل بأشهر، وخمدت من صدره تلك الحماسة التي أضرم بها سابقاً نار الوطنية في قلوب القوم يوم كان ينادي على رؤوس الأشهاد أنه لا يرضى من الإستقلال التام المطلق بديلاً مهما كلفه والأمة من الضحايا الكبيرة، بل أنه جنح غير مرة بعد أن تعمم بالتاج إلى التساهل في قبول وصاية فرنسا بتعابير شتى مبهمة حتى وجد عليه زعماء الأمة وتطيروا من وهنه بعد تلك الشدة، ومن لينه بعد تلك الصلابة، وأوجسوا شراً من هذه السياسة المتذبذبة. وهمّ فريق باغتياله، وقد تواتر في قلب سورية نفسها الإشاعات القائلة بعقد الدسائس للفتك بفيصل حتى أنها بلغتنا. وفيصل لا يزال حسب الظاهر في أوج مجده وإبان سطوته. ونظن أن ذلك كان في صدر الأسباب التي لأجلها انزوى فيصل في قصره بعد تتويجه ملكاً على سورية، وأصبح الوصول إليه متعذراً حتى على كبار رجال الدولة. وتحرى عبد الحميد في إقامة نطاق حول قصره من جنده وأخصائه لا يتاح لأحد اجتيازه إلا بواسطة رجال حاشيته.

إن الخطر على حياة فيصل كان خطراً حقيقياً، ولدينا من الأنباء الخاصة بهذا الصدد ما يجعلنا نرجح أنه لو لم يبادر غورو إلى مبادهة فيصل بالإخطار النهائي الذي تقدم بيانه، لكان فيصل عرضة للقتل لأن الحزب الإستقلالي الحر رأى أنه اتخذه سلّماً لبلوغ العرش، وأنه لما بلغه حاول أن يتفق مع فرنسا على حساب الأمة. ولم تنحصر هذه الحركة في دمشق، بل تجاوزتها إلى حمص وحماه وحلب وغيرها من الأنحاء السورية، وحصل في الأمة رد فعل شديد لم يتوقعه فيصل، لأنه نظير فرنسا لم يحسب حساباً للشعور الوطني.

بدأت الدسائس لاغتيال فيصل بعد أن رأت وزارته الأولى وجوب طلب مساعدة فرنسا، وهو مفاجأة لم تكن تتوقعها الأمة على الإطلاق بعد أن بنت العلالي والقصور على الإستقلال التام المطلق، وبعد أن نصبت عليها فيصل ملكاً، وهو الذي كان ينادي بهذا الإستقلال في المخادع ومن على السطوح. لذلك فقدت الوزارة المذكورة ثقة مجلس الأمة، وسقطت في مثل غمض الجفن وقامت على أنقاضها وزارة أخرى لا ترى رأيها، بل تذهب إلى وجوب الإستقلال التام.

[29]

فيصل يشعر بالخطر على حياته

إن الوزارة السورية الأولى لم تقل بمساعدة فرنسا لو لم يكن فيصل ميالاً إلى قرارها، بل المعقول أنها فعلت ذلك بإيعاز من فيصل نفسه. فيترتب على ما تقدم أن تيار العواطف الذي جرى ضد الوزارة الأولى جرى أيضا ضد فيصل نفسه، وهو الملك الذي كانت تأتمر الوزارة المذكورة بأمره وتنتهي بنواهيه، لأن الحكومة رغماً من أنها كانت دستورية بحتة فقد كان لفيصل فيها تأثير شخصي كبير ونفوذ سياسي خطير، وهو نفوذ لم يهن إلا بعد أن وهنت عزيمته، وانصرفت أمانته عن جادة الوطنية الحقة إلى طريق المصلحة الخاصة.

انفتحت حينئذ عيون مغمضة، وتنبهت همم هاجعة، وأدركت الطبقة الراقية أن فيصلا اتخذ الإستقلال التام المطلق وسيلة للتاج، فلما وضعه على رأسه ورأى أنه لا يكون على ثقة من بقائه إلا إذا سالم فرنسا، رأى أن يضحي باستقلال البلاد التي أقامته عليها ملكاً في سبيل البقاء على عرش الدولة.

ابتدأت الدسيسة لاغتيال فيصل بين فريق من كبار الموظفين المدنيين، وامتدت بالتدريج إلى ضباط الجيش. والأنباء الخاصة التي وردتنا في حينها بهذا الصدد تدل على أن فيصلا أحس بشيء من ذلك وشعر أن حياته في خطر، لذلك شددت حاشيته في منع الدخول إليه، وحظرته حتى على وفد اللجنة الوطنية التي جاءت لمخابرته في إبان إشتداد الأزمة، إذ لم يسمح لأحد منها بالدخول عليه، إلا لشخص واحد بعد أخذ ورد طويلين.

متى وضح مما تقدم لم يعجب المطالع من الخطة التي تخيرها فيصل في الجري مع غورو ومجاراته في مطلبه. وهي خطة لم نؤمّن ولا نؤمّن عليها مطلقاً، لأنها أفضت بالبلاد حالياً إلى الإحتلال وبالإستقلال مؤقتاً إلى الزوال. وهو لو اتخذ خطة جريئة صريحة وقال «إن الأمة السورية أمة حرة لا تريد أن تستعبد ولا أن تأتمر بأوامر دولة لا حق لها في أن تكون وصية

علينا، وأننا نريق دماءنا حتى القطرة الأخيرة في الذب عن حقوقنا الطبيعية المقدسة، ونشهد العالم المتمدن والتاريخ على اعتداء فرنسا علينا، ونكون احتجاجاً حياً أمام الله والناس على الدولة التي تريد أن تبسط سيادتها علينا بالسيف والمدفع»، لم يقع في مأزق لم يعرف كيف ينقذ نفسه وشعبه منه. لو قال ذلك ورفع احتجاجه إلى مجلس الأمة البريطانية ولجنة الأمم وحكومات الحلفاء جملة، لكان في إمكانه على الراجح إنقاذ سورية من العبودية وإنقاذ تاجه من السقوط على ما سنبين ذلك في ما يلي.

شعر فيصل بالخطر المحدق به، لأن زئير الشعب الذي كان حينئذ أشبه بأسد سدت في وجهه مذاهب النجاة خرق جدران قصره ووقع على أذنيه المرهفتين لكل همس. ومما زاد موقفه حرجاً أن ضباط الجيش الذين كان يعتمد عليهم في درء الخطوب، نقموا منه لاستسلامه إلى الفرنسيس، والعدول عن جادة الوطنية الحقة. وهم الذين ناصروه في كل مواقفه السابقة، وكانوا عوناً له في تأييد نفوذه وإعلاء شأنه. ومما زاد حنقهم عليه، إهماله المعدات اللازمة للدفاع الوطني، فلم يرفع صوته في وجوب التطوع والتجنيد، بل اعتمد على المخابرات السياسية مع علمه أنها لا تجدي نفعا في مثل هذه الحال، لأنه عول على التسليم بمطالب غورو. ولو جاراه الشعب في ما كان يريد، لما نشبت على الراجح معركة ميسلون، بل كان دخل الفرنسيس عاصمة سورية دون أن تطلق في وجههم بندقية، وسجل السوريون على أنفسهم العار أبد الدهر.

كان الخطر على حياة فيصل من الضباط أشد من خطر الشعب عليه، ولم يبق عنده منهم من يعتمد عليه في شد أزره إلا القليل، وهم الذين كانوا في حاشيته وحراساً حول قصره، فلم يكن مأذوناً لغيرهم من الضباط الدخول عليه. لذلك أمسى فيصل بين خطرين أولهما الخطر على تاجه من الفرنسيس إذا هو أبى إجابتهم إلى مطاليبهم، وثانيهما الخطر على حياته من شعبه وجيشه إذا لم يقف وقفة صادقة بجانب تصريحاته السابقة. وهذا الخطر المزدوج يعلن عن الموقف الحرج الكثير الإضطراب الذي زج فيصل نفسه فيه في تلك الأيام التاريخية.

[30]

أسباب الهجوم الفجائي

قبل أن نتقدم إلى بيان المخابرات التي دارت بين فيصل وغورو بعد أن بعث إليه هذا بالإنذار النهائي، ونأتي على ذكر الإجراآت الصاعقية التي قام بها غورو جارياً إليها عن طريق الغدر والخيانة، يجب أن نبين الأسباب السياسية الجوهرية التي اضطرته إلى تلك الإجراآت، ومتى فقهها المطالع، أمكنه أن يدرك في وقت واحد أسباب السرعة الهائلة الفجائية التي جرى بها غورو إلى دمشق، والخطأ المميت الذي ارتكبه فيصل باستسلامه إلى مطالب غورو، والتراجع عن المواقف الحربية التي هي خطوط الدفاع الأولية.

والأمر الأول الذي نريد تقريره بهذا الصدد، أن الشعب الفرنسي بحذافيره، كان نافراً كل النفور من تسيير حملة حربية إلى الشرق والإنغماس في حرب مهما كانت نتائجها الإستعمارية عظيمة. فهو لم يرد ولا يريد أن يسمع بذكر حملة حربية على سورية، لأن فرنسا خرجت من هذه الحرب الطاحنة دامية مهشمة ودماؤها نازفة منها حتى درجة البياض، فضلا عن فراغ خزينتها واعتمادها في استرداد النفقات الهائلة التي قامت بها على غرامة تود الحصول عليها من دولة أشد منها إفلاساً.

لم يبق لفرنسا من الجنود من يمكنها أن تجازف منهم برجل واحد، ولا من الفرنكات ما يمكنها أن تجازف منه بمليون واحد، فهي حرب خرج منها الغالبون والمغلوبون مرهقين على السواء. وسرطان التعاسة والشقاء يأكل أجسام الفرنسيس كما أكل أجسام الألمان. والفرق الوحيد بينهم أن سرطان الألمان تستره أثواب رثة، وسرطان الفرنسيس تستره طيالس النصر. ولكن السرطان تحت هذين الثوبين أكل ولا يزال يأكل أجساد هاتين الأمتين على السواء، فضلا عن أن شعوب الحكومات الغالبة ملت الحرب وكلمة حرب، والوزارة الفرنسية التي تجاهر بإرسال حملة إلى سورية بقصد الفتح والإستعمار، تسقط في أربع وعشرين ساعة.

أما حكومة فرنسا فإنها لم تخدع فقط سورية، بل خدعت أيضا شعبها هي فسيرت حملة على سورية دون أن تفوه بكلمة حملة، وشهرت على سورية حرباً دون أن تفوه بكلمة حرب، لأنها تدري أنها إذا فعلت سقطت في مثل غمض الجفن، لذلك كان الشرط الضروري لفلاح الحملة وعدم قيام الشعب الفرنسي في وجه حكومته، أن تحتل دمشق قبل أن يدري الشعب الفرنسي أن هنالك حملة، وأن تفتح سورية قبل أن يدري أن هناك حرباً.

رأت الحكومة الفرنسية من الضروري جداً لنجاح سياستها، أن يستيقظ الشعب الفرنسي ليرى نفسه أمام عمل ناجز يعود إليه بالخير الكثير والأموال الطائلة، ويضيف قطراً جديداً من أقطار الشرق إلى مستعمرات فرنسا.

وهناك أمر آخر أهم مما تقدم وهو أن لا يدري مجلس الأمة البريطاني بما جرى في سورية إلا بعد حدوثه، لأن اليوم الأول الذي ترد فيه أنباء حدوث معارك دموية بين الجيش الفرنسي والجيش السوري، تهب عاصفة في المجلس المشار إليه وتنهال الأسئلة على حكومة بريطانيا من النواب طالبين إيضاحاً عن موقفها تجاه هذا الحادث الخطير في الشرق، وراغبين إليها في أن تخابر الحكومة الفرنسية لإيقاف كل حركة حربية إلى أن تبت الدولتان قراراً بهذا الصدد أو برفع الأمر إلى لجنة الأمم.

وفضلاً عما تقدم فإن مجلس الصلح في دفعه لفرنسا الوصاية على سورية، لم يخولها إياها بحسب الظاهر بناء على ادعائها بأن السوريين يطلبونها عن بكرة أبيهم، ولا يعقل أن مؤتمراً دولياً مهما كان جائراً ومخالفاً لحقوق الأمم الطبيعية والعدل البشري العام يرضى بأن يسجل على نفسه هذه المضرّة، وهو أن يكلف دولة من الدول أن تسير إلى وصاية الأمة التي شاء تسميتها قاصرة وسط نهر من دماء أهلها وعلى تلال من جثث قتلاها.

أما إذا فتحت فرنسا سورية بإجراآت حربية صاعقة، وجدت بريطانيا نفسها أمام عمل مكمل، وأمكن الفرنسيس بالضغط والإرهاب أن يرغموا فريقاً من الأهالي على إرسال تلغرافات الرضا عن الحال الحاضرة.

[31]

السوريون تجاه الإنذار النهائي

ظهر مما تقدم كيف أن الفرنساويين تمكنوا بسبب تذبذب فيصل أن يسموا السوريين عن بكرة أبيهم أقلية أثيمة، كما سماهم الجنرال غورو يوم دخل بلادهم ويداه مضرجتان بدمائهم.

لذلك كانت مصلحة حكومة فرنسا تقضي بالسرعة الفجائية الهائلة، ومصلحة سورية تقضي بالوقوف أمام الحملة الفرنسية إلى أن يبلغ خبر المعارك الشعب الفرنسي ومجلس أمة بريطانيا. ولو وقف فيصل تجاه حملة غورو ليس شهراً واحداً بل أسبوعاً واحداً لكانت تلك المدة على قصرها كافية لإحداث زوبعة سياسية في مجلس أمة بريطانيا خصوصاً وحكومات الحلفاء عموماً. والذي نعرفه من الكتب الخاصة الواردة لنا ومن الأنباء العامة، أنه كان في وسع فيصل أن يقف في ساحة الحرب تجاه غورو أسبوعاً واحداً بل أسابيع عديدة، لأن عدد الجيش الذي كان لديه من جنود منظمة ومتطوعين، لا يقل بإقرار فيصل نفسه عن ثمانين ألف رجل سرحهم فيصل قبل أن نشبت معركة ميسلون. فضلا عن أنه لو أخذ الأهبة اللازمة قبل ذلك بأشهر للدفاع عن الوطن، كان في وسعه أن يحشد جيشاً لا يقل عن مائة وخمسين ألف جندي ويشهر أيضاً حرب العصابات التي يطول أجلها لا شهوراً معدودات فقط بل سنين طويلة. ولكنه لم يفعل شيئا من ذلك بل فضل الإستسلام على الدفاع عن الوطن دفاعاً مجيداً يمكنه بواسطته إنقاذه من الإحتلال والعبودية.

لما ورد إنذار الجنرال غورو النهائي إلى دمشق، اضطربت المدينة اضطراباً لا مثيل له في تاريخها الحديث، لأنه الاضطراب الأول الذي أحدثته عواطف الوطنية الحقة والشعور بالواجب الوطني السامي، وذلك من وجهة سورية بحتة. فهاجت الخياطر هيجاناً عظيماً، وشعر القوم كأن صاعقة انقضت عليهم من الجو على حين فجأة، وكادت تفقدهم الرشد. وليس أدل على هذا الهيجان الذي دفعتهم إليه الغريزة الطبيعية والفكرة الإستقلالية على أن الإستقلال

مطلب، الأمة ومطمح الشعب على إختلاف طبقاته، لا عملاً دفعهم إلى القيام به فرد من أفراده وأفراد غيره، فهو فعل منعكس من أفعال أمة حية قامت به بالبداهة دون أن تشعر به، بل هو عمل من أعمال أمة حرة تريد أن تبصر نور الطبيعة، وتتنشق هواءها النقي وتمرح في رياضها الغناء وجنائنها الفيحاء، وتذود عن حريتها بسلاحها وعن استقلالها برماحها.

اكتظت الشوارع بجماهير الشعب، وعلت الجلبة والضوضاء من كل جانب. وبعد أن عادت هذه الجماهير إلى رشدها، ذكرت واجبها الوطني فاندفعت بقوة الغزيره الطبيعية إلى الثكنات الحربية لحمل السلاح والدفاع عن الوطن. وكان الإقبال على التطوع عظيماً بهذا المقدار حتى عجز الضباط والكتبة على كثرتهم عن تسجيل كل أسماء المتقدمين وتوزيعهم على فرق الجيش المختلفة. وما جرى في دمشق جرى أيضا نظيره في حلب وسائر مدن سورية الكبرى، فكان يبقى في مساء كل يوم ألوف من الرجال لا يمكن الحكومة الوطنية مدهم بالسلاح والذخيرة وتعيين مواقفهم في الفرق التي يجب أن ينتموا إليها، فكانوا يعودون إلى منازلهم ثم يرجعون في اليوم التالي إلى الثكن الحربية.

لم تعوز الشعب السوري الشجاعة ولا التضحية، ولكن أعوزه السلاح والذخيرة والتنظيم وعزم حاكمه الأول على الوقوف بجانب الإستقلال التام المطلق. وهو لو عقد العزيمة على ذلك بعد أن توج ملكاً وأخذ الإحتياطات اللازمة لكل مهاجمة فجائية يمكن فرنسا أن تقوم بها، لما أعوزه السلاح ولا الذخيرة ولا الرجال ولما وجد نفسه في مركز المفاجأ.

هب السوريون في دمشق هبة واحدة، وأظهروا وطنية صادقة يستحقون من أجلها جميل الشكر والثناء. وتبرع فريق كبير منهم بمواد غذائية وتقديم حيوانات النقل دون مقابل. وبارت السيدات الرجال في الغيرة الوطنية والشجاعة القومية. وعقد القوم القلوب والخناصر على الدفاع عن الوطن حتى الرمق الأخير. وعلى وجه الإجمال، فإن الشعور الوطني كان أشبه بتيار كهربائي جرى إلى النفوس فأثار عواطفها من مكانها.

[32]

المؤتمر السوري يلغي قرار فيصل

كان الواجب على فيصل تأييد الحماسة الوطنية، وتشجيع روح التضحية، وتعزيز المواقف الحربية الأمامية، وإعلان الجهاد الوطني بواسطة الأسلاك البرقية في طول سورية وعرضها، والإنتفاع بالتفاهم الذي كان قد تم سابقاً بينه وبين مصطفى كمال باشا للقيام بحركات حربية ضد الفرنسيس في قيليقية وجهات حلب في وقت واحد، وأن يجعل موقفه في هذه الأزمة الوطنية الكبرى موافقاً لتصريحاته السابقة في وجوب بذل كل شيء ذبّاً عن حرية الشعب السوري واستقلال بلاده. وهو لو فعل هذا لتردد صدى صوته في طول البلاد وعرضها، وأحدث دوياً سياسياً كبيراً في أندية أوروبا كلها.

ولكنه لم يفعل شيئاً من ذلك على الإطلاق، بل صمم على تضحية استقلال الأمة على مذبح العرش، ومبيع حريتها للإحتفاظ بالتاج. وبديهي أن من يسلك هذه الطرق العوجاء، ويتوخى هذه الخطة الخرقاء لا يمكنه أن يعتمد في المستقبل على حب الأمة وولائها، بل يضطر إلى الإعتماد على عضد الدولة المحتلة لتصون عرشه مقابل بذله شعبه، ولتحفظ تاجه جزاء بذله حريته.

وبياناً لما تقدم نأتي هنا على خلاصة مطالب غورو، وهي وجوب بسط وصاية فرنسا على سورية دون قيد ولا شرط على الإطلاق، وتسليم الخط الحديدي الكائن بين رياق وحلب، وإقرار الأوراق المالية التي سماها غورو «أوراقاً سورية» أساساً للمعاملات المالية، وإبطال الخدمة الحربية الإجبارية، ومعاقبة المجرمين. ولا ندري من يعني بهؤلاء المجرمين، والراجح أنه يعني بهم كبار الموظفين والكتاب والوجهاء الذي رفضوا وصاية فرنسا.

فواضح من كل هذا أن فرنسا أرادت بهذه المطالب الإستيلاء على سورية، وبسط سيادتها عليها دون قيد ولا شرط، وإضافتها إلى مستعمراتها تحت إسم الوصاية. وأرادت فوق هذا ما

هو شر من ذلك كله وهو أن تكون العبودية التي عمدت إلى ضربها على سورية برضا مليكها وحكومتها.

رأى فيصل أن يستوضح الجنرال غورو بعض الشروط التي أتينا على خلاصتها. فبعث إليه في الخامس عشر من يوليو، وهو ميعاد انتهاء الإنذار، يطلب منه إيضاحاً عما أشكل عليه فهمه منها، وأن يكون تاريخ الإنذار من اليوم الذي يرد فيه الإيضاح المشار إليه. فبعث إليه الجنرال بالجواب المطلوب، وعين موعد الإنذار في منتصف ليل الحادي والعشرين من يوليو.

ولكن غورو لم يضع هذا الوقت عبثاً فأمر في السابع عشر من الشهر المذكور فرقة من الجيش أن تحتل حاصبيا وراشيا الكائنتين ضمن حدود المنطقة الغربية. فاحتجت الحكومة الوطنية السورية على هذا الإعتداء دون أدنى جدوى. وكان يجب أن يكون هذا إنذاراً لفيصل بما عولت عليه فرنسا، وأنه خير له ألف مرة أن يسقط رافعاً بيده راية الإستقلال من أن يهبط عن عرشه رافعاً راية الإستسلام. ولكنه لم يفعل، بل رمى بالورقة الأخيرة التي بيده، وأرسل في التاسع عشر من الشهر المذكور كتابا إلى غورو يقول له فيه أنه قبل شروطه كلها، فبعث إليه غورو في اليوم التالي جواباً يسأله فيه أن يرسل إليه بياناً ضافياً بهذا الصدد.

إن جواب فيصل مخالف على خط مستقيم لرغائب الأمة التي حاربت فرنسا بأصواتها أمام اللجنة الأميركية، وحاربتها بسيوفها أمام العالم كله في ميسلون، ولا تزال تحاربها حتى الساعة بأصواتها وأسيافها وأقلامها. فهي لم ترد ولا تريد أن تسجل على نفسها العبودية. أما إذا غلبتها فرنسا بالقوة فلا عار على سورية بذلك، بل لها الشرف الأعظم في أن تسجل مطالبها بدمائها.

ولما ذاع خبر استسلام فيصل لغورو وقبوله شروطه، حدثت ثورة في خواطر الدمشقيين وحركة استياء في طول العاصمة وعرضها وهاجت الخواطر هيجاناً شديداً. ووردتنا أنباء خاصة تدل على أنه كانت هنالك مكيدة للفتك بفيصل، ولكن المؤتمرين لم يتمكنوا من إخراجها إلى حيز الفعل لسببين أولهما: أن موعد انتهاء الإنذار كان على الأبواب، وثانيهما شدة تحفظ فيصل لنفسه وإنزواؤه في قصره بعد أن بث الجواسيس في المدينة، وأرصد الحرس الخاص على الأبواب، وأصدر أمراً بمنع كل أحد من مقابلته.

أحس المؤتمر السوري بما عزم عليه فيصل قبل أن ذاع خبر كتابه إلى الجنرال غورو، فعقد جلسة أصدر فيها قراراً أن كل عهد تتعهد به الحكومة الوطنية السورية مخالفاً لقرار المؤتمر القائل بالإستقلال التام المطلق يعتبر ملغى، والأمة تنكره ولا تعمل بموجبه على الإطلاق. ولقد طبع المؤتمر القرار المذكور ونشره بين الجماهير فقابلته بالهتاف والأهازيج، وهو في صدر الأدلة على أن قبول شروط غورو عمل فرد آثر مصلحته الشخصية على مصلحة الشعب، لا عمل أمة سجلت على نفسها الذل والعبودية.

شعر فيصل بعد هذا القرار أن المؤتمر السوري إذا ظل منعقداً كان شوكة في جنبه فعزم على حله وأصدر أمراً بتأجيل انعقاد جلساته شهرين، وحمل أمره هذا الأتاسي رئيس الوزارة ويوسف العظمة وزير الحربية، وذلك قبيل ظهر اليوم العشرين من يوليو. واستفز وزير الحربية أثناء هذا الإجتماع غيرة الأعضاء لمناصرة الحكومة في هذه الأزمة الكبيرة، ورجاهم أن لا يضعوا شيئا من العراقيل في سبيلها ثم تلا عليهم الأمر بحل المؤتمر مؤقتاً، فأصغى إليه الأعضاء صامتين صمت الموت، وانفرط عقدهم دون أن يفوه منهم أحد بكلمة.

وهكذا بدلا من أن يحشد فيصل الجنود، ويدفعها لتعزيز الخطوط الأمامية والدفاع عن الوطن حتى الموت، أو على الأقل حتى تبلغ حشرجة سورية أذن العالم المتمدن وتطرح مسألتها على بساط البحث في مجالس نوابه. أرسل فيصل جوابه إلى غورو مستسلماً إليه كل الإستسلام، وأصدر أمره بتسريح الجيش السوري وبارتداد الفرق السوريه الواقفة في المضائق التي لا بد من مرور الجيش الفرنسي فيها أثناء زحفه على دمشق. وهي مضائق لو تحصنت فيها الفرق المذكورة، لأنزلت بالفرنسيس خسائر فادحة، وأخرت زحفهم إلى أن تكون قد وقفت الجنود السورية بعضها إلى بعض كالبنيان المرصوص. وعلى هذا المنوال خطت سورية الخطوة الأولى في طريق العبودية ووادي ظلال الموت.

ظل فيصل غير آمن على حياته وتاجه فحاول التخلص من كل من يسيء الظن به، فبعث إلى مدير الأمن يسأله ما إذا كان مستعداً لخدمة ملكه بإلقاء القبض على أشخاص تدفع إليه أسماؤهم وبينهم فريق من أصحاب المكانة، فأبت عليه وطنيته القيام بهذه المعرّة واستعفى للحال من وظيفته.

[33]

ثورة دمشق

في منتصف اليوم العشرين من يوليو، بعث فيصل ببيان إلى ضابط الإرتباط الفرنسي يقول فيه أنه بدأ بتنفيذ الشروط فعلاً. وفي الساعة السادسة من مساء ذلك اليوم عينه، ورد الضابط المشار إليه في كتاب أضاف إليه نص الشروط التي طلبها الجنرال غورو مع الأيضاح الوافي الذي كان قد بعث به غورو إلى فيصل، وفيه بيان الشروع بتنفيذ الشروط كلها. وهذا هو الكتاب الذي ادعى غورو أه لم يرده إلا بعد انقضاء ميعاد الإنذار بساعتين.

ولا مشاحة في أن الأمة السورية كانت مصممة على الدفاع عن استقلال الوطن حتى النهاية. وغريزة الشعب الفطرية كانت أصدق حكماً وأصح نظراً من مناورات فيصل السياسية. ولو جارى الأمير أماني الأمة الشريفة ومطامحها العادلة، ووقف معها في جانب حقوقها الطبيعية ورغائبها الشرعية، لما وجد نفسه في موقف الخانع أمام مطالب غورو، ولكانت هذه الخطوة أضمن لعرشه وتاجه من خطة الخضوع التي لا تلتئم قط مع تصريحاته السابقة، ولا مع الثقة التي وضعتها الأمة فيه لأنها لم ترفعه إلى منصب الملكية إلا بناء على ما رأته منه سابقاً من التفاني في سبيل الحرية والأقوال الصريحة الجريئة التي فاه بها بهذا الصدد في مواقف عديدة، فالأمة لم تنصبه ملكاً عليها ليسلم بوصاية فرنسا، ولا ليدفع إليها الخط الحديد الكائن بين رياق وحلب، ولا ليسرح جيشها الذي قال هو عنه مراراً إنه سياج الأمة والوسيلة الفعالة لنيل الإستقلال، ولا ليسحب هذا الجيش من المواقف الحربية الأمامية المنيعة ليحل محله جيش الدولة الطامحة إلى استعباد سورية، ولا ليستأثر بالحكم في هذه الأزمة الكبرى ويعقد اتفاقات مع عدوة الوطن لا يرضاها المؤتمر السوري ولا تقبل بها الأمة بوجه من الوجوه، ولا ليوقف سورية تجاه قائد أجنبي ظالم معتد موقف الذل والهوان، فضلاً عن أن هذا الموقف لم يُجده نفعاً مقدار ذرة، ولا لتكون مصالح الوطن ذريعة لمصالحه الشخصية وحرية الأمة سلّماً لمصالحه الخصوصية، بل أن الأمة أنابته عنها في مؤتمر الصلح لأن الطبيعة أوجدته حينئذ

في مركز بارز محترم يمكنه من الدفاع عن حقوقها أكثر من سواه. ولأنه أظهر أولاً من الحماسة في سبيل استقلالها ما استحق لأجله جميل الشكر والثناء. ولأنه صرح المرة بعد المرة، أنه لا يرضى إلا الإستقلال التام المطلق. وإذا كانت البلاد في حاجة إلى أخصائيين استخدمناهم بإجرة. والأمه لم تنصبه ملكاً عليها إلا وهي على هذا اليقين الراسخ والإيمان غير المتزعزع في إخلاصه وجرأته وصدق عزيمته.

اختارت الأمة السورية فيصلا ملكاً عليها لمثل هذا اليوم العصيب. ولما أتى اليوم العصيب وهبت أعاصير السياسة على مركب سورية، رأى ربانه عند هبوب الإعصار الأول أن يتخلى عنه ودفع دفتيه إلى قرصان البحر على شريطة أن يكون له فيه قمرية يقيم فيها ناعم البال، وينام مطمئنا. وهو لو أرسل نداء في طول البلاد وعرضها، ودعاها إلى الجهاد في سبيل أشرف الأغراض وأقدس الواجبات، لانضوت الرجال تحت لواء الوطن، واضطرمت في صدورهم الحماسة الوطنية، وأمكنهم على الأقل إيقاف العدو الزاحف إلى أن يكون قد طرحت قضية سورية أمام مجلس الأمتين الفرنسية والبريطانية، لأن الشعب الفرنسي نفسه لم يكن طامحاً إلى استعمار سورية. وحكومة بريطانيا لا تؤيد قط الحكومة الفرنسية في مطامعها الإستعمارية. لذلك لما أمر بتسريح الجيش اندهش الشعب كل الإندهاش، وحنق على ملكه حنقاً عظيماً. وأخذت الجماهير تتوافد إلى الشوارع والساحات حتى ملأتها. وعقدت الأندية والجمعيات السياسية جلسات فوق العادة للنظر فيما يجب عليهم فعله تجاه هذا الخطب الجلل. وكان منظر المدينة بالجماهير المكتظة في ساحاتها ليلة اليوم الذي سلم فيه فيصل بشروط فرنسا منظراً غريباً، أشبه بمدينة انقضت في وسطها على حين فجأة صاعقة من الجو. واتفقت كلمة الجماهير والأندية على وجوب خلع فيصل، ورفض شروط غورو والدفاع عن الوطن بكل وسيلة ممكنة.

[34]

خيانة فرنسا

كان من حنق الشعب على سياسة فيصل الإستسلامية، أن الجماهير هجمت على مستودعات الأسلحة التي تخص الحكومة ومخازن الذخائر والمؤونة. وكاد الشعب يفلح في ثورته هذه لو كانت منظمة تنظيماً كما يجب. لكن فيصل استعان بالجيش الذي لم يشارك الشعب في ثورته، وكان حقه أن يشاركه فيها، فأخذت الجنود تطلق النار على الهاجمين دون أن يجدي ذلك نفعاً، لأن الجمهور استولى على الأسلحة والذخائر. فصدرت الأوامر حينئذ إلى الجيش بإطلاق المدافع الرشاشة، فصوبها رجال المدافع نحو الجماهير التي كانت تتدفق كالبحر الزاخر. فتخضبت شوارع المدينة بدم أبنائها وسقط من الشعب قتلى كثيرون، وجرح جمهور غفير منه. ولم تتمكن الحكومة من إخماد هذه الثورة إلا في أواخر الليل.

كان وميض هذه المدافع والبنادق النور الأول الذي أضاء عرش فيصل المزعزع، وتاجه المتقلقل والإحتجاج الدموي الذي احتج به الشعب على أخلاقه وحنثه بقسم. ومع أن ثورة دمشق لم تأت بالنتيجة المطلوبة، فإنها كانت إنذاراً شديداً لفيصل أهم بكثير من إنذار غورو. ونظن أنها كانت الدافع الأكبر له على إصدار الأوامر بعد ذلك إلى الجيش السوري بالتوقف عن التراجع. ولولا ثورة دمشق لما كانت معركة ميسلون التي أنقذت شرف سورية.

إن ادعاء غورو بأن سبب زحفه على دمشق تأخر ورود جواب فيصل ساعتين من الزمن سبب يدعو إلى الهزء والسخرية، ولا يجوز على أحد حتى ولا على صبيان المكاتب، لأن من البديهي أن قبول فيصل للشروط مانع بموجب تعهد غورو من زحف الجيش الفرنسي على عاصمة سورية. وإذا كان هذا الجواب قد تأخر ساعتين فهو لم يغير شيئاً على الإطلاق من مواقف الجيشين. فالجيش الفرنسي كان عليه أن يقف لا أن يتقدم. ولما كان مترتباً على جواب فيصل السلم لا الحرب، فلم يكن هنالك من معارك يترتب على الجيش الفرنسي

القيام بها حتى يقال إن خسارة ساعتين قد يؤثر في الحركات الحربية. لذلك كان تمحل هذا العذر دليلاً جديداً على سوء نية فرنسا وأغراضها العدائية.

وفضلا عما تقدم، فإن تاريخ وصول جواب فيصل يجب أن يكون الساعة السادسة من مساء اليوم العشرين من يوليو، لأنه دفع في تلك الساعة إلى ضابط الإرتباط الفرنسي الذي يمثل فرنسا نفسها. فإذا كان قد حصل عائق يعوق وصوله عن الوقت المحدد، فاللوم في ذلك غير عائد إلى الحكومة السورية.

أما حقيقة ما جرى بشأن الجواب المشار إليه، فإن الكولونل كوس ضابط الإرتباط الفرنسي في دمشق، بعد استلامه الجواب المذكور الساعة السادسة مساء، بعثه على جناح البرق إلى الجنرال غورو برقية جفرية لم يفهمها المأمور طبعاً، ولم يستلمه مأمور البرق في دمشق قبل الساعة الثامنة مساء. وقد تبين من التحقيق بعد ما تقدم أنه لم يكن حينئذ بين دمشق وبيروت إلا خط واحد يمكن استعماله، وهو الخط الذي يمر بالمعلقة. أما الخط الآخر فقد كان مقطوعاً. ولكن مأمور المعلقة لم يتح له أخذ البرقية المشار إليها من دمشق رغما من إلحاح هذا عليه بذلك إلا بعد إنتهاء موعد الإنذار، وذلك لأن ضابطين إفرنسيين أرغماه على إرسال رسائل برقية جفرية إلى حلب، ولم يأذنا له بالإشتغال بشيء آخر، وظلا فوق رأسه الليل كله وهما شاهران مسدسيهما، ومهددانه بالقتل إذا انصرف إلى رسائل برقية أخرى.

ومتى علمت أن الجواب المذكور الذي يقول فيه غورو قد تأخر عن ميعاده ساعتين يتضمن قبول فيصل لشروط الجنرال كلها، وفيه بيان صريح أن فيصلا سرح الجيش السوري وأوقف التجنيد وشرع في تسليم الخط الحديد الكائن بين رياق وحلب، أدركت أن تأخر ساعتين أو بضع ساعات ليس له أدنى تأثير على الإطلاق. ففرنسا كانت عاقدة العزم على فتح سورية بالسيف لتدعي ملكيتها، بعد ذلك، بحق الفتح. ولو لم يتأخر الجواب ساعتين، لاختلقت أعذاراً أخرى للزحف وادعت إدعاآت أخرى تبرر بها عملها هذا.

[35]

الزحف على دمشق

أصدر الجنرال غورو أمره إلى الجيش الفرنسي بالزحف على مجدل عنجر، وهي مضيق منيع جداً كان الجيش السوري مرابطاً فيه ويمكنه صد الجيش الهاجم عنه أو على الأقل إيقافه أياما معدودات. ولكن الجيش السوري، بناء على الأوامر الصادرة إليه من حكومته، انسحب منه. ولم تعرف الحكومة السورية حقيقة الحال إلا في صباح اليوم الحادي والعشرين. وللحال رغبت إلى الكولونيل كوس في الحضور إليها، والتوجه بأسرع ما يمكن لإيقاف الزحف، إذ لم يبق له من مسوغ على الإطلاق. وصحب الكولونل كوس مندوب من قبل فيصل، فتوجها تواً وأفادا القائد الفرنسي الحقيقة، ورغبا إليه في التوقف عن متابعة الزحف. فلم ير هذا بداً من مخابرة الجنرال غورو بالتلفون، فكان جوابه أنه تلقى الجواب بعد انتهاء مدة الإنذار بساعتين، وبعد أن أصدر الأوامر إلى الجيش الفرنسي بالتقدم فلا يسعه بعد ذلك كله استدعاء الجيش من المواقف الحربية التي احتلها. وبناء على ما تقدم، ظل الجيش الفرنسي زاحفاً إلى الأمام، والجيش السوري متراجعاً إلى أن بلغ هذا خان ميسلون.

لما درى فيصل بكل ذلك شعر حينئذ بالخطأ الفاضح الذي ارتكبه، سواء من الوجهة الحربية أو الوطنية، واستشاط غيظاً في زمن لم تجد فيه الإستشاطة نفعاً كبيراً، وبعث بأوامر إلى الجيش السوري للثبات في موقفه، فتوقف عن التراجع ووقف غرب خان ميسلون. فلما رأى القائد الفرنسي ذلك وقف هو أيضاً وشرع في تحصين موقعه والإستعداد للهجوم.

بيد أن فيصلا ظل جانحاً إلى السلم، لأنه الوسيلة الوحيدة التي يمكنه بها حفظ تاجه بعد أن وضع نفسه في هذا المأزق الحرج، وفرق جيشه عنه، ونفر منه قلوب مواطنيه باستسلامه إلى عدو الوطن، والتسليم بمطالبه التي ليست هي على الحقيقة سوى ضرب العبودية والمسكنة على سورية.

إن رواية تقهقر الجيش السوري أمام الجيش الفرنسي في تلك الأيام التاريخية التي انتهت باستعباد سورية، والخيانة التي قام بها غورو لا مثيل لها إلا بين الأمم البربرية، ويتعذر على الأوروبي أو الأميركي تصديق مثل هذه الأعمال الشائنة من ممثلي دولة متمدنة تباهي بتاريخها وتقاليدها، لأن تاريخ زحف غورو على دمشق ليس إلا صفحة من خيانة قلما أتت مثلها دولة أوروبية.

في مساء اليوم الذي أمر فيه فيصل الجيش السوري بالتوقف عن التراجع، ووقف فيه هذا الجيش تجاه الجيش الفرنسي وقفة المدافع، وهو اليوم الحادي والعشرون من يوليو، حاول فيصل مرة أخرى أن يتفاهم مع غورو. فبعث إليه بساطع بك الحصري وزير المعارف، وطلب من الكولونل تولا مرافقته. ولما بلغ قائد الجيش الفرنسي، أخبره المندوب أنه متوجه لمقابلة الجنرال غورو للوصول إلى اتفاق يرضي الفريقين دون إهراق دم، ورغب إليه في أن لا يقوم بإجراآت حربية إلى أن ترده أوامر من الجنرال بهذا الصدد. ولكن القائد حاول الإنتفاع من هذا الموقف، وطلب منه أن يكون له الحق في استعمال الخط الحديد الكائن بين رياق والتكية. فلم ير المندوب بداً من إجابة طلبه حتى لا يخسر شيئا من الوقت. وحينئذ سمح له القائد بالذهاب، فسار تواً حتى بلغ عاليه مركز أركان الحرب في صباح اليوم التالي أي الثاني والعشرين من الشهر.

حاول وزير المعارف أن يصرف الجنرال غورو عن الهجوم، ويعقد اتفاقاً بطريقة حبية ترضي الفريقين. ولكن غورو أصر على متابعة الزحف محتجاً بأنه قد أصدر الأوامر اللازمة بهذا الصدد. ولكنه بعد حديث طويل رضي بذلك مشترطاً على الحكومة الوطنية وضع شروط الوصاية بواسطة لجنة يرأسها الكولونل كوس ضابط الإرتباط في دمشق، وأن يكون رجال الأمن السوريون في المواضع التي فيها جنود فرنسية تحت إمرة الضباط الفرنسيين، وتأديب الثوار وهم الرجال الذين طلبوا تحرير استقلال وطنهم، وجمع السلاح من الأهالي إلى غير ذلك من الشروط التي يستحيل قبولها في بلاد تطمح إلى شيء من الإستقلال.

[36]

نموذج من تقاليد فرنسا الكريمة

كان شر مطالب غورو من الحكومة الوطنية السورية أن تعلن للشعب أنها استقدمت الجيش الفرنسي إلى دمشق إخماداً لثورة دمشق التي أتينا على بيانها، وحفظاً للأمن العام. وهو أراد بذلك أن يكون في يده سلاح ضد سورية، وحجة يبرزها أمام العالم المتمدن لتبرر ترهات فرنسا التي لاكتها الألسن، وهي أن السوريين أنفسهم يطلبون فرنسا، وأنها لم تقدم دمشق إلا بناء على طلب حكومتها نفسها.

إن هذا الشرط الخالي من الصدق، كما أنه الخالي من كل أثر للإنسانية والشهامة أنصع دليل على «تقاليد فرنسا الكريمة». فهي أرادت استعمال السيف والمدفع لا للإستيلاء فقط على البلاد بالقوة القاهرة، بل للإستيلاء أيضاً على ضمائر البشر، وإرغامهم بمدافعها ودباباتها وطياراتها على خيانة أنفسهم وقواهم العقلية، وارتكاب جريمة الإنتحار السياسي.

لا نظن أنه وجد دولة قط متمدنة كانت أم متوحشة ضربت مثل هذا الشوط على أمة أخرى. فهو أشبه بمن يصوب مسدساً إلى رأس رجل آخر، ويقول له إما أن تغير دينك أو أقتلك. ولكن غورو رغماً من تصويبه مدافعه إلى رأس سورية، لم يتمكن من تغيير دينها السياسي. فلم يجبه وزير معارفها الذي كان يخابره بهذا الصدد إلى طلبه، بل عاد تواً إلى دمشق بعد أن طلب هدنة أربع وعشرين ساعة.

لا أدل من هذا الشرط على الروح الظالمة التي دخلت بها فرنسا إلى سورية. فهي روح دولة أفلست في آدابها السياسية إفلاساً فاحشاً، لأنه لا توجد دولة قط تحترم نفسها تأتي مثل هذه المعرة التي لا مثيل لها في تاريخ السياسة. فإرغام أمة على التصريح بأنها هي التي استقدمت الجيش الذي فتح بلادها وسلبها حريتها، وأتى فيها سائر ضروب المنكرات لا تقدم عليه دولة لها ذرة من الضمير الحي والشهامة.

بيد أن غورو لم يهمه شيء من كل ذلك قط، فهو كان يرمي إلى فتح سورية، والإستيلاء عليها بكل وسيلة ممكنة شريفة كانت أم غير شريفة. لذلك لم يشعر بأنه ارتكب في شرطه المتقدم بيانه جناية على نفسه وبلاده، لأن التاريخ سيسجل عليها هذه المعرّة في صدر ما أتته من المعايب والشرور في سورية.

لا يسع المفكر، إلا أن يقف مندهشاً أمام هذا العمل البربري الذي تحاول به دولة قوية أن تضطر شعباً ضعيفاً إلى القول إنه هو الذي طلب الدولة المحتلة، وأن العبودية التي ضربت عليه ليست على الحقيقة إلا حرية وتملصاً من ثورة داخلية!

لو كان بعلزبوب نفسه محل غورو، لما كان في وسعه استنباط هذه الحيلة الجهنمية!

بيد أن فيصلا لم يجرؤ على إجابة غورو إلى هذا المطلب، وسائر المطالب التي تقدم بها ليس فقط لأن هذه الشروط مما لا يحتمله الطبع البشري، بل لأنه كان يخشى قيام الشعب عليه، والفتك به كما صرح بذلك في جوابه إلى غورو حيث قال له إنه لا يريد الحرب، ولكن الإذعان إلى هذه الشروط يفضي إلى ثورة مستطيرة. غير أن فيصلا عاد رغماً من كل ذلك إلى مناوراته الأولى السياسية لاستمالة القائد الفرنسي احتفاظاً بالتاج والصولجان. فزاد على ما تقدم، أنه يتعهد بشرفه بالقيام بجميع الشروط التي جاءت في إنذار غورو الأول إذا ارتدت الجنود الفرنسية إلى المواقف المعينة في الإنذار المشار إليه.

تعلم فيصل في باريس دروساً كثيرة، وغابت عنه دروس كثيرة في عدادها أن الفرنسيس احتفوا به وخابروه في شؤون سياسية شتى لأنهم كانوا يحسبونه مركز القوة في سورية، فحاولوا استعمال هذه القوة في سبيل أغراضهم. أما الآن وقد وضح لهم ضعفه ففي سبيل أي شيء يخابرونه؟ لذلك سقط فيصل دون أن تكون له عظمة سقوط الرجل العظيم. والوسائل التي تذرع بها فيصل للإحتفاظ بالعرش والصولجان هي هي التي قذفت به من عرش الدولة، وانتزعت من يديه صولجان الملك. وهو لو وقف تجاه فرنسا وقفة صادقة عوضاً عن ذلك الإنسحاب الشائن، لتمكن من محاربتها أسابيع أو على الأقل أياماً معدودات إلى أن تكون قد بلغت الحرب مسامع مجلسي فرنسا وإنكلترا.

[37]

عقم سياسة فرنسا

يتضح مما تقدم عقم سياسة فرنسا، فقد أعرضت عن الفرصة الذهبية التي سنحت لها لبسط سيادتها على سورية دون أن تطلق بندقية أو تسفك قطرة دم، نائلة كل الشروط التي طلبتها هي في إنذارها الأول لفيصل، منفذة انتدابها بطلب من حكومة سورية، وإن كان هذا الطلب قسرياً، حافظة فيصل فزاعة تحت سلطتها، مادة بواسطته نفوذها لا في سائر أرجاء سورية فقط، بل حتى العراق وشبه جزيرة العرب أيضاً، نائلة ولاء مسلمي الشرق بسياسة اللين والشهامة، واضعة ملكاً مسلماً آخر في عربتها الذهبية، موطدة بواسطة صداقتها للسوريين دعائم دولتها في الجزائر وتونس وبلاد المغرب، متخذة فيصل لجاماً تكبح به عند اللزوم جشع إنكلترا، متذرعة بواسطته إلى إيجاد تفاهم بينها وبين الوطنيين الأتراك، قابضة على عنان مسلمي الهند تهز عواطفهم ضد إنكلترا كلما حاولت هذه الإعتداء على فرنسا، حالة محل بريطانيا في صداقتها للعالم الإسلامي، معيدة في الشرق نفوذها الذي تداعت أركانه إلى السقوط، ومشيدة فيه مملكة مرتبطة معها بروابط الإخلاص والولاء، تصادق أصدقاءها وتحارب أعداءها، مالكة زمام السوريين باللطف، وبانية في القلوب بشيء من الإستقلال عروشاً في قلوبهم جرياً على القول الشائع «وإن ملكت القلوب فابْغِ رضاها».

بيد أنها لم تفعل شيئا من ذلك، بل رفضت ما عرضه عليها فيصل بواسطة حكومة سورية، وجعلت نفسها مكرهة أمام السوريين خصوصاً والمسلمين والشرقيين عموماً، وفضلت أن تسفك الدماء جارية إلى الوصاية على جثث القتلى وصدور الجرحى، منتحلة لذلك عذراً صبيانياً وهو تأخر الجواب ساعتين عن ميعاده لأن ضابطين فرنسيين وقفا الليل كله فوق رأس موظف التلغراف في المعلقة شاهرين عليه مسدسيهما، وباعثين برسالة برقية جفرية إلى حلب، زارعة في قلوب الأهلين مقتها وكرهها إلى أبد الآبدين، داخلة بالسيف البلاد التي كان في وسعها أن تدخلها بالحب قائلة للسوريين «كان في وسعي أن أخرب بلادكم بمدافعي، ولكني

جئت لأبني لا لأخرب. وكان بإمكاني أن أستأصلكم، ولكن أتيت لأضمد جراحكم، لا لأستنزف دمكم. وكنت قادرة أن أستعبدكم، ولكن أتيت لأمنحكم الحرية لا لأكبلكم بالعبودية. أنتم أولادي وأنا أمكم الحنون. هذه يدي فاعطوني يدكم. وبدلاً من أن أبعدكم عني بالقوة، ها أني الآن أضمكم إلى صدري بالحب. ضعوا يا أبنائي يدكم في يدي. أتيت طبيباً فلا أكون جزاراً. أختار لكم حكومة وحكاماً كما تريدون وأنا بينكم مرشدة ومشيرة لا أسلب لكم حقاً ولا أخون لكم عهداً. لنقطع بيننا عهدا أبديا وصداقة سرمدية. وفي اليوم الذي دك أبنائي الباستيل، وكتبوا بسيوفهم على صفحات المجد سطوراً من نور ونار معلنين للعالم حريته، أعلن لكم في وطنكم حريتكم واستقلالكم!»

هذه فرنسا التي نقشت الطبيعة صورتها على قلوبنا، وهذه فرنسا التي رضعنا حبها مع لبن أمهاتنا، وهذه فرنسا التي نحن أصدقاؤها، والتي يقول الخائنون والمنافقون والمأجورون أننا أعداؤها وهم هم الأعداء الألداء الذين يمثلونها للعالم بأقبح صورة عرفها التاريخ، وينزلونها من المنزلة السامية التي كانت لها في قلوب البشر إلى حضيض الذل والإمتهان، متحولين عن حب الآلهة إلى عبادة الغولة، خائنين وطنهم ومعفرين وجوههم أمام الطاغية غورو ورجاله، آكلين خبز الذل وشاربين ماء الهوان، حاسبين أنه لما كانت فرنسا لم تغير اسمها حتى الساعة، وكان يجب عليها أن تغيره منذ زمن طويل، لا تزال هي نفس فرنسا التي اشتهرت سابقاً بحب الحرية وتوطيد دعائم الديمقراطية. وأنها إذا استعبدت بلادنا وسامتنا صنوف الذل والهوان، وخانت العهود التي قطعتها معنا، وكذبت التصريحات التي أعلنتها للعالم طراً، وتصرفت في بلادنا تصرف البرابرة، ومحت كل أثر من آثار استقلالنا السابق، وجب علينا أن نرحب بها ونقدس اسمها لأنه ذات الإسم الذي حملته يوم كانت مثال الحرية!

إن فرنسا آخذة في الإستيقاظ، لأن الحلم الجميل الذي كانت تحلمه في الشرق آخذ في التحول إلى كابوس مخيف!

[38]

مكره أخاك لا بطل

لم يجب غورو جواباً صريحاً على كتاب فيصل، ولكنه تابع الزحف على دمشق ورأى احتلال آخر نقط الدفاع عنها. فأفاد فيصلا أن احتلال خان ميسلون ضروري لجيشه لأنه في حاجة إلى الماء. فأدرك فيصل بعد خراب البصرة، أن الجنرال يريد القضاء على كل أمل بالإتفاق بواسطة الإحتلال التدريجي الذي جرى عليه غورو منذ بدء المخابرات. ورأى فيصل أن الكأس قد طفحت، ولا بد من الدفاع لأن فرنسا وضعته في مركز حرج، لم يبق له شيء من الخيار فيه.

لو كان لفيصل خيار في الأمر لأجاب غورو إلى طلبه، وأجاز له احتلال ميسلون، بل احتلال دمشق نفسها على شريطة أن يبقى ملكاً على السوريين، محتفظاً بتاجه وصولجانه لأنه منذ اليوم الذي وطأت فيه قدماه بيروت للمرة الأخيرة بعد عودته من باريس، وقال للجماهير المحتشدة للقائه بتلك النغمة الفارغة الخالية من كل ثقة وإخلاص «أبشركم بأنكم نلتم استقلالكم»! ثم عاد بعد ذلك إلى المناورات السياسية بإلقاء خطب حاول أن يجمع فيها بين الإستقلال التام المطلق الذي كان يتبجح به سابقاً، وطلب معونة فرنسا الذي كان يرفضه رفضاً باتاً. أدركنا تواً أن الرجل ساوم كليمنصو في باريس على سورية والسوريين مقابل العمامة الملكية، معتمداً على ما كان له من النفوذ والمكانة في القلوب.

بيد أن القوى الطبيعية التي حولت في العصور الجيولوجية الفحم إلى ألماس، حولت السوريين أثناء غياب فيصل في باريس من فحم معدني إلى حجارة كريمة، ومن رجال يقولون له «فوضناك تفويضاً مطلقا» و «بيوت الشعر والدم فداك» إلى رجال يناقشونه الحساب على كل كلمة تقال وكل عمل لا ينطبق على شروط الإستقلال، ويضطرونه بعد أن قال «أنا الحكومة» إلى القول «أنا خادم الأمة». ولما تغير فيصل في باريس عاصمة الفرنسيس، كذلك

تغير السوريون في دمشق عاصمة سورية، وصحت فيه آية القرآن الكريم «ومكروا ومكر الله بهم والله خير الماكرين»!

لما أفلت فيصل من الإستقلال، أفلت الشعب السوري من فيصل، وهو دليل كما تقدم لنا بيانه على أن الإستقلال رغبة أمة بحذافيرها، لا هوس رجل فرد كما ادعت حكومة فرنسا.

اضطر الدمشقيون فيصلا إلى الوقوف تجاه فرنسا الوقفة الوحيدة التي تليق بملك وحكومة بلاد تحترم نفسها. ولو وقف هذا الموقف منذ وصول إنذار غورو الأول، لكان في إمكانه إنقاذ البلاد والوقوف في وجه تيار أضعف من أن يجتاح البلاد في أيام معدودات. وعوضاً عن أن يستنجد بقبائل العرب ويدعو السوريين طراً إلى الجهاد في سبيل الحرية، ويخابر دروز حوران داعيا إياهم إلى الوقوف في جنب صفوف الأمة حتى يكونوا وإياها كالبناء المرصوص يشد بعضه بعضاً، اعتمد على الدروس السياسية التي تلقاها في مدرسة باريس والمناورات التي لم يحسن استعمالها على الإطلاق، لأنها لم تكن إلا عبارة عن سلسلة فشل واستسلام إلى الدولة التي قلبت له ظهر المجن، وأعملت في جيشه النار والفولاذ.

في اليوم الرابع والعشرين من مثل هذا الشهر من السنة الفائتة، شرع الجيش الفرنسي في مهاجمة الجيش السوري، وهو على الحقيقة لم يكن إلا بقية ذلك الجيش لأن فيصلا سرحه على ما تقدم الإلماع إليه. ولما تراجعت هذه البقية أمام جيش غورو، لم تهدم أثناء ذلك جسراً، ولم تقطع طريق مواصلات لأن فيصلا كان على ثقة من أنه بعد تسليمه بكل مطالب غورو التي عددها في إنذاره الأول لا تنشب حرب بين الجيشين، خصوصاً بعد إجابته إلى بسط الوصاية أو الشروع في تنفيذ الشروط الأخرى، وهو ما جعل البلاد والحكومة والجيش في أسوأ موقف، لأن كل شيء أصبح الآن متوقفاً على معركة واحدة لم يكن من رجاء للسوريين في ربحها. ولما توجه الشهيد يوسف العظمة وزير الحربية إلى ميدان النزال علم أنه ذاهب إلى الموت المحتم، لذلك كتب وصيته طالباً من الحكومة أن تهتم بابنته الوحيدة. وعلى الجملة فإن موقف سورية السيء الطالع كان من أعمال فيصل.

[39]

أتراك آسيا وأتراك أوروبا

في الرابع والعشرين من يوليو أعلن أتراك آسيا بالدستور حرية السوريين، أما «أتراك أوروبا» فإنهم نزعوا في هذا اليوم كل أثر لحرية سورية، وأتوا من الأعمال البربرية ما يندى له الجبين لأنهم رغم إجابة فيصل لرغائبهم، وتسليمه بكل الشروط التي اشترطها غورو في إنذاره الأول، لم يشاؤوا دخول البلاد إلا على جثث القتلى وصدور الجرحى.

في هذا اليوم أخذ الجيش الفرنسي في الهجوم على ما تقدم الإلماع إليه. ولم يكتف غورو باستعمال أحدث الأسلحة العصرية في هذه المعركة كالدبابات والطيارات، ولكنه استعمل أيضا الأسلحة المحرمة في عرف العالم المتمدن، وهي الغازات السامة التي لم يكن من مبرر لاستعمالها على الإطلاق. وكل يعلم أن الحلفاء استعملوا أثناء حرب الأمم السموم المذكورة، ولكنهم استعملوها مدافعاً عن أنفسهم لأن ألمانيا استعملتها أولاً. أما الجيش السوري فلم يكن عنده غازات سامة، لذلك كان استعمال فرنسا لها في هذه المعركة أشبه باستعمال البرابرة للسموم في تسميم أسهمهم، حتى إذا أصابت العدو صرعته مهما كان جرحه خفيفا.

الجيش السوري الذي دافع عن نفسه في هذا الهجوم لم يكن إلا بقية الجيش الذي صرفه فيصل، لأن فيصلا لم يكتف بعدم قبول متطوعين للجندية، بل سرح قسماً كبيراً من الجيش الذي كان تحت السلاح عملاً بأوامر غورو، وبما قضاه الإتفاق الذي كان قد عقده سابقاً في باريس مع كليمنصو.

ولا نتكلف في هذا الموقف لإيراد براهين تدل على ممالأة فيصل للفرنسيس إلا إثبات ما وردنا بهذا الصدد من الأنباء الخاصة مما يؤيد الإنتقادات التي وجهناها سابقاً إلى فيصل، وهو أنه أتى فيصل أثناء معركة ميسلون نجدة من دروز حوران مؤلفة من خمس عشرة فرقة من الفرسان، وخمس فرق مشاة بقيادة آل أطرش، خلا الجيش الذي كان بانتظارهم في غوطة

دمشق. ولكن فيصلا ترك ساحة القتال قبل وصول هذه النجدة بأربع ساعات. وعند ذلك وافت هذا الجيش شرذمة من دروز دمشق، وبلغته هروب فيصل وانهزام الجيش السوري، فتشاور الدروز حينئذ في الأمر، فارتأى البعض الرجوع إلى حوران. ولكن كبار الزعماء رأوا الحضور إلى الشام ليعرضوا خدماتهم على غورو، لأن حوران لا يمكنها وحدها مقاومة فرنسا.

أثبت الجيش السوري بسالة فائقة وثباتاً عظيماً رغماً من قلة مدافعه وأسلحته وذخائره. وكان في صدر الأسباب التي أفضت إلى انهزامه، أن مدافعه كانت أقصر مدى من المدافع الفرنسية. ولقد سقط منه أثناء المعركة ستة آلاف قتيل.

في اليوم التالي احتل الفرنسيس دمشق، وطلبوا من فيصل أن يغادر البلاد، فاحتج على هذا الطلب دون جدوى، ثم سافر من سورية وتبعه فريق من الزعماء.

بعد مناورات سياسية زهاء خمس سنين، فشلت فرنسا فشلاً تاماً في الغرض الكبير الذي كانت تسعى إليه، وهو أن السوريين يطلبونها وصية عليهم. فكانت معركة ميسلون احتجاجاً على أكاذيبها أمام العالم المتمدن والتاريخ!

صرفت فرنسا خمس سنين في مشترى ضمائر السوريين وجرائد خونتهم، وملأت العالم ضجيجاً بميل السوريين إليها، وحبهم لها، ورغبتهم في بسط حمايتها عليهم. فجاءت معركة ميسلون مكذبة لكل هذه الترهات، ومعلنة للعالم طراً أن فرنسا دخلت سورية بالسيف خائنة التصريحات التي أعلنتها على رؤوس الأشهاد، وحقوق الشعوب الضعيفة التي صرحت كذباً بأنها حاربت في سبيل تأييدها، خائنة الحق والعدل والحرية التي ادعت أنها خاضت حرب الأمم في سبيل الدفاع عنها، خائنة شهداءها هي الذين سقطوا في ساحات الوغى، زاعمين أنهم حاربوا في سبيل انتصار حقوق مقدسة. وعلى الجملة فإن السوريين بدلوا أتراك آسيا الذين ساووهم بأنفسهم من «أتراك أوروبا» الذين استعبدوهم!

[40]

في ميسلون

في ميسلون سمرت فرنسا سورية على خشبة الصليب كما سمر اليهود المسيح على صليبه في الجلجلة. وكما انقلب عار الصليب مجداً خالداً، كذلك سوف ينقلب عار الهزيمة نصراً باهراً!

في ميسلون تعارك عصران، الواحد منهما في حشرجة الموت، والآخر في فجر الوجود، وكل منهما سائر في طريقه، الأول إلى الهاوية والثاني إلى الحياة!

في ميسلون وضعت سورية حجر استقلالها كسائر الأمم الحية التي تقدمتها: نحتته من عظام الشهداء، واتخذت طينه من خثرات الدماء!

في ميسلون زرعت بذرة الحرية، فإذا زعم الجاهلون أنها ماتت، فذلك لأنها طمرت حتى تنمو.

في ميسلون تعلمت سورية أن تعتمد على نفسها، وأن لا تصدق بعد الآن وعود فرنسا الكاذبة، وأن الطريق الحقيقي المؤدي إلى الإستقلال الحقيقي، إنما هو طريق الدم والنار الذي سارت عليه كل أمة حية منذ فجر التاريخ حتى الآن!

في ميسلون وقف الشرق والغرب وجهاً لوجه، الأول منهما مسلّح بالحق والثاني بالقوة، فغلب الثاني الأول، ولكنه بعد غلبته سيغلب.

في ميسلون خانت فرنسا مبادىء العدل والحق التي سفك شهداء الثورة الفرنسية دمهم في سبيل تأييدها.

في ميسلون خانت فرنسا شهداءها الذين سقطوا في ميادين الوغى لتأييد الحرية. والدولة التي تخون شهداءها هي لا تكون أمينة لشهداء سواها.

في ميسلون ترحم السوريون على أتراك آسيا الذين منحوهم الإستقلال في الرابع والعشرين من تموز بعد أن شاهدوا خيانة «أتراك أوروبا» الذين سلبوهم تلك الحرية في هذا اليوم، وضربوا عليهم عبودية لم تر العصور المظلمة شراً منها.

في ميسلون أعلنت فرنسا أن رؤساء حكوماتها الذين وعدوا السوريين والشعوب الضعيفة بالإستقلال، لم يكونوا إلا أنبياء كذبة اتخذوا أقدس حقوق البشر ذريعة لنيل أغراضهم الخبيثة التي هي ليست إلا عاراً على عصر يتبجح فيه الحلفاء بالتمدن ونصرة الحق على القوة.

في ميسلون تعلم السوريون أن يكرهوا الفرنسيين، وسيدرسون هذه الأمثولة جيداً إلى أن يأتي اليوم الذي يتمكنون فيه من نيل حقوقهم الطبيعية بالقوة التي لا يفقه الغرب منطقاً إلاها.

في ميسلون نزعت فرنسا عن وجهها برقع الرياء، وبدلاً من أن يشاهد العالم تحته وجه إلاهة جميلة شاهد وجه أقبح غولة رسمها الخيال!

في ميسلون احتجت سوريا أمام العالم المتمدن والتاريخ على أكاذيب فرنسا أمام العالم المتمدن والتاريخ. بيد أن الدولة التي يسمي ممثلها السوريين عن بكرة أبيهم «أقلية أثيمة» ليست بالدولة التي يندى لها جبين أو يحمر لها وجه.

في ميسلون أعلنت فرنسا للعالم أن المعاهدات ليست إلا :قصاصات أوراق»، وأن البند الثاني والعشرين من معاهدة «فرسايل» أقل من «قصاصة ورقة»!

في ميسلون وقف مليون شبح من الرجال والنساء والأطفال الذي استشهدوا في سبيل حب فرنسا، ورأوا يد الدولة الغادرة التي ماتوا لأجلها تذبح أهلهم ومواطنيهم.

في ميسلون استيقظ الشرق على أصوات مدافع الخيانة، وشاهد غدر فرنسا التي اتخذته آلة للقضاء على ألمانيا حتى تتذرع بالنصر لاستعباده، وهو أضخم وأقبح خيانة رآها العالم!

في ميسلون أبصر الشرق أكاذيب الغرب بعينه، وسمع خيانته بأذنه، ولمس غدره بيده، وسجل كل ذلك في دفاتره لتصفية الحساب. والويل لفرنسا لما يأتي يوم الحساب!

في ميسلون دفنت فرنسا أمجادها، وحفرت في الشرق قبرها بيدها. وسيكون النصر الذي نالته فيها أعظم عار في تاريخها!

في ميسلون ودعت سوريا فرنسا من ...وإياها أمام مؤتمر الصلح إلى أن ... وإياها مرة أخرى أمام مؤتمر السيف...



أمين إرسلان والقضية السورية

[تجنس أمين إرسلان قنصل تركيا سابقاً في بونس أيرس بالجنسية الأرجنتينية وبعث على أثر ذلك بمقالة في هذا الصدد بعنوان «أرجنتيني آخر» نشرت في جريدة «لاراسون» في بونس أيرس وقامت جريدة «الاتحاد اللبناني» بترجمتها الى العربية ونشرها في عددها الصادر في الأول من تشرين الثاني سنة 1921.

أتى إرسلان في المقالة المذكورة على القضية السورية والموقف الذي وقفه تجاه وطنه أثناء السنين الثلاث الماضية، وصرّح بأن فرنسا خدعته واستعمرت سوريا استعماراً كان باعثاً على ترك جنسيته.

ويعترف إرسلان في مقالته بالتالي: «وعندما قهرت تركيا عام 1918 كما كنت تنبأت عنها فأول ما قمت بعمله هو أني وجهت مذكرة الى الرئيس ولسن مطالباً بها باستقلال سوريا التام. بلادي التي ولدت فيها تحت الانتداب الفرنسي. وقد سلمت هذه المذكرة بنفسي للمستر سيثمون سفير الولايات المتحدة الاميركية في بونس أيرس.

وبعد قتال عنيف ربحنا المعركة رغماً عن أن قسماً كبيراً من مواطني كان غير قابل بالانتداب، وهذا القسم هو ما اتهمني بأني خائن ومباع.

والآن وقد مرت على الانتداب الافرنسي ثلاث سنوات أريد أن أصرح علناً وبكل حرية بأن هذا الانتداب هو غير الذي طلبناه. إن الانتداب الحاضر هو في الحقيقة استعمار محض. وما كنا نحلم قبلاً قط بأن حظنا نحن السوريين يكون كحظ المراكشيين والتونسيين...!

ويضيف: «لما كنت قد عزمت على الإقامة نهائياً في هذه البلاد وعلى الانسحاب من معترك السياسة، فقد رجعت إلى الفكرة الأولى التي خطرت لي منذ ست سنوات وطلبت الجنسية الأرجنتينية.

قد سعدت هنا لضيافة حسنة وصداقة صريحة ولطف عام، والفيلسوف اليوناني يقول بحق: «حيثما يلاقي الرجل السعادة فهناك الوطن».]

[1]

اعتنق الأمير أمين إرسلان قنصل تركيا سابقاً في بونس أيرس وصاحب مجلة «لا نوطأ» فيها حالياً، وخصمنا في السياسة حتى أمس الجنسية الأرجنتينية، وبعث إلى جريدة «لا راسون» في العاصمة المشار إليها برسالة يراها المطالع في غير هذا الموضع أتى فيها على الأسباب التي دعته إلى تغيير جنسيته، فرأينا أن نقول كلمتنا فيه وفيها، خصوصاً لأن السنتين الأخيرتين أثناء إقامتنا في بونس أيرس كانتا نزاعاً دائماً، وخصومة سياسية مرّة بيننا وبينه، ولم يكن ليخطر لنا في الحلم أن الرجل الذي خدم فرنسا في المسألة السورية بجهد جهيد وبذل كل قواه لوضع وطنه تحت سيطرتها، وناصبنا العداوة لأننا قمنا في وجهه ووجه مطامع الحزب الاستعماري الفرنسي يعود عن غيّه ويعترف بأخطائه، ويحاول التكفير عن كل ذلك باعتناق جنسية أجنبية تخلصاً من السيطرة الفرنسية!

أنشأنا في بونس أيرس منذ نحو ست سنين مع فريق من الأصدقاء «الجامعة السورية» التي خدمنا وإياها حينئذٍ وطننا خدمة جليلة، فإننا أنشأنا حينئذٍ لجنة لإعانة منكوبي سوريا ولبنان، وجمعنا في هذا السبيل نحواً من عشرين ألف ريال أرجنتيني، وكنا خابرنا بهذا الصدد اللجنة الأميركية في نيويورك، فوعدتنا بأن تصرف من مالها ثلاثة ريالات إلى كل ريال نجمعه لهذا الغرض، وعليه فيكون ما أغثنا به وطننا نحواً من ثمانين ألف ريال، وهو مبلغ يربو على مائتي كونت!

نقول هذا لا لنفتخر بخدمة الوطن الذي يجب علينا بعد خدمته أن نقول «إننا عبيد يطالبون»، بل لننير أذهان بعض الذين أحدثوا ضجة حول المقالات التي دبجناها بخصوص الأموال التي أرسلت إلى بعض المعاهد الدينية زاعمين أنها لم تخدم وطناً بشيء من هذا القبيل، ونرجو أن يكونوا هم قد قاموا بشيء من هذا الواجب، وجمعوا بمساعيهم ولو جزءاً يسيراً من هذا المبلغ، ونحن لم نوجب على المعاهد الدينية إلا ما أوجبناه على نفسنا أولاً، فقد قدمنا حساباً مفصلاً عن الأموال المجموعة، ونشرنا الوصولات التي وردتنا من لجنة نيويورك التي بعثنا المال عن يدها. وقد أرسل للتوزيع على أصحاب الأديان والطوائف المختلفة دون أدنى

تمييز بينهم، ولولا الموضوع الذين نحن بصدده، لما ألمعنا هنا إلى هذه الخدمة على الإطلاق.

لما وصل الوفد الباريسي إلى بونس أيرس طلب من الأمير أمين إرسلان أن يتوسط له عندنا بتحويل «الجامعة السورية» إلى جمعية تطلب حماية فرنسا، فلما خابرنا إرسلان بهذا الصدد أجبناه أن ذلك غير ممكن، ولكن هذا لم يقف في طريق الصداقة بيننا وبينه ولا بيننا والوفد.

ظلت الحال على هذا المنوال إلى أن جاء المسيو غوسن سفيراً لفرنسا في بونس أيرس بعد عودة المسيو جلميه، فكنا أول سوري قابله وذلك بناءً على كتاب وردنا من أحد الأصدقاء في باريس، جاء فيه أن وزارة خارجية فرنسا قد سلّمت اسمنا إلى المسيو غوسن قبل سفره، وطلبت منه مخابرتنا في بعض الشؤون السياسية المختصة بوطننا، وذلك ضمن التعليمات التي دفعتها إليه.

قال لنا السفير أثناء زيارتنا الأولى له إن اسمنا مدوّن في أوراق حقيبته، وأنه يرغب في أن نقابله مرة ثانية في الأسبوع التالي، وسألنا عن الأمير أمين إرسلان وما نعرفه عنه، فذكرناه بالخير ورغب السفير إلينا أن نخبر إرسلان أنه راغب في مقابلته ففعلنا. أما ما جرى بعد ذلك فإننا نأخذ مما جاء بهذا الصدد في المجلة ما يأتي:

«أخذ سعادته أثناء زيارتنا الثانية له عدم إنحائنا باللائمة على الأتراك في مجلتنا، ولما ذكرنا له أننا أنحينا باللائمة عليهم وكنا دائماً إلى جانب الحلفاء، أجاب «إني على يقين من أنك لم تحمل على الأتراك»، فكان ذلك الشعاع الأول الذي أضاء الحلقة الأولى من سلسلة الوشايات السياسية التي قام بها أحد رجال السوء.

«أخذ السفير على السوريين عموماً عدم قيامهم بنهضة قومية فعّالة، وقال لنا إن هذا التقاعس أحدث أثراً سيئاً في باريس وحكومة فرنسا، ثم رغب إلينا في إنشاء جمعية تدعو إلى التطوُّع لأن الحرب كانت لا تزال حامية الوطيس، وألمانيا قائمة بذلك الهجوم التاريخي الكبير الذي كان أشبه بصاعقة منقضة من عنان، وهو آخر ورقة في يدها، ولكن العالم كان يجهل حينئذٍ أن ذلك الهجوم الباهر لم يكن إلا تألق المصباح قبل انطفائه، فأوضحنا للسفير أن القيام بحملة على الأتراك في «المجلة» لا يكون من ورائه إلا الإضرار بأهلنا ومواطنينا إضراراً لا تترتب عليه فائدة قط للوطن، وأن انصرافنا إلى الطعن في الأتراك عمل عقيم فضلاً عما

يترتب عليه من العواقب الوخيمة على سوريا، وإننا لسنا من المحبذين لحملات الغير في هذا الصدد. فأجابنا أن الأمير أمين إرسلان حمل على الأتراك وضحى بمركزه في هذا السبيل، واكتفينا نستنكر بالقول «لإرسلان رأيه، ولنا رأينا».

أبنّا للمسيو غوسن إلى أن ما تبادر إلى ذهن الحكومة الفرنسية من عدم قيام السوريين بنهضة قومية وما علق في ذهنها من عدم تلبية السوريين نداء الواجب، فإن حملة الدردنيل كانت أعظم ضربة لسوريا. وأنه لو وجّه الحلفاء منذ بدء الحرب جيشاً إلى وطننا، لأقبل عليه السوريون واللبنانيون من كل فج سحيق، والتف حوله جيش سوري يضرب به الحلفاء الأتراك ويجلونهم عن سوريا كلها، خصوصاً لأنه لم تكن حينئذٍ في لبنان وسوريا الخنادق التي أنشأها الأتراك بعد ذلك. أما الآن والسوريون جياع عراة، عزّل، والجيوش التركية مالئة البلاد، فلا تكون الثورة إلا عبارة عن انتحار. وإذا كان السوريون لا يطلبون من فرنسا والحلفاء وهم منهمكون في الدفاع عن أنفسهم أن ينقذوهم من الحال التعسة التي هم عليها، فإنهم ينتظرون على الأقل عطفاً عليهم وتقديراً للضحايا الصامتة الهائلة التي يقومون بها حق قدرها، فالسوريون أشقى أ مة على وجه البسيطة لأن الأتراك يرهقونهم ظلماً، ويميتونهم جوعاً من أجل ميلهم إلى الحلفاء. والحلفاء ينظرون إليهم شزراً ويسمونهم أتراكاً، ويحسبونهم أعداء وهي حال لا تطاق.

«أما فيما يختص بالتطوُّع، فأوضحنا له أن للمهاجرين علاقات تجارية لا يسهل عليهم تصفيتها ولا ينتظر من جالية أن تكون قادرة على إنقاذ وطن بالسيف، وإن الجالية السورية عبارة عن قوّة غير منتظمة، فلا يمكن الإنباء بنتيجة التطوّع لأن العالم يقيس ويزن القوى المنتظمة، أما غير المنتظمة فلا يمكنه قياسها ولا وزنها.

«بعد حديث طال نحو ساعتين، وعدنا سعادته بأن يبذل جهده لإزالة الأثر السيء الذي علق في ذهن الحكومة الفرنسية فيما يختص بسوريا، وأن «يبيض وجه السوريين» أمام حكومته. لذلك توسمنا بالمسيو غوسن خيراً لوطننا وكتبنا إلى جمعياتنا ورفقائنا في الجهاد «نرجو أن يكون المسيو غوسن سفير فرنسا الجديد في بونس أيرس من أكبر نصرائنا والعاملين معنا لما فيه خير وطننا والتوفيق بين استقلالنا ومصلحة فرنسا، وأرسلنا كتاباً إلى باريس أثنينا فيه على المسيو غوسن.

كان، إرسلان أثناء السنين الخمس التي أقمناها في بونس أيرس منقطعاً عن الجالية السورية كل الانقطاع يتحاشاها كأنها مصابة بالطاعون، ويقول فيها كل كلمة شريرة. فلما وصل غوسن بونس أيرس وأدرك إرسلان أنه سيكون للقضية السورية شأن خطير، أخذ يبذل جهده ليبرهن للسفير أنه رجل الجالية وصاحب الأمر والنهي فيها تذرعاً لمنافع شخصية».

بلغ الغرور من إرسلان أن جاء غلى السفارة الفرنسية ذات يوم وادعى أنه يمثل الجوالي السورية في أميركا الجنوبية وأنه زعيم الدروز، وتبجح ما جاء وصرح أنه يطلب باسم سوريي أميركا الجنوبية حماية فرنسا، ومع أن السوريين كانوا حينئذٍ يتغنون بمدحها، ويريدون الخير عن يدها، ساءهم هذا الادعاء الفارغ وعزم الجمهور والصحافيون في بونس أيرس على رفع احتجاج على إعطاء إرسلان تمثيل السوريين.

ذكر أمين ارسلان أسباب طلبه الجنسية الارجنتينية قائلاً «لما كنت عزمت على الاقامة نهائياً في هذه البلاد وعلى الانسحاب من معترك السياسة فقد رجعت الى الفكرة الاولى التي خطرت لي منذ ست سنوات وطلبت الجنسية الارجنتينية. قد سعدت هنا بضيافة حسنة وصداقة صريحة ولطف عام، والفيلسوف اليوناني يقول بحق: «حيثما يلاقي الرجل السعادة فهناك الوطن».

[2]

أما فيما يختص بما رسخ في ذهن سفير فرنسا والجالية الفرنسية في بونس أيرس وسواهما من أن امين إرسلان ضحى بمركزه واستقال من القنصلية في سبيل آرائه، فوهم باطل ولم يكن تخليه عن القنصلية العثمانية إلا على قول العرب «مكره أخاك لا بطل»، وحكايته أشبه بالأقاصيص الروائية منها بالحقائق الفعلية وهذا ما أوردناه بشأنها في حينه.

«كان إرسلان ينشر من حين إلى آخر مقالات في بعض الجرائد الأرجنتينية الوطنية أخصها جريدة «لا ناسيون» وهو لم يزل قنصلاً لتركيا، وكان بعض هذه المقالات ضد الدولة التي كان حينئذٍ ممثلاً لها ويتقاضى راتباً من خزينتها، وهي خيانة فظيعة لا نعهد لها مثيلاً في تاريخ القناصل، ولو استقال إرسلان من مركزه ليحمل على تركيا وينشر هذه المقالات لكان على الحقيقة بطلاً، ولكان أتى عملاً يستحق إعجاب الخصوم والأصدقاء على السواء. بيد أنه لم يفعل شيئاً من ذلك، بل تحصن في قنصلية دولته وشرع يطلق عليها النار من الوراء، ولا ندري ما كان حينئذٍ مبلغ احترام مدير تلك الجريدة لرجل يخون دولته بمثل هذه الطريقة الفظيعة.

«في تلك الأثناء خطر لجريدة أخرى شهيرة في بونس أيرس وهي جريدة «لا راسون» أن تستوضح إرسلان بعض الشؤون الحربية والعمرانية المختصة بالدولة العثمانية بعيد خوض هذه الدولة غمار الحرب الأوروبية، فبعثت إليه بأسئلة عديدة مكتوبة وسألته الإجابة عليها ففعل. وبعد أن أتمّ ذلك طلب من أمين أسرار القنصلية أن ينقلها بالآ لة الكاتبة ويمضيها وهو يعني بذلك أن يضع عليها إمضاء «دبلوماتيكو»، وهو الاسم الذي كان يوقع مقالاته به وأراد إثباته في جريدة «لا راسون» بدلاً من اسمه الحقيقي، فتبادر إلى ذهن أمين الأسرار أن الإمضاء يعني وضع إمضاء الأمير ففعل، ووقعها بالآلة الكاتبة بإمضاء المير أمين إرسلان».

«في اليوم التالي ظهر في الجريدة المشار إليها حديث مع الأمير أمين إرسلان بخصوص شؤون عثمانية، وهي الشؤون التي كانت موضوع الأسئلة المشار إليها مع أجوبتها، فوقع هذا الحديث على الأمير بالصورة العلنية التي ذكرتها «لاراسون» وقع الصواعق، لأن الحديث عوضاً عن أن يكون مع دبلوماتيكو الأقنوم الثاني للأمير، كان مع إرسلان الأقنوم الأول.

«من المضحك بعد كل ما تقدم أن إرسلان لم يصب كبد الحقيقة في جواب من الأجوبة المذكورة قط، بل كانت كلها مغلوطاً فيها، والتكهن الذي تكهنه في بعضها ظهر في أثناء الحرب بعيداً عن الصواب بعد البطولة عن الأمير.

«كان المنتظر بعد ظهور حقيقة البطل «دبلوماتيكو» أن يستقيل البطل إرسلان، ولكن ما ينتظر من بطل عادي لا ينتظر من بطل غير عادي، فبدلاً من أن يستقيل إرسلان من خدمة الدولة التي خانها، تحصّن في القنصلية أكثر من ذي قبل وأنشأ فيها استحكامات أشبه باستحكامات الألمان بعد معركة المارن، وأقام في خندق من خنادقها منتظراً ما يأتي به الغد.

«الغد أتى بما كان ينتظره كل رجل سليم العقل، وهو أمر من وزارة الخارجية في الأستانة بعزل الأمير، ولكن الأمير أخفى الأمر في أحد خنادق القنصلية، وعاد إلى خندقه منتظراً ما يأتي به الغد التالي.

«الغد التالي أتى المسيو بوبريك قنصل ألمانيا العام في العاصمة مسلحاً بأمر من وزارة خارجية تركيا وطالباً من الأمير أمين إرسلان تسليم أوراق القنصلية للقنصلية والأشياء المختصة بها.

«بيد أن الأمير لم ينشئ الاستحكامات في القنصلية عبثاً بل أعدّها لمثل هذا اليوم العصيب، فابتدأ حينئذ ذلك الحصار التاريخي الذي انتهى أخيراً بتسليم إرسلان بعد أن رفع المسيو بوبريك الأمر إلى وزارة خارجية الأرجنتين.

وأغرب من كل ما تقدم أن إرسلان عاد بعد انكسار المانيا يطالب المسيو بوبريك بأوراق القنصلية العثمانية على ما جاء في كتاب مفتوح وجّهه إليه في مجلته «لا نوطا».

«انتهت الحرب الأوروبية لاسترداد حرية العالم، أما حرب إرسلان لاسترداد القنصلية العثمانية، فلم تنتهِ حتى الساعة، ولعله ينتظر الحكم الذي يصدره مؤتمر الصلح بشأن تركيا ليعيد الكرّة على بوبريك السيء الطالع!».

هذه حكاية تضحية إرسلان بالقنصلية في سبيل المبدأ وبتركيا في سبيل الحلفاء، وهذه التضحية الوهمية كلفت الجالية الفرنسية نفقات فاحشة في سبيل التعويض على القنصل، فكانت نكبة الجالية المذكورة بإرسلان أشد من نكبتها بألمانيا.

الخطأ الكبير الذي ارتكبته سفارة فرنسا في بونس أيرس أنها آثرت إرسلان على الجالية

السورية برمّتها، وحاولت إكراه الجالية على قبوله وسيطاً بينها والسفارة، مع أن الخطوة الأولى التي خطاها السفير بهذا الصدد كان يجب أن تكون كافية لإقناعه بأن ذلك غير معقول ولا يجوز أن يكون، فبعد استياء الجالية ورصفائنا الصحافيين من ادعاء إرسلان تمثيل الجوالي السورية في أميركا الجنوبية، وطلبه باسمها وبصفته نائباً عنها وزعيماً للدروز حماية فرنسا، جاء استياء الجمعية الوحيدة اللبنانية في بونس أيرس وتلاه استياء الجمعية الأخرى التي تألفت لغرض طلب حماية فرنسا على ما بيناه في حينه فأخذ منه هنا ما يلي:

«حدث بعد ذلك أن جميعة الاتحاد اللبناني في بونس أيرس عزمت عند إنقاذ الحلفاء وطننا على إقامة حفلة في أحد مسارح العاصمة احتفالاً بهذا الانتصار وإظهاراً لما فينا من روح الشكر والولاء للحلفاء عموماً، وفرنسا خصوصاً. فلما دعت إليها سعادة المسيو غوسن، أشار عليها بدعوتنا ودعوة الأمير إرسلان لإلقاء خطب في الحفلة المذكورة، فتفضلت الجمعية بإظهار ميلها وسرورها بدعوتنا ولكنها أبت دعوة إرسلان، فكان ذلك داعياً إلى استياء السفير فلم يحضر الحفلة وترتب على هذا برودة بين الجمعية والسفارة انتهت أخيراً بانقطاع العلاقات بين الفريقين بالمرّة، بل إن جمعية «التحالف اللبناني» التي أنشئت بعد الانشقاق الذي حصل بين أعضاء جمعية الاتحاد، والتي طلبت حماية فرنسا للبنان، والتي عليها تعتمد السفارة في الشؤون اللبنانية لا تريد أن تكون لها أقل علاقة بإرسلان، لذلك لما بعث هذا إليها بمائتي نسخة من مجلة فرنسا التي أنشئت حديثاً في العاصمة باللغة الإسبانية مترجمة عن مقالات من مجلات فرنسية وقصتها لا لسبب سوى أن إرسلان مديرها كما صرّحت بذلك جلياً لجمعية الاتحاد الفرنسي التي تصدر المجلة المذكورة، ولو أيدت السفارة إرسلان وأظهرت استياءها من الجمعية لخسرت جمعية «التحالف اللبناني» كما خسرت جمعية «الاتحاد اللبناني».

«إرسلان أسوأ واسطة بين السفارة والجالية، وإن أسباب ذلك تعود إلى الأطوار السياسية الغريبة التي اجتازها الأمير قبل قدومه إلى بونس أيرس، وبعد هذا القدوم السعيد فقد كان في بدء أمره ناقماً من سياسة السلطان عبد الحميد، فأقام ردحاً من الزمن في باريس منخرطاً مع فريق من أعضاء تركيا الفتاة يكتب من حين إلى آخر في جريدة عربية منتقداً الحكومة العثمانية، وظل كذلك إلى أن عينته الحكومة التي كان ينتقدها قنصلاً لها في البلجيك، وعند ذلك زالت مساوئ الحكومة التركية كلها، وأصبح فسادها صلاحاً واستبدادها حرية وظلمها عدلاً

وسلطانها الأحمر أشد بياضاً من الثلج، ثم لما أعلن الدستور وخلع بعد ذلك عبد الحميد، عاد فانحاز إلى حزب الاتحاد والترقي مرة أخرى، ومن مضحكات دعاويه أن كانت له إصبع في خلع مولاه السلطان كأنّ خياناته السابقة واللاحقة غير كافية، فأراد أن يضيف إليها خيانة وهمية.

«بيد أن أعظم خياناته، خيانته لبنان وطنه الأصلي الذي رأى فيه نور الحياة، فكانت باكورة أعماله بعد وصوله إلى بونس أيرس محاولته نزع استقلال لبنان الإدارية وحسبانه ولاية عثمانية بحتة، وهو ما لم تقدم عليه الحكومة التركية نفسها، فإنها احترمت استقلاله رغماً من كل الفظائع التي أنزلتها بأهله أثناء هذه الحرب الهائلة، فلم تجد لبنانياً واحداً ولم تطلق على لبنان ضريبة الأعشار وغيرها من الضرائب التي كانت تجبيها من الولايات السورية. أما إرسلان فأبى الاعتراف بامتيازات لبنان التي نالها بعد سفك دماء غزيرة، فلم يذكر في التذاكر التي أصدرها إلى اللبنانيين أن أصحابها عثمانيون لبنانيون وذلك تزلفاً لسادته الأتراك، وحاول تضحية لبنان على مذبح الأستانة، فكان ذلك باعثاً على حنق الجالية حتى أفرادها السوريين، لأن لبنان كان على الدوام ملجأ المستبدّ بهم ومعقلاً للسوريين بلا فارق بينهم، حيث كانوا يقيمون على الرحب والسعة والضيافة التي اشتهر بها اللبنانيون، ولم يذعن إرسلان للحق حتى جاءه أمر من الأستانة وذلك من الغرابة بمكان، لأن اللبناني أراد أن يكون تركياً أكثر من الأتراك أنفسهم».

«جاءت الغواصة الأبدية القرار للدولة الأبدية ضغثاً على إبالة، وحكايتها شهيرة حتى أنه عندما يذكر لفظ الغواصة دون تعريف آخر تبادر حالاً إلى ذهن المطالع أو السامع «غواصة إرسلان»، وهي الغواصة الوهمية التي اقترح على الجالية تقديمها للدولة العثمانية، وجمع في سبيلها آلافاً من الريالات تبلغ كميتها مع فائدتها حتى الآن نحواً من خمسة عشر ألف ريال، ولكن الأمير بعد أن جمع المال تحصّن في القنصلية جرياً على عادته في كل ملمة، وأخذ ينتحل الأعذار الفارغة إلى أن توهمت الجالية أن الغواصة اصطدمت بلغم، والحقيقة أن الأمير اكتشف سراً علمياً لا يزال حتى الساعة طي الخفاء، وهو تحويل الغواصة إلى طيارة، ومن سوء حظ ألمانيا أنه لم يكشف لها هذا السر العظيم إذ لو وقفت عليه، وأمكنها تحويل غواصاتها عند الاقتضاء إلى طيارات لربحت الحرب بلا مشاحة، وغيرت تاريخ العالم!».

[3]

لم ينقضِ على وصول المسيو غوسن سفير فرنسا الجديد إلى بونس أيرس زمن طويل حتى ابتدأت الخصومة السياسية بيننا وإرسلان، وهي خصومة كانت فاتحتها ذهاب إرسلان إلى السفارة الفرنسية وتصريحه لها أنه قادم إليها بصفته نائباً عن الجوالى السورية في أميركا الجنوبية وزعيماً للدروز ليطلب من فرنسا أن تبسط حمايتها على سوريا.

ولما رفضت جمعية «الاتحاد اللبناني» دعوة الأمير أمين إرسلان إلى الخطابة في حفلتها، وكان حضرته باذلاً جهده ليبرهن للسفير أنه رجل الجالية العظيم الذي لا غنى عنه في مواقفها العامّة، حاول استدراجنا لاستعمال صداقتنا مع الجمعية وسيلة لتنفيذ مآربه الخصوصية فأرسل إلينا اثنين من أصدقائه وأصدقائنا أحدهما رئيس جمعية «التحالف اللبناني» حالياً، وسألانا: لماذا لا ندعو الأمير أمين للخطابة معنا، فأجبناهما أن الحفلة لا تخصنا ونحن لسنا إلا مدعوّين إليها، ونشكر حسن ظن جمعية الاتحاد بنا. فسألانا إذ ذاك لماذا لا نطلب من الجمعية أن تدعو الأمير إلى الخطابة؟ فأجبنا إنما نحن ضيف في الحفلة، ولا يحق لنا أن نسأل الجمعية دعوة غيرنا إلى حفلتها. فسألانا بعد ذلك لماذا لا تقيم الجامعة السورية حفلة تدعو إليها الأمير أمين للخطابة وهو فضلاً عن ذلك رجل عظيم يعرفنا بالقناصل والسفراء. فأوضحنا لهما إذ ذاك رأينا بصراحة وقلنا متى أرادت الجامعة السورية إحياء حفلة فعندها خطباء يقومون بالواجب ونحن لسنا إلا رئيساً للجمعية، فدعوة إرسلان من اختصاص الجامعة لا اختصاصنا. أما فيما يتعلق بالقناصل والسفراء فإن لنا معرفة كافية بهم ثم صرحنا لهم أن ادعاء إرسلان النيابة عن الجوالي السورية في أميركا الجنوبية وطلبه باسمها حماية فرنسا أثار سخط الجالية عليه، وأظهرنا انذهالنا من رغبته في الظهور الآن أمام الجالية والانخراط في جمعياتها واجتماعاتها بعد أن كان يبتعد عنها كل البعد، فهو يريد أن يظهر للسفير أن الجالية تأتمر بأمره وتنتهي بنواهيه ولو كان راغباً في خدمة الوطن خدمة مخلصة صادقة لساعدناه على الظهور، والجالية على استعداد لأن تغفر له سيئاته الماضية. أما وهو يريد الآن أن يضع وطننا عند موطئ قدمي فرنسا ويخونه في سبيل مطامحه الخاصة، فلا نسمح بأن يكون ظهرنا

سلّماً لهذه الخيانة. وإذا كان إرسلان يزعم أني أحب الظهور فأنتما تعلمان بعدي عن ذلك. ثم التفتنا إلى أحدهما وهو التاجر أنطون أفندي عريضه رئيس جمعية «التحالف اللبناني»، وقلنا له «ألا تذكر يوم دعونا الجالية إلى نزل «اسفنكس» لتأليف لجنة لإعانة منكوبي لبنان وسوريا وكانت القاعة الفسيحة مكتظة بالحاضرين حتى أن كثيرين منهم كانوا وقوفاً، فطلبت إليهم أن يختاروا لهم رئيساً فصاحوا كلهم بالصوت الحي «الدكتور سعاده ـ الدكتور سعاده». ولكني أبيت ذلك كل الإباء وقلت لهم إني اقترحت على «الجامعة السورية» بصفتي رئيساً لها أن لا يقبل أحد منا وظيفة قط حتى لا يقال إننا فعلنا ذلك رغبة في الوظائف وحب الظهور، ثم اقترحت على الحضور في تلك الحفلة أن تكون أنت رئيساً، ثم توجهت إليك بنفسي واقتلعتك من كرسيك بالقوة الجبرية وأجلستك في كرسي الرئاسة؟ فهل هذا العمل عمل رجل يجري وراء الظهور والزعامة؟ قل لأمين إرسلان إني لا أمالئه على خيانة الوطن وانتحال النيابة الكاذبة عن الجوالي السورية في أميركا الجنوبية».

أتينا على ما تقدم لأنه رسخ في ذهن البعض أن سبب خصومتنا لفرنسا كونها آثرت إرسلان علينا، ونحن اغتفرنا لإرسلان سيّئاته السابقة، آملين أن يكون خادماً أميناً للوطن متى جاء وقت العمل لخدمته فكان له شرّ عدو.

نشر السفير تصريح إرسلان في جريدة «لا ناسيون» الشهيرة، فوقع عند الجالية أسوأ وقع للأسباب التي تقدم بيانها في المقالة السابقة، ولأن إرسلان لم يفوض إليه أحد قط التكلم باسمه، لذلك عزمنا أن نرد على مزاعمه الباطلة وادعاءاته الفارغة فأدمجنا احتجاجنا على هذا التصريح في الخطاب الإنكليزي الذي ألقيناه بعد ذلك بيومين أو ثلاثة في الحفلة التي أحيتها جميعة «الاتحاد اللبناني» احتفاءً بإنقاذ الحلفاء وطننا من الأتراك، وكان حاضراً هذه الحفلة قناصل الحلفاء وفريق من نخبة رجال الأرجنتين. ولقد جاهرنا في هذا الخطاب بطلب استقلالنا وأنه حق من حقوقنا الطبيعية لا يجوز لأحد منعنا منه. وإننا نرجو أن الحلفاء الذين صرحوا من على منابر حكوماتهم المرّة بعد المرّة أنهم لم يحاربوا إلا في سبيل الحق والعدل والحرية واستقلال الشعوب الصغيرة ينيلوننا هذا الحق الشرعي، وإذا كان هنالك أحد قد صرّح بطلب حماية دولة ما فهذا التصريح ليس من مطالبنا ولا هو من أمانينا، ولم يفوض إليه أحد قط التكلم باسمه، وهو لم يفعل ذلك إلا سعياً وراء غايات ومآرب شخصية، وكان رئيس «الاتحاد اللبناني» حينئذٍ جالساً على دكة

الخطابة بجانب قنصل بريطانيا العام، فكان كلما ألقينا بضع جمل من الخطاب يسأله عن وقعه عنده فيجيبه «جميل جداً»، وكان للخطاب المذكور صدى استحسان عام.

في صباح اليوم التالي، ظهر الخطاب المذكور في جريدتي بونس أيرس الإنكليزيتين الكبيرتين، وهما جريدة «استاندرد» وجريدة «بونس أيرس هيرالد» وعلقتا عليه تعليقاً جميلاً، فلما اطلع عليه المسيو غوسن سفير فرنسا رغب إلينا في مقابلته فتوجهنا إليه ولما استقر بنا المقام قال:

«بلغني أن الدكتور سعاده ساعٍ في إرسال احتجاج إلى السفارة على تصريح الأمير أمين إرسلان الذي نشرته في جريدة «لاناسيون» فهل ما بلغني صحيح؟»

فأجبناه «أنه صحيح كل الصحة لأن التصريح المذكور وقع عندنا وعند رصفائنا الصحافيين وقعاً سيّئاً جداً، والاحتجاج المذكور عندي وهو مكتوب بالآلة الكاتبة وعليه توقيعي وسيوقعه رصفائي الذين شاورتهم فيه قبل إعداده، ونحن لا نشعر نحو الحلفاء عموماً وفرنسا خصوصاً إلا شعور الشكر ومعرفة الجميل، ولكن هذا التصريح فضلاً عن أنه مخالف للحقيقة لا صفة تمثيلية له على الإطلاق».

فقال «أرجوك أن لا ترسل الاحتجاج المذكور فهو موجّه ضدي شخصياً».

فأجبناه «سأبذل جهدي أمام رصفائي لحملهم على العدول عنه، وأرجو أن يقع سؤالي عندهم موقع القبول، ولكني أرجو أن تعدل عن اعتبار إرسلان ممثلاً للجالية والحقيقة أنه أسوأ واسطة بين السفارة والجالية».

أجبنا المسيو غوسن إلى طلبه لأنه كان قد وعدنا بأن «يبيض وجه السوريين أمام حكومته» ويزيل الأثر السيئ الذي علق في ذهنها ويظهرهم أمامها بمظهرهم الحقيقي، لذلك تقدمنا إلى رصفائنا وبسطنا لهم الحقيقة فأجابونا إلى سؤالنا، ورضوا بالعدول عن إرسال الاحتجاج. ولما قابلنا المسيو غوسن بعد ذلك قال:

«بعثت إلى حكومتي بأن إرسلان لا يمثل الجالية، وأنه يجب أن نعتمد في شؤونها عليك».

فقلنا له «إننا عازمون على خدمة وطننا بإخلاص، وإننا مستعدون للتفاهم مع فرنسا في كل شيء لا يؤثر في جوهر الاستقلال، ونحن نحب فرنسا، ولكننا نحب وطننا فوق فرنسا وفوق كل دولة أخرى».

فأظهر ارتياحه إلى كلامنا وقال إنه لم يسمع سورياً يتكلم بهذه الجرأة قبل الآن، وهنأنا على صراحتنا وجرأتنا.

دعانا السفير بعد هذا وقال لنا «إن حكومة فرنسا قد عيّنت لك راتباً سنوياً».

فأجبناه بالحرف الواحد «لا أريد أن أكون قط تحت جميل الحكومة الفرنسية»، ولما كان حديثنا بالإنكليزية نثبته هنا بحرفه وهو كما يأتي:

I don’t want to be under any obligation to the French Government.

فبهت لأنه لم يتوقع سماع هذا الجواب، ولكنه أجابني جواباً شريفاً وهو بحرفه: «إن فرنسا لا تريد أن تشتري ضمائر البشر». وهو بالإنكليزية كما يأتي:

France does not want to buy people’s consciences.

كان هذا الحديث آخر علاقتنا الودية مع المسيو غوسن!

[4]

لم يكن مجيء إرسلان إلى السفارة الفرنسية وادعاؤه النيابة عن الجوالي السورية في أميركا الجنوبية عبثاً، لأن المعقول أن يدعي النيابة عن جالية الأرجنتين فقط، وإن كان هذا الادعاء كاذباً فإطلاقه النيابة عن أميركا الجنوبية سببه ما يأتي:

في أثناء حديثنا مع المسيو غوسن الذي استغرق نحواً من ساعتين على ما تقدم بيانه، سألنا سعادته ما إذا كان هناك جمعية سورية سياسية في بونس آيرس، فأجبناه سلباً ولكننا أسررنا إليه أن هنالك جميعة سورية سياسية منتشرة في أنحاء شتى، وأن لها في العالم الجديد مركزين رئيسيين أحدهما في نيويورك لأميركا الشمالية، والآخر في بونس أيرس لأميركا الجنوبية وعهدة أعمالها ملقاة علينا وبعض الأصدقاء، وغرض الجمعية تحرير سوريا من نير الأتراك وإحراز استقلالها. ولقد لبثت تعمل في السر لأسباب عديدة، منها عدم إيقاع الضرر في الوطن بأقرباء أعضائها لأن الأتراك إذا دروا بالجمعية وأعضائها فتكوا بأقربائهم في الوطن بلا مشاحة ومنها اتقاء الخيانة بقدر الإمكان، فإذا أمكننا الاتفاق مع حكومة فرنسا على الاستقلال الحقيقي، وكنا على ثقة من مناصرتها التامة، فنحن مستعدون للاتفاق معها على طريق تضمن استقلالنا ومصلحتها في وقت واحد، ويمكن سعادة السفير أن يكون واثقاً من تأييد جمعياتنا في أميركا الجنوبية كلها، وما أقوله له الآن بطريقة خصوصية يمكنني أن أعيده عليه عند اللزوم بطريقة رسمية.

كانت نتيجة هذا الحديث وبعضه سريّ محض على ما تقدم بيانه تصريح الأمير أمين إرسلان في السفارة باسم الجوالي السورية في أميركا الجنوبية كلها أن السوريين يطلبون حماية فرنسا، وزاد على ما تقدم صفة نيابية أخرى له وهي صفة زعامة الدروز، لأنه تكلم بصفته نائباً عن الجوالي المذكورة وزعيماً للدروز في لبنان وسوريا!

من البديهي أن مصلحة السفير تقضي بتأييد رجل يطلب الحماية لا تأييد رجل يطلب الاستقلال، ونحن على ثقة من أنه لو أصاخ السفير سمعاً إلى نصيحتنا وبسط لحكومته رغائب الطبقة الراقية من السوريين ضارباً بترهات شكري غانم وأمين إرسلان عرض الحائط،

وجرت الحكومة معنا ومع أحرار السوريين على الخطة التي اقترحناها لكانت وفرت ألوفاً من الملايين التي أنفقتها بعد ذلك جزافاً في تحقيق أمنية عقيمة لا يمكن تحقيقها، ووفّرت أيضاً دماً غزيرة أهرقت من الفرنسويين والسوريين. ولكن لما لم تكن دولة لها جيوش ومدافع نظيرنا، ولم نكن متزلفين لها كما فعل غانم وإرسلان، جرت على خطتها المعروفة التي كانت عاقبتها شؤماً عليها وعلينا.

لما شعرت السفارة الفرنسية في بونس أيرس بالشلل الذي أصابها من وراء استمساكها بالمير أمين إرسلان، وشعر الأمير بنفور الجالية منه، وأنها لا تريد أن تجعل ظهرها سلماً لمَآربه الذاتية ومطامعه الشخصية قدح زناد فكره وابتكر طريقة لطلب حماية فرنسا، وهي أن يبعث ببيان من عنده إلى المستر ولسن رئيس جمهورية الولايات المتحدة، فدبّج بياناً طويلاً قتل فيه نفسه جهداً ليبرهن للرئيس أن سوريا لا تصلح قط للاستقلال، بل إنها بالغة أدنى دركات الهمجية وأن الاستقلال أعظم نكبة يمكن أن تصيبنا. فإذا قبضنا على أزمة أحكامنا وتولينا شؤوننا بأنفسنا، قمنا بعضنا على بعض وذبح منا الفريق الواحد الفريق الآخر وجرت الدماء أنهاراً، لذلك يتوسل سعادة الأمير إلى رئيس جمهورية الولايات المتحدة أن يشفق علينا ويرد بلية الاستقلال عنا!

دفع إرسلان هذا البيان إلى المستر سميثون سفير الولايات المتحدة في بونس أيرس ورجاه أن يبعث به إلى حكومته، وظل هذا البيان طي حجب الخفاء بضعة أشهر دون أن يدري به أحد سوى سفير فرنسا، وعلّة ذلك أنه لو درت به الجالية لطيرت على جناح البرق تكذيباً لترهات إرسلان، وكان من مصلحة السفارة أيضاً أن يبقى هذا البيان سرياً لأنها لم ترد أن تنهال برقيات الاعتراض عليه، ويذهب الغرض الذي لأجله حاك الأمير هذا البيان في مصنعه.

بدأ بعد ذلك إرسلان مناوراته السياسية بعد أن وضع خطتها بالاتفاق مع شكري غانم، وكان لا يزال غانم حينئذٍ في أوج مجده وبرج سعده يأمر بما يشاء وينهي عما يشاء. وكانت الخطة العامة حينئذٍ أن تكون الخطوة الأولى إرسال برقيات تعترف بغانم نائباً عن السوريين وأن يدعي مرسلها أنه نائب عن الجالية مهما كان في هذا الادعاء من الهزء والسخرية، من ذلك أن أحد أفراد جالية دكر بعث في ذلك العهد برقية إلى غانم بالنيابة عن الجالية ينيبه فيها عنها.

ومن الغريب أن أمثال هذه النيابة كانت تدفع إلى المسيو كليمنصو رئيس مؤتمر الصلح ليؤيد بها أمام المؤتمر مزاعم وتعلق السوريين بها.

في هذا الحين بلغت سياسة الترويج الفرنسية إباءها وهي المعروفة بالبروبوغانده، فكانت الحكومة الفرنسية تجري معاشات سنوية وشهرية على الجرائد بحساب وبدون حساب وتغدق على عبيدها النعم، فعيّنت لعبدها الأمير أمين إرسلان راتباً سنوياً قدره ثمانية عشر ألف فرنك وأسرّ الأمير إلى بعض المقربين منه أنها وعدته بمنصب خطير. وما فعلته في الأرجنتين فعلته في سائر الجوالي فجرى تيار عنيف سطحي في مصلحة فرنسا، خيّل معه إلى المشاهد أنه سوف يجرف كل ما يقف في طريقه من العوائق، وقامت الجرائد المأجورة تطبّل وتزمر للاحتلال وأطلقها كبار العبيد على كبار الأحرار، فتطاولت على شخصياتهم ونهشت أعراضهم وأمطرتهم وابلاً من السباب والشتيمة والبذاءة والسفاهة، فوجم الأحرار على كثرتهم ولزموا الصمت، ورأى فريق ممّن أصبحوا بعد ذلك زعماء أحزاب استقلالية الانحياز إلى فرنسا حتى يكون لهم شرف العبودية الأول، ولا يخسرون النفوذ المأمول عن يد الدولة الجديدة التي كانت قد احتلت حينئذٍ لبنان، وأهله ينثرون على رؤوس ضباطها وجنودها الأزهار، وشعراؤنا يتبارون في نظم القصائد والأشعار، فاقتم جو السياسة وأصاب العاملين شلل عام، حتى أن أخلص الذين كانوا يمشون معنا على سطح الماء شرعوا يشكون في الوطن ويغرقون الواحد تلو الآخر، ولما التفتنا إلى الوراء لنرى من بقي معنا لم نرَ أحداً!

في ذلك اليوم العصيب، خرجنا وحدنا إلى ساحة النضال صائحين من كان لفرنسا فليتبع فرنسا ومن كان للوطن فليتبعنا!

وأرسلنا الكتاب المفتوح الذي نشرناه في العدد الفائت نداءً خارجاً من أعماق قلبنا. أنزلنا مرساتنا الأخيرة بعد أن قطعنا سائر مراسينا، وأطلقنا مدفعنا الأخير بعد أن فرغت ذخيرتنا!

كان هذا الكتاب أشبه بقنبلة انفجرت وسط جالية راقدة رقاد السبات أو الموت، فأيقظها من خمولها وجرى فيها جريان تيّار كهربائي في الأعصاب، فأنعش آمالها الذابلة وأحيا قواها الخاملة، وأخذت طبقتها الراقية وكبار رجالها يتواردون على إدارة «المجلة» يهنئوننا بالكتاب المذكور، حتى الأفراد الذين كان بيننا وبينهم تباعد نابذين الشؤون الشخصية في سبيل

المصلحة العامة، وانهالت الرسائل البرقية والبريدية من سائر أنحاء الجمهورية الفضية وسواها تشكر لنا جهادنا في سبيل الوطن، وتؤيدنا في ما نرمي إليه من مطامح الاستقلال. وقدم فريق من المتفانين في خدمة الوطن أنفسهم رجالاً فدائيين للقيام بأي عمل تدعو إليه حياة الوطن ولو أوردهم القيام به حتفهم!

أجل: إن الإيمان الذي ينقل الجبال حرّك أخيراً جبلاً كبيراً، فنشطت الهمم لإنشاء الأحزاب السياسية والجمعيات الاستقلالية، فأنشأنا الحزب الديمقراطي الوطني، وهو أول حزب سياسي سوري أنشئ في المهجر لاستقلال سوريا، ولقد أقبل على الانخراط فيه فريق من جلّة تجار الجالية ووجهائها وكبار رجالها، ولقد قام بأعمال جليلة في سبيل الغرض المقدّس الذي أنشئ لأجله.

[5]

في ذلك الزمان كان غانم في أوج مجده تؤيده الحكومة الفرنسية تأييداً مطلقاً وتجري عليه المال نهراً متدفقاً، ولقد بلغ جملة ما أنفقته على اللجنة السورية المركزية السيئة الطالع خمسة ملايين فرنك!

في ذلك الزمان كانت وظيفة كل سفير إفرنسي حمل الجالية السورية الكائنة ضمن دائرة اختصاصه على أن تبعث برسائل برقية إلى المسيو شكري غانم تنيبه فيها عن نفسها أمام مؤتمر الصلح، وكانت وظيفة عبيد فرنسا أن يأتمروا بأمر غانم وإلا عدّوا عبيداً آبقين.

في ذلك الزمان، كان غانم يصدر أوامره إلى الفزاعات التي أنشأها لتنفيذ أغراضه، قائلاً ما يجب أن تفعل وما يجب أن تقول، وكان السعيد منها من وردها كتاب بتوقيع غانم نفسه، وكان لغانم حينئذٍ أمناء أسرار ومعاونون.

في ذلك الزمان وقف المشعوذ أمين إرسلان في بونس أيرس وقفة المشعوذ شكري غانم في باريس زاعماً أن صفة القنصلية التي كانت له يوماً، والتي كانت أعظم نكبة نكبت بها الجالية تخوّله حق التكلم باسم السوريين لأنهم كانوا سابقاً من رعايا الدولة التي خانها، والتي كان من سوء طالعها أن يكون هو أحد موظفيها.

في ذلك الزمان كان الخائن إرسلان يصيح بملء شدقيه أننا لا نصلح لشيء، وكان عاملاً على تأييد غانم بكل وسيلة ممكنة كانت أو غير ممكنة، وباذلاً أقصى ما يبلغه الجهد لظهور غانم أمام مؤتمر الصلح بمظهر الرجل الممثل لسوريا عن بكرة أبيها.

في ذلك الزمان، ضرب الله حكومة فرنسا بالعمى والعمه معاً فلم تحسن اختيار الرجال، فانتقت شكري غانم لأنه يوماً ما ترجم رواية عنتر. وانتقت أمين إرسلان لأنه يوما ما كان قنصلاً. وإذا كان هنالك رجل أجمعت جالية الأرجنتين على كرهه ومقته فهو أمين إرسلان. وكما تحاول الآن إرغامنا على حبها بالسيف والمدفع، كذلك حاولت حنيئذٍ إرغامنا على حب غانم وإرسلان بالقوة الجبرية.

في ذلك الزمان، ضرب الله حكومة فرنسا بالجنون أيضاً جرياً على المثل اللاتيني القديم «إذا أرادت الآلهة إهلاك أحد ضربته أولاً بالجنون»، فزعمت أن بضعة أشخاص أقامتهم فزاعات في باريس يمكن حسبانهم ممثلين لسوريا، وأنها يتاح لها بواسطتهم إقناع مؤتمر الصلح أن السوريين يطلبونها عن بكرة أبيهم، وأن في وسعها إرهابنا وسائر أحرار السوريين بالجلبة والضجيج تغطية السموات بالقبوات وحجب نور الشمس بالأكف. في ذلك الزمان، كان يحمل غانم تلغرافات العبيد إلى كليمنصو، وكليمنصو يحملها بدوره إلى مؤتمر الصلح، ويعرضها عليه بذلك العقم السياسي الباهر الذي لا نظير له في العالم.

وفي ذلك الزمان، قلبنا مركبة تفاحهم على ما في التعبير الإنكليزي، وخرّبنا عش فسادهم على ما في التعبير العربي، فطيّرنا إلى مؤتمر الصلح ولويد جورج والرئيس ولسن بصفتنا رئيساً للحزب الديموقراطي الوطني احتجاجات على ادعاء غانم الباطل تمثيل السوريين، وطلبنا الاستقلال التام المطلق وحتى يكون المؤتمر وولسن ولويد على ثقة من أن صوتنا صوت الشعب، رجوناهم أن يبعثوا لجنة مختلطة إلى سوريا لتقف على رغائب أهلها وترى بأم عينها ما يريد السوريون.

وردنا على أثر ذلك نبأ سري من باريس أن مصلحة التلغراف بناء على أوامر صادرة إليها من مصدر سام أخفت تلغرافاتنا، وأنها لا توزع قط أنباء برقية ضد مصلحة فرنسا في سوريا، لذلك بعثنا بتلغرافات إلى وزير خارجية بريطانيا في لندن. أثبتنا فيها الرسائل البرقية السابقة التي أرسلناها إلى مؤتمر الصلح ولويد جورج ورجوناه أن يبلغها إلى أصحابها، وبعثنا مثلها إلى سفير الولايات المتحدة في لندن ورجوناه تبليغها إلى المؤتمر ومستر ولسن لأننا لسنا على ثقة من وصولها. وأرسلنا بتلغرافات نثبت فيها التلغرافات السابقة إلى جريدة «التايمس» و«الدايلي تلغراف» و«المورتنغ بوسط» و«الدايلي نيوز»، وإثبات تلغراف في العرف السياسي أو التجاري يعني تكرار تلغراف أرسل سابقاً. فلما ورد هذا الإثبات المستر ولسن بواسطة السفارة ولويد جورج بواسطة وزارة الخارجية دون أن يصلهما الأصل، لوحظ أن في إدارة البرق الفرنسية خللاً، فكان من وراء ذلك وأمثاله مما جرى لسوانا أن الحكومة الفرنسية اضطرت إلى التحقيق، فأسفر كل ذلك عن اكتشاف مئات من الرسائل البرقية أخفتها مصلحة التلغراف

وتلاعبت بها، فكانت النتيجة عزل موظفين كثيرين من المصلحة المذكورة، وهي سُنة العالم التي بموجبها يذهب الموظف الصغير ضحية للموظف الكبير، وقد نشرت ذلك الأنباء البرقية في حينه، أحدثت هذه المسألة دوياً كبيراً، ومن أجل أمثال هذه الطرق المعوجة عوّل مؤتمر الصلح حينئذٍ على نقل مركزه من باريس إلى بلاد على الحياد.

مصادر الكتاب

كتابات في الأرجنتين – فظائع الحرب

– **خطب لبنان وسوريا** [1]

«المجلة»، العدد الرابع والعشرون، السنة الأولى، بونس أيرس، في 1 حزيران سنة 1916.

– **خطب لبنان وسوريا** [2]

«المجلة»، الجزء الثاني، السنة الثانية، بونس أيرس في 1 تموز سنة 1916.

– **خطب لبنان وسوريا** [3]

«المجلة»، الجزء الثالث، السنة الثانية، بونس أيرس في 15 تموز سنة 1916.

– **خطب لبنان وسوريا** [4]

«المجلة»، الجزء الثامن، السنة الثانية، بونس أيرس، في 1 تشرين الأول سنة 1916.

– **نكبة لبنان وسوريا**

«المجلة»، الجزء التاسع، السنة الثانية، بونس أيرس في 15 تشرين الأول، سنة 1916.

من الجامعة السورية إلى الجالية

– **تأسيس الجامعة**

«المجلة»، الجزء الحادي عشر، السنة الثانية، بونس أيرس في 15 تشرين الثاني سنة 1916.

– **نداء إلى الجالية** [1]

«المجلة»، العدد السادس، السنة الاولى، بونس أيرس في 1 أيلول 1915.

– **حال الوطن والإعانات المالية، كتاب الرسالة الأميركية إلى صاحب المجلة**

«المجلة»، الجزء الثالث، السنة الثانية، بونس أيرس في 15 تموز سنة 1916.

– **نداء إلى الجالية** [2]

«المجلة»، الجزء السادس عشر، السنة الثانية، بونس أيرس في 1 شباط سنة 1917.

– **نداء إلى الجالية** [3]

«المجلة»، الجزء السابع عشر، السنة الثانية في 15 شباط سنة 1917.

– **الجامعة السورية**

«المجلة»، الجزء التاسع عشر، السنة الثانية، بونس أيرس في 15 آذار سنة 1917.

– **نداء إلى الجالية** [4]

«المجلة»، السنة الرابعة، الجزء الحادي عشر، بونس أيرس في 15 تشرين الثاني سنة 1918.

كلمات وخطب وردود

– **إلى المشتركين الكرام**

«المجلة»، العدد الرابع، السنة الأولى، بونس أيرس في 1 آب سنة 1915.

– **كلمة في احتفال الجالية لإغاثة منكوبي الوطن**

«المجلة»، الجزء التاسع، السنة الثانية، بونس أيرس في 15 تشرين الأول سنة 1916.

– **خطاب صاحب المجلة**

«المجلة»، الجزء السادس، السنة الثالثة، بونس أيرس في 15 أيلول سنة 1917.

– **كلمة في احتفال جمعية «الاتحاد اللبناني»**

«المجلة»، الجزء الثامن، السنة الرابعة، بونس أيرس، في 1 تشرين الأول، 1918.

– **كتاب مفتوح إلى السوريين واللبنانيين والفلسطينيين**

نشر هذا الكتاب المفتوح في «المجلة»، السنة الرابعة، الجزء العاشر، في 15 تشرين الثاني سنة 1918، ثم أعاد الدكتور سعاده نشره بعد تنقيحه في «الجريدة»، السنة الثانية، العدد 57، سان باولو في 10 كانون الاول سنة 1921 مع الملاحظة التالية: «ومنه يرى المطالع أن المؤتمر السوري– الفلسطيني الذي انعقد في جنيف وسليمان كنعان مندوب لبنان قد جروا في قراراتهم على ما جاء في هذا الكتاب».

– **بسط وإيضاح**

«المجلة»، الجزء الخامس عشر، السنة الرابعة، بونس أيرس في 15 كانون الثاني 1919.

– كلمة في افتتاح المؤتمر الأول للحزب الديمقراطي الوطني

– من الحزب الديمقراطي الوطني إلى السوريين واللبنانيين والفلسطينيين في المهاجر والوطن

«المجلة»، الجزء التاسع عشر، السنة الرابعة، بونس أيرس في 15 آذار سنة 1919.

– رد على القنصل الفرنسي في بونس أيرس

جريدة «السلام» بونس أيرس، العدد 2620، في 16 نيسان 1920، ص 4.

– كتاب مفتوح إلى المعتمد الفرنساوي في تشيلي

جريدة «الشبيبة»، السنة الثالثة، العدد 132، سانتياغو، تشيلي، في 22 تشرين الثاني سنة 1919.

«المجلة»: الحرب الكبرى وتطور المسألة السورية

– فجر السنة الثانية للمجلة

«المجلة»، الجزء الأول، السنة الثانية، بونس أيرس في 15 حزيران سنة 1916.

– السنة الثالثة للمجلة

«المجلة»، الجزء الأول، السنة الثالثة، بونس أيرس، في 15 حزيران سنة 1917.

– السنة الرابعة للمجلة

«المجلة»، الجزء الأول، السنة الرابعة، بونس أيرس في 15 حزيران سنة 1918.

– تحرير سوريا ولبنان

«المجلة»، الجزء التاسع، السنة الرابعة، بونس أيرس، في 15 تشرين الأول سنة 1918.

– على ضريح الدولة العثمانية (شعر منثور)

«المجلة»، السنة الرابعة الجزء العاشر، بونس أيرس في 1 تشرين الثاني سنة 1918.

– تطوّر المسألة السورية

«المجلة»، الجزء التاسع عشر، السنة الرابعة، بونس أيرس، في 15 آذار سنة 1919.

– جهادنا في سبيل الاستقلال

«المجلة»، الجزء 23، السنة الرابعة، بونس أيرس في 15 أيار سنة 1919.

كتابات في البرازيل
سلسلة سورية وفرنسا ومؤتمر الصلح

– [1] **في أوائل حرب الأمم**

«الجريدة»، السنة الأولى، العدد 2، سان باولو، في 12 آب 1920.

– [2] **سلة المهملات**

«الجريدة»، السنة الأولى، العدد 3، سان باولو، في 21 آب 1920.

– [3] **قصاصتا ورق**

«الجريدة»، السنة الأولى، العدد 4، سان باولو، في 2 أيلول 1920.

– [4] **أمام رقعة الشطرنج**

«الجريدة»، السنة الاولى، العدد 5، سان باولو، في 9 أيلول 1920.

– [5] **ثلاث سياسات في ثلاث سنين**

«الجريدة»، السنة الاولى، العدد 6، سان باولو، في 16 أيلول 1920.

– [6] **بروز فيصل**

«الجريدة»، السنة الأولى، العدد 7، سان باولو، في 23 أيلول 1920.

– [7] **في المركب الشراعي**

«الجريدة»، السنة الأولى، العدد 8، سان باولو، في 30 أيلول 1920.

– [8] **جرائد المهاجر تدير الرأي العام في سوريا**

«الجريدة»، السنة الاولى، العدد 9، سان باولو، في 15 تشرين الأول 1920.

– [9] **من الملوم: أوزارة الخارجية أم الجمعية المركزية**

«الجريدة»، السنة الاولى، العدد 10، سان باولو، في 21 تشرين الأول 1920.

– [10] **الساحر في مدينة مسحورة**

«الجريدة»، السنة الأولى، العدد 11، سان باولو، في 28 تشرين الأول 1920.

– [11] **إقتراحنا والمناداة باستقلال سورية**

«الجريدة»، السنة الأولى، العدد 12، سان باولو، في 11 تشرين الثاني 1920.

– [12] **سورية ولبنان في مجلس الأمة الفرنسية**

«الجريدة»، السنة الأولى، العدد 13، سان باولو، في 18 تشرين الثاني 1920.

– [13] **ميلران يحاول تبرير نفسه**

«الجريدة»، السنة الأولى، العدد 14، سان باولو، في 25 تشرين الثاني 1920.

– [14] **الساسة العميان**

«الجريدة»، السنة الأولى، العدد 15، سان باولو، في 2 كانون الأول 1920.

– [15] **اكتشاف طرق أخرى لتعمير البلدان غير ذبح السكان**

«الجريدة»، السنة الأولى، العدد 16، سان باولو، في 16 كانون الأول 1920.

– [16] **القوة أساس احترام الإستقلال**

«الجريدة»، السنة الأولى، العدد 17، سان باولو، في 23 كانون الأول 1920.

– [17] **المذابح اللبنانية**

«الجريدة»، السنة الأولى، العدد 18، سان باولو، في 13 كانون الثاني 1921.

– [18] **مسؤولية فرنسا في المذابح اللبنانية**

«الجريدة»، السنة الاولى، العدد 19، سان باولو، في 20 كانون الثاني 1921.

– [19] **عواقب المذابح اللبنانية**

«الجريدة»، السنة الاولى، العدد 20، سان باولو، في 2 شباط 1921.

– [20] **أتعس مظاهر فرنسا في الشرق**

«الجريدة»، السنة الاولى، العدد 21، سان باولو، في 17 شباط 1921.

– [21] **إجماع السوريين على كره فرنسا**

«الجريدة»، السنة الأولى، العدد 22، سان باولو، في 10 آذار 1921.

– [22] **مؤتمر سان ريمو**

«الجريدة»، السنة الأولى، العدد 23، سان باولو، في 9 نيسان 1921.

– [23] **تساقط صناديق الكرتون**

«الجريدة»، السنة الاولى، العدد 24، سان باولو، في 16 نيسان 1921.

– [24] **نتيجة مؤتمر سان ريمو**

«الجريدة»، السنة الاولى، العدد 25، سان باولو، في 23 نيسان 1921.

– [25] **إكتشاف الشرق**

«الجريدة»، السنة الأولى، العدد 26، سان باولو، في 30 نيسان 1921.

– [26] **بين التاج والوصاية**

«الجريدة»، السنة الاولى، العدد 27، سان باولو، في 7 أيار 1921.

– [27] **النمر تتحفز للوثوب**

«الجريدة»، السنة الاولى، العدد 28، سان باولو، في 14 أيار 1921.

– [28] **الدسائس لإغتيال فيصل**

«الجريدة»، السنة الاولى، العدد 29، سان باولو، في 21 أيار 1921.

– [29] **فيصل يشعر بالخطر على حياته**

«الجريدة»، السنة الاولى، العدد 30، سان باولو، في 28 أيار 1921.

– [30] **أسباب الهجوم الفجائي**

«الجريدة»، السنة الاولى، العدد 31، سان باولو، في 4 حزيران 1921.

– [31] **السوريون تجاه الإنذار النهائي**

«الجريدة»، السنة الاولى، العدد 32، سان باولو، في 11 حزيران 1921.

– [32] **المؤتمر السوري يلغي قرار فيصل**

«الجريدة»، السنة الاولى، العدد 33، سان باولو، في 18 حزيران 1921.

– [33] **ثورة دمشق**

«الجريدة»، السنة الاولى، العدد 34، سان باولو، في 25 حزيران 1921.

– [34] **خيانة فرنسا**

المصدر: «الجريدة»، السنة الاولى، العدد 35، سان باولو، في 2 تموز 1921.

– [35] **الزحف على دمشق**

«الجريدة»، السنة الاولى، سان باولو، في 9 تموز 1921.

– [36] **نموذج من تقاليد فرنسا الكريمة**

«الجريدة»، السنة الاولى، العدد 37، سان باولو، في 16 تموز 1921.

– [37] **عقم سياسة فرنسا**

«الجريدة»، السنة الاولى، العدد 38، سان باولو، في 23 تموز 1921.

– [38] **مكره أخاك لا بطل**

«الجريدة»، السنة الاولى، العدد 39، سان باولو، في 30 تموز 1921.

– [39] **أتراك آسيا وأتراك أوروبا**

«الجريدة»، السنة الثانية، العدد 40، سان باولو، في 6 آب 1921.

– [40] **في ميسلون**

«الجريدة»، السنة الثانية، العدد 41، سان باولو، في 13 آب 1921.

أمين ارسلان والقضية السورية

– [1] «الجريدة»، العدد 55، سان باولو، في 26 تشرين الثاني سنة 1921.
– [2] «الجريدة»، العدد 56، سان باولو، في 3 كانون الأول سنة 1921.
– [3] «الجريدة»، العدد 57، سان باولو، في 15 كانون الأول سنة 1921.
– [4] «الجريدة»، العدد 58، في 17 كانون الأول سنة 1921.
– [5] «الجريدة»، العدد 59، سان باولو، في 24 كانون الأول سنة 1921.

فهرس الأسماء

أ

أبو جمرة، سعيد: 49

ابي صعب، شكري: 50، 51، 57

الأتاسي: 330

أدي، ماري: 18

ارسطو طاليس: 52، 146، 189

إرسلان، أمين: 15، 22، 23، 29، 51-54، 57، 187، 345، 349-359، 361-363، 365

إرسلان، شكيب: 15

أرميا: 204

الإسكندر المقدوني: 183، 219

الأشقر، غسان: 12

أطلس، جورج ميخائيل: 49

أطرش: 341

أللنبي الجنرال: 21، 57، 213، 251، 266

أنطون، فرح: 16، 47

أنطونيو: 183

أنور باشا، اسماعيل: 177، 214

أورلندو: 225

ب

باز، سليم: 75

بالش، توفيق: 29، 190

بركات، داوود: 27

بريان: 274، 287

البستاني، بطرس: 46

بعلزبوب: 202، 236

بلس، هوارد: 254

بوبريك: 354

بولك: 86

ت

ترابو، جورج: 47

تولا (كولونيل فرنسي): 334

تيطس: 74

ج

جليمه: 350

جمال باشا: 67، 177، 214، 234

جيو: 257، 258-260

ح

الحاج، بدر: 58
حداد، نجيب: 49
حسين، الملك (شريف مكة): 33، 247، 248، 253، 309
الحصري، ساطع: 336

خ

خوري، شكري: 48
خير الله، طنوس: 25

د

دانا: 114–116
دايه، جان: 20، 32
دباس، شارل: 31
الدروبي، علاء الدين: 37
دريان: 87
دوكاي، روبير: 48، 49، 59، 271
ديموستين: 52، 146

ر

روسو: 41
رضا، رشيد: 27

ز

زلزل، بشارة: 31
زنوبيا: 183
الزهراوي: 27، 231
زيدان، جرجي: 46

س

ساركوزي: 11، 14
سبيرس: 57
سركيس، خليل: 18
سعاده، أدوار: 172
سعاده، أنطون: 12، 13، 15، 17، 19، 35، 42، 43، 57، 60
سعاده، خليل: 11–20، 22–43، 54–59، 138، 141، 145، 155، 172، 186، 188، 190، 195، 358، 359
السعد، حبيب: 239
سقراط: 52، 146
سمنة، جورج: 29، 31
سيثمون، (سفير أميركي): 345، 362

ش

الشدياق، أحمد فارس: 46
شلتن: 88
شلر: 138

شمعون، جورج: 125
الشميل، شبلي: 14، 16، 27، 47
شيراك: 11

ص

الصائغ، خليل: 186
صروف، يعقوب: 47
صلاح الدين: 11

ط

طلعت باشا، محمد: 177، 214

ع

عبد الحميد: 321
عبد الحميد، السلطان: 27، 136، 161، 357، 358
عبيد الله أفندي: 161
عريضه، أنطون: 125، 160
عشتاروت: 182
عطيه، رشيد: 26، 49، 54، 156
العظم، حقي: 27، 37، 57
العظم، رفيق: 27
العظمه، يوسف: 330، 342

غ

غانم، شكري: 20، 21، 29، 30، 48، 53، 57، 169، 236، 237، 241، 244، 254، 284، 362، 365، 366
غاسون: 289
غلبوني، نجيب إسطفان: 49
غورو باشا: 11، 17، 34، 36، 37، 45، 46، 50، 57، 59، 263، 266، 270، 280، 282، 284، 285، 287، 295، 305، 317-322، 324، 326-336، 338-342
غوسن: 23، 50، 53، 54، 187، 350-352، 355، 357، 359، 361
غولد: 134
غويسيردي: 48

ف

فانديك: 13
فرحات، الشاعر: 15
فوش: 57
فولتير: 51
فيصل: 33، 34، 37، 56، 168، 179، 226، 241، 247، 249-252، 254-256، 258، 262-265، 268، 282، 283، 285، 289-292، 294، 296، 303، 310، 311، 313، 316-324، 326، 328-336، 338، 339، 341-344

ق

قربان، جورج أفندي: 79، 102

القروي، الشاعر: 15

ك

كارتر، رسل: 97، 114، 115

كارليل: 145

كاشين، مارسيل: 271، 275، 276، 280، 283، 286–288

كرزون: 318، 319

كاوديل: 21

كليو باترا: 13، 183

كليمنصو: 34، 169، 179، 193، 194، 224–226، 240، 242، 243، 256، 263، 264، 275، 287، 292، 303، 313، 316، 317، 320، 341، 343، 365، 368

كمال باشا، مصطفى: 328

كوس، (كولونيل فرنسي): 334، 335، 336

ل

لنايل: 389

لوبون، غوستاف: 41

لورنس: 249، 250، 311

لوك: 51

لويد جورج: 57، 179، 225، 226، 229، 239، 242، 243، 250–252، 262–264، 292، 310–312، 315، 316، 320، 368

لويس الرابع عشر: 265

لويس السدس عشر: 17

م

مجاعص، سليم: 43

مجدلاني، جبرائيل: 70، 186

مجدلاني، ميخائيل: 70

محمد: 200، 250

مردم بك، جميل: 57

مرغوليوث: 311

مسرة، جورج: 49

المعلم، يوسف: 186

المعلوف، عيسى اسكندر: 46

مكماهون: 84

منرفا: 191

موته، ماريوس: 277

مورغنثو: 78

موسى: 200

مولخ: 192

تامؤيد، شفيق: 27، 83

ميلران، الكسندر: 274، 275، 277–280، 283، 287، 312، 315

ن

نابليون: 193، 261

نجار، إبراهيم، 27

نصير، نايفة: 13

نلسن: 86

نميس: 191

نيرون: 189، 194، 221، 222

هـ

الهاني، يوسف: 74

همام، جرجس: 102

هولويغ، بتمان: 241

و

واكيم، فرنسيس: 87

وشنطن: 173، 268

ولسن: 32، 33، 53، 55، 57، 69، 81-84، 86، 91، 92، 100، 101، 146، 173، 174، 175، 179، 186، 224، 225، 229، 238-240، 243، 251، 256، 263، 347، 364، 368

ي

اليازجي، إبراهيم: 58

اليازجي، ناصيف: 13

يافث، باسيلا: 80

يافث، نعمه: 21، 29، 31، 80، 81، 116، 167-169

يسوع المسيح: 178، 180، 181، 200

يوليوس قيصر: 13، 18